سلمان رشدي

سنتان وثمانية شهور وثمان وعشرون ليلة

ترجمة

خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

سلمان رشدي:

سنتان وثمانية شهور وثمان وعشرون ليلة

سلمان رشدي

سنتان وثمانية شهور وثمان وعشرون ليلة

ترجمة

خالد الجبيلي

منشورات الجمل

سلمان رشدي: سنتان وثمانية شهور وثمان وعشرون ليلة
ترجمة: خالد الجبيلي
الطبعة الأولى ٢٠١٧

تلفون وفاكس: ٢٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٢٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

أبناء ابن رشد

على الرغم من أن الكثير كُتب عنها، فإنه لا يُعرف عنها إلا النزر اليسير، وأقصد هنا طبيعة الجان الحقيقية. تلك الكائنات المخلوقة من نار بلا دخان. وسواء أكانت تلك المخلوقات طيبة أم شرّيرة، من طبيعة شيطانية أم ملائكية، فلا تزال هذه الأسئلة مطروحة بقوة. ويجمع الكثيرون على أنها تتمتع بالصفات التالية: متقلبة المزاج، نزاوتية، فاسقة، يمكنها الانتقال بسرعة كبيرة، وتغيير حجمها وشكلها، وإذا أرادت فإنها تستطيع أن تلبي أمنيات ورغبات الرجال والنساء من الإنس، أو أنها تُجبر على القيام بذلك، ويختلف إحساسها بالزمن اختلافاً جذرياً عن زمن البشر. ويجب عدم الخلط بينها وبين الملائكة، مع أن بعض القصص القديمة تروي خطأً بأن الشيطان نفسه، إبليس، الملاك الساقط، ابن الصباح، هو الجان الأعظم. ولا تزال الأماكن التي يمكث فيها الجان موضع جدل منذ أمد بعيد. إذ تحكي بعض القصص القديمة، زوراً وبهتاناً، بأن الجان يعيشون بين ظهرانينا على سطح الكرة الأرضية التي تسمّى «العالم السفلي»، وفي الخرائب ومقالب القمامة غير الصحّية، وفي المقابر، وفي بيوت الخلاء، وفي المجاري، وأحياناً في المزابل. واستناداً إلى هذه الحكايات غير الصحيحة، يتعين علينا أن نغتسل ونتطهر جيداً بعد أيّ اتصال يحدث بيننا وبين الجان، لأنها قذرة

وقد تنقل إلينا أمراضاً معينة. وقد أكد كبار المفسرين منذ زمن بعيد على صحة ما نعرفه الآن وهو: أن الجان يعيشون في عالم خاص بهم، وأن حجاباً يفصل عالمهم عن عالمنا، وأنه يطلق على عالمهم هذا اسم «العالم العلوي» ويدعى أحياناً «بيريستان» أو «أرض الجان» الواسعة الأرجاء، مع أن طبيعتهم لا تزال خفية علينا.

إن القول بأن الجان لا ينتمون إلى البشر قد يكون قول ما هو واضح وجلي، لكن البشر يشاركون تلك المخلوقات الخيالية بصفات محددة على الأقل. فبالنسبة إلى الإيمان مثلاً، يوجد في صفوف الجان أتباع ومؤمنون من كلّ عقيدة على وجه البسيطة، وهناك كفار تبدو لهم فكرة الآلهة والملائكة فكرة غريبة تماماً كما يبدو الجان أنفسهم غرباء بالنسبة للبشر. وعلى الرغم من وجود الكثير من الجان العديمي الأخلاق، فإن بعض هذه الكائنات القوية، على الأقل، تميّز بين الخير والشر، بين الصالح والطالح.

وهناك جان يطيرون كالطيور، وهناك جان يزحفون على الأرض في هيئة الأفاعي، وآخرون ينبحون ويكشرون عن أنيابهم في شكل كلاب عملاقة. وهناك جان في البحر وفي الجو أيضاً تتخذ شكل التنين. ولا يستطيع بعض الجان الأقل مرتبة، عندما يكونون على الأرض، المحافظة على شكلهم لفترات طويلة. وتتسلل هذه المخلوقات العديمة الشكل أحياناً إلى داخل أجساد البشر من الأذنين أو من فتحتي الأنف أو العينين وتحتلّ الأجساد التي تتسلل إليها لفترة من الزمن، ثم تغادرها عندما تملّ منها. لكن للأسف، لا تبقى تلك الكائنات البشرية على قيد الحياة، بل تموت.

أما الجنيات، فإنهن أكثر غموضاً، بل حتى أكثر دهاء، ويصعب

إدراكهن والإمساك بهن، لأنهن نساء ظلّ خُلقن من دخان بلا نار. وهناك جنيات متوحشات، وجنيات لطيفات محبوبات، لكن ربما كان هذان النوعان من الجنيات ينتميان إلى النوع ذاته ـ فقد يهدّئ الحب من غلواء روح متوحشة، وقد يُستثار مخلوق محبّ من معاملة حبيبه السيئة فيصبح همجياً ومتوحشاً إلى حد أن البشر لا يستطيعون فهم ذلك.

ها هنا حكاية جنيّة، أميرة عظيمة تنتمي إلى معشر الجان، تُعرف باسم «أميرة البرق» لأنها تتحكم بالصواعق وبالبرق وبالرعد، أُغرمت برجل من الإنس منذ أمد بعيد، في القرن الثاني عشر، كما تقول الحكاية، وتروي الحكاية أيضاً عن أحفادها الكثيرين، وعن عودتها إلى العالم بعد غياب طويل لتقع في الحبّ مرة أخرى، على الأقل للحظة، ثم تذهب إلى الحرب. وهي أيضاً حكاية عدد كبير من الجان الآخرين، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، وسواء أكانوا يطيرون أم يزحفون، طيبين أم أشراراً لا يلقون بالاً للأخلاق؛ وتحكي القصة عن زمن الأزمات، الزمن الذي ندعوه زمن الغرابة الذي دام سنتين وثمانية شهور وثماني وعشرين ليلة، أي ألف ليلة وليلة. نعم، لقد عشنا ألف سنة أخرى منذ تلك الأيام، لكننا تغيّرنا جميعاً مع مرور ذلك الوقت. وسواء أكان ذلك التغيير نحو الأفضل أم الأسوأ، فإننا نترك ذلك لمستقبلنا حتى يقرره.

في عام ١١٩٥م، أدين الفيلسوف العظيم ابن رشد الذي كان قاضي إشبيلية، والذي أصبح مؤخراً الطبيب الشخصي للخليفة أبي يوسف يعقوب في قرطبة، مسقط رأسه، ولُوِّثت سمعته بسبب أفكاره التحرّرية التي لم تجد قبولاً لدى البربر المتعصّبين الذين بدأت شوكتهم تزداد وأخذوا ينتشرون كالوباء في أرجاء الأندلس. ونُفيَ ابن رشد إلى قرية

صغيرة خارج مسقط رأسه تدعى اليُسَانَة، وهي قرية معظم سكانها من اليهود الذين لم يعد بإمكانهم القول بأنهم كانوا يهوداً لأن المرابطين، الأسرة الحاكمة السابقة في الأندلس، كانوا قد أجبروهم على اعتناق الإسلام. وعلى الفور شعر ابن رشد، الفيلسوف الذي لم يعد يُسمح له بشرح فلسفته والذي حُظرت جميع كتاباته وأُحرقت كتبه، بالراحة للعيش مع أهالي اليُسَانَة. كان ابن رشد الفيلسوف الأثير لدى خليفة الأسرة الحاكمة الحالية، الموحدين، لكن الزمن قد ينقلب على الأشخاص الأثيرين، فسمح أبو يوسف للمتعصّبين أن يطردوا شارح أرسطو العظيم من المدينة.

عاش الفيلسوف الذي لم يعد يُسمح له بشرح فلسفته في بيت متواضع ذي نوافذ صغيرة في زقاق ضيّق غير معبّد، وقد سبب له عدم وجود ضوء كاف ضيقاً شديداً. وأقام ابن رشد عيادة طبية في اليُسَانَة، وتوافد عليه المرضى بسبب سمعته ومنزلته كالطبيب السابق للخليفة. واستخدم كلّ ما يملكه من مال في ممارسة تجارة الخيول على نحو متواضع، وعمل في صناعة الجرار الفخارية الضخمة التي كان اليهود الذين لم يعودوا يهوداً، يخزنون فيها زيت الزيتون والنبيذ ويبيعونها. وفي أحد الأيام، بعد بدء منفاه بفترة وجيزة، ظهرت أمام باب داره فتاة، ربما كانت في صيفها السادس عشر، ترتسم على وجهها ابتسامة لطيفة، لم تطرق باب أفكاره أو تتطفّل عليه، بل وقفت هناك تنتظر بأناة حتى أدرك وجودها فدعاها إلى بيته. وقالت له إنها أصبحت يتيمة منذ فترة غير بعيدة، وقالت إنه لا يوجد لديها مصدر رزق، وأنها لا تريد أن تعمل في المبغى. وقالت له أيضاً إن اسمها دنيا، وهو اسم لا يبدو اسماً يهودياً لأنه لا يُسمح لها بأن تذكر اسمها اليهودي. وبما أنها أمّية، فلا تستطيع كتابة اسمها. وقالت له إن أحد الرحالة العابرين اقترح تسميتها

بهذا الاسم الذي أصله من اليونانية ويعني «العالم»، وقد أعجبها هذا الاسم كثيراً. ولم يجادلها ابن رشد، مفسّر وشارح أعمال أرسطو، لأنه يعرف أن اسمها يعني «العالم» بلغات تكفي جعل التحذلق في مناقشته أمراً غير ضروري. ثم سألها «لماذا سميتِ نفسك باسم العالم؟» فأجابت دون أن ترفع عينيها عن عينيه، «لأن عالَماً سيتدفق منّي، والذين سيتدفّقون منّي سينتشرون في أرجاء العالم».

ولما كان رجلاً يؤمن بالعقل، فلم يخطر بباله أنها مخلوقة تنتمي إلى عالم ما وراء الطبيعة، جنّية، تنتمي إلى قبيلة الجنيات، أميرة مرموقة من تلك القبيلة، وقد جاءت لتخوض مغامرة دنيوية، ولتفرض سحرها على الرجال من الإنس بصورة عامة، وعلى الرجال الأذكياء البارزين بصورة خاصة. دعاها للدخول إلى كوخه كمربية وحبيبة، وفي هدأة الليل همست في أذنه اسمها الحقيقي ـ أي اسمها اليهودي الزائف، وكان ذلك سرّهما. كانت دنيا الجنّية ولوداً على نحو يثير الدهشة كما ذكرت نبوءة لها. وفي السنتين والثمانية أشهر وثمان وعشرين يوماً وليلة التي أعقبت ذلك، حملت ثلاث مرات، وفي كلّ مرة كانت تنجب عدة أطفال، لا يقل عددهم عن سبعة أطفال في كلّ ولادة تلدها، كما يبدو، وفي إحدى المرات، أنجبت أحد عشر طفلاً، أو ربما تسعة عشر، مع أن السجلات غير واضحة وليست دقيقة. وورث الأطفال كلهم أجمل قسمات وجهها وأكثرها تميّزاً وهي أنهم ولدوا من دون شحمة أذن.

لو كان ابن رشد على معرفة جيدة بأسرار الجان لأدرك أن أطفاله ينتمون إلى نسل أمّ ليست من البشر، لكنه كان منهمكاً في أعماله، فلم يتح له الوقت الكافي للتفكير في هذا الأمر. (لعلنا نعتبر أن من حسن حظه، ومن حسن حظ تاريخنا برمته، أن دنيا أُغرمت به لذكائه الحاد ولطبعه الذي ربما كان يتسم بأنانية شديدة لا يمكنها أن تلهم الحبّ من

تلقاء نفسها). وخشي الفيلسوف الذي لم يعد يستطيع نشر آرائه الفلسفية أن يرث منه أطفاله الصفات الحزينة التي تشكل كنزه ولعنته. فقد دأب على القول: «إن كونك نحيفاً، بعيد النظر، طليق اللسان، يعني أنك مرهف الحسّ، ترى بوضوح شديد، وتتحدث بحرية كبيرة. أن تكون ضعيفاً أمام العالم عندما يرى العالم نفسه أنه منيع. وأن تفهم قدرته على التغيير في حين يرى نفسه غير قابل للتغيير. أن تحسّ بما هو قادم قبل أن يحسّ الآخرون بذلك. أن تعرف أن المستقبل البربري يحطم بوابات الحاضر بينما يتشبث الآخرون بالماضي المتخلف، الفارغ. إن كان أطفالنا محظوظين فلن يرثوا إلاّ أذنيك، لكن للأسف، بما أنهم أولادي على نحو لا يدعو للشك، فمن الممكن أنهم سيفكرون كثيراً جداً في وقت مبكر جداً، ويسمعون في وقت مبكر جداً، بما في ذلك الأشياء التي لا يُسمح بالتفكّير فيها أو سماعها».

«احكِ لي قصّة»، كانت دنيا تطلب منه غالباً عندما يأويان إلى الفراش في أيام عيشهما الأولى. لكنه سرعان ما اكتشف بأنها، بالرغم من شبابها الظاهر، امرأة تسأل أسئلة كثيرة وتتشبث بآرائها، سواء في الفراش أم خارجه. وعلى الرغم من أنه كان رجلاً ضخماً، وهي مثل طير صغير أو حشرة عصوية، فقد كان يشعر غالباً بأنها هي الأقوى. كانت بهجة شيخوخته، لكنها كانت تطلب منه ما لا طاقة له على القيام به. ففي سنّه، فإن كلّ ما يريد أن يفعله في الفراش هو أن يخلد إلى النوم، لكن دنيا كانت ترى رغبته في النوم إهانة لها. ودأبت على القول له: «لو سهرتَ الليل كله، لشعرتَ براحة أكبر مما لو أمضيتَه وأنت تشخر لساعات مثل ثور. هذا أمر معروف». أما في سنّه، فليس من السهل دائماً أن تدخل في الحالة المطلوبة لممارسة العمل الجنسي، لا سيما في ليال متتاليات، لكنها كانت ترى أن الصعوبات التي يواجهها

بسبب شيخوخته إنما هي إثبات على طبيعته غير المحبّة. «لو وجدتَ امرأة جذّابة فلن تكون هناك مشكلة على الإطلاق»، قالت له، «لا يهم كم ليلة تضاجعها مرة بعد مرة. أما أنا، فإني مهتاجة دائماً، وأستطيع أن أظل كذلك إلى الأبد. ليس عندي نقطة توقف».

أراحه الاكتشاف أن بإمكانه إطفاء لهيب شهوتها برواية الحكايات لها. «احكِ لي قصّة»، كانت تقول وتتكور تحت ذراعه فيضع يده على رأسها ويداعبها، ويقول لنفسه، حسناً، لقد أفلتُّ من الصنارة هذه الليلة؛ ويحكي لها، شيئاً فشيئاً، قصّة عقله. كان يستخدم كلمات وعبارات يجدها العديد من معاصريه صادمة وهي: «العقل» و«المنطق» و«العلم» التي تشكل أعمدة فكره الثلاثة، وهي الأفكار التي أفضت إلى إحراق كتبه. كانت دنيا تخاف من هذه الكلمات، لكن خوفها هذا كان يزيدها إثارة، فتزداد التصاقاً به وتقول: «ضع يدك على رأسي عندما تملأه بأكاذيبك».

كان يشعر بجرح حزين عميق لأنه كان يرى نفسه رجلاً مهزوماً، خسر معركة حياته أمام رجل دين فارسي متوف، يدعى الغزالي من مدينة طوس، توفى قبل خمس وثمانين سنة. فقد ألّف الغزالي قبل مائة سنة كتاباً بعنوان «تهافت الفلاسفة»، هاجم فيه فلاسفة إغريقيين من قبيل أرسطو، وأتباع أفلاطون مثل ابن سينا والفارابي اللذين عاشا قبل ابن رشد. ففي إحدى المراحل عانى الغزالي من أزمة إيمان، لكنه عاد ليصبّ جام غضبه على الفلسفة في تاريخ العالم. فقد قال ساخراً إن الفلسفة عاجزة عن إثبات وجود الله، أو حتى إثبات استحالة وجود إلهين. فلسفة تؤمن بحتمية وجود الأسباب والمسبَّبات الأمر الذي ينتقص من قدرة الله القادر على التدخّل بسهولة لتغيير المسبَّبات وإبطال مفعول الأسباب إذا شاء.

«ماذا يحدث»، سأل ابن رشد دنيا عندما غلفّتهما هدأة الليل بالصمت، وأصبح بوسعهما التحدث عن الأمور المحرّمة، «عندما يُقرب عود ثقاب مشتعل من قطعة قطن؟»

«يشتعل القطن بالطبع»، أجابت.

«ولماذا يشتعل؟»

فقالت: لأن الأمر هكذا. إذ تمسك النار بالقطن، ويصبح القطن جزءاً من النار، هكذا تسير الأمور».

فقال: «قانون الطبيعة. للأسباب مسبَبَاتها»، وهزت رأسها القابع تحت يده المداعبة.

«لكنه لم يقبل ذلك» قال ابن راشد، وعرفت أنه يقصد خصمه الغزالي الذي هزمه، «وقال إن القطن اشتعل لأن الله يريد ذلك، لأن في كون الله، فإن القانون الوحيد هو ما يشاء الله أن يحدث».

«إذن لو أراد الله أن يطفئ النار في القطن، لو شاء أن تصبح النار جزءاً من القطن، لكان بقدرته عمل ذلك؟»

فقال ابن رشد: «نعم. واستناداً إلى كتاب الغزالي، فإن بمقدرة الله أن يفعل ذلك».

فكّرت قليلاً، ثم قالت أخيراً: «هذا أمر سخيف». حتى في الظلام، أحسّت بالابتسامة المستسلمة، الابتسامة التي تشي بالتهكم والألم، التي انتشرت على وجهه الملتحي، ثم أجاب، «يقول إن هذا هو الإيمان الحقيقي، وأن عدم الإيمان بذلك يعني هرطقة».

فقالت: «في هذه الحالة، يمكن أن يحدث أيّ شيء إذا قرّر الله ذلك. فمن الممكن مثلاً ألاّ تلمس قدما أمرئ الأرض ـ ويمكنه أن يمشي في الهواء».

فقال ابن رشد: «إن المعجزة هي أن الله يستطيع أن يغيّر القواعد التي يريد، وإذا لم نفهمها نحن البشر، فإن ذلك لأن الله يفوق الوصف، أي أنه يتجاوز إدراكنا».

صمتت مرة أخرى، ثم قالت بعد فترة طويلة من الصمت: «افترض أنني أفترض أن الله غير موجود. افترض أنك تجعلني أفترض بأن «العقل» و «المنطق» و«العلم» تمتلك سحراً يجعل وجود الله أمراً غير ضروري، هل يمكن للمرء الافتراض أنه من الممكن أن يفترض شيئاً كهذا؟» أحسّت بجسمه يتصلّب. اعتراه الخوف الآن من كلماتها، قالت لنفسها، وقد سرّها ذلك على نحو غريب. «لا»، قال، بقسوة شديدة، «سيكون ذلك حقاً افتراضاً سخيفاً».

لقد ألّف كتابه «تهافت التهافت» الذي رد فيه على الغزالي بعد مائة سنة، وعلى بعد ألف ميل، لكن بالرغم من عنوانه النزق، فلم يكن تأثير هذا العالم الفارسي المتوفى قد تلاشى، وفي النهاية، فقد وُصم ابن رشد، وأُحرق كتابه فالتهمت النيران صفحاته لأن الله شاء ذلك في تلك اللحظة التي سمح فيها للنار عمل ذلك. وحاول في جميع كتاباته التوفيق بين عبارات «العقل» و «المنطق» و«العلم» مع عبارات «الله» و «الإيمان» و «القرآن»، لكنه لم يفلح، مع أنه استخدم بدقّة جدال الرحمة، واستشهد بالقرآن بأن الله موجود لأنه خلق حديقة المسرّات الدنيوية وقدمها للبشر (*وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة*). وكانت حجّة الرحمة تثبت وجود الله وجوهر طبيعته التي تتسم بالرحمة والتسامح، لكن المتعصبين الأكثر قسوة هزموه. وها هو الآن يرقد، أو هكذا خيّل إليه، إلى جانب يهودية كانت قد اعتنقت الإسلام، كان قد أنقذها من المبغى يبدو أنها قادرة على أن ترى داخل أحلامه، حيث جادل الغزالي بلغة لا تقبل المساومة، بلغة مليئة بالإخلاص والصدق، ستقوده إلى الموت إذا استخدمها في اليقظة.

بعد أن امتلأت دنيا بالأطفال ثم أفرغتهم في البيت الصغير، لم يعد ثمة مجال متسع «لأكاذيب ابن رشد المحرّمة». وخبت اللحظات الحميمية بينهما، وأصبحت النقود مشكلة. «إن الرجل الحقيقي يواجه نتائج أعماله»، قالت له، «خاصة الرجل الذي يؤمن بالأسباب والمسبّبات». لكنه لم يكن يجيد جمع المال. فقد كانت تجارة الخيول غادرة ومليئة بالغشاشين، ولم تكن تدر أرباحاً كثيرة. وكان يواجه الكثير من المنافسين في سوق الجرار والفخاريات فانخفضت الأسعار. «اطلب من مرضاك أن يدفعوا مبالغ أكبر»، قالت غاضبة، «يجب أن تستغل سمعتك السابقة، حتى لو أنها لوّثت. فماذا لديك غيرها؟ لا يكفي أن تكون وحشاً في إنجاب الأطفال. إنك تنجب الأطفال، وعندما يأتي الأطفال، يجب أن توفر الغذاء للأطفال. هذا هو «المنطق»، هذا هو الشيء «العقلاني». كانت تعرف ما هي الكلمات التي يمكنها أن توجهها ضده وتجعلها تنقلب عليه، ثم صاحت بانتصار، «وإذا لم تفعل ذلك، فهذا هو التهافت بعينه».

(إن الجان مولعون بالأشياء البراقة وبالذهب وبالجواهر وما شابه ذلك، وغالباً ما يخبئون كنوزهم في الكهوف القابعة تحت الأرض. لماذا لم تصرخ أميرة الجنيّات «افتح يا سمسم» أمام باب أحد كهوف الكنز وتحل مشاكلهما المالية دفعة واحدة؟ لأنها اختارت أن تعيش حياة الإنس، شريكة بشرية كزوجة لأنسي، وقد قُيّدت باختيارها هذا. إن الكشف عن طبيعتها الحقيقية لحبيبها في هذه المرحلة المتأخرة من زواجهما يعني أنها ستكشف عن نوع من الخيانة أو الكذب في صميم علاقتهما. فلاذت بالصمت وخشيت أن يهجرها. لكنه هجرها في نهاية الأمر لأسباب إنسانية تخصه هو وحده).

كان هناك كتاب فارسي يدعى *هازار أفسانه*، أو *ألف قصّة*، تُرجم

إلى اللغة العربية. وفي النسخة العربية، كان هناك أقل من ألف قصّة، لكنها حُكيت على مدى أكثر من ألف ليلة، أو لأن الأرقام المدوّرة قبيحة، ألف ليلة وليلة. لم ير ابن رشد الكتاب نفسه لكن قصصاً عديدة رويت له عندما كان في قصر الخليفة، وقد أُخذ كثيراً بقصّة الصيّاد والجني، لا بسبب عناصرها الرائعة (الجني الذي يخرج من المصباح، والأسماك السحرية التي تتكلم، والأمير المسحور الذي نصفه رجل ونصفه الآخر رخام) فحسب، بل لجمالها الفني والطريقة التي تتداخل فيها القصص داخل قصص أخرى، وتضم تلك القصص أيضاً قصصاً أخرى، فأصبحت القصّة مرآة حقيقية للحياة، قال ابن رشد لنفسه، تضم جميع قصصنا وقصص الآخرين، وتُروى هي ذاتها داخل قصص وروايات أعظم وأكبر، تواريخ عائلات وأوطان وأديان ومعتقدات. بل إن الأجمل من كل تلك القصص المتداخلة في قصص أخرى، قصّة الحكواتي، التي هي هنا أميرة تدعى شهرزاد تحكي حكاياتها لزوج قاتل حتى لا يقتلها. قصص تُحكى ضد الموت لكي تحوّل رجلاً همجياً إلى رجل متمدن. وعند أسفل السرير الزوجي، كانت تجلس أخت شهرزاد، المستمعة المثالية، التي تطلب من أختها، شهر زاد، أن تحكي قصّة أخرى، ثم قصّة أخرى. وأطلق ابن رشد اسم هذه الأخت على الفتيات اللاتي أنجبتهن دنيا من بطنها، لأن الأخت، كما تصادف، تدعى دنيا زاد، «وما لدينا هنا تملأ هذا البيت الذي بلا ضوء، وتجبرني على ابتزاز مبالغ أعلى من المرضى والعجزة في اليُسَانَة، هو وصول دنيا زاد، أي قبيلة دنيا، سلالة دنيا، أمة دنيا، التي تعني «شعوب العالم».

أحسّت دنيا بإهانة شديدة، وقالت: «أتعني لأننا لم نتزوّج لا يستطيع أطفالنا أن يحملوا اسم والدهم؟» فابتسم ابتسامته الملتوية الحزينة، وقال: «من الأفضل أن تكون أسماؤهم دنيا زاد، الاسم الذي يشمل

العالم. فإذا أطلق عليهم اسم ابن رشد فهذا يعني إرسالهم إلى التاريخ وهم يحملون وصمة على جبينهن». وبدأت تتحدث عن نفسها باعتبار أنها أخت شهرزاد، تطلب دائماً حكايات جديدة، لكن شهرزادها رجل، حبيبها لا شقيقها، وقد تؤدي بعض حكاياته إلى قتلهما كليهما إذا تسربت الكلمات عرضاً من عتمة غرفة النوم. لذلك كان نوعاً ما نقيض شهرزاد، وأخبرته دنيا، النقيض التام لراوي *ألف ليلة وليلة*: فقد أنقذت حكاياتها حياتها، أما حكايته فقد عرّضت حياته للخطر. لكن الخليفة أبا يوسف يعقوب انتصر آنذاك، وحقق أعظم انتصار عسكري على ملك قشتالة النصراني، ألفونسو الثامن، في معركة الأرك على نهر يَانَة. وبعد معركة الأرك التي قتلت فيها قواته أكثر من ١٥٠٠٠٠ جندي قشتالي، أي نصف تعداد الجيش النصراني، أطلق الخليفة على نفسه اسم المنصور، وبثقة بطل منتصر، وضع حداً لصعود البربر المتعصّبين، ودعا ابن رشد إلى أن يعود إلى قصر الخليفة.

وأُزيلت وصمة العار عن جبين الفيلسوف المعروف، وأُنهي منفاه، ورُدَّ له اعتباره، وأُزيل عنه الخزي، وعاد مُكرّماً إلى منصبه القديم، طبيب القصر في قرطبة بعد سنتين وثمانية شهور وثمان وعشرين يوماً وليلة من بدء منفاه، أي ألف يوم وليلة، وبالطبع حبلت دنيا مرة أخرى، وبالطبع لم يتزوّجها، وبالطبع لم يمنح أطفالها اسمه، وبالطبع لم يحضرها معه إلى قصر الموحدين، وهكذا انسلّت من التاريخ، وأخذه معه عندما غادر، مع عباءاته، وردوده المتدفقة، ومخطوطاته، التي كان بعضها مجلداً، وظل بعضها الآخر في لفائف، ومخطوطات كتبها رجال آخرون، لأن كتبه أُحرقت، على الرغم من بقاء عدة نسخ منها، قال لها، في مدن أخرى، في مكتبات أصدقاء، وفي أماكن كان قد خبأها فيها قبل اليوم الذي نُبذ فيه، لأن الرجل الحكيم يكون مستعداً دائماً

لمجابهة المصائب والمحن، لكنه لو كان متواضعاً حقاً، لأسعفه الحظّ السعيد بغتة. وغادر دون أن يُنهي طعام فطوره أو حتى دون أن يودعها. لم تهدّده، ولم تكشف عن طبيعتها الحقيقية أو القوّة الكامنة في داخلها. لم تقل له إني أعرف ما كنت تقوله بصوت مسموع في أحلامك، عندما تفترض أشياء من الغباء افتراضها، عندما لا تحاول التوفيق بين المتناقضات، وتقول الحقيقة القاتلة الفظيعة. تركت التاريخ يغادرها من دون محاولة إيقافه، الطريقة التي يدع فيها الأطفال استعراضاً كبيراً يمرّ، يحملونه في ذاكرتهم، ويجعلونه شيئاً لا يمكن نسيانه، يجعلونه شيئاً يخصهم فقط؛ وظلت تحبّه على الرغم من هجره لها. كنتَ كل شيء بالنسبة لي، أرادت أن تقول له، كنتَ شمسي وقمري الذي سيضع يده على رأسي، ويقبّل شفتي، والذي سيكون أباً لأطفالنا، لكنه كان رجلاً عظيماً خُلق لقاعات وأروقة الخالدين، وما هؤلاء الذين يزعقون إلا أطفال كان قد تركهم في صحوته.

في أحد الأيام، همهمت للفيلسوف الغائب وقالت: بعد أن تموت بفترة طويلة فإنك ستبلغ اللحظة التي تريد أن تستعيد فيها أسرتك، وفي تلك اللحظة، سألبي لك، أنا زوجتك الروحية، أمنيتك، مع أنك حطمت فؤادي.

يُعتقد أنها ظلت تعيش مع الإنس لفترة من الزمن، ربما كانت تأمل ضد الأمل حتى يعود، ويُعتقد أنه ظلّ يرسل لها نقوداً، ولعله كان يزورها بين الحين والآخر، وأنها تخلّت عن العمل في تجارة الخيول لكنها استمرت في تجارة الجرار والفخاريات، أما الآن، وبعد أن غربت عن بيتها شمس وقمر التاريخ إلى الأبد، فقد أضحت قصتها شيئاً من الظلال والألغاز، لذلك، ربما كان صحيحاً، كما يقول الناس، إنه بعد أن مات ابن رشد، عادت روحه إليها، فأنجبت له عدداً آخر من

الأطفال. وقال الناس أيضاً إن ابن رشد جلب لها مصباحاً فيه جني، وأن الجني هو والد الأطفال الذين ولدوا بعد أن هجرها ـ لذلك نرى كيف أن الإشاعة تقلب الأمور رأساً على عقب بسهولة، وقالوا أيضاً، بدرجة أقل من اللطف، إن المرأة التي هجرها كانت تقبل أيّ رجل يستطيع أن يسدد عنها ثمن الإيجار، وأن كلّ رجل كانت تأخذه، كان ينجب منها ذرية أخرى، لذلك، لم تعد دنيا زاد، نسل دنيا، لقيطة من أسرة ابن رشد، أو بعضها، أو الكثير منها، أو معظمها، لأن قصّة حياتها أصبحت في عيون معظم الناس، سطراً من التأتأة، تذوب حروفه في أشكال لا معنى لها، عاجزة عن الكشف كم سنة عاشت، أو كيف، أو أين، أو مع من، أو متى وكيف ـ أو إن كانت قد ماتت.

لم يلحظ أو يكترث أحد بأنها عادت ذات يوم بطريقة ملتوية وانسلّت عبر شقّ في العالم وعادت إلى بيريستان، الحقيقة الأخرى، عالم الأحلام الذي يخرج منه الجان أحياناً لإزعاج البشرية أو لمباركتها. وقد بدا أنها ذابت في نظر القرويين في اليُسَانَة وتلاشت إلى دخان بلا نار. بعد أن غادرت دنيا عالمنا، قلّ عدد القادمين من عالم الجان إلى عالمنا، ثم، لفترة طويلة، توقّفوا عن المجيء تماماً، ونمت فوق شقوق العالم أعشاب لا يمكن تخيّلها وشجيرات أشواك مملة، حتى سُدَّت المنافذ تماماً، وتركوا أسلافنا يفعلون أفضل ما بوسعهم بدون مزايا أو لعنات السحر.

أما أطفال دنيا فقد ترعرعوا وكبروا. هذا كل ما يمكن أن يقال. فبعد حوالي ثلاثمائة سنة، عندما طُرد اليهود من إسبانيا، حتى اليهود الذين لم يكن باستطاعتهم أن يذكروا أنهم كانوا يهوداً، وصعد أطفال دنيا إلى السفن في قادس وبالوس دي موجوير، أو ساروا عبر جبال البيرنيه، أو طاروا على بسط سحرية، أو في جرار عملاقة، كما يفعل أقرانهم

الجان، وعبروا القارات، وأبحروا البحار السبعة، وتسلّقوا جبالاً شاهقة، وسبحوا في أنهار ضخمة، وانزلقوا إلى وديان سحيقة، ووجدوا ملاذاً وأماناً حيثما أمكنهم ذلك، وكان أحدهم ينسى الآخر بسرعة، أو يتذكّر أحدهم الآخر طالما أمكنهم ذلك، ثم نسوا، أو لم ينسوا قط، وأصبحوا عائلة لم تعد عائلة بكل معنى الكلمة، قبيلة لم تعد قبيلة تماماً، تعتنق كلّ الأديان، ولا تعتنق أي دين، ويجهل العديد منهم، بعد قرون من التغيير والتحوّل، أصولهم الخارقة للطبيعة، ونسوا قصّة تحوّل اليهود بالقوة، وأصبح بعضهم متعصبين بينما أصبح بعضهم الآخر كفاراً مزدرين؛ عائلة بلا مكان، لكن لها عائلة في كلّ مكان، قرية لا مكان لها، لكنها تلفّ وتتلوى في كلّ موقع على الكرة الأرضية، مثل نباتات بلا جذور أو طحالب أو أشنات أو بساتين زاحفة، يجب أن يعتمدوا على الآخرين لأنهم لا يستطيعون الوقوف بمفردهم.

إن التاريخ لا يرحم الذين يهجرهم، وقد لا يرحم الذين يصنعونه أيضاً. فقد مات ابن رشد (ميتة طبيعية بسبب الشيخوخة، أو هكذا يخيّل إلينا) عندما كان مسافراً في مراكش بعد حوالي سنة من ردّ اعتباره، لكنه لم ير شهرته تطبق آفاق الدنيا، ولم يرها تنتشر إلى ما وراء حدود عالمه، إلى عالم الكفار حيث أضحت شروحاته لأعمال أرسطو أساس شعبية سلفه العظيم، وأصبحت الركن الأساسي لفلسفة الكفار الملحدين التي تُدعى «العلمانية» والتي تعني ذلك الضرب من الأفكار التي تأتي مرة واحدة في العمر، عمر العالم، أو ربما فكرة لجميع العصور التي هي صورة وصدى الأفكار التي لم يقلها إلا في الأحلام. ولما كان رجلاً تقياً، فقد لا يسعد بالمكانة التي منحه إياها التاريخ، لأنه قدرٌ غريب أن يصبح رجل مؤمن مصدر إلهام أفكار لا حاجة لها إلى الإيمان، ومصيرٌ أكثر غرابة حتى تنتصر فلسفة إنسان وراء حدود عالمه لكنه هزم داخل

تلك الحدود، لأنه من المعروف، في العالم، أن أولاد خصمه المتوفى الغزالي، قد تكاثروا وورثوا المملكة، في حين تركت ذريته اللقيطة التي انتشرت، اسمه المحرّم وراءها، لتسكن الأرض. وانتهى الأمر بعدد كبير ممن بقوا منهم أحياء في القارة الأمريكية الشمالية العظيمة، وعاش عدد آخر في شبه القارة الآسيوية الجنوبية العظيمة، وذلك بفضل ظاهرة «التثاقل» التي تشكل جزءاً من المنطق المبهم للتوزع العشوائي، والكثير من الذين انتشروا غرباً وجنوباً في الأمريكيتين، وشمالاً وغرباً من تلك الماسة العظيمة عند سفح آسيا، إلى جميع بلدان العالم، لأنه يمكن القول عن دنيا زاد بإنصاف إنه إلى جانب الآذان المميزة، لديهم جميعاً أقدام تحكّهم. وعلى الرغم من أن ابن رشد قد مات، لكن، كما سيتبين، فقد واصل هو وخصمه جدالهما ما وراء القبر، لأنه لا نهاية لمناقشات وجدال المفكّرين العظماء، لأن فكرة الجدال نفسها هي أداة لتطوير العقل، أحدّ وأدقّ جميع الأدوات، التي ولدت من حبّ المعرفة، والتي هي الفلسفة.

السّيد جيرونيمو

بعد ثمانمائة سنة ونيف، وعلى بعد أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل، والآن بعد أكثر من ألف سنة، هبطت عاصفة على مدينة أسلافنا كما تسقط قنبلة، فانزلقت طفولتهم إلى الماء وضاعت، وغمرت أرصفة الميناء التي بُنيت من الذكريات التي تناولوا الحلوى والبيتزا فوقها، وأرصفة الشهوة الخشبية التي كانوا يلجأون إليها لاتقاء شمس الصيف القائظة وقبّلت شفاههم لأول مرة. طارت سقوف البيوت في سماء الليل مثل طيور خفاش تائهة، فانكشفت الغرف العلوية التي خزّنوا فيها ماضيهم أمام عناصر الطبيعة حتى أصبح يبدو أنّ كلّ ما كانوا عليه ذات يوم التهمته السماء الضارية. وغرقت أسرارهم في الأقبية التي فاضت وغمرتها المياه ولم يعد بإمكانهم تذكّرها. لقد خذلتهم قواهم. وهبط الظلام.

قبل أن تُقطع الكهرباء بالكامل، عرض التلفزيون صوراً التُقطت من السماء للولب أبيض هائل يدور في الأعلى مثل سفينة فضائية غازية غريبة. ثمّ تدفق النهر وغمر محطات الكهرباء، وتساقطت الأشجار فوق أسلاك الكهرباء وسحقت حظائر المولّدات التي تعمل في حالات الطوارئ وبدأت نهاية العالم. وانقطعت بعض الحبال التي كانت تربط أسلافنا بالواقع، وعندما صرخت العناصر في آذانهم، أصبح من السهل

أن يؤمنوا بأنّ الشقوق في العالم قد فُتحت من جديد، وكُسرت الأختام وظهر سحرة في السماء، شياطين خيّالة يمتطون غيوماً تخب.

وعلى مدى ثلاثة أيام وليال، لم يتحدّث أحد لأنه لم تكن هناك إلاّ لغة العاصفة، ولم يكن أسلافنا يجيدون التحدّث بهذه اللغة الفظيعة. ثم تلاشت أخيراً، ومثل أطفال لا يرغبون في تصديق الإيمان في نهاية طفولتهم كانوا يريدون أن يظل كلّ شيء كما كان. لكن حتى النور، بدا مختلفاً الآن. فقد كان هذا النور أبيض لم يره أحد قط من قبل، متوهجاً مثل مصباح مُحقِق، لا يُلقي ظلالاً، عديم الرحمة، لا يدع مكاناً يتوارى فيه المرء. احذروا، بدا أن النور يقول: لقد جئتُ لأحرق وأحكم.

ثمّ بدأت الغرابة التي ستدوم طوال سنتين وثمانية شهور وثمان وعشرين ليلة.

هكذا نزلت علينا، بعد ألف سنة، بعد أن انصهر التاريخ بالأسطورة، بل ربما استحوذت عليه. هكذا نفكّر بها الآن، كما لو كانت ذاكرة غير معصومة، أو حلماً من الماضي السحيق. وإذا لم تكن صحيحة، أو كانت صحيحة في جزء منها، وإذا كانت قد أُقحمت قصص ملفقة إلى السجلّ، فقد فات الأوان لعمل أيّ شيء لتصحيح ذلك. هذه هي قصّة أسلافنا كما اخترنا أن نرويها، ولذلك، بالطبع، فهي قصّتنا نحن أيضاً.

وقع ذلك في يوم الأربعاء الذي أعقب العاصفة الكبرى عندما لاحظ السّيد جيرونيمو في البداية أنّ قدميه لم تعودا تلامسان الأرض. وكدأبه، فقد استيقظ قبل بزوغ الفجر بساعة، لا يكاد يتذكّر حلماً غريباً رأى فيه

شفتيْ امرأة تضغطان على صدره، تدمدمان بصوت هامس غير مسموع. كان أنفه مسدوداً، وفمه جافاً لأنه كان يتنفّس منه أثناء نومه، وكانت رقبته متشنجة لأنه اعتاد على وضع وسادات كثيرة تحت رأسه؛ وكان يشعر بحاجة إلى أن يحكّ الأكزيما على كاحله الأيسر. بصورة عامة، كان جسده يقدم له الجرعة المعتادة من حزن الصباح: بعبارة أخرى، لا يوجد شيء يمكنه أن يشتكي منه. ففي الحقيقة، كانت قدماه في حالة جيدة. كان السّيد جيرونيمو يعاني من مشكلة في قدميه منذ فترة طويلة، لكنهما كانتا لطيفتين اليوم. فقد كان يعاني أحياناً من ألم في مشطي قدميه، مع أنه كان يحرص كثيراً على ممارسة تمارين ثني إصبع قدمه، وهو ما يفعله آخر شيء في الليل قبل أن يخلد إلى النوم، وأول شيء عندما يستيقظ، وينتعل نعلين داخليين، ويصعد ويهبط الدرج على أصابع قدميه. ولا ننس أيضاً معركته مع مرض النقرس والدواء الذي يتناوله ويسبّب له الإسهال. كان الألم ينتابه بين حين وآخر، وقد تقبّل ذلك، وكان يواسي نفسه بما تعلّمه في شبابه: فقد منحتك قدماك المسطّحتان الفرصة لعدم أداء الخدمة العسكرية. كان السّيد جيرونيمو قد تخطّى سنّ أداء الخدمة العسكرية منذ فترة طويلة، لكنه كان يشعر بالراحة كلما تذكّر ذلك. والأهم من ذلك، فالنقرس مرض يصيب الملوك.

بدأ يتشكّل على عقبي قدميه مؤخراً نسيج متصدّع سميك يجب مداواته والعناية به، لكنّه كان مشغولاً ولم تتح له الفرصة لزيارة اختصاصي أمراض القدم. فهو يحتاج إلى قدميه لأنه يضطر إلى الوقوف عليهما طوال النهار. أما الآن فإن قدميه ستحصلان على يوميْ راحة، لأنه سيتوقف عن العمل في الحديقة أثناء عاصفة كهذه، وربما كانت قدماه تكافآنه في هذا الصباح فلم تزعجاه. ألقى بساقيه خارج السرير

ونهض. ثمة شيء مختلف الآن. كان يعرف جيداً ملمس ألواح الأرضية الخشبية الملساء المصقولة في غرفة نومه، لكن لسبب ما، لم يشعر بها في صباح يوم الأربعاء ذاك. أحسّ بنعومة من نوع جديد تحت قدميه، نوع من شيء مهدئ. ربما كانت قدماه خدرتين، أماتتهما الطبقة الثخينة المتشكلة على قدميه. إن رجلاً متقدماً في السن مثله لا يزال أمامه يومٌ من العمل الجسدي الشاق، لا يعبأ بهذه الأمور التافهة. رجل مثله، يتمتع ببنية جسدية قوية، يلقي عن كاهله كل تلك الترهات ويواصل يومه.

كانت الكهرباء لا تزال مقطوعة، والماء لا يزال شحيحاً، مع أن البلدية كانت قد وعدت بإعادة الماء والكهرباء في اليوم التالي. كان السّيد جيرونيمو رجلاً دقيقاً نظيفاً، أكثر ما يؤلمه ألاّ يتمكن من تنظيف أسنانه جيداً، وألاّ يستحمّ. فاستخدم قدراً قليلاً من الماء المتبقي في حوض الحمام لتنظيف المرحاض. (كان قد ملأ الحوض للاحتياط قبل بدء العاصفة). ارتدى بدلة العمل، وانتعل حذاءه الطويل، وتجاهل المصعد المتوقّف، وجازف بالخروج إلى الشوارع المهدمة. كان يقول لنفسه، بعد أن تجاوزت الستين من العمر، عندما يسترخي معظم الرجال ويجلسون ويرفعون أقدامهم، فأنا لا أزال أتمتع بالقوة والنشاط كما في السابق. وتشهد على ذلك الحياة التي اختارها بملء إرادته منذ زمن بعيد والتي أبعدته عن كنيسة والده التي يعالج فيها الناس بالمعجزات، وعن النساء الجالسات على كراسي المعوّقين اللاتي يصرخن عندما يقفن على أقدامهن لأن قوة المسيح تملكتهن، وأبعدته أيضاً عن مكتب الهندسة المعمارية الذي يديره عمّه الذي كان سيمضي فيه سنوات طويلة جالساً وراء طاولة الرسم، يرسم رؤى الرجل المحترم وخططه المليئة بالإحباطات وخيبات الأمل، وبالأشياء التي كان من الممكن أن تكون.

لقد نبذ السّيد جيرونيمو المسيح وطاولات الرسم الهندسية وانطلق إلى الهواء الطلق.

في الشاحنة الصغيرة الخضراء التي غطى لون أصفر مظلّل باللون القرمزي العبارات المكتوبة على جانبيها: *السّيد جيرونيمو*، *خبير حدائق*، *ورقم الهاتف واسم الموقع على الانترنت*، لم يشعر تحته بملمس المقعد ذي الجلد الأخضر المتشقق الذي كان ردفه الأيمن يغوص فيه بارتياح عادة. أما اليوم فلم يعد يشعر بشيء. لا بد أن ثمة شيئاً على غير ما يرام. بشكل عام، كانت قدرته على الإحساس أقلّ اليوم. شعر بالقلق. ففي عمره، وفي مجال عمله الذي اختاره، يجب أن يقلق من غدر وخيانات جسده الصغيرة التي عليه أن يتعامل معها، وأن يتفادى الخيانات الأعظم التي تنتظره. يجب أن يذهب إلى الطبيب ليجري فحصاً شاملاً، لكن ليس الآن، ليس في هذه اللحظة بالذات بعد هبوب العاصفة، لأن لدى الأطباء والمستشفيات مشاكل أكبر يتعين عليهم حلّها. وبشكل غريب، أحسّ بطراوة دواسة البنزين ودواسة الفرامل تحت قدميه وأن عليه أن يضغط عليهما بقوة أكبر في هذا الصباح. لا بد أن العاصفة قد عبثت بأرواح السيارات كما عبثت بأرواح البشر. كانت السيارات مهجورة، قانطة، ملقاة في زوايا تحت نوافذ مهشمة، وكانت هناك حافلة صفراء بائسة ملقاة على أحد جانبيها. أما الطرق الرئيسية فقد نُظّفت وأزيلت الأوساخ والأنقاض منها، وأُعيد فتح جسر جورج واشنطن أمام حركة المرور. كان ثمة شح في الوقود، لكنّه كان قد خزّن ما يحتاج إليه من الوقود، وخيّل إليه أنه سيتدبر الأمر. لقد اعتاد السّيد جيرونيمو على تخزين الوقود وأقنعة الغاز والمصابيح الكاشفة والبطانيات واللوازم الطبيّة والمؤن المعلّبة والماء في أوعية خفيفة الوزن. رجل يتوقّع حالات طارئة كهذه، ويعتمد على نسيج

المجتمع الذي بدأ يتمزق، رجل يعرف أنه يمكن استخدام الغراء الممتاز حتى تلتئم الجروح، رجل لا يؤمن بأن الطبيعة البشرية متينة البنيان. رجل يتوقّع الأسوأ، فضلاً عن أنه رجل يؤمن بالخرافات، يؤمن بالحظ السعيد، ويعرف مثلاً أنه توجد في أميركا أرواح شرّيرة تعشعش في الأشجار، لذلك يجب على المرء أن ينقر على الخشب لإبعادها، أما الأرواح التي تعشعش في الأشجار في بريطانيا (كان شديد الإعجاب بالريف البريطاني) فهي مخلوقات ودودة، لذلك، على المرء أن يلمس الخشب ليجني فوائد فضلها. إن معرفة هذه الأشياء أمر في غاية الأهمية. فلا يستطيع المرء أن يكون شديد الحذر. وإذا ابتعدت عن الله، ربما كان عليك أن تحاول أن تظل موجوداً في كتب الحظّ السعيد.

لبّى احتياجات شاحنته الصغيرة وقادها إلى الجانب الشرقي من جزيرة مانهاتن باتجاه جسر واشنطن بريدج الذي أُعيد فتحه. وضع مؤشر المذياع على محطة الأغاني القديمة .*ولّى البارحة، ولّى البارحة*، غنّى المغنون القدامى. نصيحة جيدة، قال لنفسه. وهذا ما حدث فعلاً. لن يأتي غداً أبداً بعد أن ينقضي اليوم. عاد النهر إلى مجراه الطبيعي، لكن السّيد جيرونيمو شاهد على امتداد الضفتين خراباً وطيناً أسود، ورأى ماضي المدينة قد غمره طين أسود، وبرزت مداخن القوارب الغارقة من تحت الطين الأسود، وكانت سيارات الأولدزموبيل المحطمة مرمية فوق الطين على ضفة النهر، ورأى أسراراً أحلك، والهيكل العظمي للوحش الأسطوري لنهر كيبسي، وجماجم الملاحين الإيرلنديين القتلى تسبح في الطين الأسود، وأذاع المذياع أخباراً غريبة أيضاً، فقد نهضت أسوار الحصن الهندي نيبينشسين من بين الطين الأسود، وظهر فراء التجّار الهولنديين القدامى المهترئ، وبرز الصندوق الأصلي الذي يضم الحلي الرخيصة التي لا تزيد قيمتها على ستّين غيلدراً والتي اشترى بها شخص

يدعى بيتر مينويت جزيرة من التلال من هنود اللينا‌ب، في حديقة إنوود هيل بارك، عند الطرف الشمالي من منهاتن، كما لو أن العاصفة تريد أن تقول لأسلافنا، عليكم اللعنة، ها أنا ذا أستعيد الجزيرة.

شقّ طريقه في الشوارع التي حولتها العاصفة إلى حطام باتجاه لا إنكورينزا، بيت بليس. كانت العاصفة خارج المدينة أشدّ عنفاً ووحشية، وكانت الصواعق أشبه بأعمدة هائلة ملتوية ربطت بيت لا إنكورينزا بالسماء، لم يكن النظام الذي نبّه إليه هنري جيمس إلاّ حلم الإنسان عن الكون، تفكك بتأثير قوّة الفوضى التي هي قانون الطبيعة. وكان يتدّلى فوق بوابة البيت سلك كهربائي حيّ، يقبع الموت عند طرفه. وكلما لامس السلك البوابة، انطلقت شرارات زرقاء على امتداد البوابة وأصدرت أزيزاً. صمد البيت القديم في وجه العاصفة، لكن النهر فاض على ضفتيه وارتفع مثل سمكة عملاقة كلّها طين وأسنان وابتلعت الأرض بجرعة واحدة. انحسر النهر لكنه خلّف وراءه الدمار. شعر السّيد جيرونيمو الذي أخذ ينظر إلى الحطام بأنّه حاضر في موت مخيّلته، يقف في موقع جريمة قتله بالطين الأسود السميك وخراء الماضي الذي لا يُتلف. لعله بكى. وفوق تلك المروج التي كانت موجودة قبل أيام، والتي طمرها الآن الطين الأسود الذي خلّفه فيضان نهر هدسون، وهو يذرف دموعاً قليلة، رأى الآثار المتبقية من أجمل الأعمال التي قام بها على مدى عقد من الزمان في تصميم الحديقة: أحجار لولبية تردّد صدى العصر الكيلتي الحديدي، والحديقة الغارقة التي تبزّ مثيلتها في فلوريدا، وساعة أنالمة الشمسية، النسخة المطابقة تماماً للساعة المنتصبة عند خط الطول في غرينيتش، والغابة الوردية، متاهة مينوان بحجارتها السميكة ومينوتور في قلبها، وزوايا السياج السري المخفيّة التي زالت كلها وأصبحت ركاماً تحت طين التاريخ الأسود، وجذور الأشجار

الممتدة تحت الطين الأسود مثل سواعد رجال يغرقون ـ في هذا المكان بالذات عرف السّيد جيرونيمو أنّ مشكلة جديدة خطيرة قد حلّت بقدميه. فقد سار فوق الطين لكن حذاءه لم يغص في الطين ولم يلتصق به. خطا خطوتين أو ثلاث خطوات مترددة عبر السواد، وعندما التفت إلى الوراء رأى أنّ قدميه لم تخلّفا أي أثر وراءه.

«اللعنة»، صاح بصوت عال مذعوراً. إلى أيّ عالم ألقت به العاصفة؟ فلم يكن السّيد جيرونيمو من الأشخاص الذين يخافون بسهولة لكنه ذعر عندما لم ير آثاراً لقدميه. راح يضغط فردة حذائه اليسرى بقوة، ثم فردة حذائه اليمنى، المرة تلو المرة. أخذ يقفز إلى الأعلى ويهبط بكل ما أوتي من قوة، لكن الطين ظلّ ثابتاً. هل هو سكران؟ لا، مع أنه يبالغ أحياناً في بعض الأشياء كما يفعل عادة رجل تقدم به العمر، يعيش وحيداً. ولم لا، أما هذه المرة فلم يكن الكحول هو السبب. هل هو نائم ويحلم ببيت لا إنكورينزا الذي غمره بحر من الطين؟ ربما، لكن هذا لا يبدو حلماً. هل هذا الطين هو طين في قعر نهر غير دنيوي، طين نهر وحشي لا يعرفه علماء الطين منحه لغز المياه العميقة تلك القوّة ليقاوم وزن رجل يثب فوقه؟ أم ـ ويبدو هذا منطقي أكثر، مع أنه أيضاً من أشدّ الاحتمالات رعباً ـ هل طرأ تغيير عليه؟ هل حدث انخفاض في الجاذبية الشخصية لا يمكن تفسيره؟ بحق المسيح، قال لنفسه، وتذكّر على الفور والده الذي كان يغضب أيضاً عندما يسمع أحداً يجدّف بالله، وتصوّر بأنه يوبّخه مثل طفل يقف على مسافة قدمين منه كأنه يهدّد رعيته من فوق منبره بناره وكبريته الأسبوعي، بحق المسيح! يجب أن يذهب ويفحص هاتين القدمين الآن.

وبما أن السّيد جيرونيمو رجل عملي، فلم يخطر بباله أنّ عصراً جديداً لا عقلانياً قد بدأ، عصراً إحدى مظاهره الغريبة انحراف الجاذبية

الذي وقع ضحيّة له من بين ظواهر غريبة عديدة أخرى. إن الغرائبية في روايته تفوق قدرته على الفهم. فعلى سبيل المثال، لم يستوعب أنه قد يمارس العشق مع أميرة جنّية بعد فترة قريبة. ولم يشغل تفكيره تحوّل الواقع في العالم. ولم يخلص إلى أي استنتاجات تتجاوز المحنة التي ألمت به. ولم يكن يتخيّل أن وحوشاً ـ في محيطات البحر ـ من الضخامة ما يجعلها قادرة على ابتلاع سفن في جرعة واحدة ستظهر قريباً، أو أن يظهر رجال أقوياء بمقدرتهم رفع فيلة كبيرة، أو أن يظهر في السماء فوق الأرض سحرة يسافرون في الهواء بسرعة فائقة على متن جرار طائرة تدفعها قوى سحرية. ولم يكن يتخيّل أنه قد يقع تحت هيمنة جنّية قوية وخبيثة.

بيد أنه كان منسجماً مع الطبيعة، لذلك، اعتراه قلق شديد بشأن حالته الجديدة، فمدّ يده إلى جيب سترته المهترئة ووجد ورقة مطوية، فاتورة من شركة الكهرباء. وبالرغم من أن الكهرباء مقطوعة فإن الفواتير كانت لا تزال تصرّ على تسديدها فوراً. هذا هو النظام الطبيعي للأشياء. فتح الفاتورة وبسطها فوق الطين. ثمّ وقف عليها وضغط فوقها بحذائه، ثم راح يقفز فوقها وحاول أن يدعس الفاتورة بقدميه، لكنها ظلت كما هي. مدّ يده وانتزعها فانسلّت فوراً من تحت قدميه. لم ير أي أثر لقدميه. حاول مرة أخرى، واستطاع أن يمرّر الفاتورة بسهولة من تحت حذائيه الطويلين. كانت الفجوة التي تفصله عن الأرض ضئيلة جداً. أصبح يقف الآن على ارتفاع سماكة صحيفة من الورق على الأقل من سطح الأرض. اعتدل السّيد جيرونيمو في وقفته ممسكاً بيده قطعة الورق. أشجار عملاقة كانت ملقاة ميتة من حوله، تغوص في الطين. كانت السّيدة فيلسوفة، ربّة عمله ووريثة شركة الأعلاف، الآنسة ألكساندرا بليس فارينا، تراقبه من النوافذ الواسعة في الطابق الأرضي

والدموع تسيل على وجهها الجميل الشاب، وثمة شيء آخر يتدفّق من عينيها لكنه لم يستطع أن يدرك كنهه. قد يكون خوفاً أو صدمة، بل حتى قد يكون شهوة.

حتى هذه اللحظة، كانت حياة السّيد جيرونيمو رحلة من نوع لم يعد نادراً في عالم أسلافنا المَشّائِيّ، عالم انفصل فيه الناس بسهولة عن الأماكن والمعتقدات والمجتمعات والبلدان واللغات، وعن أمور أكثر أهمية، كالشرف والأخلاق والحصافة، والحقيقة، التي قد نقول إنها ابتعدت عن الروايات الأصيلة لقصص حياتهم وأمضوا ما تبقى من أيامهم وهم يحاولون اكتشاف أو صياغة قصص مصطنعة جديدة بأنفسهم. لقد ولد باسم رافائيل هيرونيموس مانيزيس في باندرا، في بومباي، الابن غير الشرعي لكاهن كاثوليكي شديد التديّن، قبل أكثر من ستّين صيفاً من وقوع الأحداث التي سنتحدث عنها الآن، وسمّاه باسم قارة أخرى في عصر آخر من العالم، رجل (رحل منذ أمد بعيد) أصبح يبدو له أجنبياً كأنه من سكان المريخ أو من الزواحف، لكنه كان أيضاً شديد القرب منه كما يمكن للدم أن يكون. والده القسّ، الأب جيري، هو نفسه القسّ فر. أرميا دنيزا، كان بحسب وصفه «ضخم الجثة أو ابن رجل موبي بحجم حوت»، لا توجد لديه شحمة أذن، إنما لديه، للتعويض عن ذلك، خوار بوق منادٍ في الجيش اليوناني خلال الحرب ضدّ طروادة الذي كان صوته يعادل قوّة خمسين رجلاً. وكان يعمل وسيط زواج في الحيّ، وطاغية محبّاً للخير، وكان محافظاً كما يقرّ الجميع. وكان شعاره الشخصي الذي هو شعار قيصر بورجيا أيضاً (*aut Caesar aut nullus*) «إما القيصر أو لا أحد»، وبما أن الأب جيري لم يكن «لا أحد»، فلا بد أنه القيصر، وفي الواقع، فإن سلطته مطلقة إلى

حد أن أحداً لم يثر ضجة عندما خطب لنفسه سرّاً (ومعنى ذلك أن الجميع كانوا يعرفون ذلك) كاتبة اختزال ذات الوجه العابس، زلّة من شيء تُدعى ماغدا مانيزيس تبدو مثل غصين صغير هشّ بالمقارنة مع جسد الأب الذي يشبه شجرة تين هندية ضخمة. وبعد فترة وجيزة، أصبح القسّ فر. أرميا دنيزا أقل من عازب بقليل، وأصبح أباً لطفل جميل، يمكن بسهولة معرفة أنه ابنه من أذنيه المتميّزتين. «لا توجد لدى هابسبورغ ودنيز شحمة أذن»، كان يحلو للأب جيري أن يقول. «للأسف، أصبح الأشرار أباطرة» (لم يكن أولاد الشوارع الأشقياء في باندرا يعرفون شيئاً عن هابسبورغ، وكانوا يقولون إن عدم وجود شحمة أذن لرافائيل دليل على أنه رجل لا يمكن الوثوق به، دليل على الجنون، أو بعبارة أخرى، *مضطرب العقل*. لكن من الواضح، فإن هذه خرافة جاهلة، فقد كان يذهب إلى السينما كالآخرين، ويرى أن لدى المصابين باضطراب عقلي ـ المجرمين المجانين، العلماء المجانين، الأمراء المغول المجانين ـ آذاناً طبيعية تماماً).

وبحسب العادات السارية، لم يكن بالإمكان منح ابن الأب جيري اسم أبيه. فحصل على لقب أمّه. وبالنسبة للأسماء المسيحية، فقد أطلق عليه القسّ الطيب اسم رافائيل تيمّناً باسم القدّيس شفيع قرطبة بإسبانيا، وأطلق عليه اسم هيرونيموس تيمّناً باسم إيسيبيوس صوفرونيوس هيرونيموس من مدينة ستردون، المعروفة أيضاً باسم القدّيس جيروم. «رافي ـ رونيموس»، اسم القسّ الذي كان بين الفتيان الأشقياء الذين يلعبون الكريكت الفرنسية في شوارع باندرا الكاثوليكية ذات القديسين ـ القديس ليو، والقديس إليكسيو، والقديس يوسف، والقديس أندرو، والقديس يوحنا، والقديس روكويس، والقديس سيبيستيان، والقديس مارتن ـ حتى كبر وأصبح ضخماً، قوي البنية لا يجرؤ أحد على

استفزازه، أما بالنسبة لوالده، فقد كان رافائيل هيرونيموس مانيزيس الصغير. وعاش مع أمّه ماغدا في شرق باندرا، وكان يسمح له بالذهاب إلى الشطر الغربي الأكثر رقياً في أيام الأحد لينشد في جوقة الكنيسة التي يرعاها والده ويستمع إلى الموعظة التي يلقيها والده جيري دون أن يدرك نفاقه حول اللعنة النارية التي هي النتيجة الحتمية لارتكاب الخطيئة.

في الحقيقة كان للسّيد جيرونيمو ذاكرة سيّئة في الحياة التالية، لذلك، ضاعت ذكريات كثيرة عن طفولته. وظلت شذرات من ذكرى والده. فقد تذكّر أنه كان ينشد في الكنيسة. وكان السّيد جيرونيمو يعرف النزر اليسير من اللغة اللاتينية عندما كان طفلاً، وكان ينشد في عيد الميلاد الأغنية التي يجب على المؤمنين إنشادها باللغة الرومانية القديمة، وكان يلفظ w بدلاً من v كما كان يطلب منه والده *Wenite, wenite in Bethlehem. Natum widete regent angeloruin* . (*هيا تعال إلى بيت لحم. تعال وانظر إليه، لقد ولد ملك الملائكة*) والشيء الذي استرعى اهتمامه هو سِفر التكوين بالنسخة اللاتينية للإنجيل الذي دوّنه سَمِيّه القدّيس جيروم. سِفر التكوين، خاصة الفصل الأول، الآية الثالثة. «*Dixitque Deus: fiat lux. Et facta est lux*». (*وقال الله: «ليكن نور»، فصار نور. ورأى الله أن النور حسن. وفصل بين النور والظلام ليلاً*). فترجمها بلهجة بومباي (*وقال الله: سيارة إيطالية رخيصة، وصابون ماركة الحسناء للنجمة السينمائية. وكان يوجد صابون لوكس*. أرجوك يا أبي قل لي، لماذا أراد الله سيارة فيات صغيرة ولوح صابون، وأرجو أن تقول لي أيضاً، لماذا لم يذكر إلاّ الصابون؟ لماذا لم يتمكن من صنع سيارة؟ ولماذا ليست سيارة أفضل، دادي؟ ألم يكن بإمكانه أن يطلب سيارة من طراز جيسوس كرايسلر؟ لكنه أنزل عليه بكائية متوقّعة من

أرميا دنيزا، وتذكير مدوّ من جانبه الخاطئ. لا تنادني «دادي»، بل قل بابا كالآخرين، فانسلّ مبتعداً عن قبضة يد القسّ الحقودة، وراح يغنّي «*سيارة إيطالية رخيصة وصابون ماركة الحسناء للنجمة السينمائية*».

كانت تلك طفولته كلّها. كان يعرف دائماً بأنه لم يُخلق للكنيسة، لكنّه كان يحبّ الأغاني. ففي أيام الأحد، كانت تأتي إلى الكنيسة جميع فتيات القرية اللاتي كان يحبّ تصفيفة شعرهن المرفوعة إلى الأعلى وطريقة مشيتهن المتقافزة اللعوب. وكان يعلّمهن في عيد الميلاد أغنية «*انصتن إلى الملائكة المبشّرة وهي تغنّي. حبوب بيتشام هي كل ما تحتجن إليه. وإذا أردتن الذهاب إلى الجنة، فخذن جرعة من ست أو سبع حبات منها. وإذا أردتن الذهاب إلى جهنم، فتناولن العلبة اللعينة كلها أيضاً*». كانت الفتيات يحببن ذلك ويدعنه يقبّلهن خلسة على شفاههن وراء مقصورة جوقة المنشدين. وقلما كان أبوه الذي يفسّر سِفْر الرؤيا على المنبر، يضربه، وغالباً ما كان يترك فم ابنه يطلق سيل الشتائم، مدركاً أنه توجد للأبناء غير الشرعيين مشاعر بالسخط وأنه يجب أن تدعهم يعبّرون عن هذه المشاعر بأي شكل من أشكال التعبير، وبعد موت ماغدا ـ التي كانت ضحيّة للإصابة بشلل الأطفال في تلك الأيام عندما لم يكن بإمكان الجميع الحصول على لقاح «*سالك*» ـ أرسل هيرونيموس ليتعلّم على يد عمّه المهندس المعماري تشارلز في عاصمة العالم، إلاّ أن ذلك لم يفلح أيضاً. وعندما أغلق الشابّ مكتب الهندسة المعمارية الكائن في جادة غرينيتش وبدأ يعمل في تصميم الحدائق وأعمال البستنة، كتب له والده رسالة قال له فيها: إنك *لن تبلغ أيّ شيء إذا لم تلتزم بأيّ شيء*. وعندما فشل السّيد جيرونيمو في بيت لا إنكورينزا، تذكّر تحذير والده. كان الرجل العجوز يعرف ماذا يقول.

في الأفواه الأمريكية، سرعان ما تحوّل «هيرونيموس» إلى

«جيرونيمو»، وكان يجد متعة بهذا التلميح الهندي. كان ضخم البنية مثل أبيه، له يدان كبيرتان مؤهّلتان، ورقبة غليظة، وسحنة عابسة. ومن طبيعته الهندية ـ بشرته الهندية وما إلى ذلك، كان يسهل على الأمريكيين رؤية الغرب المتوحش فيه لذلك كانوا يعاملونه بالاحترام الذي يكنّونه لما تبقى من الشعوب التي أبادها الرجل الأبيض، وكان يتقبّل ذلك دون أن يوضح لهم بأنّه هندي من الهند، لذلك فإنه يعرف تاريخاً مختلفاً تماماً عن الظلم الإمبريالي، لكن كل ذلك لا يهم. ولم يكن لدى العمّ تشارلز دنيزا (قال إنه غيّر تهجئة اسم عائلته لتتوافق مع الذائقة الأميركية الإيطالية) شحمة أذن أيضاً وكان يحمل صفات العائلة بطول القامة. وكان شعره أبيض، وحاجباه أبيضين كثين، وشفتاه مكتنزتين بارزتين تبديان ابتسامة خائبة لطيفة. ولم يكن يسمح لأحد بالتحدث في السياسية في مكتبه الهندسي. وعندما أخذ جيرونيمو الذي لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين من العمر ليشاركه الشراب في حانة تديرها أسرة من جنوة روادّها رجال يرتدون ثياباً نسائية، وذكور يعملون مومسات، وأشخاص متحولون جنسياً، ولم يكن يرغب في التحدّث إلاّ عن الجنس وحبّ الرجال للرجال، مما أثار الذعر والبهجة في آن معاً لدى ابن أخيه القادم من بومباي الذي لم يتحدّث عن أمور كهذه من قبل التي ظلت بمثابة لغز بالنسبة له حتى الآن. وبما أن الأب جيري كان محافظاً جداً، فقد كان يعتبر المثلية الجنسية شيئاً لا يقبله العقل، ويقول إنها شيء لا وجود له. لكن ها هو جيرونيمو الشاب يعيش الآن في بيت عمّه المثلي جنسياً الخرب الذي يقع في ساحة سانت مارك. وكان البيت مليئاً بأصدقاء عمّه تشارلز: ستة من اللاجئين الكوبيين الذين يطلق عليهم تشارلز دنيزا، بإشارة مرحة ورافضة بيده، اسم أسرة راؤول. وكان أفراد أسرة راؤول يتواجدون في الحمّامات في ساعات غير معتادة ينتفون شعر حواجبهم

أو يحلقون شعر صدورهم وسيقانهم قبل أن ينطلقوا للبحث عن عشيق. ولم يكن جيرونيمو مانيزيس يعرف كيف يكلّمهم لكن لم تكن هناك مشكلة لأنه لم يكن لديهم اهتمام بالتكّلم معه أيضاً. وبما أنه كان ينضح دائماً وبقوة فيرومونات شخص يحبّ الجنس الآخر، كانت ترتسم باستمرار على وجوه أسرة راؤول ابتسامة صغيرة من اللامبالاة تقول يمكنك أن تقيم معنا في هذا البيت إذا كنت مضطراً إلى ذلك، لكن نرجو أن تعرف بأنه لا وجود لك بالنسبة لنا أبداً.

عندما كان جيرونيمو مانيزيس يراهم ينطلقون في الليل، كان يجد نفسه يحسدهم على لا مبالاتهم، والسهولة التي سلخوا فيها هافانا عنهم كما يسلخ ثعبان الجلد الذي لم يعد مرغوباً، ويجوبون طرقات هذه المدينة الجديدة بمفرداتهم الإنكليزية العشرة الركيكة، ويغوصون في بحر المدينة المتعددة اللغات، ويشعرون على الفور بالألفة، أو على الأقل، يضيفون غضبهم السهل الهشّ إلى كلّ الأوتاد المربّعة الأخرى في جميع الجهات المحيطة بهم، ويستعملون الحمامات العامة لخلق شعور بالانتماء. وأدرك أنه يريد أن يكون هكذا أيضاً. وشعر بأن أسرة راؤول بدأت تحسّ الآن بأنّه موجود هنا، في هذه العاصمة المفلسة، الوسخة، الخطرة، التي لا تنضب، والتي لا تُقاوم، وبأنه لن يعود إلى بلده أبداً.

وشأن العديد من غير المؤمنين، كان جيرونيمو مانيزيس يبحث عن الجنة، أما جزيرة مانهاتن فقد تكون أيّ شيء إلاّ أن تكون جنة عدن. وبعد المشاكل التي جرت في ذلك النزل الصيفي، هجر العمّ تشارلز حانة المافيا، وبعد سنة، شارك في الكرنفال الذي يقيمه المثليون جنسياً، لكنه لم يكن يشعر بالارتياح. ولم يكن في طبيعته من الأشخاص الذين يبدون احتجاجاً. وبعد أن قرأ كانديد لفولتير، أعلن أنه

يتفق مع بطل الكتاب المنتهك كثيراً: «*يجب أن يزرع حديقته*» .وقال لابن أخيه جيرونيمو ناصحاً، «امكث في البيت، اذهب إلى العمل، مارس مهنة». «هذا التضامن يعني أن تكون ناشطاً: لا أعرف». كان حذراً بطبيعته، وكان أحد أعضاء جمعية رجال الأعمال المثليين جنسياً. بعد ذلك بسنوات كان تشارلز دنيزا يتفاخر بالقول إن إد كوش كان يخاطبه عندما كان عضواً في مجلس المدينة، وقد تحدّث أمام أول منظمة علنية للمثليين الجنسيين، وكانوا في غاية التهذيب إلى حد أنهم لم يسألوا رئيس البلدية المقبل عمّا يشاع عن توجهه الجنسي. كان تشارلز يحضر بانتظام اجتماع الجمعية التي يرتدي أعضاؤها بدلات وربطات عنق، وبأسلوبه المحافظ المعهود مثل الأب جيري، شقيقه في البلد. لكنه عندما أراد المشاركة في الكرنفال ارتدى أفضل ثيابه التي يرتديها عادة يوم الأحد وانضم إلى ذلك الكرنفال المنفلت. وكان واحداً من قلة قليلة من الأشخاص المشاركين الذين يرتدون بدلة رسمية في هذا الكرنفال الجريء. ورافقه جيرونيمو الذي لم يكن مثله مثلياً جنسياً. لقد أصبحا صديقين الآن، ولم يكن من اللائق أن يترك عمّه تشارلز يذهب وحده إلى المعركة.

مضت سنوات وبدأ المكتب الهندسي يتعثّر. كانت جدران المكتب في جادة غرينيتش مبطنة بالأحلام: المباني التي لم يشيّدها تشارلز دنيزا قط والتي لن يبنيها أبداً. وفي أواخر ثمانينات القرن العشرين، اشترى صديقه مطوّر العقارات المشهور بنتو ف. إلفينبين مئة هكتار من الأراضي في منطقة بيغ غرواندنت في ساوث فورك في لونغ أيلاند ـ أُشتّق اسمها من الكلمة الهندية بيكوت وتُرجمت في ما بعد إلى بطاطا ـ وكانت هذه المساحة بحاجة إلى مئة «معماري ممتاز» لبناء بيوت فاخرة مساحة كلّ منها هكتار واحد. ووعد تشارلز بأن يمنحه هكتاراً منها ـ «طبعاً أنت

تشارلز! ماذا تظن، ألا أتذكّر أصدقائي؟» قال بنتو - لكن المشروع لم ينطلق بسبب تعقيدات في مسائل التمويل. فبهتت ابتسامة العمّ تشارلز وازداد حزناً وغماً. جاء بنتو، الأنيق، ذو الشعر البني الناعم، المولع بارتداء ربطات عنق ملونة، الجذاب، سليل عائلة هوليودية مرموقة. وكان يتمتع بدرجة عالية من الذكاء، وكان يحب الاستشهاد بنظرية ثورستين فيبلين «الطبقة المرفهة» بسخرية مرّة بابتسامته الهوليودية التي لا تفارق شفتيه، والتي تشبه ابتسامة شخص يدعى جو إي براون، وهو رجل رائع يمتلئ فمه بصف من الأسنان البيضاء البراقة التي ورثها من أمّه التي كانت تمثّل مع تشارلي شابلن. قال لجيرونيمو مانيزيس: «إن الطبقة المرفهة التي تعرف أيضاً باسم طبقة أصحاب الأراضي التي يعتمد عليها عملي، هم الصيّادون لا الحاصدون، الذين يعملون بأساليب استغلالية لا أخلاقية، ولا يسلكون الطرق المستقيمة. ولكي أشقّ طريقي، فعليّ أن أعامل الأغنياء على أنهم رجال طيبون، أسود، صانعو ثروات، أوصياء على الحرية، ومن الطبيعي ألاّ أتوانى عن القيام بذلك لأنني أنا أيضاً رجل استغلالي وأريد أيضاً أن أعتبر نفسي شخصاً نزيهاً مستقيماً».

كان بنتو يتفاخر بأنه يحمل شيئاً من اسم الفيلسوف سبينوزا، وكان يحلو له أن يقول: «بحسب ترجمتي أنا، سأكون باروك أيفوري. وكان من الأفضل لو ظللت أعمل في السينما. لكن هذا ما حدث. وهنا في أمستردام الجديدة، فإني أفتخر بأن أكون سميّ بنيديتو دي سبينوزا، اليهودي البرتغالي من أمستردام القديمة، الذي أستمّد منه عقلانيتي المعروفة، بالإضافة إلى معرفتي بأن العقل والجسد هما شيء واحد، وأن ديكارت أخطأ عندما فصل أحدهما عن الآخر. إنس الروح. لا يوجد شبح كهذا في الآلة. إن ما يحدث لعقلنا يحدث لجسدنا أيضاً.

حالة الجسد هي أيضاً حالة العقل. تذكّر هذا جيداً. وقال سبينوزا إنه يوجد جسد لله أيضاً، وأن عقل الله وجسده هما واحد، مثلنا تماماً. وبسبب هذا النوع من التفكير المتمرد، طردوه وألقوا به خارج المجتمع اليهودي، وفي أمستردام، أصدروا قراراً بتكفيره. وتلقّف الكاثوليك هذه الفكرة وأدرجوا كتابه الخالد «الأخلاقيات» في قائمة «دليل الكتب المحرّمة». هذا لا يعني أنه لم يكن محقاً. فقد استلهم أفكاره من أفكار الفيلسوف العربي الأندلسي ابن رشد الذي تعرّض لمعاملة قاسية أيضاً، وهذا لا يعني أيضاً أنه كان مخطئاً. وبالمناسبة، فإني أرى أن نظرية سبينوزا عن اتحاد الجسد والعقل تنطبق على الدول الوطنية. إذ إن الهيئة السياسية والذين يقبعون في غرفة التحكم لا ينفصل أحدهم عن الآخر. لا بد أنك تتذكّر فيلم وودي ألن حيث ترسل العناصر الفعالة في الدماغ الحيوانات المنوية المتشحة بأردية بيضاء لتؤدي عملها على أكمل وجه عندما يستعدّ الجسد لممارسة العشق. هنا ينطبق الشيء نفسه».

كانت لدى بنتو بناية في جادة بارك أفنيو ساوث، وفي معظم الأيام، كان يتناول طعام غدائه في مطعم أرضيته مكسوة بخشب البلوط. وفي بعض الأحيان، كان يدعو جيرونيمو مانيزيس إلى هذا المطعم ليتحدّثا عن وقائع الحياة، وقال له: «إني أفضّل شخصاً مثلك، اجتُثّ من جذوره ولم تعد لديه جذور. ثورشتاين الخامس الذي يدعى *الغريب ذو القدمين المضطربتين*: 'ناشر السلام الثقافي، ولكي يصبح رجلاً مثقفاً جوّالاً، كان يجوب في أرجاء أرض الثقافة المحايدة يبحث عن مكان آخر يجد فيه الراحة والأمان، في مكان بعيد، مكان في أعلى الأفق.' هل تظن أن هذا ينطبق عليك؟ أم أنك، كما أظن، تبحث عن مكان مريح قريب من البيت؟ ليس فوق قوس قزح بل في صحبة، بصراحة، ابنتي الجميلة؟ ألا تبحث عن إيلا حتى تكفّ عن التجوال في أماكن

بعيدة؟ مرساتك، ألا تريدها أن تكون هكذا بالنسبة لك، لتجعل قدميك يسيران بيسر وسهولة؟ إنها لا تزال طفلة، وقد بلغت الحادية والعشرين في شهر آذار (مارس) الماضي، وأنت تكبرها بحوالي أربع عشرة سنة. لا أقول إن هذا أمراً سيئاً. فأنا رجل عملي. وفي جميع الأحوال، فإن أميرتي تحصل عادة على ما تريد، لذلك دع القرار لها، موافق؟» فهزّ جيرونيمو مانيزيس رأسه، ولم يعرف ماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك. «إذاً، كفى»، قال إلفينبين، كاشفاً عن ابتسامته المعروفة التي تشبه الابتسامات التي يوزعها أهالي بيفرلي هيلز. «جرّب نعل دوفر».

في ذلك الشتاء، قال العمّ تشارلز فجأة إنه يريد أن يسافر إلى الهند ورافقه جيرونيمو. وبعد سنوات عديدة من الانقطاع عن مسقط رأسيهما، صُدما عندما رأيا أنها أضحت مدينة غريبة عليهما، فقد هبطت «مومباي» من الفضاء واستقرّت فوق بومباي التي يتذكّرانها. بيد أن شيئاً من ضاحية باندرا لا يزال ينبض بحيوية فيها، روحها ومبانيها. وكان الأب جيري أيضاً لا يزال في صحة جيدة بالرغم من أنه ناهز الثمانين، وكانت النساء في رعيته الهائمات به لا يزلن يتحلّقن حوله مع أنه ربما لم يعد قادراً على أداء الشيء الكثير من أجلهن. ومع مضي السنوات، أصبح مزاج الكاهن العجوز عكراً، وفقد الكثير من وزنه، وخفت صوته، وقصرت قامته. «أنا في غاية السعادة يا رافائيل لأنني عشت في زماني ولم أعش في هذا الزمان»، قال عندما كانوا يتناولون الطعام في المطعم الصيني، «ففي زماني لم يكن أحد يجرؤ على القول بأنني لا أنتمي إلى سكان بومباي الحقيقيين، أو أنني هندي أصلي، لكنهم يقولون ذلك الآن». عندما سمع جيرونيمو مانيزيس اسمه الأصلي بعد هذه الفترة الطويلة، انتابته وخزة إحساس بالغربة، إحساس بأنه لم يعد جزءاً من نفسه، وأدرك أيضاً بأن الأب جيري الذي كان يغرف حساء تشاو مين بالدجاج

كما لو كان عشاءه الأخير، يشعر بالغربة أيضاً. ففي مومباي الجديدة، بعد خدمة عمر كامل، أصبح رجلاً زائفاً، معزولاً من عضوية بلاده كلها، من مدينته، من نفسه، بسبب تصاعد عقيدة الهندوتا المتطرّفة. «سأحكي الآن قصّة عائلية لم أحكها لك من قبل»، قال الأب جيري، ثم أضاف، «لم أحكها لك لأنني كنت أظن خطأً بأنك لا تنتمي حقاً إلى العائلة، لذلك فإني أطلب منك أن تغفر لي». إن طلب المغفرة بالنسبة للأب جيري كان بمثابة صاعقة، دليل آخر على أن المكان الذي عاد إليه جيرونيمو مانيزيس لم يعد نفس المكان الذي غادره الشاب رافائيل مانيزيس منذ سنوات عديدة، بينما بدت الآن هذه القصّة العائلية التي لم تُحك من قبل، لأذن جيرونيمو مانيزيس المتأمركة، المشوشة، غير هامة، حكاية يقال إنها تعود إلى أصول قديمة في إسبانيا في القرن الثاني عشر، حول تغيير الدين والنفي والزيجات المختلطة والرحيل والأطفال غير الشرعيين والجان، وحول أمّ أسطورية اسمها دنيا، مصنع لإنجاب الأطفال، قد تكون أخت شهرزاد، أو ربما كانت جنيّة لم تخرج من قنينة أو من مصباح يُفرك» وأب فيلسوف، *أفيروس* (استخدم الأب جيري الاسم الغربي لابن رشد، فاستحضر في مخيّلة جيرونيمو، بشكل عفوي، وجه بنتو إلفينشتاين وهو يستشهد بفقرات من سبينوزا).

«لديّ مشكلة صغيرة مع مدرسة ابن رشد، المدرسة الفكرية المنحرفة التي أسسها طبيب قرطبة»، هدر الأب جيري، وضرب الطاولة بعنف بعصبيته القديمة المعهودة، «حتى في العصور الوسطى، كانت تلك المدرسة تعتبر مرادفة للإلحاد. لكن إذا كانت قصّة دنيا، الجنيّة، الولودة، ذات الشعر البني الغامق حقيقية، وإذا كان الطبيب القرطبي قد بذر حقاً بذرته في حديقتها، فنحن إذاً أولاد ذريته اللقطاء، 'دنيازاد' التي لعلها ظهرت خلال القرون باسم 'دنيزا'، واللعنة التي أنزلها علينا جميعاً

هي مصيرنا المحتوم: لعنة الابتعاد عن سبيل الله، سواء أكان ذلك قبل زماننا نحن أم بعده، ومن يستطيع القول، بأننا مجرد دوّارات تحدّد اتجاه الريح، نبيّن من أي اتجاه تهبّ الريح، أو طائر كناري يحوم فوق مناجم الفحم ثم يلقى حتفه ليثبت أن الهواء سامّ، أو موانع صواعق تضربها العاصفة أولاً، أو أننا الشعب المختار الذي يحطّمه الله بقبضته ليجعل منا عبرة لمن يعتبر، عندما يريد أن يثبت شيئاً».

وهكذا قيل لي في هذه المرحلة من حياتي بأن لا ضير في أن أكون ابن أبي غير الشرعي لأننا أتينا جميعاً من الجانب الخاطئ في قبيلة اللقطاء، قال جيرونيمو مانيزيس لنفسه، وتساءل أهذا ما يفكّر به الرجل العجوز أيضاً. ووجد صعوبة كبيرة في تصديق القصّة، أو أن يبدي اهتماماً بها. فقال: «إذا كانت هذه القصّة صحيحة»، لكي يكون الحديث بينهما مهذباً، وليخفي عدم اهتمامه بهذه القصة السخيفة القديمة، «فإننا بعض من كلّ شيء، أهذا صحيح؟ خليط من مسيحيين ومسلمين ويهود». فقطّب الأب جيري حاجبيه الكثيفين ودمدم قائلاً، «أن نكون بعضاً من كلّ شيء، فهذا أسلوب بومباي، لكنه أصبح شيئاً قديماً عفا عليه الزمن. فقد استعيض عن العقل الضيّق بالتنورة العريضة. الأغلبية تحكم، والأقلية تنتظر وتترقب. وهكذا نصبح غرباء في بلدنا، وعندما تحدث المشكلة ولا ريب أنها آتية، فإن الغرباء سيعانون منها قبل أي شخص آخر».

ثم قال العمّ تشارلز، «بالمناسبة، إن السبب الحقيقي لعدم سماعك قصّة الجان العائلية الخرافية منه هو لأنّه لم يشأ الاعتراف بأصوله اليهودية، أو ربما لأنه ينتمي إلى الجان، لأنه ليس للجان وجود وإذا كان لهم وجود، فإن أصولهم من الشيطان، أليس كذلك؟ والسبب أنك لم تسمعها منّي فهو لأنّني نسيتها منذ سنوات. لقد منحني توجّهي

الجنسي كل الغربة التي أحتاج إليها». حذّق الأب جيري في شقيقه، وقال غاضباً: «كنت أقول دائماً إنه كان يجب أن تُضرب بشدة أكثر عندما كنتَ طفلاً لإخراج اللواطة منك». وأشار تشارلز دنيزا بشوكة لُفّت عليها قطع المعكرونة إلى الكاهن، وقال لجيرونيمو: «كنت أدّعي لنفسي بأنه كان يمزح عندما يقول شيئاً كهذا، أما الآن فلم يعد بإمكاني أن أدّعي ذلك». وانتهى طعام الغداء بصمت معكّر، مشحون بالتوتر.

الشعب المختار، قال جيرونيمو لنفسه. لقد سمعت هذه العبارة من قبل.

عندما كان جيرونيمو مانيزيس يطوف الشوارع التي أحبّها في الماضي، أدرك أنّ ثمة شيئاً قد كُسر. وعندما غادر مومباي بعد بضعة أيام، عرف أنّه لن يعود إليها ابداً. لقد طاف في أرجاء البلد مع العمّ تشارلز، يمعن النظر في المباني. وزارا البيت الذي كان قد شيّده لو كوربوزييه في ولاية گجرات لأسرة سلالة النسيج. كان البيت بارداً جيد التهوية، تحميه ألواح مثقبّة لمنع دخول أشعة الشمس الحادة. إلا أن ما أثار إعجاب جيرونيمو هو الحديقة التي بدا أنها تُطبق على البيت، تتلوّى إلى داخله مثل أفعى، كأنها تحاول أن تحطم الحواجز التي تفصل الفضاء الخارجي عن الفضاء الداخلي. وفي الأماكن العالية غطت الزهور والأعشاب جدران البيت وتحوّلت أرضيته إلى مرج معشوشب. وعندما غادر ذلك المكان عرف أنه لم يعد يرغب في أن يكون مصمماً معمارياً. وتوجّه العمّ تشارلز جنوباً إلى غوا، وتوجّه جيرونيمو مانيزيس إلى كيوتو في اليابان حيث جلس عند قدميْ مصمم الحدائق العظيم، ريونوسوكي شيمورا الذي علّمه أن الحديقة هي التعبير الخارجي عن الحقيقة الداخلية، المكان الذي تصطدم فيه أحلام طفولتنا بنماذج ثقافاتنا الأصلية وتخلق الجمال. إن الأرض هي ملك لصاحب الأرض، أما

الحديقة فهي ملك للحدائقي. هنا تكمن قوّة فنّ تصميم الحدائق. وبدا أن عبارة يجب *أن يزرع حديقته* لم تعد تُدخل الطمأنينة إلى نفسه عندما ينظر إليها من وجهة نظر شيمورا، لكنّه سُمّي هيرونيموس، ويعرف من سَميّه الرسّام العظيم بأن الحديقة قد تكون كذلك رمزاً لجهنم. وفي نهاية الأمر، فقد ساعدته «المتع الدنيوية» لبوش المثيرة للفزع، وروحانية شيمورا على تحديد أفكاره، فبدأ يرى الحديقة وعمله فيها نوعاً من التزاوج بين الجنة والنار.

بعد الرحلة التي قاما بها في أرجاء الهند، قررّ العمّ تشارلز بأنه سيعيد بيضة عشّه الصغيرة إلى غوا ويتقاعد فيها. فاشترى فيها كوخاً بسيطاً، وعرض البيت المشيّد بالحجارة في سانت مارك للبيع (لقد ولّت أيام راؤول في سبعينيات القرن العشرين منذ زمن بعيد). وستكفيه المبالغ التي كان قد جمعها لرعاية شيخوخته، أما المكتب، «فهو لك إذا أردت»، قال لجيرونيمو الذي، ربما للمرة الأولى في حياته، عرف ماذا يريد أن يكون حقاً. فأخذ المكتب الواقع في جادة غرينيتش، وبمساعدة مالية صغيرة قدّمها له بنتو إلفينبين، أعاد تأسيسه من أجل تقديم خدمات تصميم الحدائق، جيرونيمو الحدائقي، الذي أضافت ابنة بنتو العزيزة إيلا إلى اسمه لقب *السّيد* فأصبح مزهواً بهويته الأمريكية الجديدة. ومنذ ذلك الحين، أصبح الجميع ينادونه «السّيد جيرونيمو».

بالطبع كانت إيلا إلفينبين الشابة هي كلّ ما كان يصبو إليه، ولأسباب غير معروفة، كانت تريده هي أيضاً: إيلا اليتيمة الأمّ لا تذكر شيئاً عن راكيل إلفينبين التي قتلها السرطان عندما لم تكن إيلا تتجاوز الثانية من العمر، لكنها كانت بالنسبة لأبيها نسخة عن أمّها وتجسيداً لها. كان حبّ إيلا الراسخ بشكل غامض تجاه السّيد جيرونيمو الذي، كما كان يحلو لها أن تقول، خلقت جزءاً منه، الأمر الذي شجعّ بنتو على

أن يستثمر في الرجل الذي سيغدو زوجاً لها. كانت إيلا فتاة جميلة حنطية البشرة، ذقنها بارزة قليلاً، وأذناها تشبهان، على نحو غريب، أذنيه اللتين لا توجد لهما شحمة أذن، وكانت قواطع فكها العلوي المركزية طويلة بعض الشيء مثل مصاصي الدماء، لكن السّيد جيرونيمو لم يتأفف، وعرف أنّه رجل محظوظ. ولو كان يؤمن بالأرواح، لقال إنها تملك روحاً طيبة ولعرف من القصص التي كانت تحكيها له، عدد الرجال الذين كانوا يتقرّبون منها ويتوددون إليها كل يوم. لكن إخلاصها له كان راسخاً وفي الوقت نفسه غامضاً. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت أكثر روح إيجابية صادفها السّيد جيرونيمو في حياته. ولم تكن تحبّ الكتب ذات النهايات الحزينة، وكانت تستقبل ببهجة كلّ يوم من أيام حياتها، وتؤمن بأنه يمكن تحويل جميع الأحداث السيئة وجعلها تسير في مصلحة المرء. وكانت تؤمن بأن التفكير الإيجابي يساعد على معالجة الأمراض، أما الغضب فيجعلك مريضاً، وفي أحد الأيام، بينما كانت تقلّب بتكاسل محطات برامج التلفزيون في صباح يوم أحد، سمعت مبشراً إنجيلياً مسيحياً يقول: *إن الله يجعل المؤمنين به يزدهرون، ويمنحك كلّ ما تريد، وأن كلّ ما عليك أن تفعله هو أن ترغب في ذلك حقاً*، وسمعها السّيد جيرونيمو تهمهم تحت أنفاسها، «صحيح». كانت تؤمن بالله إيماناً راسخاً بنفس الرسوخ الذي تكره فيه سمك الجفيلت، ولم تكن تؤمن بأن أصل الإنسان قرد، وكانت تقول له إنها تعرف أن هناك جنة وأنها ستذهب إليها في نهاية المطاف، وأن هناك جهنم أيضاً التي ربما سيذهب إليها هو، لسوء الحظ، لكنها ستنقذه حتى تكون نهايته هو أيضاً نهاية سعيدة. كان قد قرّر ألا يجد غرابة في كلّ ذلك، بل اعتبره شيئاً مبهجاً وأن زواجهما كان سعيداً. ومضت السنوات، ولم ينجبا أطفالاً. كانت إيلا عاقراً. وربما هذا ما جعلها تحبّ فكرة أن يكون

مصمم حدائق، لأنه على الأقل يمكنه أن يبذر بضع بذور ويراقبها وهي تتفتح وتنتج أزهاراً.

حدّثها بأسلوبه الساخر عن رجال وحيدين يعيشون في مناطق بعيدة يضاجعون الأرض، ويحفرون حفراً في التراب ويبذرون بذرتهم فيها لرؤية هل تنمو النباتات البشرية وتصبح نصف إنسان، نصف نبات، لكنّها طلبت منه أن يكفّ عن قول ذلك لأنها لا تحبّ سماع قصص كهذه. لماذا لا تحكي لي قصصاً سعيدة؟ قالت تلومه. هذا ليس شيئاً لطيفاً. فأطرق برأسه مدّعيا الاعتذار، فسامحته، لكنها لم تدّع أنها سامحته، بل كانت تعني ذلك كما كانت تعني كلّ ما تقوله أو تفعله.

مضت سنوات أخرى. ثم أصابت بومباي التي صارت مومباي المشكلة التي تنبأ بها الأب جيري، فوقعت اضطرابات شعبية في شهري كانون الأول (ديسمبر) وكانون الثاني (يناير) لقي خلالها تسعمائة شخص حتفهم، معظمهم من المسلمين والهندوس. ووفق الإحصاءات الرسمية، لقي خمسة وأربعون شخصاً «غير معروفين»، وخمسة أشخاص «آخرون» حتفهم. كان تشارلز دنيزا قد جاء إلى مومباي من غوا لزيارة منطقة مباغي كاماذيبورا ليبحث عن مانغولا، *هيغرا* الأثيرة لديه، «العاملة في الجنس»، إذا أردنا استخدام المصطلح الجديد المحايد أخلاقياً، لكنها وجدت الموت بدلاً من أن تجد العمل في الجنس. فقد أخذ عدد من الأشخاص الغاضبين بسبب تدمير مسجد الإمبراطور موغال بابار في أيوديا يجرون في الشوارع، وربما كان أول ضحية في هذه الاضطرابات الهندوسية ـ الإسلامية رجلاً مسيحياً «غير معروفين» وعاهرته التي غيّرت نوع جنسها، «آخر» التي أصبحت من نوع آخر. لم يعبأ أحد بذلك. وحاول الأب جيري، في مسجد مينارا في حيّ بيدوني أن يستخدم «كطرف ثالث»، لا مسلم ولا هندوسي، مكانته المرموقة في المدينة

لتهدئة غلواء المؤمنين، فطُلب منه أن يغادر المكان. ولعل أحداً قد تعقبّه، شخصاً يضمر في نفسه ارتكاب جريمة قتل، ومنذ ذلك الحين، لم يعد الأب جيري إلى بيته في باندرا. وأعقبت هذه الاضطرابات موجتان من أعمال القتل، وهكذا أصبح تشارلز والأب جيري صفرين في الإحصاءات. فلم تعد المدينة التي طالما تفاخرت بأنها تعلو على الاضطرابات العامة، كذلك. لقد ولّت بومباي، ماتت بموت الكاهن المحترم أرميا دنيزا. أما ما تبقى، فهي مومباي الجديدة، الأكثر قبحاً وبشاعة.

«أنتِ كلّ ما لديّ الآن»، قال جيرونيمو مانيزيس لإيلا عندما سمع بموت عمّه والكاهن. ثمّ مات بنتو إلفينبين عندما ضربته صاعقة هبطت من سماء ليلية صافية عندما كان يدخّن سيجاره بعد أن تناول العشاء في مزرعته التي يحبّها والتي تبلغ مساحتها مئة هكتار في منطقة بيغ غرواندنت بعد حفل عشاء بهيج شاركه فيه لفيف من الأصدقاء الطيبين، ثم تبيّن أن صفقاته التجارية قد أودت به إلى حافة الانهيار لأنه كان متورطاً في صفقات سخيفة عديدة، لا في صفقات احتيال حقيقية، إنما في ألعاب خداع مشبوهة، وصفقات احتيال تتعلق بتجهيز المكاتب وترميم المنازل، وأعمال احتيال جشعة ـ عملية نصب لإنتاج نوع من الأفلام التي تمنحه متعة كبيرة، من يمكن *أن يتخيّل*، دوّن في دفتر ملاحظات يجرّمه عُثر عليه مخبأً في غرفة نومه بعد موته، *أن فكرة هتلر عن فصل الربيع قد تحدث فعلاً في الحياة الواقعية*؟ كان هناك محتال كبير واحد على الأقل في منطقة الغرب الأوسط، وكان تأثير الدين ثقيلاً جداً عليه إلى درجة أن بيت إلفينبين القائم على أسس واهية تهاوى في مهانة الحجز وانتُزعت ملكيته بعد وفاته مباشرة. وصودرت الهكتارات في منطقة غراوندنت ولم يُشيّد أي بيت من البيوت التي كان بينو يحلم

ببنائها. وأدرك السّيد جيرونيمو أنه لو ظل إلفينبين على قيد الحياة، لأمضى بقية حياته في السجن لأن السلطات كانت تلاحق بنتو بتهمة الاحتيال الضريبي ولمخالفات عديدة أخرى. وكان سيُقبض عليه لولا أن صاعقة من السّماء وفرّت له مخرجاً مشرّفاً، أو لنقل مخرجاً مبهرجاً مثل الحياة التي عاشها. «الآن»، قالت إيلا التي لم ترث شيئاً تقريباً بحسب وصفها، «الآن أنتَ كلّ ما لديّ أيضاً». وعندما ضمّها بين ذراعيه أحسّ برعشة خرافية تسري في أوصاله. فتذكّر ما قاله الأب جيري عندما كانوا يتناولون الطعام في ذلك المطعم الصيني عن عائلة ابن رشد التي لعنها اللّه لتصيبها الصواعق وتصبح عبرة للآخرين. وتساءل هل من الممكن أن تكون تلك العائلات التي انضمت إلى عائلته بواسطة الزواج قد سقطت تحت تأثير اللعنة أيضاً؟ كفّ عن ذلك، قال لنفسه محذّراً. إنك لا تؤمن بلعنات القرون الوسطى، ولا حتى بالله.

كان ذلك عندما كانت في الثالثة والثلاثين وهو في الرابعة والأربعين من العمر. لقد جعلته رجلاً سعيداً. السّيد جيرونيمو مصمم الحدائق القانع، انتشرت أيامه الذاوية في العراء مثل ألغاز مكشوفة، المجرفة وآلة الجزّ والقفاز التي يعمل بها تتحدّث لغة الأشياء الحيّة ببلاغة مثل أيّ قلم كاتب، الأزهار ـ التي تملأ الأرض بلونها الوردي في الربيع أو تصارع جليد الشتاء. ربما كان من طبيعة العمّال أن يترجموا أنفسهم إلى الأعمال التي يقومون بها، تماماً كما يصبح محبّو الكلاب يشبهون كلابهم، لذلك ربما لم تكن نقطة ضعف السّيد جيرونيمو الصغيرة غريبة تماماً ـ لكنه كان في معظم الأحيان، والحق يقال، يفضّل أن يعتبر نفسه نبتة، بل حتى واحدة من تلك النباتات البشرية التي تتوالد نتيجة اتحاد جنسي بين الإنسان والأرض، كالشيء الذي ينبت في الحديقة، لا الحدائقي. لقد وضع نفسه في تربة الزمن وتساءل، بكفر، من هو ذاك الذي

يستطيع أن يعتني به هو. في خضم هذه التخيّلات، كان يلقي بنفسه دائماً بين النباتات العديمة الجذور، النباتات المتطفلة والطحالب التي تعتمد على نباتات أخرى لأنها لا تستطيع أن تعيش من تلقاء نفسها. لذلك كان، في مخيّلته، نوعاً من الأشنة أو نبتة السحلبية المتعرّشة، أما الشخص الذي يعتمد عليه، جنائني روحه غير الموجود، هو إيلا مانيزيس. زوجته التي أحبّها وأحبّته كثيراً.

في بعض الأحيان، كانت تقول له عندما يمارسان العشق إن رائحته تشبه رائحة الدخان، وفي أحيان أخرى، كانت تقول له إنه عندما يبلغ ذروة اللذة، تصبح حواف جسده ليّنة غير واضحة المعالم إلى حدّ أن جسدها قد يذوب في جسده. فيجيب لأنه يحرق مخلّفات الحديقة كلّ يوم، ويقول لها لا بد أنها تتخيّل أشياء. إلا أن أحدهما لم يكن يشكّ في هذه الحقيقة.

وبعد انقضاء سبع سنوات على وفاة بنتو، ضربت صاعقة مرة أخرى.

كان بيت لا إنكورينزا الذي تبلغ مساحته ألف هكتار وهكتار قد أطلق عليه هذا الاسم رجل كرّس نفسه للأرقام، يؤمن بأنّ العالم لم يضف شيئاً، يدعى السّيد سانفورد بليس، صاحب شركة أعلاف بليس الشهيرة التي تنتج جميع أنواع الأعلاف للخنازير والأرانب والقطط والكلاب والخيول والمواشي والقردة. وكان يشاع بأنه لا يوجد في رأس سانفورد بليس شطر واحد من الشعر، لكنه كان يحفظ في رأسه رقم كلّ دولار يصادفه. وكان يؤمن بالأموال النقدية السائلة. ففي السرداب الضخم المخبأ في مكتبه وراء لوحة مرسومة بالأسلوب الفلورنسي تصوّره في هيئة أحد نبلاء توسكانيا، كان يخزّن دائماً مبلغاً من المال،

أكثر من مليون دولار في أكداس من الأوراق النقدية ذات الفئات المختلفة، لأنه كما كان يردد، لا يمكنك أن تعرف أبداً ماذا يمكن أن يحدث لك. وكان يؤمن بالخرافات الرقمية أيضاً، مثل الفكرة بأن الأرقام المدوّرة تجلب الحظ السيء، لذلك فهو لا يطلب عشرة دولارات ثمن كيس العلف، بل تسعة دولارات وتسعاً وتسعين سنتاً، ولا ينفح إكرامية قدرها مئة دولار، إنما يمنح دائماً مائة دولار ودولار.

عندما كان طالباً في الجامعة، أمضى أحد فصول الصيف في فلورنسا عندما نزل ضيفاً عند أسرة أكتونز في لا بيترا على مائدة العشاء مع عدد من الفنانين والمفكّرين الذين لم تكن الأرقام تعني لهم شيئاً، أو في أحسن الأحوال، فهي شيء يُتداول عامة، فعنّت على باله، لا شعورياً، الفكرة اللا أمريكية بأن الحقيقة ليست شيئاً محدداً، ليست شيئاً مطلقاً، وإنما شيء اختلقه البشر، وأن القيم أيضاً، تتغيّر بحسب الشخص الذي يقيّمها. عالم غير منسجم، عالم خال من الحقيقة، عالم تحلّ فيه نسخ متحاربة تحاول الهيمنة على منافسيها، لا بل تعمل على استئصالهم والقضاء عليهم قضاء مبرماً، أرعبته. وبما أنه لم يكن يجيد الأعمال التجارية، فقد خطر بباله أنها شيء يجب تغييرها. فأطلق على بيته اسم لا إنكورينزا، أي التنافر أو *التهافت* باللغة الإيطالية، ليتذكّر في كل يوم ما تعلّمه في إيطاليا، وأنفق مبالغ طائلة من ثروته للترويج للسياسيين الذين يقولون، عادة بسبب معتقداتهم الدينية الصحيحة أو الزائفة، بأنه يجب حماية الحقائق الأبديّة، وأن احتكار السلع والمعلومات والأفكار ليس شيئاً مفيداً فحسب، وإنما ضروري للغاية أيضاً للحفاظ على مبادئ الحريّة الأميركية. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها، فقد تواصلت مستويات التنافر وعدم التوافق في العالم التي بدأ سانفورد بليس، بطريقته الرقمية، يطلق عليها اسم مؤشر *التنافر أو*

التهافت، في التصاعد بلا هوادة. «فإذا كان الصفر هو نقطة سلامة العقل حيث اثنان زائد اثنان يساوي أربعة باستمرار، فإن واحد هو المكان الملعون حيث يمكن إضافة اثنين واثنين إلى أيّ شيء ملعون تريدين أن يكون»، قال لابنته ألكساندرا، الطفلة التي أحبّها كثيراً والتي أنجبها وهو في سنّ متقدمة من زوجته الأخيرة التي أتت من سيبيريا والتي تصغره بسنوات كثيرة بعد أن تخلّى منذ زمن بعيد عن الحلم بأن ينجب وريثاً، «إذاً يا ساندي، آسف لأن أقول لك إننا موجودون حالياً في مكان قريب من صفر فاصلة تسعة سبعة ثلاثة».

عندما مات والداها فجأة، عندما سقطا من السماء إلى نهر إيست ريفر، فإن اعتباطية نهايتهما أثبتت لابنة سانفورد بليس، ألكساندرا، في نهاية الأمر، أن الكون ليس متناغماً وعبثياً فحسب، وإنما عديم القلب والروح أيضاً. وورثت الفتاة الشابة اليتيمة كلّ شيء؛ وبما أنها لم تكن تمتلك الفطنة والذكاء والاهتمام بالأعمال التجارية، فقد تفاوضت على الفور على بيع «شركة أعلاف بليس» إلى تعاونية لاند أولاكيس الزراعية في مينيسوتا، وأصبحت بذلك، وهي في التاسعة عشرة من العمر، أصغر مليونيرة في أميركا، ودرست في جامعة هارفارد، وأبدت مواهب خارقة في تعلم اللغات. وعندما أنهت دراستها الجامعية، كانت تتقن اللغات الفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والهولندية والبرتغالية والبرتغالية البرازيلية والسويدية والفلندية والهنغارية والكانتونية والماندرينية والروسية والباشتو والفارسية والعربية والتغالوغية. *لقد التقطتها بسرعة مدهشة*، قال الناس بدهشة، *كما تلتقط حصى تلمع على الشاطئ*؛ والتقطت كذلك رجلاً، لاعب البولو الأرجنتيني المفلس كالعادة، شريحة دسمة من لحم العجل يعمل في مزرعة لتربية الأبقار، يُدعى مانويل فارينا. التقطته بسرعة، وألقت به بسرعة. تزوّجته بسرعة،

وطلّقته بسرعة. لكنها احتفظت باسمه، وصارت نباتية، وطردته بفظاظة. وبعد طلاقها، انكفأت على نفسها إلى الأبد في بيت لا إنكورينزا، وبدأت دراستها الطويلة في موضوع التشاؤم مستلهمة في ذلك أفكار شوبنهاور ونيتشه، واقتنعت بعبثية الحياة الإنسانية وبعدم التوافق بين السعادة والحرية، وعاشت وهي لا تزال في ريعان الصبا في عزلة وحزن طوال حياتها، وحبست نفسها، وارتدت ثياباً ضيّقة من الدانتيل الأبيض. وكانت إيلا إلفينبين مانيزيس تطلق عليها بشيء من الاحتقار، *السّيدة فيلسوفة*، فالتصق بها هذا الاسم، على الأقل في رأس السّيد جيرونيمو.

كانت السيّدة فيلسوفة تتسم بمسحة من الرواقية المازوشية. فعندما يكون الطقس سيئاً، كانت تُرى في غالب الأحيان خارج البيت، غير عابئة بالرياح وبرذاذ المطر أو أنها كانت تتقبلّها باعتبارها الممثّلة الحقيقية والصادقة للعداء المتزايد الذي تكنّه الأرض لقاطنيها، وكانت تجلس تحت شجرة بلوط قديمة كبيرة وتقرأ كتاباً لأونامونو أو لكامو. يبدو لنا الأغنياء أناس يشوبهم الغموض، ويبحثون عن شتى السبل التي تجعلهم غير سعداء بالرغم من أن كلّ الأسباب الطبيعية لعدم السعادة والحزن قد أزيلت عن طريقهم. لكن الحزن لامس السّيدة فيلسوفة. فقد قُتل أبواها في الطائرة المروحية التي يملكانها. موت صفوة القوم، لكن في لحظة الموت نصبح كلّنا مفلسين. لم تتحدّث عن ذلك قط. وسيكون من كرم أخلاقنا أن نتفهم سلوكها، المتعمّد، المجرّد، المنعزل، مثل طريقتها في التعبير عن الحزن.

يتحوّل نهر هدسون في نهاية رحلته إلى «نهر غارق»، فتُدفع مياهه العذبة تحت المدّ الملحي القادم من البحر. «حتى النهر اللعين لا يعني شيئاً»، قال سانفورد بليس لابنته. «انظري كيف يتدّفق بهذه الطريقة الخاطئة اللعينة». لقد سمّاه الهنود نهر شاتيموك، أي النهر الذي يتدفق

من كلا الجهتين. وعلى ضفاف النهر الغارق، قاوم بيت لا إنكورينزا هذا النظام بنفس الطريقة. واستُدعي السّيد جيرونيمو لتقديم المساعدة. فقد طبقت سمعته كمصمم حدائق وكفنان في تصميم المناظر الطبيعية الأفاق، وأوصى به أحدهم للمشرف على شؤون البيت، ذاك الرجل البريطاني، الكثير الشكوى الذي يدعى أوليفير أولدكاسل، والذي يطلق لحية تشبه لحية كارل ماركس، وصوته يشبه صوت مزمار الباسوون، ويعاني من مشكلة الإفراط في الشراب. وكان قد نشأ كاثوليكياً مثل الأب جيري الذي جعلته تربيته يحبّ الكتاب المقدس ويبغض الكنيسة. رافق أولدكاسل السّيد جيرونيمو إلى الحديقة. كان يبدو مثل الله وهو يُري آدم جنة عدن، وطلب منه أن يحوّل الحديقة إلى مكان متناسق جميل. وعندما بدأ السّيد جيرونيمو العمل لدى السّيدة فيلسوفة، كانت الأشواك تملأ الخندق عند الطرف السفلي من الحديقة كأنها تحيط بقلعة حسناء نائمة. وكانت فئران الحقل العنيدة قد حفرت أخاديد تحت الأرض وكانت تظهر في كل مكان، وتخرّب المروج الممتدة. وكانت الثعالب تهاجم أقفاص الدجاج. ولو كان السّيد جيرونيمو قد وجد أفعى تلتّف حول غصن شجرة معرفة الخير والشر، لما فوجئ بذلك. ولم تكن السّيدة فيلسوفة تبالي بما آلت إليه الأمور. ومع أنها لم تكد تبلغ العشرين من العمر آنذاك، فقد كانت تتكلّم برسمية شديدة تليق بأرملة. فقد قالت تلك اليتيمة، صاحبة بيت لا إنكورينزا بحدّة، «لإخضاع بيت ريفي عليك أن تقتل وتقتل وتقتل، وعليك أن تحطّم وتحطّم. فبعد سنوات من الفوضى يمكن تحقيق قدر من الجمال المستقر. هذا هو معنى الحضارة. لكن عينيك رقيقتان، لذلك أخشى ألاّ تكون القاتل الذي أحتاج إليه. لكن قد يكون أي شخص آخر سيئاً بنفس القدر.

وبسبب إيمانها بضعف الجنس البشري وعجزه المتزايد، وافقت

على استخدام السّيد جيرونيمو، وعلى أن تتحمل، بتنهيدة، عيوب أرضها. فانكفأت على نفسها لتغوص في أفكارها، وتركت السّيد جيرونيمو يصارع الأشواك وفئران الحقل. ولم يمرّ أي إخفاق من إخفاقاته بدون تنبيه منها، ولم ينل أي نجاح من نجاحاته أي شكر أو ثناء. وأصابت آفة قاتلة أشجار البلوط في المنطقة، وهددت بالموت أشجار ألكساندرا المولعة بها كثيراً، فطبّق جيرونيمو نفس الأسلوب الذي طبّقه العلماء في منطقة الساحل الغربي من البلاد، حيث غلّفوا أشجار البلوط بمبيد فطريات تجاري أو حقنوها به، فقضى على العامل الممرض القاتل (*Phyitophthora ramorum*). وعندما أخبر ربّة عمله بنجاح المعالجة وبإنقاذه جميع أشجار البلوط في حديقتها، هزّت كتفيها بلا مبالاة، واستدارت كأنها تريد أن تقول له إن هناك شيئاً آخر سيقتلها قريباً.

كان من الممكن أن تعقد إيلا مانيزيس والسّيدة فيلسوفة، وكلاهما امرأتان جميلتان، أنيقتان، شابتان، صداقة بينهما، لكن ذلك لم يحدث: فقد باعد بينهما ما كانت إيلا تدعوه «سلبية» ألكساندرا التي كانت تصرّ، كلما رأت إيلا المتفائلة، على القول لها إنه «يستحيل، في هذه الفترة من التاريخ، تبنّي وجهة نظر متفائلة تجاه البشرية». فقد كانت إيلا ترافق أحياناً السّيد جيرونيمو إلى بيت لا إنكورينزا وتتمشّى في الحديقة عندما يكون منهمكاً في عمله، أو كانت تقف في أعلى التلّة الخضراء الوحيدة في الحديقة تراقب النهر الذي يجري في الاتجاه المعاكس، وفوق تلك التلّة بالذات، بعد مرور سبع سنوات على موت والدها، ضربتها صاعقة هي أيضاً مع أن السماء كانت صافية، فلقيت حتفها في الحال. ومن الظواهر العديدة لموتها التي رأى السّيد جيرونيمو أنها لا تُحتمل، أن الصاعقة اختارت من بين المرأتين الجميلتين في بيت

لا إنكورينزا في ذلك اليوم، المرأة المتفائلة لتموت، وتركت المرأة المتشائمة لتعيش.

تُعرف الظاهرة عموماً باسم «صاعقة مباغتة» وهي تعمل على النحو التالي: ينبعث وميض خاطف من مؤخّرة سّحابة رعّادة وتنطلق إلى مسافة تزيد على خمسة وعشرين ميلاً عن منطقة هبوب العاصفة، ثمّ تهبط وتضرب الأرض، أو تصيب بناية عالية، أو شجرة منعزلة في مكان مرتفع، أو امرأة تقف وحدها فوق التلّة تراقب جريان النهر. وعادة ما تكون العاصفة التي تنبعث منها الصاعقة بعيدة جداً لا يمكن رؤيتها، أما المرأة الواقفة فوق قمة الهضبة فمن الممكن رؤيتها وهي تتهاوى ببطء فوق الأرض مثل ريشة تمتثل، على مضض، لقانون الجاذبية.

تذكّر السّيد جيرونيمو عينيها السوداوين، العين اليمنى المغبشة التي لا ترى فيها جيداً. وتذكّر ثرثرتها، وكيف أنها كانت تبدي رأيها باستمرار في كلّ أمر، وتساءل ماذا يمكنه أن يفعل الآن بدون آرائها. وتذكّر كيف أنها كانت تكره أن تُؤخذ لها صور، وتذكّر كلّ الأطعمة التي لم تكن تأكلها: لحم، سمك، بيض، ألبان، بندورة، بصل، ثوم، غلوتين، كلّ شيء متوفر تقريباً. وتساءل مرة أخرى عمّا إذا كان البرق يطارد أفراد عائلته، وأنه نتيجة الزواج من تلك العائلة، فقد جلبت إيلا اللعنة على نفسها، وهل سيكون دوره التالي. وفي الأسابيع التي تلت ذلك، بدأ يدرس البرق كما لم يفعل من قبل. وعندما عرف أن تسعة أعشار الأشخاص الذين ضربتهم صاعقة ظلوا أحياء، وأنهم كانوا يصابون أحياناً بأمراض غامضة، لكنهم كانوا يبقون في جميع الأحوال أحياء، فهم أن البرق استهدف بنتو وابنته. إن البرق لم يدعهما وشأنهما. لعل ذلك لأنه أقنع نفسه بأنه لن ينجو إذا ضربته صاعقة مع أنه علق في أتون تلك العاصفة الهوجاء في اليوم الأول ذاك، عندما اكتشف أن قدميه

أصيبتا بذلك المرض الغامض الذي جعلهما ترفضان أن تلمسا الأرض، وقد استغرق وقتاً طويلاً حتى خطرت بباله هذه الفكرة الجلية.

«قد تكون الصاعقة قد ضربتني في أثناء الإعصار ونجوت لكنّها مسحت ذاكرتي بالكامل فلم أعد أتذكّر أنها ضربتني أصلاً، ولعلي أحمل الآن نوعاً من شحنة كهربائية مجنونة جعلتني أرتفع عن سطح الأرض قليلاً».

لم يخطر بباله ذلك إلاّ بعد فترة طويلة، عندما أوحت له ألكساندرا فارينا بذلك.

سأل السّيدة فيلسوفة هل يمكنه أن يدفن زوجته في تلّتها الخضراء الجميلة المطلّة على النهر الغارق، فقالت ألكساندرا نعم، بالطبع يمكنك ذلك. فحفر قبراً لزوجته ووارى فيه جثمانها ولوهلة تملكه شعور بالغضب. لكن هناك دائماً نهاية للغضب، فحمل مجرفته على كتفه وعاد إلى البيت وحيداً. وفي اليوم الذي ماتت فيه زوجته كان قد مضى على عمله في لا إنكورينزا سنتان وثمانية شهور وثمان وعشرون يوماً. ألف يوم ويوم. لم يكن هناك مفرّ من الهرب من لعنة الأرقام.

مضت عشر سنوات أخرى. حفر خلالها السّيد جيرونيمو وزرع وسقى وشذّب. ومنح حياة وأنقذها. كان يرى أنها تقبع في كلّ زهرة، في كلّ سياج، وفي كلّ شجرة. أبقاها في عمله تنبض بالحياة ولم يكن هناك متسع لأيّ امرأة أخرى. لكنها ذوت رويداً رويداً. وواصلت نباتاته وأشجاره عضويتها في مملكة النبات، ولم تعد تجسيداً لها. كانت وكأنها تخلّت عنه مرة أخرى. فبعد المغادرة الثانية هذه، لم يعد هناك شيء سوى الخواء، وأصبح متيقناً بأنه لم يعد بإمكانه أن يملأ هذا الخواء.

وطوال عشر سنوات، عاش في نوع من الغشاوة. كانت السّيدة فيلسوفة، المتدثرة بالنظريات، التي تؤمن بانتصار سيناريو أسوأ الأحوال، والتي تتناول الباستا مع لحم العجل المغطّى بطبقة من فتات الخبز، والتي يحتدم رأسها بالمعادلات الرياضية التي تؤسس القاعدة العلمية لتشاؤمها، أضحت هي نفسها نوعاً من التجريد، مصدره الأساسي، ولا شيء أكثر. وكان يجد صعوبة في أن لا يلومها لأنها عاشت، هي التي لم تقنعها نجاتها وبقاؤها حيّة على حساب حياة زوجته، بأن تشعر بالامتنان لحظّها السعيد وتحسّن نظرتها إزاء الحياة. نظر إلى الأرض وإلى ما ينمو عليها، ولم يستطع أن يرفع بصره ليستوعب الإنسان التي هي أرضه. وبعد مضي عشر سنوات على موت زوجته، ظل محافظاً على مسافة من السّيدة فيلسوفة، وكظم غضبه في سرّه.

وبعد فترة من الزمن، لو سألته عن هيئة ألكساندرا بليس فارينا، لما استطاع الإجابة على ذلك بدقّة. كان شعرها أسود مثل شعر زوجته المرحومة. وكانت ممشوقة القامة مثل زوجته المرحومة. ولم تكن تحبّ أن تجلس تحت أشعة الشمس، وإيلا كذلك. وكان يقال إنها كانت تتمشى في حديقتها عندما يهبط الظلام بسبب صراعها طوال حياتها مع الأرق. وتحدّث الآخرون الذين يعملون لديها، المشرف أولدكاسل وآخرون بأنها مصابة بمشاكل صحية مزمنة ربما كانت هي السبب، أو على الأقل ساهمت، في تعكّر مزاجها وكآبتها. «في ريعان الشباب، وطريحة الفراش في معظم الأحيان»، كان أولدكاسل يقول. كان يستخدم الكلمة القديمة *الدرن*: السلّ، مرض الدرنات الصغيرة. إن البطاطا درنة نباتية وهناك أزهار مثل زهور الداليا ذات الجذور الغليظة التي تدعى بحقّ السوق الجذرية، وتُعرف أيضاً بالدرنات. أما السّيد جيرونيمو فلم تكن لديه خبرة في الدرنات التي تتشكّل على رئتي الإنسان. لقد ترك

هذه المسائل لأصحاب البيت لحلّها، أما هو فعمله خارج البيت، يقوم برعاية النباتات التي تضم روح زوجته المرحومة. كانت السّيدة فيلسوفة طيفاً، مع أنها هي، لا إيلا، التي لا تزال حية ترزق.

لم تنشر ألكساندرا قط مقالاً يحمل اسمها، أو مقالاً مكتوباً باللغة الإنكليزية. كانت قد اختارت اسماً مستعاراً «El Criticón» استقته من الرواية الرمزية للكاتب بالتاسار غراسيان من القرن السابع عشر الذي كان له تأثير كبير على معبودها شوبنهاور، أعظم المفكّرين المتشائمين قاطبة. تتناول الرواية موضوع استحالة السعادة الإنسانية. وفي مقالة باللغة الإسبانية مليئة بالسخرية السوداء عنوانها، «*أسوأ جميع العالميْن الممكنة*»، طرحت «El Criticón» نظرية لقيت سخرية واسعة، واعتبرها الدارسون مقالة عاطفية مفادها أن الهوة التي تفصل بين الجنس البشري والكوكب قد شارفت على نقطة التحوّل، أزمة بيئيّة تأخذ شكل أزمة وجودية. وهنأها أقرانها الأكاديميون على إجادتها اللغة القشتالية، لكنهم قالوا إنها لا تزال هاوية. لكن بعد انتهاء فترة الغرابة، سيعتبرونها نبيّة.

(خيّل إلى السّيد جيرونيمو بأن استخدام ألكساندرا فارينا للأسماء المستعارة واللغات الأجنبية إشارة إلى عدم الثقة في النفس. وكان السّيد جيرونيمو أيضاً يعاني من الشعور بعدم الأمان الوجودي. ففي الليل، عندما يكون وحيداً، ينظر إلى وجهه في المرآة ويحاول أن يرى ذلك المنشد الشاب في جوقة المنشدين «*Raffy-'Ronnimus-the-pastor's-sonnimus*»، كان يسعى جاهداً لأن يتخيّل الطريق الذي لم يُطرق بعد، والحياة التي لم تُعش بعد، الشوكة الأخرى في طريق الحياة المتشعّب. لم يعد بإمكانه أن يتخيّله. وكان يمتلئ أحياناً بنوع من الغضب، غضب

المُقتَلَعين من جذورهم، الذين لا قبيلة لهم. لكنه لم يعد يفكّر غالباً بطريقة عشائرية).

أيامها الخاملة، ومقتنياتها الخزفية الهشة، وفساتينها الأنيقة المصنوعة من الدانتيل العالية العنق، وبيتها الرحب وحديقتها الواسعة وإهمالها لها، وولعها «بمارون غلاسيه» وبالحلوى التركية، وأرستقراطية مكتبتها المليئة بالكتب المجلّدة، والمجلات ذات الأغلفة المزخرفة بالأزهار التي أطلقت منها هجومها الشنيع على إمكانية البهجة لا بد أنها كلها تشير إلى السبب الذي جعلها لا تُؤخذ بجدية خارج أسوار لا إنكورينزا. كان عالمها الصغير كافياً بالنسبة لها. لم تكن تعبأ بآراء الآخرين. لا يمكن للعقل أن ينتصر ولن ينتصر أبداً على الجهالة الهمجية. إن هلاك الكون بسبب ارتفاع الحرارة أمر محتوم. كأس الماء بالنسبة لها نصف فارغة. لقد انهارت الأشياء وتداعت. والردّ الملائم الوحيد لعدم التفاؤل يكمن في الانزواء والانكفاء وراء جدران عالية، جدران في النفس وفي العالم أيضاً، وانتظار حتمية الموت. يا لغباء الدكتور بانغلوس المتفائل في رواية فولتير، ومعلّمه للحياة الواقعية، غوتفريد ويلهيلم ليبنيز، الفاشل، في المرتبة الأولى، مثل خيميائي (ففي نورمبرغ لم يتمكن من تحويل المعدن الخسيس إلى ذهب)، وفي المرتبة الثانية، فهو منتحل (*انظر*، الاتهام المدّمر الذي وجّهه شركاء السير اسحاق نيوتن إلى ليبنيز ـ بأنه هو، ج ي. ليبنيز، مخترع حساب التفاضل والتكامل المتناهي الصغر؛ قد اختلس نظرة إلى عمل نيوتن عن هذا الموضوع وسرق أفكار الرجل الإنكليزي)، وكتبتْ «إذا كان أفضل كلّ العالميْن الممكنة عالم يمكن أن ينتحل فيه مفكّر أفكار مفكّر آخر، فربما كان من الأفضل قبول نصيحة كانديد، والانسحاب حتى «*يزرع المرء حديقته*».

لكنها لم تزرع حديقتها، إنما استخدمت حدائقياً للقيام بذلك.

مضت فترة طويلة منذ أن فكّر السّيد جيرونيمو بالجنس، لكن كان عليه أن يعترف مؤخراً، بأن هذا الأمر بدأ يعنّ بباله مرة أخرى. ففي عمره، يتجّه هذا الضرب من التفكير إلى الجانب النظري، أما الجانب العملي الذي يتعلق بإيجاد شريك حقيقي والتوحد معه، فقد جعله القانون الحتمي «*Tempus fugit*»، *الزمن يمضي بسرعة*»، شيئاً من الماضي. إذ يفترض أن يكون هناك أكثر من جنسين، وفي واقع الأمر، فإن كلّ إنسان هو جنس فريد بحد ذاته أو ذاتها، لذلك، ربما يتعين استنباط ضمائر شخصية جديدة، عبارات أفضل من هو و هي. لا شكّ أن ذلك لم يعد يفي بالغرض. ففي خضم هذا العدد اللا متناهي من الأجناس، هناك قلة قليلة من الأجناس التي يمكن للمرء التواصل معها جنسياً، أو التي يريد أن يلتقي بها، وبوسع المرء أن يتوافق بسرعة مع بعض تلك الأجناس، أو التوافق معها لفترة معقولة من الزمن قبل أن تبدأ عملية الرفض، كما يحدث في القلوب أو الأكباد المزروعة. وفي حالات نادرة جداً، يعثر المرء على الجنس الآخر الذي يتوافق معه طوال حياته، يتوافق معه باستمرار، كما لو أنّ الجنسين هما نفسهما، وربما، استناداً إلى هذا التعريف الجديد، هما كذلك. وفي إحدى المرات في حياته، وجد ذلك الجنس المثالي، لكن احتمالات حدوث ذلك مرة أخرى أضحت بعيدة المنال، لذلك، لم يبحث، ولن يبحث أبداً. أما هنا، الآن، بعد العاصفة، وهو واقف فوق بحر من الطين المليء بالخراء المتصلّب من الماضي، أو بدقة أكبر، عندما لم يتمكن من الوقوف فوق ذلك البحر، إنما كان يعلو فوقه قليلاً، على ارتفاع يكفي لتمرير صفحة من صحيفة بسهولة تحت حذائه الطويل. الآن، عندما بدأ يبكي على موت مخيّلته وبعد أن ملأته المخاوف والشكوك بسبب انعدام الجاذبية في المنطقة المحيطة به مباشرة، في هذه اللحظة

غير المناسبة تماماً، رأى ربّة عمله، السّيدة فيلسوفة، وريثة شركة العلف، ألكساندرا بليس فارينا، تشير إليه من وراء نافذتها الكبيرة.

عندما اقترب السّيد جيرونيمو من النافذة الكبيرة، رأى المشرف أوليفر أولدكاسل يقف وراء كتف ألكساندرا اليسرى. لو كان صقراً، قال السّيد جيرونيمو لنفسه، لجثم فوق تلك الكتف، متأهباً للهجوم على أعداء سيدته وانتزاع قلوبهم من صدورهم. كانت السيّدة والخادم يقفان معاً، يمسحان بعيونهما الخراب الذي لحق ببيت لا إنكورينزا. كان أوليفير أولدكاسل يبدو أشبه بماركس وهو ينظر إلى سقوط الشيوعية، وألكساندرا نفسها الغامضة كدأبها بالرغم من الدموع التي بدأت تجفّ على وجنتيها. قالت: «لا يمكنني أن أتذمر». لم تكن توجه كلامها للسّيد جيرونيمو ولا للمشرف أولدكاسل، بل كانت توبّخ نفسها كما لو أن مربيتها الخاصة هي التي تفعل ذلك. «لقد خسر الناس بيوتهم ولم يعد لديهم شيء يأكلونه أو مكان يأوون إليه، أما أنا فكلّ ما خسرته مجرد حديقة». فهم الحدائقي السّيد جيرونيمو بأنّه وضع في مكانه الحقيقي. بينما راحت ألكساندرا تنظر إلى حذائه الطويل الآن، ثم قالت: «إنها معجزة»، وأضافت، «انظر يا أولدكاسل، إنها معجزة حقيقية. فقد غادر السّيد جيرونيمو الأرض الصلبة وارتفع إلى الأعلى، لنقل، وانتقل إلى أرض خيالية أكثر».

أراد السّيد جيرونيمو أن يحتجّ ويقول إن لا يد له في ارتفاعه عن مستوى الأرض، وأنه سيكون في غاية السعادة لو أنه عاد ولامس الأرض ثانية واتسخ حذاؤه. لكن ألقاً كان يشع من عيني ألكساندرا، وسألته، «هل ضربتك صاعقة؟ نعم هذا هو السبب، لقد ضربتك صاعقة أثناء الإعصار ونجوت منها، لكنّها مسحت ذاكرتك بالكامل، لهذا السبب فإنك لا تتذكّر أنها ضربتك. والآن لا بد أن شحنة كهربائية هائلة

تملؤك هي التي جعلتك ترتفع عن الأرض». أسكت هذا السّيد جيرونيمو الذي فكّر بالأمر بجدية. نعم، ربما. وبالرغم من عدم وجود أيّ دليل على ذلك، فلم يكن ذلك سوى افتراض. لم يجد الكلمات المناسبة ليردّ عليها، لكنه لم يكن بحاجة إلى أن يقول شيئاً. «ها هي معجزة أخرى»، قالت ألكساندرا التي تغيّرت نبرة صوتها الآن، التي لم تعد تشي بتلك العجرفة، إنما بدا ودوداً، رقيقاً، «في معظم أيام حياتي، نحيّت جانباً إمكانية الحبّ، لكني أصبحت أدرك الآن فقط بأن الحبّ ينتظرني هنا، في البيت، خارج نافذتي، يخبط بحذائه الطويل نحو الطين، لكنه لا يلمس تلك القذارة الشيطانية»، ثمّ استدارت واختفت داخل ظلال البيت.

خشي أن يكون فخّاً. فلم تعد هناك مواعيد كهذه في جدول حياته. هزّ المشرف أولدكاسل رأسه، وطلب منه أن يلحق بسيدة البيت. وهكذا فهم السّيد جيرونيمو بأنّه تلقى أوامره وتحرّك إلى داخل البيت، لكنه لم يعرف إلى أين ذهبت سيّدة البيت، لكنّه تتبع أثر ثيابها الملقاة ووجدها بسهولة.

بدأت ليلة ألكساندرا بليس فارينا على نحو غريب. ومهما كانت القوة التي تمنعه من ملامسة الأرض فقد كانت تسري فوق سريرها أيضاً. فعندما رقدت تحته بدأ جسده يحوم فوق جسدها، يعلوها بجزء من البوصة، لكن كانت هناك مسافة معينة تفصله عنها زادت الأمر صعوبة وإحراجاً. فقد حاول أن يضع يديه تحت ردفيها ويرفعها نحوه، لكن ذلك لم يكن مريحاً لكليهما. لكنهما سرعان ما تمكّنا من حلّ المشكلة. فقد وجدا أنه عندما رقد تحتها، أصبحت الأمور أفضل، حتى لو لم يلامس ظهره السرير تماماً. وبدا أن وضعه هذا كان يزيدها إثارة، مما زاد من هياجه وانتعاظه أيضاً، وعندما اقتربا من لحظة النهاية، بدا أنها

فقدت الاهتمام، فغطّت في النوم بسرعة، وتركته يحدّق في السقف في الظلام. وعندما غادر السرير ليرتدي ثيابه ويغادر، ازدادت الفجوة بين قدميه والأرضية كثيراً. وبعد أن أمضى ليلته مع عشيقة لا إنكورينزا، ارتفع بوصة كاملة عن الأرض.

غادر مخدعها ليجد أولدكاسل واقفاً بانتظاره خارج الغرفة وقد ارتسمت على وجهه قسمات رجل يريد أن يقتله. «لا تظن أنك الأول»، قال المشرف للسّيد جيرونيمو. «لا تتخيّل أنه في عمرك السخيف هذا أنت الحبّ الوحيد الذي وجدته ينتظر خارج نافذتها. أنتَ لستَ سوى فطر قديم مثير للشفقة. أيها الطفيلي المقرف. أنت درنة، شوكة مثلمّة، بذرة فاسدة. هيا اخرج من هنا ولا ترجع». فهم السّيد جيرونيمو على الفور بأنّ أوليفير أولدكاسل فقد صوابه بسبب حبّ غير متبادل. وقال بحزم: «إن زوجتي مدفونة في تلك التلّة، وسأزور قبرها عندما أريد. يجب أن تقتلني إذا حاولت أن توقّفني عن زيارتها، هذا إن لم أقتلك أنا أولاً».

فردّ أوليفير أولدكاسل، «لقد انتهى زواجك ليلة البارحة في مخدع سيدتي، أما من سيقتل الآخر، فسنرى».

اندلعت حرائق، وانتصبت بنايات عرفها أسلافنا طوال حياتهم وقد تفحّمت، تحدّق في السطوع الذي لا يرحم من خلال محاجر عيونهم الغائرة المسودّة، شأن الأشخاص الذين لم يموتوا لكنهم لا يزالون يتحركون على شاشة التلفاز. وعندما ظهر أسلافنا من الأماكن التي اختبأوا فيها وهم يترنّحون عبر الشوارع اليتيمة، بدا أنهم سبب هبوب العاصفة. وظهر وعّاظ على شاشة التلفاز وقالوا إنها عقاب من الله بسبب

فسقهم وفجورهم. لكن ليست النقطة هنا. فقد شعر بعضهم على الأقل، بأن شيئاً كانوا قد فعلوه قد أفلت من قبضتهم وانطلق بغضب شديد من حولهم لأيام عديدة. وعندما هدأت الأرض والهواء والماء، بدأوا يخشون عودة تلك القوة. لكنهم، لفترة من الزمن، انهمكوا في أعمال الإصلاح، وإطعام الجائعين ورعاية المسنين والبكاء على الأشجار التي سقطت، ولم يكن هناك وقت للتفكير بالمستقبل. وهدأت أصوات أسلافنا الحكيمة، وقالوا لهم لا تتخذوا الطقس ذريعة. إنها ليست نذيراً ولا لعنة، إنما هو الطقس فقط. كانت تلك هي المعلومة المهدّئة التي أرادوا قولها. فقبلوها. لذلك راح معظمهم ينظر في الاتجاه الخاطئ ولم يلاحظوا لحظة وصول الغرابة لتقلب كلّ شيء رأساً على عقب.

تهافت الفلاسفة

بعد مرور مئة يوم ويوم على هبوب العاصفة العظيمة، بدا أنّ ابن رشد الراقد منسياً في قبره في مقبرة عائلته في قرطبة بدأ يتواصل بطريقة ما مع خصمه المتوفى أيضاً، الغزالي، الراقد في قبر متواضع على مشارف بلدة طوس في إقليم خراسان. في البداية، بمودة شديدة، ثم بدأت تخفت شيئاً فشيئاً. وإننا نعترف بأن هذا الكلام، بقدر ما يصعب التحقق من صحته، فإنه يثير بعض الشكوك. ولما كان جسداهما قد بُليا وتفسخا منذ أمد بعيد، فإن الفكرة بأنهما يرقدان منسيين تنطوي على شيء من البهتان والافتراء، وأما الفكرة الأخرى التي تنطوي على قدر من الذكاء بأنهما باقيان في أماكن دفنهما فهي محض هراء. وإذا أخذنا ذلك العصر الغريب، عصر السنتين والثمانية شهور وثمان وعشرين ليلة، بمعايير عصرنا الحالي، فإننا مضطرون إلى الاعتراف بأن العالم قد أصبح سخيفاً، وأن القوانين التي كانت مقبولة منذ زمن بعيد والتي كانت تشكل المبادئ التي تحكم الواقع قد انهارت، وأربكت أجدادنا وجعلتهم غير قادرين على فهم ماهية القوانين الجديدة. ويجب فهم الحوار الذي دار بين الفيلسوفين المتوفيين في سياق زمن الغرابة ذاك.

ففي ظلمة القبر، سمع ابن رشد صوت امرأة مألوف بالنسبة له تهمس في أذنه .تكلّم. بحنين عذب مُتّبل بإحساس مفعم بإثم مرّ، تذكّر

دنيا النحيفة كالعود، أمّ أولاده اللقطاء. كانت ضئيلة الجسم، وتذكر أنه لم يسبق له أن رآها وهي تتناول الطعام، وأنها كانت تعاني من صداع مستمر لأنه أخبرها، بأنها لا تحبّ الماء، بل تحبّ احتساء النبيذ الأحمر، مع أن رأسها لم يكن يحتمل ذلك فتثمل بسرعة. فبعد احتساء كأسين اثنين، كانت تتحول إلى شخص مختلف تماماً، فتبدأ تقهقه، وتومئ برأسها، وتحرك يديها، ولا تتوقف عن الكلام، وتقاطع الآخرين في حديثهم، وكانت ترغب دائماً في أن ترقص. وكانت تصعد على منضدة المطبخ لترقص وتدعوه، وعندما كان يرفض مشاركتها، تقطب حاجبيها، وترقص وحدها مظهرة تعابير تنمّ عن الغضب والمشاكسة، وتطلق مشاعرها المكبوتة. وفي الليل، كانت تتعلّق به كما لو أنها ستغرق في السرير إذا أفلتها. كانت تحبّه كثيراً، لكنه هجرها وترك بيتهما دون أن يلقى نظرة واحدة إلى الوراء. وها قد عادت الآن تطارده في سواد قبره الرطب المتهالك.

هل أنا ميت؟ سأل الطيف من دون أن ينبس كلمة واحدة. فلا حاجة للكلمات لأنه لا توجد شفتان لتشكلا تلك الكلمات. نعم، قالت، لقد مت منذ مئات السنين. لقد أيقظتك لأرى إن كنت نادماً. لقد أيقظتك لأرى إن كنتَ لا تزال تستطيع أن تهزم عدوك بعد قرابة ألف سنة من الراحة. لقد أيقظتك لأرى إن كنت مستعدّاً لإعطاء أحفاد أحفادك اسم عائلتك. ففي القبر أستطيع أن أخبرك بالحقيقة. أنا دنيا، زوجتك، لكني أيضاً أميرة الجنيات. لقد فُتحت الشقوق في العالم مرة أخرى، لذلك تمكنت من العودة لأراك مرة أخرى. وهكذا عرف أخيراً أن أصلها لا ينتمي إلى الإنس، ولماذا، فقد كانت تبدو أحياناً، ملطّخة ومجعّدة قليلاً عند حوافها، كأنها مرسومة بخطوط فحم ناعمة. أو من الدخان. وعزا عدم وضوح معالمها إلى ضعف بصره فأبعدها عن تفكيره. لكن،

بما أنها تهمس له في قبره ولديها القدرة على إيقاظه من الموت، فلا بد أنها تنتمي إلى عالم الأرواح، عالم يمتزج فيه قدر من الدخان والسحر. وليست يهودية لا تستطيع أن تقول إنها يهودية، بل جنّية لن تقول إنها تنتمي إلى أصل غير دنيوي. لذلك، فلو كان قد خانها، فإنها خدعته. ولاحظ أنه لم يغضب، من دون أن يجد أن المعرفة هامة جداً. لقد فات الأوان للغضب البشري. أما هي فلديها الحقّ لكي تغضب. وغضب الجنّيات أمر يجب الخوف منه.

ماذا تريدين؟ سألها. هذا هو السؤال الخطأ، أجابته. والسؤال هو: ماذا ترغبين؟ لا يمكنك أن تحقق أمنياتي. لعلي أستطيع أن أحقق أمنياتك، إذا أردتُ. بهذه الطريقة تسير الأمور، لكنّنا نستطيع أن نناقش ذلك لاحقاً. أما الآن فإن عدوك مستيقظ، لقد وجده جنّيه القديم، كما وجدتك أنا. ما هو جنّي الغزالي؟ سألها. فأجابت إنه أكثر الجان قدرة وقوة. أحمق من دون مخيلة، لم يدنه أحد بالذكاء أيضاً، بل بقوى خبيثة. حتى أنني لا أريد أن أقول اسمه. ويبدو لي الغزالي، خصمك، رجلاً ضيّق الأفق، قالت. متزمت، ويستمتع في أن يحوّل متعة عدوه إلى رماد.

بدت كلماتها مخيفة، حتى في القبر. أحسّ بشيء يتحرك في ظلام موازٍ، بعيد، قريب جداً. «الغزالي»، دمدم بلا صوت، «هل من الممكن أن تكون أنت؟»

«ألا يكفي أنّك حاولت تهديم عملي لكنك أخفقت عندما كنت حياً»، أجاب الآخر، «والآن، تظن أنك تستطيع أن تفعل أفضل بعد الموت».

استجمع ابن رشد شظايا كيانه، وقال محيياً عدوه: «لم تعد عوائق

المسافات والزمن تشكل مشكلة، لذلك أصبح بوسعنا أن نناقش الأمور جيداً، بأدب كشخص، وبشراسة كفكرة».

«لقد وجدتُ»، أجاب الغزالي، وقد بدا أشبه برجل فمه مليء بالديدان والتراب، «أن استخدام قدر من الشراسة على الشخص تجلب عادة طريقة تفكير الشخص إلى طريقة تفكيري».

«في جميع الأحوال، قال ابن رشد، «فإننا كلينا خارج تأثير المآثر الجسدية المحسوسة، أو، إن كنت تفضّل، الآثام».

«هذا صحيح» أجاب الغزالي، «إذا كان على المرء أن يضيف، للأسف. حسناً: تابع».

«لنعتبر أن الجنس البشري كائن بشري واحد»، اقترح ابن رشد»، طفل لا يفهم شيئاً، ويتعلّق بالإيمان لأنه يفتقر إلى المعرفة. ويمكن اعتبار المعركة بين العقل والخرافة فترة المراهقة الطويلة للبشر، وسيكون انتصار العقل بلوغ سن الرشد. ليس الأمر أن الله غير موجود، لكن مثل أيّ والد فخور ينتظر اليوم الذي يستطيع فيه طفله أن يقف على قدميه، ويشقّ طريقه في العالم، ثم يتحرر من الاعتماد عليه».

«ما دمت تجادل من الله»، أجاب الغزالي، «ما دمت تحاول بضعف التوفيق بين العقلاني والمقدّس، فلن تهزمني أبداً. لماذا لا تعترف بأنك كافر وننطلق من هنا. لاحظ من هم أسلافك، حثالة الغرب والشرق الكافرة؟ إن صدى كلماتك لا يتردد إلاّ في عقول *الكفار*. لقد نسيك أتباع الحقيقة. إنّ أتباع الحقيقة يعرفون أن العقل والعلم هما فترة الصبا الحقيقية للعقل البشري. إن الإيمان هو الهبة التي أنعم الله علينا بها، والعقل هو تمرّدنا المراهق ضده. وعندما نكبر سنتحول كلية إلى الإيمان كما فُطرنا على عمل ذلك».

«سترى مع مرور الزمن»، قال ابن رشد، «أن الدين في النهاية هو الذي سيجعل البشر يبتعدون عن الله. إن المتدينين هم أسوأ المدافعين عن الله. قد يستغرق ذلك ألف سنة وسنة، لكن في النهاية، فإن الدين سوف يتقلص وينكمش، وعندها فقط سنبدأ نعيش في حقيقة الله».

فقال الغزالي: «جيد. الآن، يا أب عدد كبير من اللقطاء، بدأت تتكلم كما يتكلم الكافر الذي هو أنت»، ثمّ انتقل إلى الأمور المتعلقة بالآخرة ويوم الحساب، الذي قال إنه أصبح الآن موضوعه المفضّل، وتحدّث طويلاً عن نهاية الزمن بنوع من التلذذ أربك ابن رشد وأحزنه. وأخيراً، قاطع الرجل الأصغر سناً الأكبر سناً مخالفاً لآداب السلوك، وقال: «يا سيدي، يبدو كأنك الآن، مع أنك لم تعد سوى حفنة غريبة من التراب، تريد أن تغوص ما تبقى من الخليقة إلى قبرها أيضاً».

«كما ينبغي أن يرغب جميع المؤمنين»، أجاب الغزالي، «لأن ما يدعوه الأحياء حياة هي تافهة عديمة القيمة بمقارنتها بالحياة التالية».

يظن الغزالي أن العالم على وشك أن ينتهي، قال ابن رشد لدنيا في الظلام. إنه يعتقد أن الله عازم على تدمير البشر الذين خلقهم، ببطء، على نحو غامض، من دون تفسير. يجعل الإنسان في اضطراب ليحطم نفسه. يواجه الغزالي هذا المشهد برصانة، وليس فقط لأنه ميت هو نفسه. بالنسبة له، فإن الحياة على الأرض مجرد غرفة انتظار، أو مدخل. أما الخلود فهو العالم الحقيقي. سألته، في هذه الحالة، لماذا لم تبدأ حياتك الأبديّة، أم أن هذا هو كلّ شيء، أن هذا الوعي يمضي ببطء في خواء فوضوي، الذي هو في معظمه، مضجر. فقال إن طرائق الله غامضة، ولو طلب مني أن أتحلى بالصبر، لمنحته كل ما يرغب. لم تعد لدى الغزالي أي رغبات شخصية، كما يقول. وهو لا يسعى إلاّ إلى

خدمة الله. إني أشك في أنه أحمق. هل هذا قاس؟ رجل عظيم، لكنه أحمق أيضاً. وأنتَ، قالتْ بهدوء. ألا تزال لديك رغبات، أو رغبات جديدة لم تكن لديك من قبل؟ تذكّر كيف كانت تسند رأسها على كتفه، وكيف يسند مؤخرة رأسها براحة يده. لكنهما الآن تجاوزا مرحلة الرؤوس والأيدي والأكتاف والاستلقاء معاً. قال إن الحياة بلا جسد ليست جديرة بالعيش.

إذا كان كلام عدوي صحيحاً، قال لها، فإن ربه رب ماكر، لا يعير قيمة لحياة الأحياء، وأرغب في أن يعرف أحفاد أحفادي ذلك، وأن يعرفوا مدى عدائي لمثل هذا الرب، وأن يتبعوني لمواجهة مثل هذا الرب، ودحر مساعيه. إذاً فإنك تعترف بذريتك، همست. إني أعترف بها، قال، وأرجو أن تغفري لي لأنني لم أفعل ذلك من قبل. إن دنيا زاد هي سلالتي وأنا جدّها. وهذه هي أمنيتك، قالت تضغط عليه برفق، أن يصبحوا مدركين بك، وبرغبتك، وبوصيتك. وبحبّي لكم. قال. مدججين بهذه المعرفة، ربما يستطيعون إنقاذ العالم.

نم، قالت، وقبّلت الهواء في المكان الذي كان يضع فيه خده ذات يوم، سأذهب الآن. إني لا أكترث عادة بمرور الزمن، أما الآن، فإن الوقت قصير.

منذ البداية، كان وجود الجان يطرح مشاكل كبيرة للفلاسفة الأخلاقيين: فإذا كانت تصرفات البشر مدفوعة بالجان المطبوع على حب الخير أم المطبوع على حب الشر؛ وإذا كان الخير والشر خارجيين بالنسبة للإنسان وليسا داخليين، غدا من المستحيل تحديد من هو الرجل الأخلاقي. لقد اختلطت المسائل المتعلقة بأعمال الخير والشر كثيراً. ويرى بعض الفلاسفة أن هذا أمر جيد، يعكس الاضطراب الأخلاقي

الفعلي للعصر، وكأثر جانبي سعيد، ويمنح طلاب المبادئ الأخلاقية مهمّة لا نهاية لها.

وفي جميع الأحوال، في الأيام الخوالي قبل انفصال العالمَيْن يقولون إنه يوجد لدى كلّ شخص جنّي أو جنّية تهمس في إحدى أذنيه، وتشجعه على القيام بأعمال صالحة أو طالحة. كيف اختاروا الأشخاص الذين يسكنون فيهم، ولماذا يبدون كل هذا الاهتمام بنا، لا يزال أمراً يشوبه الغموض. ربما لا توجد لديهم أشياء كثيرة يفعلونها. وفي معظم الأوقات، يبدو أن الجان أنانيون، بل حتى فوضويون، يتصرّفون وفق دوافعهم الشخصية البحتة، لايعبأون بأي تنظيم اجتماعي أو نشاط جماعي. لكن هناك أيضاً قصص عن حروب نشبت بين جيوش الجان المتناحرة، ونشوء نزاعات مخيفة هزّت دعائم عالم الجان، وإذا كان ذلك صحيحاً، فإن هذا يفسّر انخفاض عدد هذه المخلوقات وانسحابها منذ فترة طويلة من مكان إقامتنا الجميل. وتحفل الحكايات بالجان السحرة، وبالعفاريت الضخمة التي تخلّف خطوطاً عبر السماء من الجرار الطائرة العملاقة التي تركبها لتوجّه ضربات هائلة، بل حتى ضربات مميتة، إلى أرواح أدنى، مع أنه، في نقيض لذلك، يشاع أحياناً بأن الجان خالدون. هذا غير صحيح، على الرغم من صعوبة قتلهم. فلا يمكن أن يقتل جنّياً إلاّ جنيّ أو جنيّة فقط. كما سيُرى. وكما سنحكي. ما يمكن قوله هو أنّ الجان، عندما يتدخّلون في شؤون الإنس، فإنهم يتحزبون ببهجة، ويضعون هذا الإنسان ضدّ ذاك، ويجعلون هذا غنياً، ويحوّلون ذاك إلى حمار، ويتلبسون أناساً ويسلبونهم عقولهم من داخل رؤوسهم، ويساعدون في السير على طريق الحبّ الصحيح أو يحولون دون ذلك، لكنهم يتعالون على صحبة البشر الفعلية، إلا عندما يُحصرون داخل مصباح سحري، ويكون ذلك، بالطبع، ضدّ إرادتهم.

أما دنيا فهي استثناء بين الجنّيات. فقد نزلت إلى الأرض وهامت في الحبّ إلى حد أنها لم تسمح لحبيبها أن يرقد بسلام حتى بعد ثمانية قرون ونصف القرن وأكثر. ولكي يقع مخلوق في الحبّ، يجب أن يمتلك قلباً، ومهما كنا نقصد ما هي الروح، فلابد أن يتحلى هذا المخلوق بمجموعة من الصفات والميزات التي نطلق عليها نحن البشر «الشخصية». أما الجان، أو أغلبهم، فهم ـ كما يمكن أن تتوقّع، من كائنات مخلوقة من نار أو دخان ـ لا قلب لهم، لا روح لهم، ويتجاوزون مجرد الشخصية. إنهم جوهر الصفات: الطيبة، الشر، الجمال، الاستبداد، العجرفة، الخداع، الرزانة، القوة، الجموح، المراوغة، العظمة. لا بد أن دنيا، عشيقة ابن رشد، عاشت فترة طويلة بين البشر، متنكّرة، بوضوح، حتى تستوعب فكرة *الشخصية* وتبدأ إظهار علامات منها. قد يقول قائل إنها التقطت *الشخصية* من الجنس البشري كما يلتقط الأطفال جدري الماء أو النكاف. ثم بدأت تحبّ الحبّ نفسه، تحبّ قدرتها على الحبّ، تحبّ إيثار الحبّ، التضحية، الغُلمة، الغبطة. بدأت تحبّ حبيبها فيها وهي فيه، لكنها ما وراء ذلك، بدأت تحبّ الجنس البشري لقدرتها على المحبّة، ولعواطفها الأخرى أيضاً. أحبّت الرجال والنساء لأنهم يستطيعون أن يخافوا ويغضبوا ويجبنوا ويشعروا بالغبطة. ولو تخلت عن كونها جنية، لاختارت أن تصبح إنسية، لكن هذه هي طبيعتها ولا يمكنها أن تنكرها. وبعد أن هجرها ابن رشد وجعلها، نعم، حزينة، ونحلت، وحزنت، وصُدمت بإنسانيتها التي تزداد عمقاً. ثم، في أحد الأيام، قبل أن تُغلق الشقوق في العالم، غادرت. ولم تتمكن مئات السنين في قصرها في عالم الجان، ولم يتمكن المزيج اللانهائي الذي يشكل معيار الحياة اليومي في أرض عبقر، أرض الجان، من شفائها. لذلك عندما تكسرت الشقوق

وانفتحت، عادت لتجدد روابطها. وطلب منها محبوبها من وراء القبر أن تعيد توحيد أسرتهما المشتتة وتساعدها على مواجهة الكارثة العالمية القادمة. نعم، ستفعل ذلك، قالت، وانطلقت مسرعة لتنفيذ مهمّتها.

ولسوء الحظ، لم تكن المواطنة الوحيدة في عالم الجان التي عادت وولجت المستويات الإنسانية، ولا توجد في عقولهم جميعاً أفكار عن أعمال صالحة.

الغرابة

يسير ناتراج هيرو في الجادة العريضة مثل الإله الراقص شيفا، إله الرقص، جالباً العالم إلى الوجود وهو يثب. كان ناتراج، الشاب الجميل، يحتقر الطاعنين في السن، ويسخر من جميع الأشخاص ذوي الأقدام العرجاء التي تؤلمهم وذوي الأجسام الثقيلة مثل بهاري. يا بنات، لكن، لا تلقين نظرة ثانية عليه. إنهن لا يعرفن قواه الخارقة، ولا يعرفن أنه خالق الكون وهادمه، ولا يعرنه أي اهتمام. لا بأس: ثييك ثاك. إنه متنكّر في هيئة شخص يعمل محاسب ضرائب. جينيدرا يتجّه الآن إلى مخزن سوبزي ماندي في جاكسون هايتس، في حي كوينز لشراء احتياجاته. جينيندرا كابور المعروف كذلك باسم براون كلارك كانت. انتظر حتى يخلع سترته الخارجية، يا رجل. عندها سيفتشونه جيداً. حتى ذلك الحين، لا يبدي إلا قدراته السرية، يسير وثباً في الجادة السابعة والثلاثين مثل ملك قادم من ديش، البلد القديم، شاهنشاه أو ماهارانا أو ماذا. ناتراج يرقص على شدو البلبل. إنه يشبه هذا فقط. إنه ديل ـ كا شهزادا المعروف أيضاً باسم جاك القلوب في أوراق اللعب.

ليس لناتراج هيرو وجود. إنه الأنا الأخرى المتخيّلة لشاب سيصبح روائياً يكتب روايات مصورة بالرسوم يدعى جيمي كابور. إن قوّة ناتراج

اللا طبيعية تكمن في الرقص. وعندما «يخلع سترته الخارجية»، تتحوّل ذراعاه إلى أربع أذرع، وله أربعة وجوه أيضاً، من الأمام ومن الخلف وعلى الجانبين، وله عين ثالثة في وسط جبهته الأمامية، وعندما يبدأ الرقص على أنغام البهانغرا أو يؤدي أفضل ما يمكنه من حركات الديسكو ـ فهو في جميع الأحوال من حي كوينز ـ يصبح بإمكانه تشكيل الواقع، يصبح قادراً على الخلق أو التدمير. وبمقدرته أن يجعل شجرة تنمو في الشارع، أو يصنع لنفسه سيارة مرسيدس مكشوفة، أو يطعم الجياع، لكن بمقدرته أيضاً تهديم البيوت والقضاء على الأشرار. كان لغزاً بالنسبة إلى جيمي. فلماذا لم يقفز ناتراج ويصعد إلى هيكل جميع الآلهة مع ساندمان والحراس والفارس الأسود وفتاة التانك والمُعَاقِب واللا المرئيين ودريد ومارفيل، وعظماء تيتان ودي سي وجميع الآخرين. ومما يدعو إلى الحزن أن ناتراج ظل راسخاً على الأرض بعناد، وبدأ يعمل محاسب ضرائب في مكتب ابن عمه جيمي في جادة روزفلت، ليحسّ بمصير الفنان الشاب.

بدأ يُنزل على شبكة الإنترنت قصصاً عن مهنة ناتراج هيرو، لكن كبار المسؤولين لم يعيروه أي اهتمام. وفي إحدى الليالي الحارة ـ بعد مائة ليلة وليلة من هبوب العاصفة، مع أنه لم يكن هو الذي أحدثها ـ تسلل ضوء قمر أحمر إلى غرفة نومه في الطابق الثالث عبر نافذته، فاستيقظ مجفلاً. ثمة أحد موجود في الغرفة. أحد...ضخم. ما إن اعتادت عيناه على الظلام، حتى لاحظ أن جدار غرفة نومه البعيد قد اختفى تماماً وحلّت محله دوّامة من الدخّان الأسود بدا في وسطها شيء يشبه نفقاً أسود يفضي إلى أعماق المجهول. لم يستطع رؤية النفق بوضوح لأن شيئاً عملاقاً متعدد الرؤوس والأطراف كان يحجب الرؤية، يحاول أن يطوي هذه الأطراف في حيز غرفة جيمي الضيقة، وبدا أنه يهمّ بتحطيم جدران غرفة النوم الأخرى، ويهمهم متذمراً بصوت مرتفع.

لم يكن يبدو أن ذلك الشيء مصنوع من لحم ودم، إنما بدا أنه مرسوم رسماً. مصدوماً، عرف جيمي كابور أن هذا هو أسلوبه في الرسم، فرانك ميليريسكوي (أمِلَ)، كون ستان لي الثانوي (اعتَرَفَ)، ما بعد فترة ليخشتينشتاينيان (عندما كان في صحبة المغرورين، بمن فيهم هو) وتساءل، «هل عدتُ إلى الحياة؟» لأنه لم يكن، في تلك اللحظة، قادراً على التفكير بعمق أو بذكاء. عندما تكلّم بدا أنه صوت ناتراج هيرو، بدا له مألوفاً، صوت كان قد سمعه في مكان ما من قبل، صدى دوي منبعث من أفواه متعددة ذات سلطة إلهية، القسوة والغضب، النقيض التام لصوت جيمي نفسه، مسكين يتملكه الخوف والإحساس بعدم الأمان والغموض. وكان الردّ الملائم على هذا الصوت هو أن يستسلم ويخضع له. قدّم جيمي كابور الردّ الملائم.

اللعنة يا يار (يا رجل)، لا يوجد مكان يتسع لك هنا، لذلك، عليك أن تصغّر نفسك وتصبح بحجم نملة منيوكة، وإلاّ اقتلعتُ سقف بيتك الكئيب. حسناً، هذا أفضل. هل تراني؟ دقق النظر فيّ؟ ذراع، ذراعان، ثلاث أذرع، أربع أذرع، أربعة وجوه، ثلاثة وجوه، وجهان، وجه واحد، العين الثالثة تنظر مباشرة إلى روحك العابثة. لا، لا، لا يوجد هدر، يجب أن تبدي احتراماً، لأنك خالقي، أليس كذلك؟ ***ها ها ها ها ها.*** *كما لو أن ناتراج العظيم يحلم بأنه محاسب الضرائب في حيّ كوينز وليس موجوداً ويرقص منذ بداية الزمن. منذ، لكي أكون دقيقاً، أن رقصتُ أنا نفسي لأخلق الزمان والمكان.* ***ها ها ها ها ها.*** *لعلك تظن بأنك استدعيتني. أو يخيّل إليك بأنك ساحر.* ***ها ها ها ها ها.*** *أم أنك تظن أنه حلم؟ لا، بابا. لقد استيقظت للتو. وأنا أيضاً. أعود بعد غياب ثمانمائة ـ تسعمائة سنة، بعد غفوات كثيرة طويلة.*

ارتجف جيمي كابور من شدة الخوف. «كيييف دخلـت إلى هنـا؟»

قال متلعثماً، «إلى غرفـــة نومـــي؟» فأجابه ناتراج هيرو «هل رأيت فيلم صائدي الأشباح»؟ ففهم جيمي وقال إنه يشبه ذلك. إنه كذلك. كان من الأفلام الأثيرة لديه، وكان صوت ناتراج يشبه صوت زوول، حارس إله الدمار السومري، غوزر، وهو يتكلم من خلال شفتيْ الممثلة الأميركية سيغورني ويفر. زوول بشيء من اللكنة الهندية .*فُتح الباب بقوة. أضحت الحدود بين ما يتخيّله المتخيّلون وبين ما يرغب به المتخيّلون الآن مليئة بالثغرات كالحدود بين المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية، وجميعنا، نحن الذين كنا محبوسين في المنطقة الشبحية، يمكننا أن نسرع الخطى الآن عبر الفتحات ونهبط إلى هنا كما فعل الجنرال زود الذي يتمتع بقوى خارقة. الكثيرون يريدون أن يأتوا. سنسيطر على الأوضاع بعد فترة وجيزة. مائة وواحد بالمائة. إنس الأمر.*

بدأ ناتراج يومض ويبهت. لم يكن هذا ما يريده. لم يكن الباب يعمل جيداً الآن. حسناً يكفي هذا الآن. لكن ثق تماماً بأنني سأعود. ثمّ مضى وظل جيمي كابور وحيداً يبحلق بعينيه الواسعتين قابعاً في السرير يراقب السحب السوداء وهي تدور بشكل لولبي إلى الداخل حتى تلاشت واختفت في النفق المظلم. ثم ظهر جدار غرفة نومه مرة أخرى وقد أُلصقت عليه صور دون فان فليت المعروف كذلك باسم الكابتن بيفليارت، وسكوت بيلغريم، ولو ريد، وفريق الهيب هوب العنصري البائد من بروكلين، وبطل قصص فوستيان سبون المصورة بالرسوم مثبتة على لوح من الفلين دون أن يطرأ عليهم أي تغيير وكأنهم لم يسافروا إلى البعد الخامس ويعودوا؛ وريبيكا روميجين الظاهرة فقط في الملصق الضخم المثبّت بدبابيس، ورافين دارخولم الأزرق البشرة الذي يتخذ أشكالاً عديدة والذي يُعرف أيضاً باسم اللغز، ويبدو منزعجاً بعض الشيء، كما لو أنه يريد أن يقول، من الذي غيّر شكلي وجعله غير

مألوف ليبث الرعب في نفوس بعض الأشخاص، فأنا وحدي الذي يقرّر متى أغيّر شكلي.

«الآن سابكوتشي يتغيّر، أيها اللغز»، قال جيمي للمخلوق الأزرق في الملصق، «أقصد أن أقول، كلّ شيء. العالم نفسه يغيّر شكله الآن، كما يبدو. أقسم بذلك».

كان جيمي كابور أول من اكتشف الفتحة، ثم، كما حدس، تحوّلت أشكال جميع الأشياء. لكن في تلك الأيام الأخيرة للعالم القديم، العالم كما عرفناه جميعاً قبل حدوث الغرابة، لم يشأ الناس الاعتراف بأن هذه الظواهر الجديدة قد حدثت فعلاً. سخرت أمّ جيمي من حكاية ابنها عن ليلة تحوّله. وأصيبت السّيدة كابور بداء الذئبة، ونهضت فقط لإطعام الطيور الغريبة، الطاووس، وطيور التوكان، والبط. كانت تصرّ على تربّية هذه الطيور لبيعها والتربح منها في قطعة الأرض الخربة تلك المليئة بالتراب والإسمنت خلف المبنى الذي يقيمون فيه، قطعة الأرض الخاوية التي هبط فيها شيء منذ أمد بعيد ولم يُبنَ شيء محلها. إنها تفعل ذلك منذ أربع عشرة سنة ولم يعترض أحد، لكن حدثت سرقات، وفي الشتاء، كانت بعض الطيور تنفق من شدة البرد، وتُسرق أنواع نادرة من البط وينتهي بها الحال على مائدة عشاء أحدهم. وسقط طائر إمو وهو ينتفض ثم نفق. كانت السّيدة كابور تتقبل هذه الأحداث بدون تذمر وترى أنها ظواهر تثبت قسوة العالم وتعبّر عن الكارما الخاصة بها. عندما بدأت توبّخ ابنها لأنه يخلط بين الأحلام والواقع كعادته، كانت تمسك بيدها بيضة نعامة فقست حديثاً.

«ليس الشيء غير العادي هو الشيء الصحيح أبداً»، قالت له عندما

جثم طائر توكان على كتفها ودسّ منقاره في رقبتها. «يتبين دائماً أن هذه الأطباق الطائرة غير صحيحة، أو أنها مجرد أضواء عادية، أليس كذلك؟ فإذا كان هناك أناس يأتون إلى عالمنا هذا من عالم آخر، فلماذا لا يظهرون إلاّ لهبيز مجانين في الصحراء؟ لماذا لا يهبطون في مطار ج. إف. كنيدي كما يفعل جميع الآخرين؟ أتظنّ أنّ إلهاً له عدة سيقان وأذرع وكلّ ذلك سيزورك في غرفة نومك قبل أن يزور الرئيس في مكتبه البيضاوي؟ لا تكن مجنوناً» ما إن أنهت كلامها حتى بدأ جيمي يشكّ في ذاكرته. ربما كان كابوساً حقاً. ربما كان من الحماقة أنه بدأ يبتلع خراءه. وفي الصباح لم يكن هناك أي أثر لناتراج هيرو، صحيح؟ لم تكن هناك قطع أثاث قد أزيحت عن مكانها المعهود أو كوب قهوة ملقى على الأرض. لا توجد صور ممزّقة. بل لا يزال جدار غرفة النوم صلباً وحقيقياً. كالعادة، كانت أمّه المريضة محقّة.

كان والد جيمي قد طار من العشّ مع سكرتيرته قبل عدة سنوات ولم يكن جيمي قد حصل بعد على النقود لشراء بيت له. لم تكن لديه صديقة. كانت أمّه المريضة تريد أن تزوّجه فتاة ناحلة ذات أنف كبير ملتصق باستمرار في كتاب، فتاة جامعية، لطيفة مهذبة في الظاهر، وذات مزاج سيء في الباطن، كما تتصرف تلك الفتيات، لا، شكراً، قال لنفسه، من الأفضل أن أظل وحيداً حتى يحين الوقت المناسب، وعندها سأبدأ بالبحث عن الفتاة المثيرة التي تعجبني. الفتيات الجميلات الفارعات الطول يعشن في نيويورك، والفتيات الجميلات القصيرات القامة يعشن في لوس أنجلوس. كان جيمي سعيداً لأنه يعيش على الساحل الذي توجد فيه الفتيات الممشوقات الجميلات. كان يتطلّع لأن يحظى بإحداهن. أما الآن، فلا توجد عنده صديقة. اللعنة. لا يهمك. الآن، ها هو في المكتب يتشاجر كالعادة مع ابن عمه نورمال، رئيس شركة المحاسبة.

كان يكره أن ابن عمه نيرمال الذي كان يرغب في أن يكون شخصاً عادياً فغيّر اسمه إلى نورمال. حتى أنه كان يكره نيرمال ـ نورمال ـ أكثر عندما كان يتحدّث بلكنة أميركية عادية ركيكة إلى حد أنه كان يظن أن الكلمة التي تعني «اسم» هي مونيكا. وقال جيمي لابن عمه أنّ مونيكر تعني حالياً فنان غرافيتي يرسم على قطار البضائع. تجاهله نورمال. انظر إلى غاوتاما تشوبرا ابن ديباك المشهور، قال نورمال، لقد غيّر مونيكاه إلى غوثام لأنه كان يريد باستماتة أن يكون نيويوركياً. لاعبو كرة السلة أيضاً: السّيد جونسن يريد أن يكون ماجيك، أليس كذلك، والسّيد رون أو رونغ أرتست، لا تصحّحني، أرجوك ـ حسناً ـ السيد أرتيست فضّل أن يكون السّيد ورلد بيس. ولا تنس تلك الممثلات الشهيرات في الزمن الأول، ديمبل وأختها سيبمل، فإذا كانت كل تلك المونيكات مقبولات فعن أيّ شيء تتكلّم. أنا أريد أن أكون نورمال فقط، وما الضير في ذلك، نورمال بالاسم، عادي بالطبيعة. غوثام تشوبرا. سيمبل كاباديا. ماجيك جونسن. نورمال كابور. نفس الشيء. يجب أن تركّز على الأرقام وأن تبعد رأسك عن الأحلام، أليس كذلك. حدّثتني أمّك الطيبة عن حلمك. شيفا ناتراج في غرفة نومك كما رسمه جينيندرا ك. واصل طريقك ذاك، لم لا؟ وإذا مضيت في طريقك هذا فلن تصل إلاّ إلى الحزن والبؤس. هل تريد حياة؟ زوجة؟ بدون مشاكل ومشاجرات؟ ركّز على الأرقام. اعتن بأمّك. توقف عن الأحلام. استيقظ وكن واقعياً. هكذا يجب أن يتصرف نورمال. ستحسن صنعاً إذا حذوت حذوي.

في الخارج، عندما غادر المكتب، كان عيد القدّيسين (الهلاووين) على أشدّه. أطفال، فرق موسيقية تجوب الشوارع في استعراض. كان يجبّ دائماً أن يتفرج على المشاركين في هذا الاحتفال، لكنه لم يرتد قط ملابس مثل بدلة البارون ساميدي، وكان يعترف لنفسه بأن جزءاً من

موقفه الذي يقتل بهجته لأنه لا توجد لديه صديقة، وهو علة عدم وجودها وسببها الجزئي أيضاً. الليلة، بأفكاره المليئة بمظاهر الليلة السابقة، نسي عيد القدّيسين تماماً. راح يجوب الشوارع المليئة بأشخاص في هيئة أموات ومومسات يكشفن عن أثداهن، يستعدّ لمرض أمّه، ومناجاتها بالإحساس بالذنب وواجباتها الخرفة المتمثلة بتقديم البذور للطيور، سأفعل ذلك يا أمّي، قال لها، لكنّها هزّت رأسها بوهن وقالت: لا، يا بني، فلم أعد أصلح لشيء الآن إلاّ لإبقاء طيوري حيّة، وانتظار الموت. كلماتها المعتادة، أبشع قليلاً من «الأموات ينهضون من قبورهم ليرقصوا رقصات الموتى، الليلة ذات الأطياف المقنّعة بأردية رهبان يعتمرون قبعات في شكل هياكل عظمية تحمل مناجل ملاك الموت ويحتسون الفودكا من القنينة بأفواهم الفاغرة في جماجمهم. مرّ بجانب امرأة طلت وجهها بكميات كثيفة من المكياج، ورسمت سحّاباً في وسط وجهها «فُتح» حول فمها ليكشف لحماً دامياً بلا جلد حتى أسفل ذقنها ورقبتها. «لقد تجاوزت كل الحدود يا عزيزتي، قال لنفسه، هذا كثير حقاً، ولا أظن أن أحداً يريد أن يقبلّك هذه الليلة. لكن لم يكن أحد يرغب في تقبّيله أيضاً. لكنه سيلتقي بالبطل الخارق ـ الإله. اللّيلة، قال لنفسه، يملأه الفزع والبهجة. الليلة سنرى من الذي يحلم ومن هو المستيقظ.

وبالفعل، ففي منتصف الليل، ابتُلعت صور الكابتن بيفهيرت، وريبيكا/ميستيك، والصور الأخرى بواسطة الغيمة السوداء الدوّارة، التي فتحت فاهها ببطء لتكشف النفق المفضي إلى مكان شديد الغرابة. لسبب ما ـ كان جيمي يعتقد بأنه لا يتعين على الكائنات الخارقة للطبيعة أن تلتزم بقوانين العقل، فالعقل هو أحد الأشياء التي تتحدّاها وتحتقرها وتسعى للإطاحة بها ـ لم يعبأ ناتراج هيرو هذه المرة بزيارة غرفة النوم

في حي كوينز. ومرة أخرى لسبب ما ـ مع أنّ جيمي نفسه سيعترف لاحقاً بأن للفكر العقلاني علاقة ضعيفة بقراره ـ وتحرك الشاب الذي سيصبح كاتب رواية بالرسوم ببطء باتجاه الغيمة الدوامة وبحذر، كما لو أنه يختبر درجة حرارة ماء حوض الحمام، أدخل ذراعه في وسط الحفرة المظلمة.

الآن، بعد أن عرفنا عن حرب العالميْن، الحدث الرئيسي الذي كان مقدمة *للغرابة*، الجائحة الغريبة التي لم ينج الكثير من أسلافنا، لا يمكننا إلاّ أن نبدي إعجابنا بشجاعة جينيندرا كابور الشاب عندما واجه ذلك الشيء المجهول المرعب. فعندما سقطت أليس في جحر الأرنب، لم يكن ذلك سوى حادث، لكنها عندما سارت عبر المرآة، فقد فعلت ذلك بملء إرادتها، وكان عملاً يتسم بشجاعة لا نظير لها. وكذلك كان الأمر بالنسبة لجيمي ك. الذي لم يكن يمتلك القوة الكافية ليسيطر على أول ظهور للفتحة، أو على دخول العفريت العملاق، الجني الأسود، متنكّراً بهيئة ناتراج هيرو إلى غرفة نومه. وفي الليلة الثانية هذه، كان هو الذي اختار ذلك. هناك حاجة إلى رجال مثل جيمي في الحرب التي ستنشب بعد ذلك.

عندما أدخل جيمي ذراعه في الحفرة، كما أخبر أمّه وابن عمه نورمال بعد ذلك، حدثت أشياء عديدة بسرعة كبيرة. فأولاً، شُفِط على الفور إلى داخل ذلك الفضاء الذي لم تعد تسري فيه قوانين الكون، وثانياً، فَقَدَ إحساسه في الحال عن وجود المكان الأول، المكان الذي اكتشف أنه لم تعد لفكرة المكان معنى، وحلّت محلها السرعة. ولم يعد للكون ذي السرعة الصافية والقصوى أي نقطة أصل أو بدء، ولا الانفجار الكبير، ولا أسطورة الخلق، في حين كانت القوة الوحيدة الفعالة هي القوة التي تُسمّى «عزم القوة» الذي يمكّن الإحساس بتأثير

سرعته كوزن. ولو كان الزمن موجوداً هنا لسُحق وأصبح عدماً في جزء من الألف من الثانية. في ذلك الزمن السرمدي كان لديه وقت ليدرك بأنه ولج نظام انتقال العالم إلى ما وراء ستار الحقيقة، شبكة المترو تحت الجلدية التي تعمل تحت بشرة العالم الذي يعرفه، والتي مكّنت كائنات كهذه كالجان الأسود، ولم يكن يعرف مَنْ أو أي شيء آخر يتحرّك بسرعة ـ بسرعة تفوق سرعة الضوء حول أرضهم التي لا قانون لها، والتي لم تعد كلمة أرض تلائمها. كان لديه وقت ليفترض بأنه لأي سبب لا عقلاني، عزلت السكة الحديدية تحت الأرض في أرض الجان عن اليابسة منذ زمن مغرق في القدم، لكنها بدأت تنشقّ الآن وتتشكل أبعادها الحقيقية لتجترح المعجزات أو لتعيث فساداً وخراباً في صفوف البشر.

أم أنه لم يكن لديه وقت للتفكير بهذه الأفكار التي بدأت تجول في رأسه بعدما كُتبت له الحياة، لأن ما أحسّ به هناك في نفق الدخان الأسود الذي يدور في دوامة كان يندفع نحوه أو نحو شيء أو شخص لم يستطع أن يراه أو حتى يسمع اسماً، ثم بدأ يُدفع بقوة إلى الخلف باتجاه غرفة نومه فتمزقت منامته وسقطت من جسمه فاضطر إلى ستر عورته بيديه العاريتين أمام المرأة الواقفة أمامه. امرأة شابّة جميلة ترتدي ثوباً عادياً كالذي ترتديه الشابّات في عمرها: بنطلون جينز أسود ضيّق، وبلوزة سوداء، وحذاء طويل له رباط حتى الكاحل. فتاة نحيفة ـ أنحف من الفتاة التي أرادت أمّه أن تزوّجها له، لكن لها أنف جذاب أكثر بكثير، من ذلك النوع من الفتيات اللاتي يحبّ مواعدتهن، لكنها لم تكن ممشوقة الجسد، فارعة الطول، ومع ذلك لم يعبأ بذلك كثيراً، إلا أنه بالرغم من ذلك، أو بسبب جمال جيدها النحيف مثل العود، عرف أنها ليست الفتاة التي تهفو إليها نفسه، *انس الأمر يا جيمي*، لا تتصرف

بحماقة، *استرخ*، *تصرّف بهدوء*. إنها الفتاة التي أنقذته من دوّامة السرعة والتي يبدو أنها كائن من العالم الآخر، جنيّة أو بيري من بيريستان، تكلّمه. ما هذا الشيء الذي يحدث له الآن: لقد ملأت رأسه. يا *إلهي*، يا رجل. لا توجد عبارات أخرى سوى التعبير عن الدهشة.... يا *إلهي*.

لا يُعرف أن لدى الجان حياة عائلية. (لكنهم يمارسون الجنس. إنهم يمارسونه طوال الوقت) وبالرغم من وجود أمهات أو آباء من الجان، فإن أجيال الجان قديمة جداً إلى حدّ أن الروابط بين الأجيال تتآكل في معظم الأحيان. وكما سنرى، فإن الآباء الجان وبناتهم الجنّيات، نادراً ما يكونون على وفاق. والحبّ عملة نادرة في عالم الجان. (أما الجنس فلا يتوقف عندهم). ونعتقد أن لدى الجان القدرة على إبداء العواطف الأدنى ـ الغضب، الاستياء، نزعة الانتقام، التملك، الاشتهاء (خاصة الشبق) ـ بل ربما حتى بعض أشكال المودّة؛ أما المشاعر النبيلة العالية، كالإيثار والولاء، وما شابه ذلك، فهم لا يعرفونها. وفي هذا الأمر، كما في أمور كثيرة أخرى، أثبتت دنيا أنها جنيّة استثنائية.

لا تطرأ تغييرات كثيرة على الجان على مدى السنوات. فالوجود بالنسبة لهم يرتبط كلية بالكينونة لا بالصيرورة. لذلك فقد تكون الحياة في عالم الجان مملّة مضجرة (ماعدا ممارسة الجنس). وبطبيعتها، فإن الكينونة حالة خاملة، لا تتغيّر، مملّة، أبديّة، وخالدة (باستثناء الجنس الذي لا يتوقف). لذلك كان عالم الإنس على الدوام جذاباً جداً للجان. إن طريقة الإنس في العمل، والحقيقة الإنسيّة تكمن في التغيير، فهم ينمون ويكبرون ويذوون ويكافحون ويفشلون ويشتاقون ويحسدون ويرتزقون ويخسرون ويحبّون ويكرهون. باختصار فإن الكينونة شيء مثير

للاهتمام. وعندما أصبح بمقدرة الجان التحرّك والانتقال عبر الشقوق بين العالميْن والتدخّل في جميع نشاطات الإنس، وعندما أصبح بمقدرتهم ربط شبكة الإنس أو حلّها أو تسريّع التحوّل اللانهائي أو الحيلولة دونه في حياة الإنس، وفي علاقات الإنس، وفي مجتمعات الإنس، فقد بدأوا يشعرون، للمفارقة، بأن هذا العالم يلائمهم أكثر بكثير من العيش في عالم الجان الساكن الذي تنعدم فيه الحركة. والإنس هم الذين سمحوا للجان أن يعبّروا عن أنفسهم، وجمع ثروات طائلة لصيّادي السمك المحظوظين، وسجن الأبطال في شباك سحرية، وإبطال التاريخ أو تمكّينه، والانحياز في الحروب، بين قورش وباندافاس مثلاً، أو بين اليونانيين وسكان طروادة، ولعب دور كيوبيد (إله الحب) أو جعل وصول حبيب إلى محبوبته مستحيلاً، فتتقدم الحبيبة في السنّ، وتعيش حزينة بقية حياتها، ثم تموت وحيدة وهي قابعة بجانب نافذتها تنتظر وصول محبوبها.

بدأنا نعتقد الآن بأن طول العمر الذي لم يكن باستطاعة الجان التدخّل من خلاله في شؤون البشر قد ساهم في الشراسة التي بدأوا يظهرونها عندما دخلوا إليه مرة أخرى بعد أن كُسرت الأختام بين العالميْن. كلّ تلك القوّة الإبداعية والتدميرية المكبوتة، وكلّ تلك الأشياء الجيدة والمكائد الشريرة، انفجرت فوقنا كالعاصفة. وبين جنّ السحر الأبيض وجنّ السحر الأسود، الجان المتألق والجان المظلم، نشأت عداوة في منفاهم في بيريستان، وأصبح الإنس البديل لهذه العداوة. ومع عودة الجان، فقد تغيّرت قواعد الحياة على الأرض، فأضحت متقلّبة في حين كان يجب أن تكون مستقرّة وفضولية بالرغم من أن الخصوصية أفضل، وخبيثة إلى درجة لا توصف، وتمييزية مع شيء من الاعتبار للإنصاف، والسرّية وفق أصولها الباطنية، ولا أخلاقية لأن هذه هي

طبيعة الجان الأسود، مغبشة بدون أي اعتبار للشفافية، وغير مسؤولة أمام سكان الكوكب. ولكونهم جان، فلم تكن لديهم نيّة في تعليم الإنس تلك القواعد الجديدة.

أما بالنسبة إلى الجنس، فصحيح أن الجان يمارسون الجنس مع الإنس أحياناً، ويتخذون الشكل والهيئة التي يريدونها، ويجعلون أنفسهم محبوبين وممتعين لقرينهم، حتى أنهم يغيّرون نوع جنسهم أحياناً، ولا يكترثون كثيراً بإظهار الحشمة واللياقة. بيد أنّ هناك حالات قليلة جداً حملت فيها جنيّة أطفالاً من الإنس. ويحدث ذلك كما لو أن نسمة تلقحّها الشعرة التي تكدّر صفوها فتلد شعرات أخرى. ويشبه ذلك أيضاً القصّة التي اقترنت مع قارئها فأنجبت قارئاً آخر. وغالباً ما تكون الجنيات عاقرات ولا يبدين أدنى اهتمام بالمشاكل التي تشغل البشر كالأمومة وتحمّل المسؤوليات العائلية. وهكذا سيتضح بسهولة أن دنيا، أمّ سلالة دنيا زاد الرئيسية، كانت أو أنها لم تعد تشبه كثيراً معظم بني جلدتها. فهي لم تنجب ذرية بالطريقة التي تعلّم فيها هنري فورد إنتاج السيارات، والطريقة التي يكتب فيها جورج سمينون رواياته، أي، مثل مصنع، أو بشكل صناعي فحسب، إنما استمرت كذلك في إبداء اهتمام بهم جميعاً، لأن حبّها لابن رشد انتقل بصورة طبيعية، بشكل أمومي، إلى أحفادهما. ربما كانت الأمّ الحقيقية الوحيدة لجميع الجنيّات الكائنات، وعندما شرعت تنفذّ المهمّة التي طلبها منها الفيلسوف العظيم، أصبحت تحمي أيضاً ما تبقّى من ذريتها المشتتة بعد وحشيّة القرون، وافتقدتهم بألم شديد خلال فترة انفصال العالميْن الطويلة، واشتاقت إلى إعادتهم وضمهم تحت رعايتها.

هل تفهم لماذا لا تزال حياً، سألت جيمي كابور، الذي شدّ غطاء السرير حوله بشيء من الخجل، ثم أجاب، «نعم». كانت عيناه مليئتين

بالدهشة، «لأنك أنقذتِ حياتي». «هكذا إذاً»، قالت وأمالت رأسها. لكنك كنت ستموت قبل أن أصل إليك، وكنت ستُسحق وتصبح إرباً في الجرّة العظيمة، إن لم يكن لسبب آخر.

رأت خوفه، ارتباكه، عدم قدرته على استيعاب ما يحدث له. لم يكن بإمكانها أن تفعل غير ذلك. كانت تهمّ بأن لا يتمكن من فهم حياته بسهولة. قالت له سأخبرك أشياء لن تصدّقها بسهولة. وبخلاف أيّ إنسي آخر، فقد دخلتَ الجرّة، الدهليز الذي يفصل بين العالميْن، ونجوت، لذلك أصبحت تعرف الآن أنه يوجد عالم آخر. وأنا أنتمي إلى ذلك العالم، جنيّة، أميرة قبيلة الجان الأبيض، وأنا أيضاً جدّة جدّة جدّة جدّة جدّة جدّتك، مع أنني قد أكون قد نسيت ذكر جدّة أو جدّتين. لا تهتم بذلك. ففي القرن الثاني عشر، أحببت جدّ جدّ جدّ جدّ جدّ جدّك، جدّك الأكبر المشهور الفيلسوف ابن رشد، وأنتَ، جينيندرا كابور، الذي لا تستطيع أن تتعقب تاريخك العائلي لأكثر من ثلاثة أجيال، ثمرة ذاك الحبّ العظيم، لعله أعظم حبّ في التاريخ بين قبائل الإنس والجان. وهذا يعني أنّ جزءاً منك، مثل جميع أحفاد ابن رشد، سواء أكانوا يهوداً أو مسيحيين أو مسلمين أو ملحدين هم من الجان أيضاً. وبما أن الجانب الجني أقوى بكثير من الجانب الإنسي، فهو قوي جداً فيك، وهذا ما ممكنك من النجاة والبقاء حياً بعد زوال الآخر هناك، لأنك أنت الآخر أيضاً.

صاح «يا إلهي، ألا يكفي أن أكون رجلاً داكن البشرة أعيش في أميركا، وأنتِ تقولين لي الآن بأنني نصف عفريت منيك أيضاً».

يا له من شاب، قالت لنفسها، وهو أقوى مما يعرف، لأنه لو رأى الكثير من الرجال ما رآه في الليلتين الماضيتين، لفقدوا صوابهم، أما

هو، وبالرغم من الذعر الذي تملكّه، فإنه لا يزال رابط الجأش. إن الشجاعة التي يتصّف بها الإنس التي تتيح لهم أفضل فرصة للبقاء على قيد الحياة، هي قدرتهم على رؤية الأشياء التي يستحيل تصوّرها، الأشياء اللا معقولة التي لم ترها العين مباشرة قط. هذا النوع من الأشياء التي يواجهها الشاب جينيندرا في فنّه، من خلال إلهه الهندوسي الثانوي (ولهذا السبب، الفاشل) الذي غُرس في نفس البطل الخارق في حي كوينز: الوحش الذي انبعث من الأعماق، دمار القرية التي هي مسقط رأسك، واغتصاب أمهاتك، وبلوغ شمس أخرى في السماء وإبطال الليل الذي أعقب ذلك، وبصوت ناتراج هيرو أجاب مذعوراً باحتقار، أهذا كلّ ما لديك، أهذا أفضل ما لديك، لأننا نستطيع أن نتعامل معك، يا ابن القحبة، يمكننا أن نرميك إلى الأسفل. الآن، بعد أن أبدى شجاعة في القصة المتخيّلة، بدأ يكتشفها في حياته الحقيقية. وكان قد خلق أول كتاب مصور بالرسوم كتبه أول وحش تعيّن عليه مواجهته.

تحدّثت برقة، بأسلوب أمومي، مع هذا الشابّ الشجاع، وقالت له: هدئ من روعك، لأن عالمك يتغيّر. ففي أثناء التحولات الكبرى، عندما تهبّ الرياح ويرتفع مدّ التاريخ، تصبح هناك حاجة ماسة لاستدعاء الرؤوس الهادئة لتوجّه الطريق إلى المياه الهادئة. سأكون هنا معك. جدّ الجني القابع في داخلك، وقد تصبح بطلاً أكبر من ناتراج الذي هو أنت. إنه هناك. ستجده.

أُغلقت الفتحة. كان جالساً على حافة سريره واضعاً رأسه بين يديه. «هذا ما يحدث لي الآن»، تمتم، «إنهم يبنون محطة قطارات عبر العالم على بعد متر من سريري. ألا توجد رخصة بناء يا هذا. لا، لا توجد، مثل قوانين تقسيم المناطق في الفضاء الفوقي؟ «*إيما لماذا لا تقدّمين شكوى بذلك. إيما اتصلي بالرقم ٣-١-١ الآن*» كانت الهستيريا التي

تملكّته تتحدّث. دعتها تخرج من تلقاء نفسها. هذا هو أسلوبه في التعامل مع حالات كهذه. انتظرت. ألقى بنفسه على سريره واهتزّ كتفاه. كان يحاول إخفاء دموعه عنها. تظاهرت بأنّها لم ترها. لقد جاءت لتقول له إنه ليس وحيداً، جاءت لتعرّفه على أبناء عمومته. وبتأن، غرست هذه المعلومات في عقله. الجانب الجنّي الذي فيه، استوعب، فهم، عرف. أصبحت تعرف أين هم الآن، قالت له. يمكن أن يساعد أحدكم الآخر في الزمن القادم.

انتصب واقفاً، أمسك برأسه مرة أخرى، وقال: «لست بحاجة إلى كلّ هذه المعلومات الآن، إني بحاجة إلى فيكودين».

انتظرت. سيرجع إليها قريباً. نظر إليها وحاول أن يبتسم، ثم قال: «هذا كثير. مهما كنتِ... مهما كنت تقولين من أنا، فإني أحتاج إلى بعض الوقت».

فقالت له: «لا يوجد عندك وقت، لا أعرف لماذا فُتحت البوابة في غرفتك. أعرف أن ما ظهر ليلة البارحة لم يكن ناتراج هيرو خاصتك. لقد اتخذ أحدهم تلك الهيئة ليخيفك، أو لأن ذلك كان شيئاً مضحكاً. شخص يجب أن تأمل بأن لا تلتقي به مرة أخرى. انتقل من هذا البيت. خذ أمّك إلى مكان آمن لأنها لن تفهم. لن ترى الدخان الأسود الدوّار لأنها ليست من سلالة دنيا زاد، لأن ذلك يأتي من جانب والدك.

«هذا الوغد»، قال جيمي، «لا بد أنه اختفى مثل جنّي. لم يودعنا، بل اختفى في هبّة دخان مع العصفورة السكرتيرة».

خذ أمّك بعيداً من هنا، قالت له دنيا. لم يعد المكان آمناً لأيّ منكما هنا.

«يا إلهي»، قال جيمي كابور متعجباً، «أسوأ عيد قديسين رأيته في حياتي».

إن اكتشاف فتاة رضيعة في مكتب رئيسة البلدية المنتخبة مؤخراً، روزا فاست، مقمّطة بالعلم الوطني الهندي تهمهم بسعادة في مهد وضع على طاولة مكتب رئيسة البلدية جعل بعض المواطنين العاطفيين والذين يؤمنون بالخرافات يستحسنون الأمر، خاصة عندما أُعلن بأن الطفلة لا تتجاوز الأربعة أشهر من العمر، ولا بدّ أنها ولدت في أثناء هبوب العاصفة العظيمة، ونجت منها. وأطلقت عليها وسائل الإعلام اسم بيبي ستورم، أو *طفلة العاصفة*، وعلق بها هذا الاسم. ثم أصبح يطلق عليها اسم *ستورم دو*، أو *ظبية العاصفة*، مستحضرين صورة ظبية تواجه العاصفة بشجاعة تنتصب على ساقين مرتعشتين: بطلة تلك الأوقات الآنية التي سرعان ما أصبحت في طي النسيان. ولن يطول الأمر، حَدَسَ بعض أسلافنا عندما رأوا ملامحها البادية على وجهها الجنوب آسيوية، قبل أن تكبر بما يكفي وتصبح بطلة مسابقة التهجئة الوطنية. وطُبعت صورتها على غلاف مجلة «الهند في الخارج» وأضحت الموضوع الرئيسي في معرض «الصور الخيالية» عن مستقبلها، وعندما تكبر في العمر، الذي أقامه عدد من فناني نيويورك البارزين برعاية منظمة للفنون الهندية الأمريكية، وبيعت الصور بالمزاد العلني لجمع التبرعات، لكن لغز وصولها أثار غضب الذين كانوا غاضبين أصلاً من انتخاب امرأة ذات ميول تقدمّية رئيسة للبلدية للمرة الثانية على التوالي. لم يكن من الممكن أن يحدث ذلك قط، صاح الرجال الذين يحنّون إلى الماضي، إلى أيام الرجال القساة. وسواء أوافق بقية أسلافنا أم لم يوافقوا، فقد بدا

وصولها إلى طاولة مكتب رئيسة البلدية فاست في هذا العصر من الحراسة المشدّدة، أشبه بمعجزة صغيرة.

من أين جاءت ستورم دو وكيف دخلت إلى دار البلدية؟ أظهرت الأدلة المجمعة من مجموعة كاميرات المراقبة التي تصوّر دار البلدية على مدار الساعة امرأة تضع على وجهها قناعاً أرجواني اللون اجتازت جميع نقاط التفتيش في ساعة متأخرة من الليل، وهي تحمل مهداً صغيراً، ولم تجذب ذرة انتباه واحدة، كأنها تمتلك قوة تجعلها غير مرئية، إن لم يكن من الكاميرات، فعلى الأقل من الأشخاص القريبين منها مباشرة، والضباط الذين يراقبون شاشات الأمن أيضاً. فقد دخلت المرأة بكل بساطة إلى مكتب رئيسة البلدية، ووضعت الطفلة على طاولة مكتبها ثم غادرت. وضرب أسلافنا أخماساً بأسداس حول هذه المرأة. هل استغلّت توقف جهاز التصوير بطريقة ما أم أنها كانت ترتدي عباءة الإخفاء؟ وحتى لو كانت ترتدي تلك العباءة، ألن تكون هي أيضاً غير مرئية للكاميرات؟ وبدأ الناس الواقعيون يتحدّثون بجدية على موائد العشاء عن القوى الخارقة للطبيعة. لكن لماذا يتعين على امرأة تتمتع بقوى خارقة أن تترك طفلتها؟ وإذا كانت هي أمّ الطفلة، فألا تمتلك ستورم دو بعض الصفات السحرية أيضاً؟ ربما... لأن من المهم عدم استبعاد الاحتمالات غير السارة في زمن الحرب على الإرهاب...هل من الممكن أن تكون امرأة خطيرة؟ وعندما ظهرت مقالة بعنوان: «هل بيبي ستورم قنبلة بشرية موقوتة ؟» لقد أدرك أسلافنا أن الكثيرين منهم تخلّوا عن قوانين الواقعية منذ أمد بعيد، وشعروا بارتياح كبير في أبعاد الأشياء المتخيّلة الأكثر إثارة. وكما أبانت الأحداث بعد حين، فقد كانت بيبي ستورم حقاً زائرة من بلاد اللا ممكن، لكن في البداية، انهمك الجميع في إيجاد بيت لها.

تنحدر روزا فاست من عائلة أوكرانية يهودية غنية تقيم في برايتون بيتش، وترتدي عادة بدلات أنيقة من ماركة رالف لورين، «لأن أهله كانوا جيراننا»، كان يحلو لها أن تقول، «لكن ليس في شيبشيد باي»، وهي تقصد أن رالف ليفشيتز الذي يقيم في حيّ البرونكس له أسلاف من روسيا البيضاء، المجاورة لبلدها «أوكرانيا». لقد صعد نجم فاست عندما سقط نجم رئيسة البلدية فلورا هيل، ولم يكن هناك حبّ ضائع بينها وبين رئيسة البلدية المنتهية ولايتها. كانت فترة إدارة رئيسة البلدية هيل مليئة بمزاعم عن ارتكاب مخالفات مالية، وتحويل أموال إلى حسابات فرعية سرّية، وأُتهم اثنان من زملائها المقربين إليها، لكن الأوساخ لم تطل مكتب رئيسة البلدية، بالرغم من أن بعض الروائح الكريهة بدأت تتسلل إليه. إن حملة روزا فاست الانتخابية الناجحة التي ارتبطت بالوعد الذي قطعته على نفسها بتطهير مبنى البلدية من الفساد، لم يجعلها محبوبة من رئيسة البلدية السابقة فلورا هيل التي وصفت رئيسة البلدية خليفتها عندما غادرت المكتب بأنها «امرأة ملحدة لا تُظهر إلحادها علناً»، فأثار ذلك غضب فاست روزا التي كانت، في حقيقة الأمر، قد ابتعدت كثيراً عن دين أسلافها، لكنها كانت تشعر بأنّ ما تفعله في مقصورة الإلحاد يخصّها هي وحدها فقط ولا يخصّ أحداً آخر. واعترفت روزا فاست، المطلّقة، وغير المرتبطة حالياً التي تبلغ الثالثة والخمسين من عمرها، ولا يوجد لديها أطفال، بأنها تأثرت كثيراً بمحنة بيبي ستورم وعزمت على أن تبذل كلّ ما بوسعها لترى الفتاة الصغيرة تشقّ طريق حياتها الجديدة بأمان، وإن أمكن، بعيداً عن متناول الصحافة الشعبية. وتبنّت إحدى الأسر الطفلة بيبي ستورم، وسُجلّت باسم والديها الجديدين لتبدأ حياة جديدة باسم جديد. وبعد عدة أسابيع، اتصل الأبوان الجديدان بمنتج برنامج تلفزيون الواقع، واتفقا

معه على إعداد برنامج تلفزيوني باسم «ستورم ووتش» يتتبّع مسيرة نمو الطفلة النجمة. وعندما سمعت روزا فاست هذا الخبر، انفجرت غاضبة وصاحت في وجوه المسؤولين عن إدارة التبنّي الذين سلّموا طفلة بريئة إلى أشخاص يحبّون الاستعراض الإباحي الذين لن يتوانوا عن الظهور على شاشة التلفزيون في أوضاع إباحية إذا ما شجعهم أحد على ذلك.

«خلصّوها من براثن هؤلاء المجرمين»، صاحت، مستخدمة التعبير العامي الذي يستخدمه برنامج الواقع الذي أصبح شائعاً مع أن شبكة التلفزيون التي أطلقته لم تعد تذيعه، لأن برامج الخدع الكاذبة التي تُعرض على أنها واقعية غزت محطات التلفزة بالكابل إلى درجة أن مقدم البرنامج الأصلي بدأ يرى أنه أصبح برنامجاً مكرراً. وعرف الجميع أنه أصبح من الجدير أن يتخلّى المرء عن خصوصيته فقط لإمكانية أن ينال شيئاً من الشهرة، وأن فكرة تمتع الفرد بخصوصيته المستقلة والحرة ضاعت في موجات الأثير الساكنة. وهكذا أصبحت الطفلة ستورم عرضة لخطر التشهير، فاستشاطت رئيسة البلدية غضباً. لكن ما حدث في اليوم التالي هو أن الأب بالتبنّي الذي كان يسعى إلى الشهرة في برنامج الواقع، أعاد الطفلة إلى إدارة التبنّي، وقال للمسؤولين فيها: «أعيدوها فهي مريضة»، وخرج يجري لا يلوي على شيء، لكن ليس قبل أن يرى الجميع القرحة التي نبقت على وجهه، تلك البقعة المتعفنة، المتآكلة، وبدا أنّ بقعة من خدّه قد تآكلت وبدأت تتفسخ، فنُقلت الطفلة بيبي ستورم إلى المستشفى لإجراء فحوص طبيّة، لكنها أُعطيت شهادة تثبت بأنها سليمة صحياً. وفي اليوم التالي، بدأ جلد الممرضة التي كانت قد حملتها يتفسخّ أيضاً، وظهرت على ساعديها لطخ من اللحم الفاسد النتن. وعندما اندفعت وهي تجهش في البكاء بشكل هستيري إلى غرفة الطوارئ، اعترفت بأنها كانت تسرق الوصفات الطبية وتبيعها إلى تاجر في بوشويك لتحصل على قدر إضافي من المال.

كانت رئيسة البلدية روزا فاست أول من فهم حقيقة ما يجري، وعرفت مَنْ الذي جلبَ الغرابة إلى الميدان والذي يمكن التحدّث عنه بحق في *نشرات الأخبار*. «بمقدرة هذه الطفلة المعجزة أن تضع اصبعها على الفساد»، قالت لأقرب مساعديها، «فما أن تشير بإصبعها إلى الفاسدين، حتى تبدأ علامات انحطاطهم الخلقي تظهر على أجسامهم». لكن مساعديها حذّروها بأنّ هذا الكلام يشير إلى *الديبوك والغويلم*، تلك الشياطين وأرواح الأموات التي تتلّبس أشخاصاً أحياء والتي كانت سائدة في عالم أوروبا القديمة، وقد لا يليق بأن يخرج من فم امرأة سياسية معاصرة، إلا أن ذلك لم يردع روزا فاست، وقالت: «لقد جئنا إلى المكتب لننظف هذا المكان، وقد منحنا الحظ هذه «المكنسة البشرية» التي يمكننا بواسطتها أن نكنس المكان ونجعله نظيفاً». كانت من ذلك النوع من الملحدين الذين يؤمنون بحدوث معجزات لكن بدون عزوها إلى مصدرها الإلهي. وفي اليوم التالي، جاءت اللقيطة التي أعيدت إلى إدارة رعاية التبني، لزيارة مكتب رئيسة البلدية.

دخلت بيبي ستورم للمرة الثانية إلى مبنى البلدية مثل كاسحة ألغام بشرية صغيرة أو مثل كلب ألزاسي يشمشم بحثاً عن مخدرات. عانقتها رئيسة البلدية بحرارة كما يليق بأن تعانق امرأة بروكيلنية ـ أوكرانيّة، وهمست في أذنها، «هيا لنبدأ العمل يا طفلة الحقيقة». وما أعقب ذلك مباشرة أصبح شيئاً أسطورياً. فخلال تنقلها من غرفة إلى غرفة، ومن إدارة إلى إدارة، بدأت تظهر مظاهر الفساد والانحطاط على وجوه الفاسدين والمنحلّين أخلاقياً، والمتلاعبين في سجلات النفقات، والموظفين الذين يقبضون أموالاً سرّاً لقاء إبرام عقود مع البلدية، والذين يقبلون ساعات الرولكس والقيام برحلات بطائرات خاصة، وأخذ حقائب هيرميس محشوة بأوراق نقدية، وجميع المستفيدين السريين من

العاملين في الإدارات البيروقراطية. وبدأ المنحرفون يعترفون حتى قبل أن تقترب منهم الطفلة المعجزة، أو يهربون من المبنى ليلاحقهم القانون.

كانت رئيسة البلدية روزا فاست نظيفة اليد. وظهرت رئيسة البلدية السابقة على شاشة إحدى محطات التلفزيون وسخرت من رئيسة البلدية الحالية، وقالت: «إنها تستخدم تعاويذ ورقى دينية لا معنى لها». فأصدرت روزا فاست بياناً مقتضباً دعت فيه فلورا هيل «إلى زيارتها ومقابلة هذه الطفلة الجميلة،»، لكن هيل رفضت تلبية الدعوة. وأثار دخول بيبي ستورم إلى قاعة المجلس الذعر في نفوس الأعضاء، وراحوا يتراكضون بسرعة نحو منافذ الخروج. أما الذين ظلوا جالسين في أماكنهم، فقد أثبتوا أنهم محصّنون من قوى الطفلة، وأنهم، رجالاً ونساء، شرفاء. وقالت رئيسة البلدية فاست «أظن أننا أصبحنا نعرف أخيراً من هو الصالح ومن هو الطالح».

كان من حسن حظ أسلافنا أن يكون لديهم في ساعة كهذه رئيسة بلدية مثل روزا فاست. «فالمجتمع الذي لا يستطيع أن يتفق على وصف نفسه، وكيف تسير الأمور في المجتمع، والأوضاع السائدة فيه، فهو في ورطة. ومن الواضح أن أحداثاً من نوع جديد، أحداثاً من ذلك النوع الذي كنّا سنصفه حتى فترة وجيزة بأنها أحداث هائلة لا يمكن أن تحدث، قد بدأت تحدث، بل ربما بموضوعية. يجب أن نعرف ماذا يعني هذا، وأن نواجه بشجاعة وبذكاء التغيرات التي قد تطرأ». وأعلنت أن خطوط الهاتف على الرقم ٣١١ أصبحت متاحة حالياً لمن يرغب في الإبلاغ عن حدوث حوادث غير عادية، مهما كان نوعها. وقالت: «دعونا نحصل على الحقائق، وننطلق منها». أما بيبي ستورم، فقد تبنّتها رئيسة البلدية نفسها، وقالت لنا: «إنها ليست فخري وبهجتي فحسب، وإنما هي أيضاً سلاحي السري، فلا تحاولوا إهانتي أو إهانة طفلتي لأن علامة القرون الوسطى ستظهر على وجوهكم».

ثمة عيب واحد في أن تكوني أمّاً بالتبّني لطفلة الحقيقة، قالت لمواطنيها في برنامج الفطور التلفزيوني، «فإذا قلت في حضورها كذبة بيضاء مهما كانت صغيرة، فإني أبدأ أهرش وجهي كلّه بشكل مخيف».

بعد مئتي يوم ويوم من هبوب العاصفة العظيمة، نشر الموسيقار البريطاني هوغو كاستربردج مقالة في صحيفة النيويورك تايمز أعلن فيها عن تشكيل مجموعة ثقافية جديدة تهدف إلى فهم التحولات الجذرية التي تطرأ على أحوال العالم واستحداث سبل للتصدي لها. وكانت هذه المجموعة التي تعرّض أعضاؤها إلى انتقادات لاذعة بعد أيام قليلة من نشر المقالة بأنهم ليسوا سوى حفنة من أشباه المفكرين، مع أنهم كانوا، على نحو لا يمكن إنكاره، علماء أحياء يظهرون على شاشات التلفزيون، وأساتذة جامعيين مهووسين بعلم المناخ، وروائيين يكتبون الواقعية السحرية، وممثلين سينمائيين أغبياء، وعلماء لاهوت متمرّدين، هم المسؤولون ـ بالرغم من كلّ التهكم والسخرية ـ عن تعميم مصطلح الغرابة الذي انتشر بسرعة كبيرة وعلق في الأذهان بسرعة. ومنذ فترة ليت طويلة، كان كاستربردج شخصية ثقافية مثيرة للجدل بسبب عدائه الشديد للسياسة الخارجية الأمريكية، وولعه ببعض الدكتاتوريين في أمريكا اللاتينية، وكراهيته المقيتة لجميع أشكال المعتقدات الدينية. وانتشرت أيضاً إشاعة لم يتم التأكد من صحتها حول نهاية زواجه الأول، إشاعة ملوية وضارّة مثل إشاعة الجربوع الشهيرة التي ارتبطت باسم رجل بارز في ثمانينات القرن الماضي. وبما أن عازف التشيلو كان مكافحاً في شبابه ـ كان يتعاطى آنذاك المخدرات بشدة ـ تعرّف كاستربردج على عازفة جميلة سرعان ما تزوّجها؛ عازفة كمان متميّزة لفتت بعد زواجها منه بفترة قصيرة، اهتمام أحد ملوك الصناعة، فبدأ يلاحقها دون أن

يراعي وضعها كامرأة متزوجة، وحسب ما تقول الإشاعة، فقد طرح كاستربردج على الموسيقار في شقته الصغيرة في كينينجتون أوفال السؤال الفظ التالي بدون أي مقدمات، «ماذا يكلّف اختفاؤك من حياتها؟» فأجاب كاستربردج الذي كان تحت تأثير الأفيون أو شيء أسوأ منه: «مليون جنيه أسترليني» ثم غاب عن الوعي. وعندما أفاق، كانت زوجته قد غادرت البيت ولم تترك له أي رسالة أو كلمة، وعندما دقق جيداً وجد أن مليون جنيه أسترليني قد أُودعت في حسابه المصرفي.

ثم رفضت زوجته بأن تكون لها أية علاقة به، فطلّقته بسرعة، وتزوجت ملك الصناعة. ومنذ ذلك الوقت، لم يعد يتعاطى أي نوع من المخدّرات، وحقق إنجازات كبيرة في عمله، ولم يتزوّج ثانية قط. «لقد باع زوجته كما لو كانت ستراديفاريوس، وعاش من النقود التي حصل عليها»، كان الناس يرددون ذلك من وراء ظهره. وبما أن كاستربردج كان ملاكماً قوياً، معروفاً بسرعة غضبه، لم يكرّر أحد هذه العبارة.

كان قد كتب في مقالته إنّ أشكال الغرابة آخذة في التزايد، مع أن العالم كان، قبل أن تبدأ، مكاناً غريباً، لذلك يصعب في غالب الأحيان معرفة إن ما حدث يُصنّف ضمن فئة الغرابة القديمة المعتادة أو ضمن التشكيلة الاستثنائية الجديدة. فقد دمّرت العواصف العاتية فيجي وماليزيا، وفي اللحظة التي أكتب فيها، تنتشر حرائق هائلة في أستراليا وكاليفورنيا. وربما صارت هذه الظاهرة المناخية المتطرفة هي الظاهرة الطبيعية الجديدة التي تفتح المجال أمام المناقشات المعتادة بين أنصار تغيّر المناخ ومعارضيه. أو ربما كان هذا دليل على أمر أسوأ بكثير. ويتخذ فريقنا ما أطلق عليه موقف ما بعد الإلحاد. إننا نقول إن البشر هم الذين خلقوا الإله، ولم يكن له وجود لولا مبدأ صفّق بيديك إن كنت تؤمن بالجنّيات. وإذا كان هناك عدد كاف من الأشخاص العاقلين الذين

لا يصفّقون، فإن هذا الإله المختلق سيموت. لكن، لسوء الحظ، لا يزال هناك بلايين البشر المستعدّين للدفاع عن إيمانهم بذلك الإله الخرافي، ولهذا السبب، أصبح للإله وجود. والأسوأ من كل ذلك، فقد بدأ يفقد السيطرة الآن.

ومضت المقالة تقول، في اليوم الذي اخترع فيه آدم وحواء الإله، فقدا القدرة على السيطرة عليه على الفور. هذه هي بداية التاريخ السري للعالم. لقد اخترع الرجل والمرأة الإله الذي انسلّ من قبضتيهما على الفور وأصبح أقوى من خالقيه، بل وأشدّ حقداً، مثل الحاسوب العملاق في فيلم «ترميناتور»: «شبكة السماء»، إله السماء، هما نفس الشيء. فتملك آدم وحواء الخوف، لأنه كان من الواضح بأن الإله سيلاحقهما حتى آخر الزمن ليعاقبهما على جريمة خلقهما له. لقد جاءا معاً إلى الوجود ووصلا إلى حديقة، ناضجين تماماً وعاريين، يستمتعان بما يمكن تسميته بالانفجار الكبير الأول، ولم يكونا يعرفان كيف وصلا إلى هناك حتى قادتهما حيّة إلى شجرة معرفة الخير والشر، وعندما أكلا ثمرتها خرجا معاً بفكرة إله خالق، يقرر ما هو الخير وما هو الشر، إله جنائني صنع الجنة، وإلاّ من أين أتت الجنة، ثم زرع فيها نباتات بلا جذور.

وعلى الفور ظهر الإله. كان غاضباً، وسأل، «كيف خطرت ببالكما فكرة وجودي، من طلب منكما أن تفعلا ذلك؟» وطردهما من الجنة، إلى، من بين جميع الأماكن، العراق. «لا يمرّ عمل جيد من دون عقاب»، قالت حواء لآدم، وهذا يجب أن يكون شعار الجنس البشري برمته.

كان الاسم كاستربردج اسماً مُخْتَلَقاً. كان الموسيقار العظيم ينحدر من أسرة مهاجرة من اليهود الآيبيريين، وكان رجلاً وسيماً للغاية له

صوت رنان، وسيماء ملك. وكان يتقاسم مع معظم أقاربه الصفات والخصائص الجسدية الأكثر غرابة: فلم تكن له شحمة أذن، ولم يكن رجلاً يمكن التلاعب به والعبث معه، وكانت ولاءاته قوية مثل عداواته، وكان قادراً على الولاء والصداقة بعمق. وكانت ابتسامته تتسم بقدر من التهديد، حلاوة تكاد تكون وحشية، ابتسامة قد تقضم رأسك. وكان مهذباً للغاية. وكانت أكثر صفتين يتميّز بهما: عناده الشديد مثل عناد كلب روتويليره، وسماكة جلده مثل وحيد القرن. وعندما يتمسّك بفكرة بين أسنانه، لا يمكن لأي شيء أن يقنعه بالتراجع عنها، ولم تكن السخرية التي ينالها حول فريق ما بعد الإلحاد الجديد تردعه. وسُئل في برنامج «لايت نايت» في إحدى محطات التلفزة الأمريكية، عمّا إذا كان يقول فعلاً بأن الكائن الأعلى هو من نسج الخيال، وهل قرر هذا الإله المتخيّل الآن، لأسباب غير معلنة، أن يعذّب الجنس البشري. فقال بحزم شديد، «هذا صحيح تماماً. إن انتصار اللا عقلانية المدّمرة تتجلّى في شكل إله مدّمر لا عقلاني». فأطلق مقدم البرنامج الحواري صفيراً انبعث من بين الفجوة الشهيرة بين قواطعه العليا الوسطى، «يا إلهي»، ثم أردف، «كنت أظن أن البريطانيين مثقفون أكثر منّا».

«لنفترض»، قال هوغو كاستربردج، «أنّ الإله أرسل عاصفة ذات يوم، عاصفة تستطيع اقتلاع مراسي العالم، عاصفة توحي لنا بأن لا نسلّم جدلاً بأي شيء، لا بقوّتنا، ولا بحضارتنا، ولا بقوانيننا، لأنه إذا كان بمقدرة الطبيعة أن تعيد كتابة قوانينها، وأن تحطمّ حدودها، وأن تغيّر طبيعتها، فلن يكون للهياكل التي شيّدناها والتي هي ضئيلة للغاية بالمقارنة معها، أدنى حظّ. وها هو سيستربار العظيم الذي نواجهه - عالمنا، أفكاره، ثقافته، معرفته وقوانينه، ستكون كلها موضع هجوم بواسطة الأوهام التي خلقناها بشكل جماعي، الوحش الخارق الذي

أطلقناه نحن أنفسنا. وستُرسل الأوبئة كما أُرسلت إلى مصر. لكن في هذه المرة، لن يكون هناك طلب «أطلق شعبي ليعبدوني». إن هذا *الإله* ليس مُحرِراً إنما مدّمر. لا توجد لديه وصايا. إنه فوق كلّ ذلك. لقد سئمنا، كما فعل في عهد نوح. إنه يريد أن يجعلنا عبرة. إنه يريد أن يقضي علينا».

«وسنعود»، قال مضيف البرنامج الحواري، «بعد هذه الإعلانات».

في أوساط معيّنة بدأ البحث عن كبش فداء. كان من المهم معرفة من الذي يجب أن يُلام على كلّ ذلك. كان من المهم معرفة عمّا إذا كانت الأمور ستزداد سوءاً. ربما كان هناك أشخاص يريدون زعزعة الاستقرار، أشخاص هم المسؤولون على نحو ما عن زعزعة العالم. ربما كانوا أشخاصاً يحملون في داخلهم طفرة وراثية تمنحهم القوّة لإحداث أشياء خارقة للطبيعة يشكّلون تهديداً لباقي البشر العاديين. ومن المثير للاهتمام أن ما تُدعى بيبي ستورم كانت ملفوفة بالعلم الهندي. وقد يكون من الضروري إلقاء نظرة على المهاجرين القادمين من جنوب آسيا لإيجاد أجوبة. ربما المرض ـ فقد أضحت الغرابة مرضاً اجتماعياً الآن، ويبدو ـ أن بعض هؤلاء هم الذين جلبوها إلى أمريكا: هنود، باكستانيون، بنغلاديشيون، تماماً كما نشأ وباء الإيدز القاتل في مكان ما في وسط أفريقيا ووصل إلى الولايات المتّحدة في مطلع ثمانينات القرن العشرين. بدأ تذمّر عامّ، وبدأ الأمريكيون من ذوي الأصول الجنوب آسيوية يخشون على أمنهم وسلامتهم. ووضع العديد من سائقي سيارات الأجرة لاصقات على سياراتهم كُتب عليها «أنا لست ذلك الغريب، والغرابة ليست الأسلوب الأمريكي. ووردت بضعة تقارير مثيرة للقلق حول وقوع

اعتداءات جسدية. ثمّ حُدِّدت مجموعة أخرى لتكون كبش فداء، وابتعد شعاع ليزر اهتمام الرأي العام عن ذوي البشرة الداكنة. كان من الصعب تحديد هذه المجموعة الجديدة. إنهم الناجون من ضربة الصاعقة.

وخلال العاصفة العظيمة، تضاعفت الصواعق من حيث العدد والضراوة. وبدا أنها نوع جديد من الصواعق، لا من حيث قوتها الكهربائية فحسب، وإنما من حيث آخرويتها أيضاً. وعندما عرّفت الأجهزة الحديثة أسلافنا أن أكثر من أربعة آلاف صاعقة تحدث في كلّ ميل مربّع، بدأوا يدركون حجم المخاطر التي تترصد بهم، ومدى المخاطر التي لا تزال تحيق بهم. ففي المتوسط، تضرب المدينة سنوياً أقل من أربع صواعق في كلّ ميل مربّع تكاد تمتصّها جميعها مانعات الصواعق وهوائيات الإذاعات المنتصبة فوق أسطحة البنايات العالية. إن أكثر من أربعة آلاف صاعقة في كلّ ميل مربّع يعني أن زهاء خمسة وتسعين ألف صاعقة تصيب جزيرة مانهاتن وحدها. ويستحيل فهم النتائج البعيدة المدى التي قد تتمخض عن هجوم كهذا. وعُثر على قرابة ثلاثة آلاف جثّة متناثرة بين الأنقاض في الشوارع. ولا يعرف أحد عدد الذين نجوا من تلك الصواعق والذين لا يزالون يجوبون الشوارع، أو إلى أي مدى يمكن أن يكون التيار الكهربائي قد غيّرهم من الداخل. لم يكن يبدو أنه طرأ عليهم أيّ تغيير، بل كانوا يبدون مثل الآخرين تماماً، لكنّهم لم يعودوا مثل الآخرين، أو هكذا كان يخشى الآخرون جميعاً. لعلهم كانوا أعداء الآخرين كلهم. وإذا كانوا غاضبين فقد يمدّون أذرعهم ويطلقون الصواعق التي امتصّوها من قبل، ويرسلون عشرات آلاف الأمبيرات إلى أسلافنا حتى يشوونهم وتتفت أجسادهم. قد يقتلون أطفال أسلافنا، أو حتى الرئيس. من هم هؤلاء الناس؟ لماذا ظلوا أحياء؟

تملّك الناس ذعر شديد. لكن لم يكن أحد، في ذلك الحين، يبحث

عن رجال ونساء ذوي آذان غير طبيعية. بل كان الجميع ينصتون إلى حكايات تُروى عن الصواعق.

نزلت الكلمة التي قالها الثري المدّعي صاحب صندوق التحوّط و«صاحب الأسهم» سيث أولدفيل الذي يعيش مع المرأة الماجنة السيئة السمعة وصائدة الرجال الأغنياء التي تدعى تيريزا ساكا كورتوس على دائرة أصدقائه الواسعة بمثابة الصدمة وأصابتهم بخيبة أمل كبيرة. فقد كان أولدفيل، الرجل المكتنز الذي يعرف ماذا يريد، وماذا يتوقّع من العالم أن يقدّم له، وكيف يتوقّع أن يتخذ الكون الشكل الذي يختاره ليفرض عليه نفسه، والذي يتفوق على جميع أقرانه، والذي رفض بشدة بطاقته المحافظة الأثيرة لديه حتى بعد الانتخابات الرئاسية المتعاقبة، وهو أمر لم يكن مفهوماً بالنسبة له، مما يتناقض مع فهمه للبلد الذي طالما أحبّه، وظل ثابت العزم لتحقيق أهدافه السياسية والاقتصادية. ففي مجال الأعمال التجارية، يمكنك أن تسأل العاملين في شركات تايم وارنر وكلوروكس وسوني وياهوو وديل عن أساليبه لتسمع كلاماً كثيراً لا يصلح بعضه للنشر. أما بالنسبة إلى السياسة، مثل صديقه الراحل ومعلّمه العظيم، مع أنه كان مراوغاً قليلاً، بنتو إلفينبين، فقد رفض سلسلة الهزائم الرئاسية واعتبر أنها مجرد أخطاء ارتكبها الناخبون، «ديكة رومية تصوّت لصالح عيد الشكر»، وبدأ يختار مرشّحين للمستقبل، رئيس بلدية ليدعمه هنا، وأموال يقدّمها للترشح لرئاسة البلدية هناك، وتمويل عضو شاب صاعد في الكونغرس. إنه يدعم خيوله استعداداً للمعركة القادمة. وأطلق على نفسه اسم يهودي ملحد كان يفضّل أن يكون مغني أوبرا أو راكب أمواج عظيم. ومع أنه كان في أوائل الخمسينات من عمره، فقد كان لا يزال لائقاً جسدياً يستطيع الذهاب في كلّ صيف بحثاً

عن الأمواج العالية. وفي بعض الأحيان كان يغني لضيوفه بصوته الرفيع في بيته الريفي بعد العشاء أغنية «E lucevan le stele»، أو «Ecco ridente in cielo»، وأجمع الجميع بأنّه يستطيع أن يعطي انطباعاً جميلاً عن الموسيقى.

أما تيريزا ساكا، فلم يقترب أحد من تلك المرأة منذ عدة سنوات، منذ أن أوقعت في شباكها رئيس شركة أدفنشر كابيتال، الأيقوني، إليان كورتوس الذي تعلّقت به وهو في سنواته المتقدمة من العمر عندما أصبح كلّ ما يريد أنْ يفعله هو أن يترك إدارة أعمال الشركة لشريكه ويحظى بقسط من المتعة المتأخرة، فتزوّج وأنجب طفلاً بفضل معجزة طفل الأنابيب. وها قد ذهب إليان العجوز إلى غير رجعة الآن، وحصلت عليه وعلى أمواله. هذا أمر مؤكد، لكنّها حصلت أيضاً على السمعة السيئة. فقد حاول الثري دانيال «ماك» آروني معها «ليرى سبب كلّ هذا اللغط الذي أثير حولها» لفترة قصيرة، لكنّه هرب منها بعد أسبوعين، وقال متذمراً إنها أسوأ قحبة بذيئة اللسان وسيئة الطباع رآها في حياته. وقال للجميع «لقد نعتتني بكلمات لم أسمع بها من قبل قط، وعندها قاموس ضخم بهذه الشتائم»، وأضاف، «إنها تحاول أن تنتزع قلبك من جسدك وتلتهمه نيئاً على الرصيف، أما أنا، فقد رُبيتُ تربية جيدة ولا يمكنني أن أتفوه بمثل هذه العبارات المقززة مع النساء مهما بلغت درجة استفزازهن لي. أما هذه المرأة، فبعد خمس دقائق من انتهاء الجسد والجنس معها، وهما شيئان بالغا الروعة، لا يمكن إنكار ذلك، فلا شيء يمكن أن يعوّض عن سوء طباعها، وتحدوك الرغبة في أن تلقي بها خارج السيارة على الطريق السريع ثم تعود إلى بيتك وتتناول الخبز واللحم مع زوجتك».

وكانت سيندي ساتشس، زوجة سيث أولدفيل، امرأة في غاية الطيبة

تنتظره في البيت، زوجة تحظى بإعجاب شديد لجمالها، ولذائقتها الرفيعة، والأعمال الخيرية التي تقوم بها، وطيبة قلبها اللا متناهية. كان من الممكن أن تكون راقصة محترفة لأنها تمتلك الموهبة، لكن عندما طلب يدها للزواج، تركت كلّ شيء وتفرغت له وجعلته مهنتها الوحيدة، وقالت لأصدقائهما: «مثل استر وليامز التي تخلّت عن مهنتها في هوليود لتتفرغ للرجل الذي أحبّته والذي أرادها أن تمكث في البيت». إنه خطأ كبير، كانت سيث تردد مازحة. وفي الفترة الأخيرة، لم تعد في ابتسامتها الصغيرة أي بهجة عندما تردّ. كانا قد تزوّجا وهما شابان صغيران، وأنجبا عدة أطفال بسرعة، وينبغي القول إنهما ظلا صديقين. كان أولدفيل رجلاً ذا مقام رفيع وكان اتخاذ عشيقة يبدو أنه يتماشى مع مكانته. وهكذا كانت تيريزا ساكا العشيقة المثالية، فهي تملك أموالاً ولن تجري وراء أمواله، كما أنها تعيش منذ فترة طويلة في عالم التكتم والسرية يجعلها تفهم عواقب المجاهرة بعلاقتها معه للآخرين. وبما أنها كانت تعيش وحدها فإن مصاحبة رجل متقدم في العمر سيدخل البهجة إلى نفسها وسيشجّعها أيضاً على أن تدخل البهجة والمتعة إلى نفسه بالمقابل. وسرعان ما عرف أولدفيل ما كانت تعرفه صديقته آروني. فقد كانت تيريزا كتلة من النار ذات شعر أسود فاحم، من فلوريدا، ينتابها غضب شديد من الرجال الذين أصولهم موضع تساؤل، وكان معينها من الإهانات اللفظية لا ينضب. بالإضافة إلى ذلك، فهي، كما قال لها عندما أراد الانفصال عنها، لا تحبّ أشياء كثيرة. فلم تكن تتناول الطعام إلاّ في خمسة مطاعم فقط، ولم تكن تحبّ إلاّ ارتداء الثياب السود. ولم تكن تحبّ أصدقاءه والفنّ الحديث والرقص الحديث والأفلام المترجمة والأدب المعاصر، وكانت تمقت جميع مدارس الفلسفة، لكنها كانت تُعجب إيما إعجاب بالصور

الأمريكية العادية النيو كلاسيكية التي تعود إلى القرن التاسع عشر المعروضة في متحف متروبوليتان للفنون. وكانت تحبّ عالم ديزني، وعندما أراد أن يأخذها إلى المكسيك لقضاء فترة رومانسية في لاس ألامانداس، قالت له، «لا أحبّ هذه الأماكن، فضلاً عن أن المكسيك بلد خطير جداً، كما لو كنا نمضي عطلتنا في العراق». ولم تكن تخلو من السخرية الذاتية لفتاة من المهاجرين الإسبان وتعيش على مسافة خطوة واحدة فقط من محطة المقطورات في أفينتورا بفلوريدا.

بعد ستّة أسابيع لم يعد يقوى على احتمالها، فقبّلها قبلة الوداع فوق عشب حديقة منزله في ميدو لاين بساوثامبتون (كانت سيندي أولدفيل تكره الشاطئ فلم تبارح المدينة). وكان هناك رجل يركب جرّاراً صغيراً يجزّ العشب يرتدي سترة واقية من الريح كُتب عليها من الخلف «*السّيد جيرونيمو*» لكنّ لم يكن له أي وجود بالنسبة للزوجين المنفصلين. «أتظنّ أنني أشعر بالأسف؟ فلديّ خيارات أخرى»، قالت له تيريزا، «ولن أذرف دمعة واحدة عليك. وإذا عرفتَ من يريد أن يراني الآن لمتّ». فبدأ جسد سيث أولدفيل يهتزّ من ضحكة مكبوتة، ثم سألها، «هل عدنا إلى الرابعة عشرة من العمر؟ «لكنّها كانت تحترق بكبرياء جريح. ثم أردفت: «سأجري عملية شفط دهون في الأسبوع القادم. يقول الطبيب أنني مرشحة جيدة لإجراء هذه العملية ولن يفعل شيئاً كثيراً، بعدها سيكون لي جسد رائع. كنت سأفعل ذلك من أجلك ليصبح جسدي ممشوقاً رائعاً، لكن خليلي الجديد يقول إنّه لا يستطيع أن ينتظر أكثر». بدأ أولدفيل يسير مبتعداً. «سأرسل لك صوراً عن الجسد الذي لن تتمكن من لمسه»، صاحت خلفه، «إنك ستموت». لم يكن ذلك نهاية الأمر، ففي الأسابيع التالية، اتصلت تيريزا الممتلئة حقداً بزوجة سيث مرات عديدة، وبالرغم من أن سيندي أولدفيل كانت تغلق سماعة الهاتف في

وجهها فور اتصالها، فقد كانت تترك لها رسائل صوتية فاضحة مليئة بالتفاصيل الجنسية دفعت الزوجين إلى الطلاق. فاستعد كبار المحامين لخوض المعركة الكبرى، ودار لغط حول أرقام تسوية الطلاق مثل طلاق ويلدينشتاين، واستعدّ الناس لمشاهدة المعركة. فمعركة كهذه تتطلب الجلوس في الكراسي الأمامية للحلبة. بدا سيث أولدفيل محطماً في تلك الأيام لا بسبب المال، بل لأن شعوراً غامراً بالأسف الحقيقي اجتاحه لأنه جرح مشاعر زوجته التي كانت تعامله بطيبة شديدة ولم تقدّم له إلاّ الأشياء الجيدة. ولم يكن يرغب في الدخول معها في حرب، أما هي فكانت تريد ذلك. وقالت لصديقاتها إنها أمضت عمراً وهي تغضّ النظر، أما الآن فقد بدأت تضع نظارات جديدة، وصارت ترى كلّ شيء بوضوح شديد، وأنها لم تعد تحتمل حماقات زوجها الذي يحقّ له أن يفعل ذلك فقط لأنه ذكر. «لا ترحميه»، رددت جوقة الصديقات.

وفي عطلة نهاية الأسبوع قبل هبوب العاصفة، كان سيث جالساً خارج بيته على الشاطئ وحده، ثم غطّ في النوم على الكرسي الهزاز فوق العشب. وبينما كان نائماً، اقترب منه أحدهم ورسم على جبينه هدف عين ثور أحمر. وعندما استيقظ، نبهّه إليها الحدائقي، السّيد جيرونيمو. وعندما نظر إلى نفسه في المرآة، خيّل إليه أن أحداً حاول أن يرسم لسعة مرض لايم على جبينه، لكن لا، لم يكن الأمر كذلك، إنما كانت تهديداً واضحاً، وشعر رجال أمنه بالحرج. نعم، لقد أقنعتهم السيدة تيريزا. إنها امرأة مقنعة. كانت مجرد هفوة وقد ارتكبوا خطأً، ووعدوه بأن لا يتكرر مرة أخرى.

ثمّ هبّت العاصفة، وأعقب ذلك سقوط الأشجار، وحدوث صاعقة شديدة، وانقطاع الكهرباء، وكلّ ما إلى ذلك. «كنّا منهمكين في شؤوننا الخاصة في تلك الأيام»، قالت دانيال آروني في الحفل التأبيني في

جمعية الثقافة الأخلاقية، «ولم يتخيّل أحد منّا أنّها تستطيع أن تنفذّ تهديدها فعلاً، وفي خضم العاصفة، عندما كان جميع من في المدينة يحاولون النجاة بأرواحهم، لم يكن ذلك متوقّعاً، دعوني أعترف لكم. وبما أنني صديقته، فإني أشعر بالخزي لأنّني لم أكن أكثر يقظة بأن خطراً ما سيحدث، ولم أحذّره بأن ينبّه حراسه». وبعد انتهاء حفل التأبين، ترسخّت نفس الصورة في عقول الجميع عندما بدأوا يتقاطرون إلى جادة سنترال بارك ويست: امرأة مبللة بالمطر تقف عند باب المنزل، انفجار أول رجل أمن، ثم سقوط رجل الأمن الثاني الذي جرى نحوها فطار إلى الأعلى وإلى الخلف، أما المرأة التي جرت في أرجاء البيت وصعدت إلى الطابق العلوي واتجهت إلى الغرفة التي يمكث فيها، فراحت تصرخ أين أنت أيها المنيك، فخرج ووقف أمامها، مضحّياً بنفسه لإنقاذ زوجته وأطفاله، فقتلته في مكانه وراح يتدحرج على الدرج المكسو ببساط أحمر مثل شجرة بلوط. ولوهلة جثت بجانب جسده المبلل وأجهشت في البكاء ثم جرت مبتعدة عن البيت، ولم يعترضها أحد، ولم يجرؤ أحد على أن ينظر نحوها.

لكن السؤال الذي لم يتمكّن أحد من الإجابة عليه، لا في ذلك الحين، ولا في أثناء الحفل التأبيني، فهو السؤال عن طبيعة السلاح. لأنه لم يُعثر على ثقوب يمكن أن تحدثها طلقات نارية في أيّ من الجثث المرمية الثلاث. وعندما وصلت الشرطة وفرق الإسعاف، كانت تفوح من جميع الجثث رائحة احتراق لحم شديدة، واحترقت ثيابهم أيضاً. ولم تكن شهادة سيندي أولدفيل موثوقة، ورأى الكثيرون بأنه خطأ يمكن الصفح عنه ارتكبته امرأة مذعورة، لكنّها شاهد العيان الوحيدة، وما قالت إن ما رأته عيناها هو أقل بكثير مما ورد في الأخبار التي بثتها وسائل الإعلام وأبرزتها في عناوين عريضة، وقالت إن الصواعق كانت

تسيل من أطراف أصابع تيريزا ساكا، والتيار الكهربائي يتدفق منها عندما كانت ترتكب جريمتها. وأطلقت عليها إحدى الصحف الشعبية اسم «*مدام مغناطيس*». وفضّلت صحيفة أخرى تسميتها «*حرب النجوم: الإمبراطورة التي تردّ بالصواعق*». وبلغت الأشياء حداً لا يمكن إلا للخيال العلمي أن يوفر للناس وسيلة لفهم ماهية العالم الحقيقي ولم يكن ذلك ممكناً لولا الحاسوب.

ووردت أيضاً أنباء أخرى عن الكهرباء: فعند نهاية خط القطار رقم ٦ في بيلهام باي بارك، سقطت فتاة في الثامنة من عمرها فوق قضبان السكة الحديدية وذاب الفولاذ مثل البوظة، فنجت الفتاة ولم يصبها أي مكروه. وفي مصرف آمن لإيداع الأموال يقع بالقرب من وول ستريت، نجح لصوص باستخدام سلاح غير معروف «لحرق وفتح» أبواب الخزائن والصناديق، ولاذوا بالفرار بعد أن سرقوا مبلغاً غير محدّد «بعدة ملايين الدولارات»، وفق ما ذكره الناطق الرسمي للمصرف. ونتيجة ضغط سياسي لاتخاذ إجراءات حيال ذلك، عقدت رئيسة البلدية روزا فاست مؤتمراً صحفياً مشتركاً مع مفوّض الشرطة في المدينة، وأعلنت بتجهم أن جميع الذين نجوا من الصاعقة الأخيرة سيكونون «موضع اهتمام، «وهو أمر، في رأيها الخجول، بدا بوضوح على وجهها، خيانة لليبراليتها التقدمّية. وكان من المتوقع أن تقوم جماعات الحريات المدنية، والمنافسون السياسيون والعديد من معلقي الصحف بإدانة هذا البيان. أما المعارضة الليبرالية المحافظة القديمة فلم يعد لها معنى عندما لم تعد الواقعية شيئاً عقلانياً، أو على الأقل لم تعد جدلية، وصارت متصلّبة، وغير متماسكة، وسخيفة. فإذا رأيت فتى يفرك مصباحاً ويستدعي جنّياً لينفذ أوامره، فقد يكون ذلك شيئاً موثوقاً في العالم الجديد الذي بدأ أسلافنا يعيشون فيه. لكن أحاسيسهم تبلّدت بسبب

مزاولتهم الأمور اليومية الروتينية لفترات طويلة من الزمن، حتى لم يعد من السهل عليهم أن يتقبّلوا فكرة أنّهم دخلوا عصر العجائب، ولم يكونوا يعرفون الكثير عن كيف يمكنهم العيش في عصر كهذا.

كان عليهم أن يتعلّموا أموراً كثيرة. كان عليهم أن يتعلّموا الكفّ عن ذكر كلمة «جنّي» وأن يلحقوا هذه الكلمة بحركات تمثيلية صامتة، أو بمسلسل لبربارة إيدن وهي ترتدي سروالها الحريمي الوردي اللون على الشاشة «الجنّية» الشقراء الهائمة التي أصبح بلاري هاغمان، رائد الفضاء، «سيّدها». ولم يكن من الحكمة التصديق بأنه قد يكون لمثل هذه الكائنات المراوغة القوية أسياد. إن اسم القوة الجبارة الذي دخل العالم هو *الجان*.

لقد أحبّت دنيا رجلاً من الإنس أيضاً ـ لم يكن «سيّدها» قط ـ وأثمر هذا الحبّ عن إنجاب عدد كبير من الأطفال الذين لا توجد حلمات في آذانهم. وراحت دنيا تبحث عن أحفادها الموسومين في آذانهم أينما كانوا. تيريزا ساكا، وجينيندرا كابور، وبيبي ستورم، وهوغو كاستربردج، وكثيرون غيرهم. وكان كلّ ما بوسعها أن تفعله هو أن تغرس في عقولهم معرفة حقيقة من هم ومن هي قبيلتهم المشتتة. وكان كلّ ما بوسعها أن تفعله هو أن توقظ الجّني البراق فيهم، وترشدهم نحو النور. لم يكونوا كلّهم أناساً طيبين. فقد تبين في العديد منهم أن الضعف الإنساني أقوى من قوّة الجنّي. كان ذلك مشكلة حقيقية. وعندما كُسرت الشقوق بين العالمَيْن وفُتحت، بدأ الجان الأسود ينتشرون. في البدء، قبل أن يبدأوا يحلمون بالغزو، لم يكن لديهم مخطط كبير. كانوا يعيثون فساداً لأن الفساد والشرّ متأصل في طبيعتهم. وتسرب حبّ الأذى

وشقيقه الأكبر، إلحاق الضرر الحقيقي، من دون تأنيب ضمير إلى العالم؛ لأنه كما أن الجان ليسوا حقيقيين بالنسبة لمعظم البشر، فإن البشر هم أيضاً ليسوا حقيقيين بالنسبة للجان الذين لم يكترثوا بألمهم، كما لا تكترث طفلة بألم حيوان محشو بالقطن تضربه على الحائط.

انتشر تأثير الجان في كل مكان، لكن في الأيام الأولى تلك، قبل أن يكشفوا عن أنفسهم تماماً، لم ير العديد من أسلافنا أيديهم المخفية تعمل في انهيار مفاعل نووي، أو إقدام عصابة على اغتصاب شابّة، أو انهيار جليدي. وفي إحدى القرى الرومانية بدأت امرأة تفقس بيضاً؛ وفي بلدة فرنسية، بدأ المواطنون يتحوّلون إلى كركدن. وبدأ أشخاص أيرلنديون طاعنون في السن يعيشون في حاويات قمامة. ونظر رجل بلجيكي في المرآة ورأى قفا رأسه منعكساً فيها. وفقد مسؤول روسي أنفه ثم رآه يتجوّل في سانت بطرسبرغ وحده. وتصدّعت سحابة وانقسمت إلى شرائط رفيعة حول قمر بدر، وانتابت امرأة إسبانية كانت تنظر إليه آلام حادّة عندما شطرت شفرة حادة مقلة عينها إلى نصفين وتدفق الخِلْطُ البِلَّوري والمادة الهلامية التي تملأ الفراغ بين العدسة وشبكيّة العين إلى الخارج. وزحف نمل من ثقب في راحة يد رجل.

كيف يمكن فهم كلّ ذلك؟ من الأسهل تصديق أن **الحظ**، المبدأ الخفي للكون، يتحّد مع المجاز والرمزيّة والسريالية والفوضى، ويأخذ على عاتقه تقبّل هذه المسائل البشرية أكثر مما يتقبّل الحقيقة، أي تدّخل الجان في الحياة اليومية في العالم على نحو متزايد.

عندما غادر الخليع، صاحب المطعم، المحبّ للملذات، جياكومو دوني زتري، مسقط رأسه لأول مرة في فينيسيا بإيطاليا، شاباً في الثالثة

عشرة من عمره وانطلق في رحلاته، أعطته أمّه، اليهودية السوداء من يهود الكوتشين في الهند التي تزوّجت والده الإيطالي الكاثوليكي في المعبد السرّي أوروبندو في بونديتشيري عندما كانا شابين يؤمنان بالمسائل الروحانية ـ وكانت الأمّ نفسها، ميرا ألفاسا، تؤدّي المناسك وهي في الثالثة والتسعين من عمرها ـ هدية الفراق: قطعة جلدية مربعة من الشامواة مطوية في شكل مغلف معقودة بقوس قرمزي اللون، وقالت له: «هنا تقبع مدينتك، لا تفتح هذه الرزمة أبداً. سيلازمك بيتك دائماً وأبداً، آمناً من الداخل، حيثما ذهبت». وهكذا حمل فينيسيا معه إلى أرجاء العالم إلى أن وصله نبأ عن موت أمّه. في تلك الليلة أخرج قطعة الجلد المطوية من مكانها الآمن وفكّ القوس القرمزي الذي تفتّت بين أصابعه. وفتح قطعة الشامواة التي تغلّفها ولم يجد شيئاً في داخلها، لأنه ليس للحبّ شكل مرئي. وفي تلك اللحظة، رفرف الحبّ، الحبّ الذي لا شكل له، الغير مرئي، وطار مبتعداً عنه، ولم يعد يستطيع بلوغه. وفكرة البيت أيضاً، الشعور بالراحة في العالم حيثما كان، وتلاشى ذلك الوهم أيضاً. ثم بدا أنه يعيش كما يعيش الرجال الآخرون لكنّه لم يستطع أن يحبّ أو يستقّر، وفي النهاية بدأ يعتبر الخسائر على أنها مكاسب، لأنه حلّ مكانها غزو عدد كبير من النساء في أماكن عديدة.

نمت لديه رغبة خاصة وهي حبّ السيدات المتزوّجات غير السعيدات. فقد كانت جميع النساء المتزوجات اللاتي التقى بهن حزينات بعض الشيء في زواجهن، مع أن معظمهن لم يكنّ على استعداد لوضع حد له. وكان قد قرّر ألاّ يقع في مصيدة الزواج مع أيّ امرأة، لذلك كان يشاطرهن أموراً مشتركة كثيرة، سينور دونيزيتي *والمالماريتات*، كما كان يحلو له أن يدعوهن سراً، الأمة التي لا حدود لها للمتزوجات

المكتئبات. وكانت أولئك النساء يشعرن بالامتنان لاهتمامه بهن، وكان هو بدوره، يشعر بامتنان لا متناه نحوهن. «الشعور بالامتنان هو سرّ النجاح مع النساء»، كتب في دفتره الخاص. فقد كان يحتفظ بسجلّ عن غزواته في هذا الدفتر الغريب الشكل الذي يشبه كتاباً، وإذا صدّقنا ادعاءاته فإن عددهن يزيد على عدة آلاف. لكن، في أحد الأيام، انقلب حظّه رأساً على عقب.

فبعد ليلة من المضاجعة المحمومة، أحبّ دونيزيتي أن يبحث عن حمّام تركي جيد لينعم بحمام ساخن زاخر بالبخار ويفرك جسده. لعل جنيّاً همس في أذنه في أحد تلك الحمّامات العامة في نوليتا.

الجان الأسود يهمسون، وهم غير مرئيين، ويلصقون شفاههم على صدور البشر ويدمدمون كلمات فوق قلوبهم، ويستحوذون على إرادة ضحاياهم. وفي بعض الأحيان، يكون فعل الاستحواذ عميقاً جداً إلى درجة أن ذات الفرد تذوب ويسكن الجنّي فعلاً في جسد ضحيّته. لكن حتى في الحالات التي لا تتم فيها السيطرة بشكل كامل، يصبح من الممكن أن يؤدي الأشخاص الطيبون، عندما يُهمس في قلوبهم، أعمال شريرة، ويصبح من الممكن أن يؤدي الأشخاص الأشرار أعمالاً أسوأ بكثير. ويهمس الجان الأبيض أيضاً في قلوب الإنسيين أيضاً ويوجهونهم إلى القيام بأعمال تتسم بالنبل والكرم والتواضع والشفقة والنعمة، إلا أن تأثير همساتهم يكون أقل، مما قد يوحي بأنّ البشر يقعون بشكل طبيعي أكثر في براثن الجان الأسود، لاسيما تلك الحفنة من العفاريت العظيمة الكبيرة التي هي الأقوى من بين سكان عالم الجان قاطبة. هذه مسألة يتعين على الفلاسفة بحثها ومناقشتها. ولا نستطيع إلاّ أن نسجّل ما يحدث بعد أن يعود الجان، بعد غياب طويل، إلى أسفل العالميْن ـ أي عالمنا ـ ويعلنون عليه الحرب، أو بالأحرى في داخله. لم يكن ما يسمّى

بحرب العالمين التي عاثت فساداً وأحدثت كلّ هذا الخراب على وجه الأرض، سوى معركة بين عالم الجان وبين عالمنا، إنما أصبحت، بالإضافة إلى ذلك، حرباً أهلية بين الجان يتقاتلون فيها على أرضنا، لا على أرضهم هم. وأصبحت أرض الإنس ساحة حرب للصراع بين الجان الأبيض والأسود. ويجب أن يقال، بسبب الطبيعة الفوضوية التي يتميّز فيها الجان، بين الضياء والضياء، وبين الظلام والظلام.

لقد تعلّم أسلافنا، خلال السنتين والثمانية شهور وثمان وعشرين ليلة تلك، أن يحترسوا باستمرار من أخطار الجان. وأصبحت سلامة أطفالهم مثار قلق شديد. وبدأوا يبقون الأنوار مضاءة في غرف نوم أطفالهم ويوصدون نوافذهم حتى لو اشتكى الفتيان والفتيات من انعدام الهواء في غرفهم وبأنها خانقة. ويخطف بعض الجان الأطفال ولا يعرف أحد شيئاً عن مصير هؤلاء الأطفال المختطفين. وأيضاً: كانت فكرة جيدة، وهي أنه كلما دخل أحدهم غرفة فارغة، عليه أن يدخلها بقدمه اليمنى أولاً ويدمدم «بالإذن منكم». والأهم من كل ذلك: ليس من الحكمة الاستحمام في العتمة لأن العتمة والرطوبة تجذبان الجان عادة. إن الحمّام، بإضاءته الباهتة ورطوبته العالية، يُعتبر مكاناً ينطوي على مخاطر كبيرة. وعلى مدى تلك السنوات، بدأ أسلافنا، شيئاً فشيئاً، يعرفون كلّ هذه الأمور. لكن جياكومو دونيزيتي، عندما دخل إلى ذلك الحمّام التركي المجهّز جيداً في شارع إليزابيث، لم يكن يعرف ما ينتظره من خطر. فلا بد أن جنّياً شريراً كان يتربص به، لأنه ما إن غادر الحمّام، حتى أصبح رجلاً مختلفاً تماماً.

باختصار: لم تعد النساء يُغرمن به، مهما تودّد إليهن بامتنان. أما المرأة التي تقع في غرامه فإما أن تكون عاجزة أو يائسة. وحيثما ذهب، سواء إلى العمل أو إلى الملعب أو سار في الشارع، وبالرغم من أنه

كدأبه كان شديد التأنق في ملبسه: بدلة مفصّلة يزيد ثمنها على ثلاثة آلاف دولار، وقميص تشارفيت، وربطة عنق هيرمس، فلم تعد أيّ امرأة تُغرم به وتقع مغشياً عليها. وكانت كلّ أنثى تمرّ في طريقه تجعل قلبه يخفق بقوة، وترتخي ساقاه، وتنهشه رغبة جامحة في أن يرسل لها باقة كبيرة من الأزهار الوردية. وفي إحدى المرات، كاد يبكي في الشارع عندما مرّت بجانبه بسرعة إخصائية في علاج الأقدام يربو وزنها على مائة وستة وثلاثين كيلو غراماً، وامرأة تعاني من فقدان الشهية لا يزيد وزنها على أربعين كيلو غراماً وتجاهلتا اعتراضاته كما لو كان سكراناً أو متشرداً، لا واحداً من أكثر العزاب المرغوب فيهم، في ما لا يقل عن أربع قارات. وطلب منه زملاؤه في العمل ألاّ يأتي إلى مكان العمل لأنه يُحرج الفتيات المسؤولات عن حفظ المعاطف، والنادلات، والعشيقات في الملاهي الليلة اللاهبة. وبعد بضعة أيام، صارت حياته جحيماً لا يطاق، فتوجّه إلى عيادة طبية لاستشارة طبيب حتى لو وصمه الطبيب بأنه مدمن على الجنس. وعندما كان جالساً في غرفة الانتظار في عيادة الطبيب، تملكّته رغبة عارمة في أن يجثو على إحدى ركبتيه ويسأل موظفة الاستقبال الأمريكية ذات الأصل الكوري إن كانت مستعدة لأن تمنحه شرف أن تصبح زوجته، فأرته خاتم زواجها، وأشارت إلى صورة أطفالها المنتصبة على طاولة مكتبها، فانفجر في البكاء، وطُلب منه أن يغادر العيادة على الفور.

وبدأ ينتابه الخوف من عشوائية الرصيف والهمهمة الشهوانية التي تنبعث من الأماكن المغلقة. وفي شوارع المدينة، كان عدد النساء اللاتي يمكن أن يقع في غرامهن كبيراً جداً إلى حدّ أنه أصبح يخشى أن تصيبه نوبة قلبية حقيقية. وكانت الأماكن المغلقة خطيرة لأن معظم الذين يرتادونها ينتمون إلى جنس واحد، وكان يشعر بالمهانة في المصاعد لأنه

يُحشر فيها مع سيدات يأنفن منه ويعبّرن عن امتعاضهن بأنهن أصبن بالدوار، وإذا لم يفعلن ذلك، فكنّ يعبّرن عن ذلك بالتقزز منه. فبدأ يبحث عن النوادي التي يرتادها الرجال فقط حيث يستطيع أن يغفو وهو جالس على كرسي جلدي ذي مسندين، ثم بدأ يفكّر بجدّية بأن يعيش حياة رهبنة، وصارت المشروبات الكحولية والمخدرات ملاذاً أسهل، وبدأ يهبط بسرعة شديدة نحو تدمير الذات.

وفي إحدى الليالي، بينما كان يسير مترنحاً نحو سيارته الفيرراري فهم الحقيقة الجلية التي يراها السكارى عادة وهي أن لا أصدقاء له، وأن لا أحد يحبّه، وأن كلّ ما أسس عليه حياته كان تافهاً ورخيصاً، كالذهب الزائف، وأنّه أصبح يتعين عليه ألاّ يقود سيارته بعد الآن. وتذكّر اليوم الذي أخذته فيه إحدى عشيقاته، عندما كان هو من يجلس خلف المقود، لمشاهدة فيلم البوليوود الوحيد الذي شاهده في حياته، عندما رأى رجلاً وامرأة يفكّران بالانتحار وإلقاء نفسيهما من فوق جسر بروكلين، فراق لهما ما شاهداه، وقرّرا ألاّ يقفزا من فوق الجسر، وذهبا بدلاً من ذلك إلى لاس فيغاس. تساءل هل يتجه بسيارته إلى الجسر ويتهيّأ للقفز من فوقه بأمل بأن تُهرع نجمة سينمائية جميلة لإنقاذه فتقع في غرامه إلى الأبد كما يقع في غرامها. لكنه تذكّر آنذاك بأنه بفضل ما تمخضت عنه الغرابة الجديدة الغامضة التي كانت قد تملكّته، فإنه سيظل يُغرم بكلّ امرأة تعبر طريقه على الجسر أو في لاس فيغاس أو حيثما ينتهي به المطاف، لكن لا ريب أن الإلهة السينمائية تلك ستطرده فيزداد بؤساً.

لم يعد رجلاً. لقد أصبح بهيمة، عبداً لوحش الحبّ، *السيدة الحسناء العديمة الرحمة*، تتضاعف وتسكن في أجساد كلّ سيّدات العالم، سواء أكنّ حسناوات أم قبيحات، وعليه أن يعود إلى البيت

ويقفل على نفسه الباب. وكان يأمل في أن يكون المرض الذي أصيب به قابلاً للعلاج، وأن يأخذ العلاج مساره حتى النهاية ويشفى حتى يعود ويستأنف حياته المعتادة، مع أن كلمة «المعتادة» فقدت معناها في تلك اللحظة. نعم، إلى البيت، قال يحثّ نفسه، وراح يقود سيارته بسرعة نحو شقته في مانهاتن، وأضافت الفيرراري جرعتها من التهوّر إلى طيش السائق، وفي لحظة معيّنة عند تقاطع محدد في الشطر الأكثر فقراً في جزيرة مانهاتن، خرجت أمامه شاحنة صغيرة كُتب على طرفيها عبارة *السّيد جيرونيمو الحدائقي* ورقم الهاتف واسم الموقع على شبكة الإنترنت بأحرف صفراء كبيرة مظلّلة بلون قرمزي. من الواضح أن سيارة الفيرراري التي تجاوزت ضوء إشارة المرور هي المخطئة، فانعطفت الإطارات بشكل مسعور، وانبعث منها صوت صرير المكابح. لقد انتهت الأمور بخير، فلم يلق أحد حتفه، وأصيبت الفيرراري بأضرار شديدة في رفرافها، وتناثرت معدات البستنة على الطريق وراء الشاحنة الصغيرة. أما السائقان فقد خرجا من سيارتيهما دون مساعدة أحد لكشف الأضرار التي لحقت بسيارتيهما. كان ذلك عندما أدرك أخيراً جياغومو دونيزيتي الذي أصيب بالدوار وكان جسده يرتعش، بأنّه أغمي عليه في الشارع، عندما رأى الرجل الذي يكبره سنّاً، المهيب جسدياً، الذي كان يسير نحوه، يمشي في الهواء على ارتفاع بضعة بوصات عن الأرض.

مضت أكثر من سنة منذ أن فقد السّيد جيرونيمو اتصاله بالأرض. وخلال تلك الفترة، ازدادت الفجوة بين أخمص قدميه والأسطح الأفقية الصلبة وأصبح عرضها الآن ثلاث بوصات ونصف البوصة، بل حتى أربع بوصات. وبالرغم من المظاهر المخيفة لحالته هذه، كما بدأ يدعوها، كان يعرف أن من المستحيل أن تصبح ظاهرة دائمة. تخيّل أن

حالته هي مرض أصيب به انتقل إليه من فيروس لم يُكتشف بعد: بقّة الجاذبية، وقال لنفسه إن العدوى لا بد أن تنتقل إلى آخرين. لقد أصابه شيء يتعذر تفسيره، ولا بد أن آثاره ستخفّ ثم تتلاشى. وكان متيقناً من أنه سيعود إلى حالته الطبيعية لأنه لا يمكن تحدّي قوانين الطبيعة لمدة طويلة، حتى لو كان مرضاً غير معروف لدى مراكز مكافحة الأمراض. ففي نهاية الأمر، لا بد أن يعود ويهبط إلى الأرض. هكذا أراد أن يطمئن نفسه كلّ يوم. إلا أن الدلائل المحتومة على تدهور حالته استحوذت على تفكيره واستهلكت معظم ما تبقى من قوة إرادته لكبت مشاعر الرعب. وبدأت الأفكار في كثير من الأحيان، ومن دون مقدمات، تجول في رأسه بقوة، مع أنه كان يتفاخر دائماً بأنه شخص رزين، يتحلّى بالصبر. أما ما يحدث له الآن فهو شيء مستحيل، ومع ذلك فإنه يحدث، لذلك، فإنه أمر ممكن. وبدأت معاني الكلمات - ممكن، *مستحيل* - تتغيّر. هل بمقدرة العلم أن يفسّرها له؟ هل بإمكان الدين؟ لم يكن يريد أن يفكّر بأنه لا يوجد تفسير أو علاج لحالته، فبدأ يغوص في أعماق الأدب. الغرافتون جسيم أولي افتراضي عديم الكتلة يحمل قوة الجاذبية. ويمكن خلقه أو تدميره. وإذا كان الأمر كذلك، فمن الممكن تفسّير حدوث زيادة أو نقصان في القوة الجاذبية. هذا ما يعرفه بحسب فيزياء الكمّ. لكن، عفواً، لا يوجد إثبات بأن الغرافتون موجود فعلاً. فيزياء الكمّ، شكراً جزيلاً، قال لنفسه. كنتِ عوناً كبيراً لي.

ومثل الكثير من الأشخاص الذي تقدم بهم العمر، عاش السّيد جيرونيمو حياة منعزلة بعض الشيء. فلم يكن لديه أطفال أو أحفاد يقلقون عليه، وهذا ما جعله يشعر بالارتياح. وشعر بالارتياح أيضاً لأنه لم يتزوّج مرة أخرى، فلا توجد امرأة يجعلها تحزن أو تقلق. وخلال السنوات الطويلة في حياته كأرمل، كانت استجابة أصدقائه القلائل

لأسلوبه في التكتم الانسحاب والابتعاد عنه، وأصبحوا مجرّد معارف. وبعد أن ماتت زوجته باع بيتهما وانتقل إلى مسكن متواضع بالإيجار في حيّ كيبس باي، آخر حيّ منسيّ في مانهاتن، ومن المناسب له ألاّ يكون معروفاً كثيراً في هذا الحيّ. وكان قد أقام علاقة طيبة مع حلاقه في الجادة الثانية في الماضي، أما الآن، فقد أصبح يقصّ شعره بنفسه، وأصبح، كما كان يحلو له أن يصف نفسه، حدائقي رأسه.

كان الكوريون أصحاب مخزن البقالة الصغير عند ناصية الشارع أناساً دمثين للغاية، إلا أنه عندما تسلّم شاب من الجيل الجديد إدارة المخزن من والديه مؤخراً، بدأ يُستقبل بنظرات فارغة أحياناً تنمّ عن جهل الشباب، بدلاً من الابتسامات الخفيفة وإيماءات الترحيب التي كان الوالدان العجوزان بنظّارتيهما يستقبلون بها الزبائن منذ فترة طويلة. لقد أصابت المؤسسات الطبية المنتشرة على امتداد الجادة الأولى الحيّ بوباء انتشار الأطباء، لكنّه كان يحتقر مهنة الطب. فلم يعد يذهب لزيارة طبيبه وتجاهل الرسائل العديدة التي دأب مساعد ذلك الطبيب على إرسالها له، *يجب أن نراك مرة واحدة في السنة على الأقل إذا أردت أن تستمر في رؤية الدكتور* ـ فلم تعد تصله. ما الفائدة من زيارة الأطباء؟ هل يمكن لحبة دواء أن تشفيه؟ لا، لا يمكنها ذلك. لقد خيبت الرعاية الطبية الأمريكية باستمرار آمال الذين هم في أمسّ الحاجة إليها. لم تعد تعنيه. صحتك هي التي كنت تمتلكها حتى الآن، لكنك لم تعد تملكها، لقد أُحبطت بعد ذلك اليوم، ومن الأفضل ألاّ تدع الأطباء يعبثون بك قبل أن يأتي ذلك اليوم.

في الحالات النادرة التي كان يرنّ فيها هاتفه، كان ذلك دائماً لأمور تتعلق بتصميم الحدائق وأعمال البستنة، وكلما طالت حالته هذه، أصبح يصعب عليه أن يعمل، فحوّل زبائنه إلى حدائقيين آخرين، وأصبح

يعيش على المبلغ الذي ادخرّه. كان هناك عشّ البيض الذي جمعه طوال تلك السنين، ولم يكن مبلغاً ضئيلاً، بسبب أسلوبه المقتصد في الحياة، والإيرادات التي حصل عليها من بيع بيت الزوجية. علماً أنه لم يعمل أحد في مهنة البستنة وتصميم الحدائق وتمكن من جمع ثروة قط. وكان هناك أيضاً ميراث إيلا الذي وصفته بأنه «يكاد لا يساوي شيئاً»، لكنها قالت ذلك لأنها نشأت في أسرة غنية. في الحقيقة كان مبلغاً ضخماً ورثه عند وفاتها لكنه لم يلمسه قط. لذلك، لا يزال أمامه وقت، لكن إذا ظلت الأمور على هذا المنوال، فلا بد أن اللحظة آتية، فعندما تتبدد النقود سيقع تحت رحمة الثروة ـ الثروة، تلك العفريتة التي لا ترحم. لذلك نعم، بدأ يقلق بشأن المال، لكنه، مرة أخرى، كان سعيداً بأنه لم يكن يلقي قلقه ذاك على كاهل أي شخص آخر.

لم يعد بإمكانه أن يخفي ما يجري له عن جيرانه، أو عن المارة، أو في المخازن التي يتعين عليه ارتيادها من حين لآخر لشراء احتياجاته، مع أنه خزّن مواد مختلفة من الحساء والحبوب، وملأ مخزنه ليقللّ من ذهابه إلى البقالية. وعندما يحتاج إلى مواد جديدة، كان يتسوّق على الإنترنت، وأصبح يطلب غالباً وجبات طعام جاهزة عندما يشعر بالجوع، وصار خروجه من البيت نادراً، لكنه كان يخرج أحياناً عندما يهبط الظلام. وبالرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذها، فقد عرف سكان الحيّ بحالته. وكان من حسن حظه أنه يقيم في حيّ تتدنى عتبة السأم لدى سكانه الذين يُعرفون بأنهم لا يبدون أدنى اهتمام بالأشياء الغريبة التي تطرأ على جيرانهم. وعندما سمع سكان الحيّ بأنه يسير مرتفعاً عن الأرض، لم يبدوا ارتياحاً كبيراً لأنهم اعتبروا، بكلمات قليلة، أن ما يفعله ليس إلاّ خدعة بصرية، ولا بد أن الاستمرار في أداء نفس الخدعة يوماً بعد يوم سيتعبه: رجل يسير على خشبتين، رجل

يحبّ الاستعراض تلاشى عامل إبداء «الإعجاب» به منذ زمن طويل، إلاّ إذا كان مصاباً بضرر ما، عندها قد يكون هو من تسبب في ذلك. لعله يحشر أنفه في أمور كان من الأفضل ألاّ يتدخّل فيها، أو أن العالم سئم منه فركله بعيداً. مهما كان الأمر. وخلاصة القول فإن أسلوبه الساخر هذا قد عفا عليه الزمن، مثله.

فتجاهله جميع الناس لفترة من الزمن، مما سهّل عليه الأمور بعض الشيء، لأنه لم يكن يرغب في أن يفسّر ما يجري له للغرباء. فمكث في البيت وأخذ يجري حساباته: ثلاث بوصات ونصف في السنة يعني أنه خلال ثلاث سنوات، إذا ظل حياً يرزق، فإنه سيرتفع حوالي ثلاثة إنشات عن الأرض. وبهذا المعدل، قال لنفسه بارتياح، فإنه ينبغي أن يكون قادراً على ممارسة تقنيات البقاء التي ستمنحه حياة قابلة للعيش ـ لا حياة تقليدية أو سهلة، وإنما حياة يمكن التعامل معها. لكن لا تزال أمامه مشاكل عملية يجب أن يحلّها، بعضها عصيّ على الحل. ولم يكن الاستحمام مشكلة بالنسبة له. ولحسن الحظ، توجد في الحمّام مقصورة للدش. وكان أداء وظائفه الطبيعية أكثر صعوبة. فعندما يحاول الجلوس على مقعد المرحاض، كانت مؤخرته ترتفع بعناد فوق مقعد التواليت، بنفس ارتفاع قدميه عن الأرض. فكلما ارتفع إلى الأعلى، ازدادت عملية التغوّط صعوبة. يجب أن يأخذ ذلك في الحسبان.

وأصبح السفر يشكل له مشكلة حقيقية، وسيصبح مشكلة أكبر. فقد استبعد السفر بالطائرة لأن ضابط أمن المطار رأى أنه يشكل تهديداً من نوع ما، وذلك لأن الطائرات فقط هي التي يسمح لها بالإقلاع في المطارات والارتفاع في الهواء، أما المسافر الذي يحاول أن يفعل ذلك خارج الطائرة فقد يُعتبر بأن تصرفه غير لائق ويجب منعه من القيام بذلك. وأصبحت وسائل النقل العام الأخرى مشكلة أيضاً. فقد اعتُبر

ارتفاعه عن الأرض في محطة قطارات الأنفاق عملاً غير شرعي لأنه قد يكون قد قفز من فوق أجهزة قطع التذاكر إلى داخل المحطة. ولم يعد بإمكانه قيادة سيارته بأمان، والحادث الذي جرى له أكبر دليل على ذلك. وحتى عندما يسير في الليل، فإنه يظل مرئياً، مهما أبدى المارّة لا مبالاة في تصرفاتهم. لذلك فإن المكوث في شقّته قد يكون أفضل حلّ. تقاعد مفروض عليه حتى تخفّ حالته ويتمكّن من العودة لمزاولة حياته المعهودة. لكن يصعب التفكير بذلك. فهو رجل اعتاد على الحياة خارج البيت، ويقوم بعمل جسدي مضن لساعات طويلة كلّ يوم، تحت أشعة الشمس وتحت المطر، في القيظ وفي البرد، مضيفاً إحساسه الضئيل بالجمال إلى جمال الأرض الطبيعي. وإذا لم يعد بإمكانه أن يعمل، فعليه أن يمارس الرياضة. أن يمشي. نعم. أن يمشي في الليل.

كان السّيد جيرونيمو يقيم في الطابق السفلي في بناية بغداد المؤلفة من طابقين. وهي عمارة سكنية ضيّقة تقع في حارة ضيّقة في ذلك الحيّ الأدنى عصرية من بين جميع الأحياء؛ وتقع غرفة الجلوس الضيّقة على مستوى الشارع الضيّق، وتقع غرفة نومه الضيّقة في القبو الضيّق في الأسفل. وفي أثناء العاصفة العظيمة، كانت بناية *بغداد* ضمن منطقة الإخلاء لكن مياه الفيضان لم تصل إلى القبو في بيته. لقد نجا بأعجوبة، أما الشوارع المجاورة الأعرض التي فتحت أذرعها لعناصر الطبيعة، فقد أصيبت بأضرار شديدة. ربما كان هناك درس يجب تعلّمه، قال السّيد جيرونيمو لنفسه، وهو أن الضيق قد ينجي من هذه العواصف أكثر مما يمكن أن ينجي العرض والاتساع. لكن ليس هذا درس جذاب ولم يشأ أن يتعلّمه. الرحابة، الشمولية، كلّ شيء آني، الاتساع، العمق، الضخامة: هذه هي القيم التي ينبغي لرجل عريض المنكبين يسير بخطوات واسعة مثله أن يتشبّث بها. وإذا أراد العالم أن يحافظ على

الضيّق وتحطيم الرحابة، مفضّلاً الفم المزموم على الفم ذي الشفتين المكتنزتين العريضتين؛ الجسم الضامر على الجسد المكتنز؛ المُحكم على الواسع الفضفاض، الأنين على الزئير، فإنه يفضّل الإبحار على متن تلك السفينة الكبيرة.

قد يكون بيته الضيّق قد قاوم العاصفة، لكنّه لم يحمه. ولأسباب مجهولة، كان تأثير العاصفة عليه من نوع فريد ـ هذا إذا سلمنّا بأن العاصفة هي المسؤولة فعلاً ـ لفزعه المتزايد، فقد أبعدته عن تربة البيت التي هي من نوعه. ويصعب ألاّ يسأل *لماذا أنا*، لكنّه بدأ يدرك الحقيقة المرة بأنه قد يكون للشيء سبب لكن لا يعني ذلك بأن له هدف. حتى لو تمكّنتَ من معرفة كيف حدث شيء معين ـ حتى لو أجبت على سؤال *كيف* ـ فإنك تقترب من حلّ لغز سؤال *لماذا*. إن انحرافات الطبيعة، مثل الأمراض، لا تجيب على التساؤلات المتعلقة بدوافعها. لكن السؤال «*كيف*» ظلّ يؤرّقه. حاول أن يقدّم وجهاً شجاعاً للمرآة ـ عليه أن ينحني بشكل غير مريح، الآن، ليرى نفسه وهو يحلق ذقنه ـ لكن الخوف بدأ يزداد يوماً بعد يوم.

كانت الشقّة في بناية *بغداد* ضرباً من الغياب. فهي لم تكن صغيرة فحسب، وإنما مؤثّثة بأقل قدر من الأثاث. وطوال حياته كان رجلاً ذا احتياجات قليلة. وبعد وفاة زوجته لم يعد يحتاج إلى أي شيء سوى تلك الأشياء التي لم يكن باستطاعته أن يحصل عليها: وجودها في حياته. فقد نبذ الممتلكات، وأزال الأعباء عن كاهله، ولم يتبق سوى الشيء الضروري، مخفّفاً حمله. لم يخطر بباله بأنه ربما كان لعملية تجريد نفسه من الجوانب المادية هذه في ماضيه، ونبذها، صلة بحالته. الآن، عندما نهض، بدأ يتعلّق بشذرات من الذاكرة، كما لو أن وزنها الذي تراكم طوال الزمن سيعيده إلى ملامسة الأرض. تذكّر نفسه وإيلا

وهما يتناولان الذرة المحمصّة في الميكروويف من زبدية، وقد غطيّا حضنيهما ببطانية، يشاهدان فيلماً على شاشة التلفاز، ملحمة رُبيّ فيها ـ ملك صيني صغير السن يعيش في مدينة بيجين المحرّمة يعتقد بأنه الإله، لكن بعد أن حدثت تغييرات كثيرة، انتهى به الأمر حدائقياً يعمل في نفس القصر الذي كان يعيش فيه ويعتقد بأنه إله. وقال الإله/الحدائقي إنه سعيد في حياته الجديدة، وقد يكون ذلك صحيحاً. وربما قال السّيد جيرونيمو لنفسه إن ما حدث لي هو عكس ذلك. فقد أكون صاعداً ببطء نحو الإله. أو لعل هذه المدينة، وجميع المدن، ستصبح محرّمة عليّ قريباً.

عندما كان طفلاً، كان يحلم كثيراً بأنه يطير. وكان يرى نفسه في الحلم مستلقياً في سريره في غرفة نومه ثم يرتفع قليلاً نحو السقف، ويسقط عنه غطاء السرير أثناء ارتفاعه، ثمّ يطوف حول الغرفة مرتدياً منامته، متفادياً بحرص شفرات مروحة السقف التي تدور ببطء. حتى كان بإمكانه أن يقلب الغرفة رأساً على عقب، فيجلس على السقف ويضحك على قطع الأثاث المتناثرة فوق أرضية الغرفة المقلوبة، ويتساءل لماذا لم تسقط، أي إلى الأعلى نحو السقف الذي صار الأرضية الآن. وطالما مكث في غرفته، كان يطير بسهولة من دون بذل أي جهد. وكانت النوافذ في غرفته عالية طويلة تظل مفتوحة طوال الليل لتتسلل منها نسمات منعشة. وإذا ارتكب حماقة وخرج من النوافذ، كان يرى بيته جاثماً فوق قمة تلّة (لا توجد في ساعات يقظته) ويبدأ على الفور يفقد الارتفاع ـ ببطء، لا بشكل مخيف، إنما باستمرار ـ وكان يعرف أنه إذا لم يطر ويعود إلى داخل البيت، فإنه ستأتي لحظة لن يعثر فيها على غرفة نومه وعندها سيهبط ببطء إلى سفح التلّة حيث يوجد ما كانت أمّه تدعوه «غرباء ومخاطر». وكان يتمكّن دائماً من العودة إلى

غرفة نومه عبر النوافذ، لكنه لم يكن يصل إليها بسهولة أحياناً. لقد قلب هذه الذكرى رأساً على عقب أيضاً. لعل الالتصاق بالأرض يتوقف على مكوثه في غرفته، لأن كلّ مغامرة يجازف بها إلى الخارج قد تزيده انفصالاً.

شغّل جهاز التلفزيون. كانت الأخبار تتحدث عن الطفلة السحرية. لاحظ أن لدى الطفلة السحرية أذنين تشبهان أذنيه. كلاهما يعيشان الآن في عالم سحري، بعد أن انفصل عن الاستمرارية القديمة المعتادة في البقاء على الأرض. شعر بشيء من الارتياح بسبب الطفلة السحرية. إن وجودها يعني بأنّه ليس الشخص الوحيد الذي انفصل عما بدأ يُفهم بأنه لم يعد المعيار.

لم يكن هو المخطئ في حادثة السيارة، إلا أن قيادة السيارة أضحت صعبة وغير مريحة ولم تعد ردّة فعله كما كانت في السابق. كان محظوظاً لأنه نجا من الحادث دون أن يصاب بجروح خطيرة. وبعد الحادث، استعاد السائق الآخر الذي كان يبدو أنه شخص متهور يُدعى جياكومو دونيزيتي، وعيه مع شيء من الهذيان، وصاح به مثل رجل مهووس، «ماذا تفعل هناك؟ أتظن أنك أفضل منا؟ ألهذا السبب تترفع عنّا؟ ألا تكفيك الأرض حتى تعلو على الآخرين؟ من أنت، راديكالي داعر؟ انظر ماذا فعلت شاحنتك البائسة بسيارتي الجميلة. إني أكره أمثالك أيها النخبوي المنيك». بعد أن قال هذه الكلمات، أُغمي على السنيور دونيزيتي. ثم وصلت سيارة الإسعاف، وبدأ المسعفون يقدمون له العناية اللازمة.

عرف السّيد جيرونيمو أن الصدمة جعلت الناس يتصرّفون على نحو غريب، لكنّه بدأ يدرك بدء ظهور قدر من العداء في عيون بعض

الأشخاص الذين لاحظوا حالته. لعله كان يثير فزعاً أكبر في الليل. ربما كان عليه أن يتحامل على نفسه ويتجوّل في ساعات النهار، لكن عندئذ ستتضاعف الاعتراضات المعادية لحالته. نعم، لقد حماه عدم اكتراث سكان الحيّ حتى الآن، لكنّه قد لا يحميه من اتّهامه بأنه يبدي نوعاً غريباً من التعالي، وكلما ارتفع عن الأرض أكثر، فقد تزداد مشاعر العداء تجاهه. بدأت تراوده فكرة أن ينعزل عن الناس، لأن ارتفاعه عن الأرض قدر الراسخين على الأرض، وأنه، في حالته الاستثنائية، ينظر باستعلاء إلى الناس العاديين، وأنه بدأ يصبح مرئياً في عيون الغرباء، أو أنه خيّل إليه أنه رآها في عيونهم. لماذا تتخيّلون أنّني أرى حالتي هذه نوعاً من التعالي على الآخرين؟ أراد أن يصرخ. لماذا، بعد أن حطمّت حياتي، وأخشى أن تؤدي إلى موتي في وقت مبكّر؟

لديّ رغبة جامحة في أن أعود إلى «الأسفل». هل يستطيع أيّ فرع من العلم أن يساعده؟ إن لم تكن نظرية الكمّ، فربما أي شيء آخر؟ كان قد قرأ عن «أحذية الجاذبية» التي تسمح للذين ينتعلونها أن يتدّلوا من السقف. هل يمكن تعديلها لكي تسمح لمن ينتعلها ملامسة الأرض؟ هل يمكن عمل أيّ شيء، أم أن ذلك ليس في متناول الطب والعلم؟ هل أصبحت الحياة الحقيقية لا أهمية لها؟ هل علق في براثن السريالية التي سرعان ما ستلتهمه؟ هل هناك طريقة معقولة للتفكير بمحنته؟ وهل يا ترى أن حالته معدية ويمكن أن تنتقل إلى أشخاص آخرين؟

إلى متى؟

لم يكن الارتفاع عن الأرض ظاهرة غير معروفة تماماً. فقد رُفعت مخلوقات حيّة صغيرة، ضفادع على سبيل المثال، في ظروف المختبر بواسطة مغناطيسات كهربائية تستخدم موصلات فائقة، وأنتجت شيئاً لم

يفهمه هو، وهو طرد المغنطيسيّة المغايرة للكتلة المائية. وبما أن الماء يشكّل معظم ما يتكوّن منه البشر، فقد يكون هذا مدخلاً لفهم حقيقة ما يحدث له؟ لكن في تلك الحالة، أين هي المغناطيسات الكهربائية العملاقة/ الموصلات الفائقة الضخمة التي تُحدث هذا التأثير؟ هل أصبحت الأرض نفسها مغناطيساً كهربائياً عملاقاً؟ وإذا كان الأمر كذلك، لماذا هو المخلوق الحيّ الوحيد الذي تأثّر بذلك؟ أم أنه، لسبب كيميائي حيوي أم لسبب غيبي أو خارق للطبيعة حسّاس للتغييرات التي تطرأ على الكوكب ـ وفي هذه الحالة، هل سيصاب الآخرون جميعاً بما أصيب به؟ هل هو الخنزير الذي تُجرى عليه التجارب لما سيكون رفض الأرض للجنس البشري في نهاية الأمر؟

انظر، يظهر الآن على شاشة حاسوبه شيء آخر لم يفهمه. فقد أصبح بالإمكان رفع أجسام متناهية في الصغر من خلال التلاعب بتأثير كازيمير. وعندما حاول جاهداً استكشاف العالم الذرّي الفرعي لهذا التأثير، فهم أنه في المستويات الأعمق لجوهر المادة، فقد تفككت اللغة الإنكليزية تحت الضغط الهائل للتأثيرات والقوى المؤسسة للكون وحلّت محلها لغة الخلق نفسها، إيسوسبين المزدوج، ونظرية نويثر، وتحوّل الدوران، والكوارتات العليا والسفلى، ومبدأ استبعاد باولي، وكثافة العدد الطوبولوجية المتعرّجة، ودي رام كومولوجي، والفضاء الطوبولوجي، والاتحاد المنفصل، واللا تناظر الطيفي، ومبدأ شيشاير كات، تقع كلها خارج إمكانيات فهمه وإدراكه. لعل لويس كارول الذي استنبط مبدأ شيشاير كات يعرف أن مبدأها قريب من جذور المادة. لعل شيئاً يتعلق بكاسميريشي يعمل في حالته الشخصية، ومرة أخرى، ربما لا. وإذا تمكن من رؤية نفسه في عين الكون فقد يكون جسماً متناهياً في الصغر هو الذي يؤثر على حالته.

فهم أن عقله، مثل جسمه، ينفصل عن الأرض الصلبة. يجب أن يتوقّف ذلك. يجب أن يركّز على الأشياء البسيطة. والشيء البسيط الذي يجب أن يركّز عليه بشكل خاص هو أنه يرتفع عدّة بوصات فوق جميع الأجسام الصلبة: الأرض، أرضية شقّته، الأسرّة، مقاعد السيارة، مقاعد التواليت، ذات مرة، ومرة واحدة فقط حاول أن يقف على يديه فوجد أنه عندما حاول أن يجرّب خدعة كهذه، تبيّن له أنّ يديه تفعلان كما تفعل قدماه. فوقع بقوة، واستلقى على ظهره، وتجشأ، وهو على ارتفاع بوصة فوق البساط. الفراغ فقط هو الذي خفّف من حدة سقوطه. بعد أن سقط بدأ يتحرّك بمزيد من الحرص. وأصبح عليه أن يعتبر نفسه رجلاً مريضاً جداً. بدأ يشعر بأنه تقدّم في العمر، وربما ستحدث أشياء أسوأ مما يمكنه مواجهتها. لم تؤثّر حالته على صحته وتضعف عضلاته وتشعره بتقدمه في العمر فحسب، وإنما بدأت تمحو شخصيته أيضاً، لتحلّ محلها نفس جديدة. لم يعد هو نفسه، لم يعد رافي ـ القسّ رونيموس ـ لم يعد ابن أخ العمّ تشارلز أو صهر بنتو إلفينبين أو زوج محبوبته إيلا المفجوع. لم يعد السّيد جيرونيمو صاحب شركة تصميم المناظر الطبيعية التي يديرها السّيد جيرونيمو الحدائقي، ولا حتى ذاته الأحدث، عشيق السّيدة فيلسوفة، وعدوه اللدود المشرف على أعمالها، أولدكاسل. لقد أفلت التاريخ منه، وبدأ يصبح في عينيه وفي عيون الآخرين، ولم يعد شيئاً سوى الرجل الذي يرتفع عن الأرض ثلاث بوصات ونصف البوصة. ثلاث بوصات ونصف البوصة، وهو لا يزال يرتفع.

مع أنه كان يسدد إيجار الشقّة في الموعد المحدد، فقد كان يخشى أن تجد سيستر ذريعة لطرده. كانت سيستر س. س. أليبي، المشرفة على

البناية أو ـ اللقب الذي كانت تفضّله ـ صاحبة بناية *بغداد*، في رأيها على الأقل، امرأة واسعة الأفق، لكنّها لم تكن تبدي أدنى اهتمام بسماع نشرات الأخبار. ستورم دو، طفلة الحقيقة، مثلاً ـ تلك الطفلة الصغيرة التي أرعبتها مثل جميع الأطفال الآخرين في أفلام الرعب، كاري وايت، دامين ثورن، كلّ تلك البذور الشيطانية. وما جاء بعد بيبي ستورم كان جنوناً محضاً. فقد تحوّلت امرأة طاردها مغتصب إلى طائر وحلقّت في الجو وهربت. وقد عُرض شريط الفيديو على مواقع التواصل الاجتماعي على شبكة الإنترنت التي تتابعها سيستر عادة، وعُرض أيضاً على اليوتيوب. وتحوّل مختلس نظر كان يتجسّس على إحدى «ملائكة المدينة الأثيرات»، إلهة الملابس الداخلية البرازيلية، ماريسا ساجيبريشت، بواسطة السحر إلى أيّل ذي قرون، وطاردته مجموعة من كلاب الصيد الشبحية المفترسة على طول الجادة A. ثمّ جرت أحداث أسوأ بكثير في ميدان تايمز سكوير، التي وصفها، لفترة من الزمن، عدة شهود بأساليب مختلفة بأنها «بضع ثوان» و «عدّة دقائق»، عندما اختفت الثياب التي كان يرتديها جميع الرجال الموجودين في الميدان، فتعرّوا على نحو صادم، وسقطت كلّ ما كانت تحتويه جيوبهم ـ هواتف خليوية، أقلام، مفاتيح، بطاقات ائتمان، نقود، واقيات جنسية ذكرية، أدوات مساعدة جنسية، ذوات منتفخة، ملابس داخلية نسائية، مسدسات، سكاكين، أرقام هواتف نساء متزوجات غير سعيدات، زُمزميّات، أقنعة، قناني كولونيا، صور بنات غاضبات، صور فتيان مراهقين متجهّمين، شرائط لإنعاش النَفَس، أكياس بلاستيكية فيها مسحوق أبيض، سجائر حشيش، أكاذيب، هارمونيكا، نظارات، رصاصات، آمال محطمة منسية ـ سقطت كلها وتدحرجت على الأرض. وبعد بضع ثوان (أو ربما بضع دقائق) ظهرت الملابس مرة أخرى، لكن

عري الرجال كشف عن حبّ التملك، مواطن الضعف، أعمال طائشة أطلقت العنان لعاصفة من العواطف المتناقضة، بما في ذلك الخجل والغضب والخوف. وركضت النساء وهن يصرخن بينما تدافع الرجال لالتقاط أسرارهم من الأرض وإعادتها إلى جيوبهم، لكنها بعد أن كُشفت، ولم يعد بالإمكان إخفاؤها.

إن سيستر ليست راهبة ولم تكن كذلك، لكن الناس أطلقوا عليها لقب سيستر بسبب ميولها الدينية وتشبيههم لها بالممثلة ووبي غولدبرغ. ولم يعد أحد يدعوها س. س. منذ أن غادر زوجها الراحل هذه الحياة مع شابة تصغره سناً، عامرة الصدر، من الطائفة اللاتينية، وانتهى به المطاف في جهنم، أو البوكويركوي، وهما اسمان لنفس المكان، قالت سيستر. وبدا أنه منذ «وفاته» المكسيكية الجديدة، أصبح العالم كلّه ذاهب إلى الجحيم مع ذلك الخاسر. لقد طفح الكيل بالنسبة لسيستر أليبي التي تُعرف بنوع معين من الجنون الأمريكي. فقد كان جنون حمل السلاح طبيعياً بالنسبة لها، أو إطلاق النار على الأطفال في المدارس، أو ارتداء قناع مهرّج وقتل الناس في مركز للتسوّق، أو أن تقتل أمّك أثناء الفطور، جنون المادة الثانية في الدستور، الجنون اليومي المتواصل، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً لوقف هذا الجنون إن كنت تحبّ الحرية. وفهمت جنون السكاكين منذ أن كانت صغيرة تعيش في حي البرونكس بنيويورك، وجنون ممارسة لعبة الضربة القاضية التي كانت تقنع الفتيان السود بأنه لا يوجد مانع من ضرب اليهود على وجوههم، وكان بإمكانها أن تفهم جنون تعاطي المخدرات وجنون السياسيين وجنون كنيسة ويستبورو المعمدانية، وجنون ترامب، لأن كلّ ذلك هو طريقة الحياة الأمريكية، أما هذا الجنون الجديد فهو جنون مختلف. وأحسّت بجنون ١١ أيلول (سبتمبر)، الشرّ القادم من الخارج. الشيطان

طليقاً، غالباً ما كانت سيستر تقول بصوت مسموع. الشيطان طليقاً. وعندما بدأ أحد المستأجرين في البناية التي تملكها يرتفع بضع بوصات عن الأرض طوال الوقت، ليل نهار، اتضح لها أن الشيطان وصل إلى بنايتها، وأين هو يسوع المسيح عندما تحتاجين إليه. «يسوع المسيح»، رددت بصوت عال عندما كانت تقف عند المدخل الصغير لبناية *بغداد*، «يجب أن تعود وتطأ قدمك الأرض ثانية لأن لدى الله عمل يجب أن يقوم به من أجلك هنا».

كان ذلك عندما دخلت ياسمين زرقا، الفنانة (تمثيل، تقليد، الرسم على الجدران) التي تقيم في الشقة الكائنة في الطابق العلوي من بناية *بغداد*. لم يكن السّيد جيرونيمو يعرفها، ولم يبد أي اهتمام للتعرف عليها، لكنها أصبحت فجأة حليفة له، صديقة تتحدّث باسمه، ألقت بسحرها على سيستر، أو هكذا كان يبدو. «دعيه وشأنه»، قالت ياسمين زرقا، فلوت سيستر وجهها، ونفذّت ما طُلب منها. كان ولع سيستر بياسمين مفاجئاً بقدر ما كان عميقاً. كانت علاقتهما واحدة من العلاقات التي لا تعد ولا تحصى في هذه المدينة الكبيرة. الحبّ الذي يهبّ على المحبين فجأة، وربما تقبع جذوره في الكلام، فقد كانت ياسمين متحدّثة بارعة وكانت سيستر تُفتن بكلماتها. بغداد، العراق، إنها مأساة، كان يحلو لياسمين زرقا أن تقول، بغداد تلك، ليس بناية *بغداد*، ذلك الموقع السحري، مدينة قصص علاء الدين التي تلتف حول مدن واقعية مثل نبات متسلّق، داخل شوارع المدينة الحقيقية وخارجها، تهمس في آذاننا، وتوجد في قصص تلك المدينة الطفيلية فاكهة تتدلّى من كلّ شجرة، حكايات طويلة وقصص قصيرة، حكايات نحيفة وأخرى سمينة، ولا يخرج أحد يحبّ سماع حكاية غير راض. تلك الثمار الريانة تتساقط من فوق الأغصان وتقبع مكدومة في الشارع بوسع أي شخص

أن يلتقطها. قالت إني أبني مدينة بساط الريح تلك كلما أمكنني ذلك، وأجعلها تنمو وتكبر في الباحات الخلفية المعبّدة للشقق الخاصّة وسط المدينة والرسوم المرسومة على درج المساكن الشعبية. بغداد تلك هي مدينتي وأنا ملكتها ورعاياها في الوقت نفسه، أنا التي أتسوّق فيها وأنا صاحبة مخازنها ومحلاتها، أنا شاربها ونبيذها. وأنتِ، قالت لسيستر أليبي، أنتِ التي تشرفين عليها. صاحبة عمارة *بغداد*: المشرفة على أرض القصص والحكايات. ها أنتِ تقفين في قلبها. كان هذا النوع من الكلام يذيب قلب سيستر. ويبدو أن السّيد جيرونيمو سيصبح قصّة رائعة، قالت لها ياسمين زرقا. دعيه يكون هكذا لنرى كيف سيخرج منها.

لم يكن شعر ياسمين زرقا، أزرق اللون، إنما برتقالي، ولم يكن اسمها ياسمين. لا يهم. فإذا قالت الأزرق برتقالي فهذا من حقّها، وياسمين اسم مستعار، ونعم، فهي تعيش في المدينة كما لو أنها ساحة معركة، لأنها، بالرغم من أنها ولدت في الشارع رقم ١١٦، وابنة أستاذ مادة الأدب في جامعة كولومبيا وزوجته، أرادت أن تعترف، *جاءت أصلاً، قبل ذلك، أي قبل ولادتها المنيوكة*، من بيروت. فحلقت حاجبيها ورسمت مكانهما وشمين في شكل صاعقة متعرجة. وكان جسدها مليئاً بالأوشام أيضاً. وكانت جميع الأوشام على جسمها كلمات ماعدا حاجبيها، كلمات مثل «الحبّ يتخيّل» و «ييزي يحتلّ»، وقالت عن نفسها، لتثبت من دون قصد بأنها تنتمي إلى شارع ريفرسايد أكثر مما تنتمي إلى شارع الحمرا، وإنها متعددة النصوص، وكذلك فهي من ذلك النوع الذي يجد متعة جنسية بمفردها. كانت تعيش بين الكلمات، وكذلك بين الجنسين. لقد أحرزت ياسمين زرقا تقدماً في عالم الفنّ في المعرض الذي أقامته عن خليج غوانتانامو الذي كان سيكون رائعاً لو

أتيحت لها قوّة الإقناع اللازمة: فقد تمكّنت، بطريقة ما، من الحصول على هذه الصالة التي وضعت في إحدى الغرف كرسياً وثبتت أمامه كاميرا فيديو ووصلتها بدمية أجلستها في صالة معرض تشيلسي للفنون. لذلك، عندما جلس السجناء على الكرسي في الغرفة في غوانتانامو وبدأوا يحكون قصصهم بعد أن أُسقطت وجوههم على رأس الدمية في تشيلسي، كانت كأنها حرّرتهم ومكّنتهم من التعبير عن أنفسهم. نعم، إن القضية هي الحرية أيها المنايك، الحرية. إنها تكره الإرهاب مثل أي شخص آخر، لكنّها تكره أيضاً ألاّ تُطبّق العدالة، ولمعلوماتكم، فقط إن كنتم تتساءلون، إن كنتم تعتبرون أنها ستصبح إرهابية متعصّبة دينياً، فاعلموا أنه لا يوجد لديها وقت تكرسه لله، وهي فتاة مسالمة ونباتية، لذلك، فلتحلّ عليكم اللعنة.

كانت شخصية مشهورة في وسط المدينة، *مشهورة في عشرين حارة*، قالت ذلك في جلسات قراءة القصة التي تديرها مجموعة «يوم الجراد» التي لم تستمّد اسمها من رواية ناثانايل ويست (الذي كان جرادة بالمفرد) وإنما من أغنية ديلان (جراد بالجمع): *كان الجراد يغنّي، وكان يغنّي لي*. كانت جلسات قراءة القصّة التي تقيمها المجموعة عبارة عن مهرجانات تنتقل من مكان إلى آخر في أنحاء المدينة، ومع أنها كانت تُدعى «أيام» فقد كانت هذه الجلسات تقام ليلاً، وكانت ياسمين زرقا نجمة أمام الميكرفون، تروي حكاياتها عن بغداد، المدينة لا البناية.

قالت ياسمين زرقا، كان يا ما كان، كان أحد الأعيان في بغداد القديمة يدين لأحد تجار المدينة بمبلغ من المال، مبلغ كبير من المال، ثم، مات ذلك العَيْن فجأة، فقال التاجر لنفسه: هذا أمر سيء، فلن أتمكّن من استرداد نقودي. لكن أحد الآلهة كان قد منحه القدرة على تَقَمّص الأرواح. حدث ذلك في ذلك الشطر من العالم الذي كانت

توجد فيه آلهة عديدة، لا إلهاً واحداً فقط، فخطرت ببال التاجر أن يجعل روحه تهاجر إلى جسد ذلك الرجل الميت من الأعيان حتى يتمكّن الرجل الميت من النهوض من فراش موته ويسدّد له المبلغ الذي يدين له به. ترك التاجر جسده في مكان آمن، أو هكذا خيّل إليه، ووثبت روحه إلى جسد الرجل الميت. وعندما كان يسير في جسد الرجل الميت نحو المصرف اضطر لعبور سوق السمك، فرأته سمكة قدّ ميتة كبيرة ملقاة فوق بلاطة يمرّ فضحكت. وعندما سمع الناس السمكة الميتة تضحك عرفوا أن شيئاً مريباً في الرجل الميت الذي يسير، فهجموا عليه لأنه مسكون بعفريت. لم يعد جسد الرجل الميت صالحاً للسكن فتعيّن على روح التاجر أن يهجرها بسرعة ويعود إلى حيث ترك جسده. لكن عدداً من الأشخاص كانوا قد وجدوا جسد التاجر المهجور، فخيّل إليهم أنه جسد رجل ميت، فأشعلوا النار فيه بحسب العادات السائدة في تلك البقاع من العالم. فلم يعد للتاجر جسد، ولم يتمكن من تحصيل مبلغ الدين، وربما كانت روحه لا تزال تطوف في مكان ما في السوق. أو ربما انتهى بها الأمر بأنها هاجرت إلى سمكة ميتة وسبحت بعيداً إلى محيط جداول الحكايات.

المغزى من هذه الحكاية هو أن لا تستعجل حظّك اللعين.

وأيضاً:

كان يا ما كان، كان في بغداد القديمة، بيت طويل جداً جداً، بيت يشبه جادة عمودية تفضي إلى مرصد زجاجي أقيم في أعلى البيت اعتاد صاحبه أن ينظر منه، وهو رجل غني جداً جداً، يتعالى كثيراً على البشر الذين يعجّون مثل كثبان النمل في المدينة المترامية الأطراف الأوطأ كثيراً. وكان هذا البيت أطول بيت في المدينة وقد بني فوق أعلى تلّة

فيها، ولم يكن مشيّداً من الطوب أو الفولاذ أو من الحجارة، وإنما بني من أنقى أنواع الكبرياء. فقد كانت الأرضية مكسوة ببلاط التكبّر المصقول المتلألئ الذي لا يفقد بريقه أبداً، وبنيت الجدران من الخيلاء الأكثر نبلاً، وكانت ثريات الكريستال تقطر غطرسة. وكانت المرايا الكبيرة المطلية بالذهب تنتشر في كل مكان، ولم تكن تعكس صورة صاحب البيت بالفضة أو بالزئبق إنما بأشدّ المواد العاكسة إغراء التي هي حبّ الذات. كان اعتداد صاحب البيت ببيته الجديد شديداً فأصاب، على نحو غامض، كلّ من أتيحت له فرصة زيارته في البيت، فلم يفه أحد بكلمة سيئة عن فكرة بناء هذا البيت الطويل في هذه المدينة القصيرة.

وبعد أن انتقل الرجل الغني وعائلته إلى البيت، أصابهم النحس. فبدأت الأقدام تتكسر مصادفة، وراحت المزهريات الثمينة تتساقط، وبدأ أحد أفراد هذا البيت يصاب بالمرض على الدوام. ولم يعد أحد ينام نوماً عميقاً. ولم تتأثر أعمال الرجل الغني لأنه لم يكن يدير أعماله من البيت، لكن النحس الذي أصاب أهل البيت جعل زوجة الرجل الغني تستدعي خبيراً في المسائل الروحية للبيوت، وعندما سمعت أن البيت أصبح ملعوناً بالنحس على الدوام، ربما بواسطة جنّية صديقة الناس النمل، غادر الرجل الغني وعائلته وحاشيته الألف والواحد وعرباته المائة والستّين البيت الطويل وانتقلوا إلى أحد مساكنهم العديدة الأقصر طولاً، البيوت المشيّدة من مواد بناء عادية، وعاشوا فيها بهناء وسعادة، حتى الرجل الغني، بالرغم من أن الكبرياء الجريح أشدّ جميع الجروح صعوبة في الشفاء، فإن كسر كرامة رجل واعتباره الذاتي أسوأ بكثير من قدم مكسورة، وتستغرق وقتاً أطول بكثير لتبرأ.

بعد أن انتقلت العائلة الغنية من المنزل الطويل بدأ نمل المدينة

يتسلّق جدرانه، النمل والسحالي والأفاعي، وغزت فيافي المدينة الأماكن الحيّة، والتفّت الزواحف حول عواميد الأسرّة الأربعة، ونمت الأعشاب ذات الأطراف المدببة في بسط بخارى الحريرية الثمينة. وملأ النمل جميع أنحاء البيت واتخذوه ملكاً لهم، ورويداً رويداً، اهترأت الأقمشة التي تكسو أرجاء البيت من هذا الزحف واستيلاء النمل الكامل عليه، مليار نملة، أكثر من مليار، وتكسّرت غطرسة الثريات وتناثرت شظاياها تحت وطأة ثقلها، وتناثرت شظايا الخيلاء على الأرضيات التي بهت كبرياؤها وأصبح وسخاً، وتآكل نسيج الكبرياء الذي حيكت به الأقمشة والسجاد بواسطة بلايين الأقدام الصغيرة، الزاحفة، الزاحفة، الجشعة، الجشعة، وببساطة لأنها موجودة، حاضرة، تهدّم كبرياء المبنى العالي برمته الذي لم يعد بإمكانه إنكار وجودهم، فانهار تحت واقع وجودها، بلايين أقدامها الصغيرة جداً، أقدامها النملية. وهكذا تداعى كبرياء الجدران، وتقشرّ كالجصّ الرخيص، وكشف عن هشاشة دعائمه، وتصدّعت مرايا حبّ الذات من جانب إلى جانب، وتهدّم كلّ شيء، واستحال ذلك الصرح المجيد إلى ثقوب للدود والحشرات والنمل. وبالطبع، تهاوى في النهاية، وانهار وأصبح كالغبار وانفجر، لكن النمل عاش، وكذلك السحالي والبعوض والأفاعي، وعاشت العائلة الغنية أيضاً، وعاش الجميع، وبقي كلّ شخص كما هو، وسرعان ما نسي الجميع البيت، حتى الرجل الذي بناه، وأصبح كما لو أنه لم يشيّده قط، ولم يتغيّر شيء، لا شيء يمكن أن يتغيّر، لا شيء سيتغيّر أبداً.

كان أبوها البرفسور، الشديد الوسامة، الشديد الأناقة، المتعجرف قليلا، ميتاً، لكنّها كانت تحاول كلّ يوم بعث أفكاره إلى الحياة. قالت إننا كلّنا محاصرون في الحكايات، كما كان يقول، بشعره المتموّج،

وابتسامته الماكرة، وعقله الرائع، كلّ واحد منّا هو سجين حكايتنا الذاتية، وكلّ عائلة هي أسيرة قصّة عائلتها، وكلّ مجتمع منغلق على نفسه في داخل حكايته عن نفسه، وكلّ شعب هو ضحية روايته الخاصة للتاريخ، وهناك بقاع من العالم تصادمت فيها القصص وتقاتلت، حيث توجد حكايتان متناقضتان أو أكثر تتصارعان لتحظيا بمكانة لهما، لنقل، في الصفحة نفسها. لقد جاءت من مكان من هذا القبيل، مكانه، المكان الذي نُفي منه إلى الأبد. لقد نفوا جسده، أما روحه، فلم يتمكّنوا من نفيها قط. وربما أصبح كلّ مكان الآن هو ذلك المكان، ربما كان لبنان في كل مكان وليس في أي مكان، لذلك فإننا كلنّا منفيون، حتى لو لم يكن شعرنا متموّجاً جداً، وابتساماتنا ليست ماكرة جداً، وعقولنا أقل جمالاً، حتى أن اسم لبنان لم يكن ضرورياً، لأن أسماء جميع الأماكن أو اسم أي مكان يصلح، ربما لهذا السبب، شعرت بأنه لا يوجد لها اسم، وأنه لم يُطلق عليها اسم، لبنان المجهول (*لبانونيموس*). كان هذا هو الاسم اللا اسم له لعرض مسرحي تكتبه امرأة واحدة (تأملُ) أن يصبح كتاباً أيضاً، و(تأملُ أيضاً) أن يصبح فيلماً سينمائياً (وإذا سارت الأمور على ما يرام، على ما يرام فعلاً) أن يصبح مسرحية موسيقية (مع أنها، في تلك الحالة، قد يتعين عليها أن تكتب أجزاء لبضعة أناس آخرين). وقالت إن ما أفكّر به هو أن جميع هذه الحكايات هي ضرب من الخيال، حتى الحكايات التي تصرّ على أنها حقائق، مثل من جاء أولاً ومن له أسبقية على من، كلها تهويمات، تخيّلات. إن التخيّلات الواقعية والتخيّلات الوهمية جميعها مختلقة، وأول شيء يجب معرفته عن الحكايات المختلقة هو أنها كلّها غير صحيحة بالطريقة نفسها، فالسّيدة بوفاري، وتاريخ لبنانونيموس، من نسج الخيال كما هو بساط الريح والجان، تقتبس مما كان قد قاله، ولم يقل أحد شيئاً أفضل مما

كان يستطيع أن يقوله، وبما أنها ابنته، فقد أصبحت كلماته كلماتها الآن، هذه هي مأساتنا، تردد كلماته، أن قصصنا المتخيّلة تقتلنا، لكن إذا لم تكن لدينا قصصنا المتخيّلة، فقد نُقتل أيضاً.

استناداً إلى عشيرة عُنيزة الذين يعيشون في السلسلة الجبلية المحيطة ببغداد القديمة تقريباً، قالت ياسمين زرقا في «الجراد»، تسلل طفيّلي الحكاية إلى أطفال الإنس من آذانهم في الساعات الأولى من ولادتهم، وجعل الأطفال الذين أخذوا يكبرون يطالبون بأشياء كثيرة ضارّة لهم: قصص خرافية، أضغاث أحلام، أوهام، أكاذيب. الحاجة إلى تقديم أشياء لم تكن، كأنها كانت أشياء، خطيرة على أناس يشكّل بقاؤهم معركة مستمرة، تتطلّب تركيزاً شديداً على الأمور الواقعية. لكن على الرغم من ذلك، فقد تبين أن استئصال طفيّلي الحكاية أمر في غاية الصعوبة. فقد كيّف نفسه تماماً مع مضيفه، مع مخططات علم الأحياء البشري والشفرة الجينية الإنسانية، وأصبح طبقة ثانية من الجلد فوق بشرة البشر، طبيعة ثانية لطبيعة البشر. وبدا أنه أضحى من المستحيل القضاء عليه من دون القضاء على المضيف أيضاً. وأصبح الذين عانوا الأمرين من هذه التأثيرات، مهووسين بتصنيع ونشر الأشياء التي لم تكن، فكانوا يُعدمون أحياناً، وكان ذلك بدافع حيطة حكيمة، لكن طفيّلي الحكاية استمر يجتاح القبيلة.

كانت عشيرة عُنيزة من سكان الجبال. وكانت بيئتهم قاسية، تضاريسهم الجبلية صخرية قاحلة، وكان أعداؤهم متوحشين وأعدادهم كبيرة، وكانوا عرضة للإصابة بأمراض تسبّب الهزال جعلت عظامهم تتفتت وتستحيل إلى مسحوق، والحمّى التي جعلت أدمغتهم تتفسخ وتتعفن. ولم يعبدوا أي إله، مع أنّ طفيّلي الحكاية أصابهم بعدوى أحلام آلهة المطر التي جلبت لهم المطر، وآلهة اللحم التي منحتهم

الأبقار، وآلهة الحرب التي أصابت أعداءهم بالإسهال فجعلت من السهل قتلهم. هذا الوهم ـ بأن انتصاراتهم، من قبيل العثور على ماء، وتربية المواشي وتسمّيم طعام أعدائهم، لم تكن من أفعالهم، إنما بعثتها لهم كيانات خارقة غير مرئية ـ كانت القشّة الأخيرة. وأمر رئيس عُنيزة بأن تُسدّ آذان الأطفال الرضّع بالطين لكي لا يتسرب طفيّلي الحكاية إليها.

بعد ذلك، بدأ مرض الحكاية يتلاشى وعرف شبان عُنيزة على نحو محزن عندما كبروا بأن العالم حقيقي تماماً. وبدأت روح التشاؤم العميق تتغلغل في صفوفهم، عندما فهم الجيل الجديد بأنّ الراحة والسهولة واللطافة والسعادة ما هي إلاّ كلمات خالية من أي معنى في العالم كما كان. وبعد أن رأوا الرعب الشديد للواقع، خلصوا إلى أنه، بالإضافة إلى ذلك، لا يوجد مكان في حياتهم لهذا الضعف المنهك مثل العاطفة أو الحبّ أو الصداقة أو الإخلاص أو الزمالة أو الثقة. ثم بدأ الجنون الأخير للقبيلة. ويعتقد أنه بعد فترة من الصراعات المريرة والخلافات العنيفة، قام شبّان عُنيزة الذين وقعوا في قبضة التشاؤم المتمرّد الذي حلّ محل عدوى الحكاية، بقتل شيوخهم، ثم راحوا يتقاتلون فيما بينهم حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم.

ولعدم توفر بيانات ميدانية كافية، لا يمكن القول بشكل مؤكد فيما إذا كان طفيّلي الحكاية موجوداً بالفعل أم لا، أم أنه هو نفسه حكاية بحد ذاته، فقد ارتبط اختراع الطفيّلي بوعي عشيرة عُنيزة: وهو أمر لم، بسبب إقناع ماكر، يخلق العواقب التي قد يكون طفيّلي الحكاية هذا هو الذي اختلقها، لو كان الشيء الذي كان؛ وفي هذه الحالة، قد يكون شعب عُنيزة الذي يكره التناقضات يكاد يشبه الحكايات، قد يكون، للمفارقة، قد أُبيد عندما أصبحوا على يقين من أن الوهم الذي اختلقوه جميعاً هو الحقيقة بعينها.

وما هو السبب الذي جعلها تبدي اهتماماً بالسّيد جيرونيمو الغامض، سألت ياسمين مرآتها في الليل، ذلك الرجل العجوز الصامت الذي لم يحاول قط أن يكون ودوداً، هل بسبب طوله الفارع ووسامته والطريقة التي كان يقف بها والدها منتصباً، ولأنه كان في عمر والدها لو ظل على قيد الحياة؟ نعم، ربما، اعترفت، لقد عادت إليها الذكريات المتعلقة بأبيها، ولعلها انزعجت من نفسها لأنها انغمست في أحد أشكال الحنين المتنقل لو لم يصرف انتباهها بقوة في تلك اللحظة، ظهور، وراءها، منعكساً بوضوح في مرآة غرفة نومها، امرأة شابة نحيلة جميلة متشحة بالسواد، تجلس القرفصاء فوق بساط ريح طائر، مثل الحدائقي الذي يقيم في الطابق السفلي، ترتفع عن الأرض أربع بوصات تقريباً.

وبالرغم من أن الحياة الطبيعية في المدينة قد تَعَطّلت، لم يكن بمقدرة معظم الناس فهم ما يجري من حولهم، وكانوا لا يزالون مشدوهين من استمرار تدفق الأشياء العجيبة في حياتهم اليومية، وحتى أشخاص مثل ياسمين زرقا التي كانت قد شجعت، بالرغم من كل شيء، سيستر أليبي على أن تكون متسامحة حيال الشخص الذي يقيم في القبو والذي ارتفع عن الأرض بضع بوصات وهو لا يزال يفعل ذلك شهراً بعد شهر. أطلقت ياسمين صرخة تشبه عواء كلب والتفتت لتواجه دنيا التي، يجب القول، أنها أجفلت مثل الإنسية ذات الشعر البرتقالي من قبلها.

«في المرتبة الأولى»، قالت دنيا، بنزق، «يجب أن تكون شخصاً يمكنني أن أقيم معه عملاً مهماً، يا سّيد رافائيل مانيزيس المعروف بجيرونيمو، ومن الواضح، فأنت لست كذلك. وفي المرتبة الثانية، لديك أذنان طبيعيتان تماماً».

فغرت ياسمين زرقا فمها، لكن لم ينبعث منه صوت. «جيرونيمو مانيزيس؟» كرّرت المرأة التي تمتطي بساط الريح، والتي لا يزال صوتها يشي بالتوتر. كان يوماً طويلاً. «أين هي شقّته؟» فأشارت ياسمين بإصبعها إلى الطابق الأرضي. «الأول»، تمكنت أخيراً من القول. وبدا الاشمئزاز بادياً على وجه المرأة الممتطية بساط الريح.

«لهذا السبب فإني أفضّل ألاّ أستخدم البساط»، قالت، «لأن جهاز تحديد المواقع يخطئ دائماً».

ماما، يجب أن ننتقل من هنا، يجب أن نغادر هذا البيت فوراً، اللّيلة إن أمكن.

لماذا يا بني، أبسبب وجود وحش في غرفة نومك؟ نورمال اطلب منه أن يتصرف بشكل طبيعي.

ماذا، حتى أنت تطلق عليه الآن اسم نورمال؟

لم لا، يا جينيندرا، هذه هي أمريكا، تتغير أسماء الجميع. أنت أيضاً يا جيمي، ترّجل الآن عن حصانك العالي.

حسناً، لا يهمك. نيرمال، قل لماما إننا يجب أن نغادر هذا المكان، لم يعد البقاء فيه آمناً.

نادني نورمال. أنا جادّ في ما أقوله.

إذاً سأناديك نورمال. أنا جادّ في ذلك.

جينيندرا، توقف عن إزعاج ابن عمك الذي يوفرّ لك عملاً جيداً، ومبلغاً جيداً من المال. لماذا لا تمنحه قدراً من الاحترام؟

ماما. يجب أن نخرج من هنا قبل فوات الأوان.

وهل عليّ أن أترك طيوري؟ وماذا عن الطيور؟

إنسي الطيور يا أمي. سيعود بكامل قوته إذا بقينا هنا. لن يكون ذلك جيداً.

لقد فتشّت غرفة نومك. لقد طلبت مني أمك أن أفتشّها، ففتشّتها. لا يوجد شيء غير عادي. كلّ شيء عادي. لا توجد فتحة في الحائط، لا توجد شياطين أو أرواح. كلّ شيء على ما يرام.

أمي. أرجوك.

يا ولدي إلى أين سنذهب؟ لا يوجد مكان يمكننا أن نذهب إليه. إن أمّك مريضة. إلى أين لا يعرف إلاّ الله.

يوجد بيت نيرمال.

ماذا، أتريد أن تنتقل معي الآن؟ إلى متى؟ ليلة واحدة؟ عشر سنوات؟ وماذا عن هذا البيت؟

هذا البيت منطقة خطيرة.

يكفي. الكثير من الهراء. سنمكث هنا فقط. أغلق الموضوع.

واستمرت الأمور لعدة أشهر، حتى بدأ يعتقد بأن أمّه على حقّ، وأن ما كان يخشاه لن يحدث أبداً، وما الفتحة ودنيا وناتراج هيرو سوى هلوسات كانت تسبّبها، في العصور الغابرة، الخمرة التي تؤثّر على العقل، أو الفطر، أو عفن الخبز، وأنه بحاجة إلى علاج نفسي، وإلى دواء، فربما أصيب بالجنون. حتى حلّت أخيراً تلك الليلة، في الشتاء، في الثلج، الثلج العميق الذي لم يكن طبيعياً، عندما هطلت كميات كبيرة من الثلج لم تعرفها الذاكرة الحيّة، الثلج الذي بدأ الناس يعتبرونه قضاء أو لعنة، لأن الجميع بدأوا يعاملون، في الآونة الأخيرة، الطقس بهذه الطريقة، فعندما هطل المطر، بدأ جميع سكان كاليفورنيا يبنون

فلك نوح، وعندما هبّت عاصفة ثلجية في جورجيا، تخلّى الناس عن سياراتهم على الطريق السريع وأطلقوا سيقانهم للريح كما لو أن وحشاً ثلجياً هائلاً يطاردهم، وفي حي كوينز الذي تقبع أصول جميع الأشخاص الذين يقيمون فيه وأحلامهم في بلدان حارة، الأشخاص الذين لا يزال الثلج يبدو لهم بأنه ضرب من الخيال، مع أنهم يعيشون هنا منذ سنوات عديدة، ومهما بلغت شدّة هطوله وعدد المرات التي هطل فيها. فقد كان الثلج بالنسبة لهم سريالياً، أشبه بسحر أسود متنكّر في لون أبيض، وهكذا، نعم، في الليلة التي أصبح فيها السحر الأسود حقيقياً، الليلة التي ظهر فيها الوحش فعلاً، هطلت كميات كيرة من الثلج، فأصبح الركض أمراً بالغ الصعوبة.

في تلك الليلة كان عليه أن يركض. فركض بسرعة عائداً إلى البيت من مكتب نورمال ـ ينزلق، يسقط، ينهض ثانية ليركض ـ بكل ما بوسعه. كان نورمال يلهث، يصدر أزيزاً عندما يتنفّس، واضعاً أضلاعه على مسافة وراءه بسبب النار. ها هي، النار بدلاً من البيت، ألسنة اللهب في المكان الذي كان ينتصب فيه البيت، وإما أن تكون الطيور قد شُويت أو طارت. وعلى كرسي صلب ملقى على الرصيف المقابل، وريش طيورها المحترقة تتطاير في الهواء فوق رأسها، كانت تواجه ألسنة اللهب التي راحت تلتهم حياتها القديمة. أذابت النيران الثلج لانتصب كرسيها في وسط بركة ماء صغيرة. ها هي أمّه، مفحّمة يكسوها السخام لكنها لا تزال حيّة في وسط بضعة أشياء من ممتلكاتها: مصباح هادي إلى جانب الكرسي، مروحة من ريش الطاووس، ثلاث صور في إطارات ملقاة في وسط بركة الثلج الذائب، أمّه جامدة لا تنبس بكلمة، نيران بألسنة حمراء وراءها، نيران حمراء تكاد تكون بلا دخان، لماذا لا يوجد دخان، تساءل، وعندما هرع نحوها، سمع رجال الإطفاء

يقولون: السيدة المسكينة، أديروا الكرسي كي لا نضطر إلى النظر إليها، يا لها من سيّدة مسكينة، يبدو أنها باردة كثيراً، قربّوها من النار.

لم يتحدّث أحد الآن عن السبب، فقد رأى الجميع جنّياً عملاقاً يخرج من كرة النار، ولد مثل جميع الجان الذكور من نار بلا دخان، له أسنان بارزة ومسنّنة، وعلى وجهه حفر الجدري، يرتدي قميصه الحربي الطويل ذات ألسنة اللهب الحمراء المزدانة بزخارف ذهبية، وبلحيته السوداء الضخمة المعقودة حول خصره مثل حزام، وقد أغمد سيفه في غمده الذهبي والأخضر ودسّه في نطاقه المليء بالشعر على جانبه الأيسر، لم يعد زمرد شاه يبالي بأن يتخذ هيئة ناتراج هيرو ليعبث فقط برأس جيمي الصغير، بل ظهر في كامل مجده الرهيب: زمرد العظيم، أعظم عظماء العفاريت يقف مفرجاً ساقيه فوق جرّته الطائرة، انفجاره في العالم، يتبعه ثلاثة من أشد حاشيته قرباً، مؤذناً بنهاية زمن الغرابة العشوائية. كانت هذه بداية ما يُدعى بالحرب.

زمرد العظيم ورفاقه الثلاثة

في فترة زمنية محددة من التاريخ، أصبح العفريت العظيم زمرد شاه الذي يضع على رأسه تاجاً ذهبياً أخذ من رأس أمير كان قد قُطع رأسه مصادفة أو ليس مصادفة، في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، الجني الشخصي للفيلسوف الغزالي: كان كائناً مرعباً، وحتى الجان في أرض الجان كانوا يرتعدون عندما يُنطق اسمه أمامهم. لكن الغزالي لم يكن سيّد الجني، لأن كلمتيْ *سيّد* و*خادم* ليستا كلمتين ملائمتين عندما تُطبّقان على العلاقة بين الإنس والجان، لأن أيّ خدمة يسديها جنيّ لأنسيّ هي نعمة وليست دليلاً على الاستعباد، أو لنقل أريحية. وإذا تحرّر جنّي من مِخْبَس، مثل مصباح أو قنينة، فإنها تكون بادرة امتنان. وتروي الحكاية أن الغزالي حرّر زمرد شاه من مِخْبَس كهذا، قنينة زرقاء كان قد احتجزه فيها مشعوذ أصبح في غياهب النسيان. وفي زمن بعيد، بعيد جداً، بينما كان الغزالي يتجوّل في شوارع طوس، مسقط رأسه، رأى قنينة داكنة بين أكوام النفايات التي، لسوء لحظ، شوّهت منظر تلك البلدة القديمة ذات المآذن الوردية والجدران التي يلفّها الغموض، وعلى الفور، حدس كما يفعل الفلاسفة الذين يجيدون الحدس أن روحاً حبيسة تقبع في داخلها. فصادف أن رفع القنينة، وقد ارتسمت على وجهه قسمات لصّ مبتدئ، وضغط بشفتيه على الزجاج الأزرق الغامق

وهمس بصوت مرتفع التعويذة الغامضة التي تعتبر فاتحة جميع الحوارات مع الجان المحبوسين في القناني:

أيها الجني الكبير، أيها الجني العظيم،

أنت الآن ملك يدي.

قل لي، قبل أن أحررّك

ماذا يمكنك أن تقدّمه لي.

بدأ جنيّ منمنم يتكلّم من وراء الزجاج مثل فأر يتكلّم في فيلم رسوم متحركة. وقد خُدع الكثير من الإنس بهذه الزقزقة الخفيفة وابتلعوا الحبّة المسمّمة التي سيقدّمها لهم هذا الجني المأسور دائماً. أما الغزالي فقد قُدَّ من مادة أكثر صلابة.

فجاء ردّ الجني:

لا تساومني أبداً. هيا أخرجني من هنا.

فالرجال الضعفاء هم الذين يساومون،

أما الرجال الأقوياء

الذين يحرّروني بحرية فهم يعرفون دائماً

أنهم سيبُاركون إلى أبد الآبدين.

لكن الغزالي كان يعرف الردّ الفوري الملائم لهذا المكر الطفولي.

أعرف قبيلتك وأقاربك تمام المعرفة!

عدني وأنت لا تزال في القنينة!

فبدون نذر مقدّس تفي به

لا يدع جنّياً يقفز إلاّ الأحمق.

كان زمرد شاه يعرف أن ليس لديه خيارات عديدة، فقدّم الصيغة المعتادة المكوّنة من ثلاث أمنيات. فأجاب الغزالي، خاتماً العهد بينهما، وقبل في كلمات انحرفت قليلاً عن الصيغة المألوفة.

في أي وقت، تحت أيّ قمر،

قد أطلب منك معروفاً.

في أي وقت، الواحد والاثنان والثلاثة هذه،

ستتحقق بسرعة.

عندما حُرّر الجنّي من القنينة، تمدّد في الحال وعاد إلى حجمه الضخم الكامل. وفوجئ الجنّي بشيئين يميّزان الغزالي كإنسيّ غير عادي. الأول أنه لم يخف، لأن الخوف ـ كما تبيّن للشاب جيمي كابور بعد قرون عديدة ـ ليس تهيباً فحسب، وإنما أيضاً، في معظم الحالات، ردّ فعل فطري لرؤية زمرد في مجده المظلم. أما «هذا الإنسيّ»، فقد نظر إلى هذا العفريت الضخم بشيء من الحيرة، «إنه لا يخاف». هذا أولاً. أما ثانياً، فلم يطلب منه أي شيء مباشرة! لم يحدث أن رأى شيئاً كهذا من قبل. لم يطلب منه أن يمنحه ثروة لا متناهية، أو عضواً جنسياً أكبر حجماً، أو سلطة لا محدودة...لأن هذه الأمنيات تتصدر أيّ قائمة يطلبها أنسيّ ذكر من أي جنّي. إن التمنيات التي يطلبها البشر الذكور ضعيفة

الخيال إلى درجة مدهشة. لكن ولا حتى أمنية واحدة؟ تأجيل جميع الأمنيات الثلاث؟ هذ الأمر لا يكاد يكون معقولاً. «ألا تطلب شيئاً؟» جأر زمرد شاه، «لا يوجد شيء لا يمكنني أن أقدّمه لك». فأمال الغزالي رأسه، رأس الفيلسوف، ووضع يده حول ذقنه، وقال: «أرى أنّك تعطي اللا شيء صفة شيء. إن اللا شيء هو الشيء الذي لا يمكن إعطاؤه بدقة لأنه ليس شيئاً، وبالرغم من ذلك، ففي رأيك، فإن اللا شيء ليس هو نفسه شكل من أشكال الشيئية. قد نناقش هذا الأمر. افهم أيها الجني أنني رجل ذو متطلبات شخصية قليلة، فلست بحاجة إلى ثروة لانهائية، ولا إلى عضو جنسي أكبر حجماً، ولا إلى سلطة غير محدودة. لكن قد يأتي الوقت الذي أطلب فيه منك خدمة أكبر. سأخبرك بها في حينها. أما الآن فاذهب، فأنت طليق».

«متى سيحين هذا الوقت؟» سأله زمرد شاه، «لأنني سأكون مشغولاً، كما تعرف. فبعد أن حُشرت وحُبست في هذه القنينة لمدة طويلة جداً، سيكون أمامي أشياء كثيرة يتوجب عليّ القيام بها».

«سيأتي ذلك الوقت»، قال الغزالي بضيق، واستدار إلى كتابه. «إني أبصق على جميع الفلاسفة»، قال له زمرد شاه، وأضاف، «وعلى الفنانين أيضاً، وباقي البشر أيضاً»، ودار في دوامة من الغضب، وذهب. ثم مرّ الوقت، ومضت سنوات، وانقضت عقود، ومات الغزالي، ومات معه العهد، أو هكذا خيّل إلى الجني. وسُدَّت الشقوق بين العالمَيْن وأُغلقت، ونسي زمرد الذي يسكن في بيريستان التي هي أرض الجان، ردحاً من الزمن، كلّ شيء عن عالم الإنس، ونسي كلّ شيء عن الرجل الذي رفض أن يطلب منه تنفيذ أي أمنية، ومضت قرون، وبدأت ألفية جديدة، وبدأت الأختام التي تفصل بين العالمَيْن تتكسّر، ثم ازدهرت ثانية! ها هو يعود مرة أخرى إلى عالم هذه الكائنات الضعيفة، وبغتة

سمع صوتاً في رأسه يهيمن على وجوده، صوت رجل ميت، صوت تراب، بل أقلّ من تراب، صوت الخواء الذي كان فيه رفات ذلك الرجل الميت، خواء فيه شيء من الحيوية، يتملكّه على نحو ما إحساس الرجل الميت، الخواء الذي يأمره بأن يقدّم نفسه ليمنحه أمنيته العظيمة الأولى. وبما أنه لم يكن لديه خيار، لأنّه مرتبط بالعهد، مع أنه كان ينوي مجادلته بأن العهد لا يسري بعد الموت، تذكّر لغة الغزالي غير العادية، *في أي وقت، تحت أيّ قمر، في أي وقت هذ الواحد والاثنان والثلاثة*»، وكان يعرف أنه بالرغم من أنه نسي أن يضع شرط الموت (تفصيل كان عليه أن يذكره ليتذكّر بأنه إذا احتاج، في أي وقت في المستقبل، إلى تنفيذ عهد الأمنيات الثلاث)، فإنه لايزال ملتزماً به مثل كفن، وعليه أن ينفذّ كلّ ما يتمنّاه ذلك الخواء.

تذكّر ذلك واستدعى بسرعة كلّ غضبه الشديد، غضب عفريت عظيم أمضى نصف زمن خلوده حبيساً في قنينة زرقاء اللون، وغمرته الرغبة في الانتقام من جنس البشر برمته، الجنس الذي ينتمي إليه آسره. سيتخلّص من هذا الالتزام السقيم الذي كان قد قطعه على رجل ميت، ثم سيحين الأوان ليثأر. لقد أقسم بذلك.

أما بالنسبة إلى غضب زمرد شاه: ففي القرن السادس عشر قامت مجموعة من فناني البلاط الهنود المتألقين في عهد امبراطور مغول الهند الأعظم، *أكبر العظيم*، بالحطّ من شأنه وإهانته. وقد ظهر قبل أربعمائة وأربعين سنة، بضع سنوات أقل أو أكثر، عدّة مرات، في مجموعة لوحات حمزة نامة التي تصوّر مغامرات البطل حمزة. ها هو زمرد ـ في هذه اللوحة مع أعوانه، رعيم شارب الدم، وروبي المشرق، يخطّطون لتنفيذ مخططهم الشريّر التالي. اهمس اهمس هسهس. تظللهم مظلة برتقالية وبيضاء، وخلفهم جبل من جلاميد منتفخة كأنها غيوم حجرية.

رجال ذوو قرون ثيران طويلة، يركعون، يشتمون، لأن مجرد رؤية زمرد شاه شخصياً تثير الفزع وتجعل الرجال الطيبين يطلقون شتائمهم. إنه وحش، إنه رعب، إنه عملاق، أضخم من أي شخص بعشر مرات، وأكثر شرّاً بعشرين مرة. بشرة خفيفة، لحية سوداء طويلة، وتكشيرة عريضة من الأذن إلى الأذن، وفم مليء بأسنان آكلي البشر، لاذعة مثل لوحة «زحل» بريشة غويا.

وبالرغم من ذلك، فإن اللوحة تسخر منه. لماذا؟ لأنها تصوّره في هيئة إنسي. عملاق، بالتأكيد، لكنها لم تصوره في هيئة جني. من دم ولحم، لا من نار بلا دخان. إنها إهانة حقيقية للعفريت العظيم.

(وكما ستبيّن الأحداث، لم يكن للعفريت العظيم طعم لحم الإنس)

من بين اللوحات التي رسمها فنانون بارزون جُمعت في البلاط المرصّع بالجواهر، عدّة لوحات تصوّر زمرد شاه المروّع، لكن قلة قليلة منها تُظهر أنه منتصر. بل تصوّره غالباً بأنه خصم حمزة المهزوم، البطل شبه الأسطوري. ها هو مع جنوده يهربون من أمام جيش حمزة على جراره الطائرة الشهيرة. وفي هذه اللوحة، وبشكل مخزٍ، سقط في حفرة حفرها بستانيون للإمساك بسارقي الفواكه من بساتينهم، ويضربونهم ضرباً مبرحاً. وفي حماستهم الشديدة لتمجيد حمزة المحارب ـ ومن خلال شخصيته الخيالية، فإن الإمبراطور الحقيقي، البطل الذي طلب رسم هذه اللوحات ـ يصوّر الفنانون زمرد شاه بقسوة شديدة. فهم يصوّرونه كائناً ضخماً، لكنه أبله. وحتى سحر الجرار الطائرة لا يخصه، إنما أرسلها له صديقه الساحر زابارداست لتنقله بأمان من الهجمات التي شنّها عليه حمزة. كان زابارداست هذا، الذي يمكن القول بأنه «رهيب» يشبه زمرد شاه. فقد كان واحداً من أعتى أفراد قبيلة الجان الأسود،

ساحراً، نعم، لكنه يتمتع بمواهب خاصة تتعلق بالقدرة على الارتفاع عن الأرض. (والأفاعي) وقد كشف فنانو بلاط موغال عن طبيعتهما الحقيقية، فقد قاتلا حمزة بضراوة أشد مما كان في الواقع.

هذا أحد الأشياء. لكن حتى لو لم يحرّف رسامو امبراطورية مغول الهند صورة زمرد شاه فإنه سيظل عدو الجنس البشري بسبب احتقاره وكراهيته لشخصية البشر. وكان يرى في تعقيد الإنس إهانة شخصية له، وتقلّبهم المثير للجنون، وتناقضاتهم التي لم يبذلوا أدنى محاولة للتخلص منها أو التوافق معها، ذلك المزيج الذي يسمهم بالمثالية والشهوة الجنسية، بالعظمة والتفاهة، بالصدق والكذب. ويجب عدم أخذهم بجدّية أكثر مما يستحقّ أن يؤخذ صرصور بجدّية. وفي أفضل الأحوال، فهم ليسوا سوى دمى، ويكاد أن يكون أي واحد منهم إلها غاشماً، ولو كان بمقدرته لقتلهم جميعاً بدافع التسلية واللعب. بعبارة أخرى، لو لم يكن الفيلسوف الغزالي قد أطلقه إلى العالم الجاهل، لكان قد انطلق هو بنفسه إليه. إن نوازعه تتطابق مع تعاليمه، لكن التعليمات التي تلقاها من الفيلسوف الميت كانت جلية.

«ازرع الخوف في نفوسهم»، قال له الغزالي، «فالخوف وحده يقرّب الإنسان الآثم من الله. إن الخوف جزء من الله، أي أنه الاستجابة الملائمة للإنسان، المخلوق الضعيف، لقوة الله اللامتناهية وذات الطبيعة العقابية. قد يقول قائل إن الخوف هو صدى الله، وحيثما سُمع ذلك الصدى فإن البشر يجثون خائفين ويطلبون الرحمة. والخوف من الله موجود في بعض بقاع الأرض. لا تعبأ بتلك البقاع، بل اذهب إلى البقاع التي يتضخم فيها كبرياء البشر، تلك الأصقاع التي يعتقدون فيها أن الكبرياء إلههم. دمرّ ترساناتهم وعيشهم الرغيد، ومعابد التقنيات التي أوجدوها، وحطم معرفتهم وثروتهم. اذهب أيضاً إلى تلك الأماكن العاطفية التي يقولون فيها إن الله هو الحبّ. اذهب وأريهم الحقيقة».

«لا يتعيّن عليّ أن أتّفق معك حول الله»، أجاب زمرد شاه، «وحول طبيعته أو حتى حول وجوده. فهذا ليس من شأني ولن يكون أبداً، لأننا نحن، في أرض الجان، لا نتكلّم عن الدين، وتختلف حياتنا اليومية فيها اختلافاً تاماً عن الحياة على الأرض، ويمكنني القول إنها تتفوق عليها كثيراً. ويمكنني أن أقول إنك حتى في الموت، فأنت رجل عيّاب ومتزمت، لذلك، لن أخوض معك في التفاصيل، مع أنها قد تكون ممتعة. وفي جميع الأحوال، فإن الفلسفة موضوع لا يثير اهتمام إلاّ الأشخاص المملّين، واللاهوت هو ابن عم الفلسفة الأكثر ضجراً. سأترك هذه الأمور التي تبعث على النعاس لك في قبرك المترب. أما أمنيتك، فلن أقبلها على أنها أمر لي فحسب، وإنما يسرني كثيراً أن أنفذّها طائعاً بشرط، بما أنك تطلب في الواقع مجموعة من الأشياء، أن تعوّض عن تعهدي لك بتنفيذ الأمنيات الثلاث».

«اتفقنا»، أجاب الخواء الذي هو الغزالي. وإذا كان باستطاعة الموتى أن يضحكوا ببهجة لغنّى الفيلسوف الميت ببهجة. أدرك الجني ذلك. (قد يكون الجان فطنين أحياناً) «لماذا أنت مبتهج هكذا؟» سأله، «إن نشر الفوضى في العالم الجاهل ليس نكتة، أليس كذلك؟»

كان الغزالي يفكّر بابن رشد، وقال لزمرد شاه: «إن خصمي الذي أفكر به أحمق، مسكين، مقتنع بأن البشر، مع مرور الزمن، سينتقلون من مرحلة الإيمان إلى مرحلة العقل، هذا بالرغم من كلّ نقائص العقل العقلاني. ومن الواضح فإن لديّ عقلاً مختلفاً. لقد انتصرت عليه مرات كثيرة، لكن بالرغم من ذلك فلايزال الجدال بيننا قائماً. ومن الجيد أن تمتلك في معركة العقول سلاحاً سرياً لإطلاقه، آس في اللعب، ورقة رابحة تستخدمها في الوقت المناسب. وفي هذه الحالة بالذات، يا زمرد القدير، فأنت تلك الورقة الرابحة. إني أتطلع إلى الهزيمة التي ستلحق بهذا الأحمق، ثمّ هزيمته الحتمية».

«إن الفلاسفة كالأطفال»، قال الجني، «وأنا لا أحبّ الأطفال أبداً».

غادر مفعماً بمشاعر الازدراء. لكن الوقت سيأتي عندما يعود إلى الغزالي، ليستمع إلى ما سيقوله رفات هذا الرجل الميت. وسيأتي وقت يصبح فيه أقلّ كراهية للدين ولله.

ملاحظة عن زابارداست. ففي أحد الأيام سجنته أيضاً ساحرة إنسيّة وأهانته وأذلتّه أكثر مما لو كان قد سجنه ساحر ذكر. ويقول دارسو هذه الأمور إنها ربما تكون نفس الساحرة التي ورد ذكرها في الأساطير البريطانية، الشريرة *مورغانا لو باي*، التي استلقت تحت ملاءات شقيقها المليئة بالزنى وأمسكت كذلك الساحر ميرلين ووضعته في كهف بلّوري وأوصدت عليه باب الكهف بإحكام. إنها ليست سوى قصّة سمعناها من بعض الحكواتيين. لا نستطيع أن نجزم عمّا إذا كان هذا صحيحاً أم لا، ولم يُعرف كيف هرب، لكن من المعروف أن زابارداست كان يكنّ في قلبه غضباً شديداً تجاه البشر، على الأقل بقدر ما يكنّه نظيره زمرد شاه. لكن غضب زمرد كان حاراً، في حين كان غضب زابارداست بارداً مثل جليد قطبي.

في تلك الأيام، أيام الغرابة وحرب العالميْن التي أعقبتها، كان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية رجلاً حاد الذكاء، مُفَوّهاً، عميق التفكير، فطناً، يزن أقواله وأفعاله، ويجيد الرقص (لكن ليس مثل زوجته)، لا يغضب بسرعة، يبتسم بسرعة، متديّناً، ويعتبر نفسه أيضاً رجلاً يتصرف بعقلانية، أنيق (ولو كانت أذناه بارزتين)، يشعر بارتياح في جسده كأنه سيناترا ولد من جديد (مع أنه يكره الغناء)، وكان مصاباً

بعمى الألوان. كان رجلاً واقعياً، عملياً، راسخ القدمين. كل ذلك جعله لا يستجيب استجابة ملائمة للتحدي الذي ألقى به زمرد العظيم، السريالي، الغريب الأطوار، المتوحش. وكما ذُكر للتو، فلم يهاجم زمرد وحده، بل أحضر معه قوة كبيرة، واصطحب معه زاباراداست الساحر، وروبي البراق، مالك الأرواح، ورعيم شارب الدم، صاحب اللسان المسنّن بحدّة.

شارك رعيم بقوة في الاعتداءات الأولى. كان يغيّر شكله في الليل، أما في حالته الطبيعية في أثناء النهار، فهو ليس سوى جنّي ضئيل، يصعب وصفه أو تصنيفه، داكن البشرة، له مؤخرة كبيرة، لكن يصبح قديراً عندما يستطيع أحد إقناعه بأن يستيقظ من سباته العميق بعد أن يحتسي مشروب العرق المعروف، فيتغيّر تحت جنح الظلام ويتحوّل إلى وحوش ضخمة ذات أنياب طويلة، وحوش في البر وفي البحر وفي الجو، أناث وذكور، جميعها متعطشة لشرب دم البشر أو الحيوانات. ربما كان الجنّي جيكل وهايد هذا، واحداً من أولى تلك الأرواح التي تظهر في السجلات التاريخية، ويبثّ رعباً شديداً، كلما وحيثما ظهر. وهو الكائن الوحيد المسؤول عن جميع قصص مصّاصي الدماء في العالم، وأسطورة غاكي اليابانية، والجثّة التي تشرب الدماء التي يمكنها أن تتخذ هيئة رجال ونساء أحياء، وحيوانات أيضاً، والأسوانغ، الوحش الفلبيني بلسانه الأنبوبي الطويل الذي يتخذ غالباً هيئة أنثى، ويفضّل أن يمتص دم الأطفال؛ وديرغ ـ دو الأيرلندي، والآلب الألماني، وأبيير البولندي بلسانه ذي الأشواك، المخلوق البشع الذي ينام في حمامّ دم، وبالطبع، مصّاص دماء ترانسيلفانيا، فلاد دراكولا الذي يمكن القول إنه «تنين» ولا يعرف عنه معظم القرّاء ورواد السينما إلا النزر اليسير (مع أن ما يرد عنه غير دقيق في أحيان كثيرة). وفي بداية حرب العالمين، أخذ

رعيم إلى الماء، وبعد ظهر يوم لم يظهر فيه ضوء، ظهر في هيئة وحش بحري عملاق من الميناء الشتوي وابتلع عبّارة في ستاتن آيلاند بنيويورك. وانتشر مدّ هائل من الرعب في أرجاء المدينة وما وراءها فظهر الرئيس على شاشة التلفاز ليهدئ من روع الأمة. في تلك الليلة، حتى أكثر الرؤساء التنفيذيين الذربي اللسان، بدا شاحباً ومرتبكاً، وراح يردد تدجيله المألوف، *لن ننام حتى ننتقم من أولئك المسؤولين عن إلحاق الضرر بالولايات المتحدة الأمريكية، لا تشكّوا، إخواني الأمريكان، بأننا سننتقم لهذه الجريمة*. بدا كلاماً أجوف واهياً، فلا يمتلك الرئيس أسلحة تمكّنه من التعامل مع هذا المهاجم. لقد أصبح رئيساً ذا كلمات جوفاء. كما هو حال الكثيرين منهم، وكما هم جميعاً، منذ مدة بعيدة بعيدة جداً. لكنّنا كنا نتوقّع منه أكثر من ذلك.

أما روبي المشرق، ثاني شخصية في مجموعة زمرد الثلاثية القوية، فهو، في رأيه، أعظم جان هامس (مع أنه ينبغي القول إن الساحر زابارداست يتفوق عليه كثيراً، ولا يمكن المبالغة في التأكيد على أنانية كبار الجان وتنافسهم بين بعضهم بعضاً). وكانت قوة روبي المشرق تكمن في قدرته على إثارة المشاكل بالهمس أولاً فوق قلب إنسيّ، ثم التغلغل إلى جسده، فيُخضع إرادته، ويُرغمه على الإتيان بأفعال مريعة أو مهينة، أو بواسطة الإيحاء، كلّ ذلك في آن معاً. في البداية، عندما بدأ دانيال آروني، رئيس مؤسسة أوير، أقوى مؤسسة مالية غير حكومية في العالم، يتكلّم مثل رجل مجنون، لم يعرف أحد أن روبي المشرق يقبع في داخله، ولم يدرك بأنه يتصرف كما يتصرّف رجل مَمْسُوس. وعندما حرّر روبي جسد «ماك» آروني بعد أربعة أيام من تلبسّه، وجعل منه قشة مسكينة لرجل مُمدّد مثل دمية محطمّة على الأرضية المكسوة

بسجادة جميلة في الرواق العظيم في سماء مقرّ شركته، فهم أسلافنا ذلك. لقد اختفى الجنّي، ذلك الشخص النحيل الفارع الطول، النحيف، عندما استدار إلى جانبه، وراح يقفز ويثب حول العملاق المالي الذي سقط على الأرض. وصاح الجني، «لن تكون كلّ الأموال في العالم كثيرة جداً.، أيها الرجال، لن ينقذكم كلّ الذهب المكدس في أكياسكم من قبضتي». وراح التجّار في الطوابق الضخمة الستّة في أقوى مؤسسة مالية عالمية غير حكومية يبكون بحرقة وذرفوا دموعاً غزيرة وارتعشت أجسامهم من الخوف عندما أخذت صورة زعيمهم الغائب عن الوعي تومض مثل إنذار عن اقتراب الساعة على مئات الشاشات العملاقة المسطحة العالية الدقة. لقد أدى روبي المشرق عملاً رائعاً عندما كُلِّف بمهمّة مساعدة زمرد شاه لتنفيذ أمنيات الفيلسوف الميت.

ومنذ أن مات صديقه سيث أولدفيل على يدي تيريزا ساكا كورتوس التي لم يُعثر عليها بعد، دخل «ماك» دانيال آروني مكاناً مظلماً. الحياة صعبة وتوجّه ضربات كثيرة للبشر، وبمقدرة رجل قوي أن يتلقى بشجاعة كل هذه الضربات المحتملة ويواصل طريقه. كان يعتبر نفسه رجلاً قوياً، رجلاً بقبضتين، يتحمّل المسؤولية دائماً، وكان هناك سبعة آلاف وخمسمائة شخص في برج زجاجي يحتاجون إليه لكي يكون ذلك الرجل القوي، المنقِذ، الخالق، والمدافع عن العالم كما كان الموظفون في شركته يريدونه أن يكون. لقد صنع صورة العالم وعاش العالم فيها. كانت تلك مهمته. وكانت هناك عثرات وعقبات كثيرة على طول الطريق. خيانة النساء بالمكر والدهاء، وانحلال الأخلاق بالفطرة للرجال الأقوياء الذين تُنشر فضائحهم على صفحات الصحف، والكشف عن الصفقات التجارية الفاسدة التي يعقدها شركاء مقرّبون، والسرطان، وتحطّم السيارات بسبب الرعونة والسرعة، والتزحلق على الجليد على

المنحدرات السوداء خارج مسار التزلج المحدد، والإصابة بأمراض الشريان التاجي، والانتحار، واعتداءات المتنافسين والمرؤوسين، والتلاعب بموظفين حكوميين لتحقيق مكاسب شخصية. كان يستهجن كلّ هذه الأشياء لأنها من أعمال اهل الأرض. وإذا كان على أحد أن يسقط، فإن أحداً سيسقط. حتى السقوط قد يكون خدعة. لقد سقطت كيم نوفاك في فيلم «فيرتيغو» مرّتين، وكانت السقطة الثانية حقيقية. لقد حدثت هذه الحماقات، وهي تحدث باستمرار.

كان يدرك أن الطريقة التي تجري فيها الأمور تختلف كثيراً عمّا يظن معظم البشر. فالعالم بيئة شرسة ومتوحشة وغير سوية أكثر مما يستطيع المدنيون العاديون تقبّله. إن المدنيين العاديين يعيشون في حالة من البراءة، يغمضون عيونهم عن الحقيقة. إن العالم المكشوف يخيفهم، يحطّم قناعاتهم الأخلاقية، ويؤدّي إلى تلف الأعصاب أو التقهقر والانكفاء إلى الدين أو إلى الشراب. ليس العالم كما كان فقط، بل كما صنعه هو. لقد عاش في صورة العالم ذاك واستطاع أن يتعايش معه، كان يعرف عتلاته ومحرّكاته، خيوطه ومفاتيحه، الأزرار التي يجب أن يضغط عليها والتي يجب أن يتحاشاها. إن العالم الحقيقي هو الذي خلقه ويتحكم به. وحتى لو كانت رحلة قاسية، فلا ضير في ذلك. كان فارساً متمرساً وصلباً طوال السنوات السبعة آلاف ونصف تقريباً. إن الكثير، بل ربما كان معظم الأشخاص القساة في مهنته يحبّون عيش حياة رغيدة، رحبة، فيلجأون إلى احتساء شراب تاكيلا كازا دراغونس، ومصاحبة الفتيات الجميلات، وإلى إظهار الفخامة والفخفخة. لم يعش هكذا، لكنّه حافظ على شكله وعلى حصيرة الجودو. كان مهاباً كما كان في قاعة اجتماعات مجلس الإدارة، وكان بمقدرته أن يرفع وزناً ثقيلاً وهو مستلق على المقعد أكثر مما يستطيع أي رجل في نصف عمره،

رجال لا توجد لديهم نوافذ بعد، رجال عملوا في فضاء البرج الداخلي مثل أفراد القائمة «ألف» في قسم الطباعة على الآلة الكاتبة، رجال يقبعون في جوف بطنه البهيمية. لم يعد الشباب هو الحافظ الوحيد للشباب. كان «ماك» آروني يلعب الغولف والتنس، ألعاب الرجل العجوز، لكنه أصبح بعد ذلك يرمي كرة البيسبول، ثم بدا فتى الشاطئ، وأضحى يجيد ركوب الأمواج، وراح يبحث عن يودا ذي الموجة الكبيرة وتعلّم أساليبه. ولم يعد بحاجة إلى أن يخبط على صدره مثل طرزان الذي كان ويسمولير يؤدي دوره. كان بإمكانه أن يعالج أي شيء يصادفه. إنه القرد الكبير. إنه ملك القرود.

لكن ما حدث لسيث أولدفيل كان مختلفاً. فقد تجاوزت تلك الاحتمالية الحدود. برق منبعث من أطراف أصابع امرأة. لا يتوافق ذلك مع قواعد كونه، وإن كان هناك شخص آخر يعيد رسم الصورة عن كيفية الأشياء، فعليه أن يتحدّث مع ذلك الشخص، أن يتفاهم مع ذلك الشخص، ليُفهم ذلك الشخص بأنّه ليس من مهمة الآخرين تغيير قوانين الاحتمالية. في البداية وجد ذلك مستهجناً، شيئاً مثيراً للغضب، وبعد أن تضاعفت أشكال الغرابة غرق في صمت مدوٍ، فانسحبت رقبته إلى داخل ياقته وأجلس رأسه الثور على كتفيه مثل ضفدع. وفي البرج المطلّ على النهر، كان الناس ينظرون إلى تمثال الحريّة وإلى الميناء الفارغ، الميناء الذي هجرته كلّ القوارب منذ أن التهم النهر العبّارة والمسافرين عليها، وعندما استمعوا إلى صمت الماء الغير طبيعي أدركوا بأنه يردّد صمت آروني غير المعتاد أيضاً. ثمة شيء سيء يتدفق ويبقبق على السطح، ثم بدأ آروني يتكلّم، وأعُلن عن الشيء السيء على الملأ، وهو أسوأ ما يمكن أن يتخيّله السبعة آلاف وخمسمائة.

هذا ما قاله دانيال «ماك» آروني وما فعله تحت تأثير قوّة الجان

الأسود. ففي أول يوم من استحواذ الجنّي عليه، أخبر صحيفة وول ستريت جورنال بأنّه متورط مع شركته في مؤامرة عالمية، يشاركهم في ذلك صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ووزارة خزانة الولايات المتحدة الأمريكية والاحتياطي الفيدرالي الأمريكي. وفي اليوم التالي، بينما كان الغضب الإعلامي يغلي حوله، ظهر على محطة بلومبرغ التلفزيونية وقدم تفاصيل عن الجزء الأول من استراتيجية المتآمرين المتمثّلة في «تدمير الاقتصاد الأمريكي المحلي بواسطة إدخال الديون المشتقة التي تزيد على الناتج المحلي الإجمالي العالمي بستّة عشر ضعفاً. «ويمكنني القول إننا حققنا ذلك فعلاً»، قال بزهو، «بدليل أن عدد العمال في أمريكا الذين يعيشون حالياً على خدمة الرعاية الاجتماعية ازداد كثيراً، ١٠١ مليون، مقابل ٩٧ مليون عامل دائم فعلي». وفي اليوم الثالث، بعد أن انهالت عليه الطلبات من جميع الجهات تطالبه بتقديم استقالته أو طرده على الفور، ظهر على شاشة شبكة إم إس إن بي سي ذات المنحى الليبرالي ليتحدّث عن «إعداد رقعة شطرنج ليصبح اندلاع الحرب العالمية الثالثة أمراً مؤكداً مائة في المائة»، فسُمعت شهقات في الاستديو عندما أضاف، «لقد اقتربنا من تحقيق ذلك. لقد بدأنا العمل على حثّ الولايات المتّحدة وإسرائيل على شنّ حرب على الصين وروسيا لسببين ظاهرين وفعليين هما، أولاً، السبب الظاهر: سوريا وإيران، وثانياً، وهو السبب الفعلي، الحفاظ على قيمة البترو دولار». وفي اليوم الرابع، خاطب الموظّفين في شركته، ولم يكن حليق الذقن، وكان شعره أهوش مثل رجل لم ينم في سرير منذ عدة ليال، وكانت عيناه تتحركان بتكاسل من جهة إلى أخرى تطلبان الدعم والتأييد، وراح يهمس بجنون في الميكروفون الذي يحمله بيده، «قريباً سنقيم احتفالاً مزيفاً بالعَلَم يُتوّج بإلغاء النظام الرئاسي، وفرض أحكام

عرفية والقضاء على جميع المعارضين حتى نهاية العالم. إن ما ستحصلون عليه في المرحلة النهائية هو حكومة عالمية يحكمها رجل قوي بنظام اقتصادي عالمي واحد. هذه هي النتيجة التي نريدها جميعاً، ألست محقاً؟ أقول، هل لدي هذا الحقّ؟

كان يبث الذعر في نفوس مستمعيه. وبدأ الموظفون في شركته يبتعدون عنه، غيوم من الفطر تجلل عيونهم، يندبون تحطم آمالهم من نيل العضوية في النوادي الريفية الاجتماعية والزيجات الجيدة. وبدأوا يرون موت أطفالهم ودمار بيوتهم، وحتى قبل أن يحدث أيّ شيء من هذا القبيل، انهيار هذه المؤسسة العظيمة عندما هبّ عليها إعصار الامتعاض الحتمي، وانتهاء ثروتهم الناجم عن ذلك. لكن قبل أن يتمكنوا من مغادرة مشهد انصهار دانيال آروني رأوا الجني الأسود روبي المشرق يخرج من جسده المتغضن وهو ينعق منتصراً لسقوط الإحساس بالأمان. إن رؤية كائن من عالم ما وراء الطبيعة جعل الكثيرين يتوقفون في طريقهم بينما جرى آخرون وهم يصرخون باحثين عن الدرج. لقد أحدث روبي المشرق الذي كان يضحك في وجوههم نوبات وتشنجات في بعض التجّار وحدثت حالتا وفاة بالسكتة القلبية. كانت هذه إشارة لجميع الناجين ـ تماماً كما كان موت سيث أولدفيل بالنسبة لصديقه «ماك» آروني ـ بأن كلّ ما فعلوه من أجله قد انتهى وأنهم يعيشون الآن في الظروف والأحوال الشنيعة والمخيفة التي فرضها شخص آخر. وهل كان آروني يردد كلمات الشيطان الذي استحوذ عليه التي وضعها في فمه، أم أن العمل الشيطاني الحقيقي للمخلوق يكمن في الواقع بأنه جعل الرجل العظيم يكشف عن أسراره الفظيعة؟ في كلتا الحالتين... هل اقتربت نهاية العالم بالفعل؟ لا بد أن روبي المشرق أرادهم أن يظنّوا ذلك. «با ـ بوم كا ـ بوم» صاح مبتهجاً، والتفت إلى جانبه ثم اختفى. «استعدوا للقاء هلاككم ـ مووووتكم».

لفترةٍ طويلة من الزمن بدا الساحر زابارداست كما ينبغي لأي ساحر أن يبدو: اللحية الطويلة، القبعة العالية، العصا. الساحر الذي تدرّب ميكي ماوس وغاندالف الرمادي على يديه، وكان باستطاعة زابارداست أن يميّز كلّ الأرواح المتآلفة. لكن زابارداست كان يعي صورته بعد أن تكسّرت الأختام وفُتحت الشقوق بين العالميْن، الآن بعد أن أعيد فتح البوابة المفضية إلى الفتحة التي تؤدي إلى بيريستان ليلاً نهاراً في حي جاكسون هايتس بنيويورك، فقد درس الأفلام والمجلات جيداً ليحافظ على حسنِ مظهره. والأهم من كلّ ذلك، فقد كان يحبّ عصبية جيت لي الذي أُغرم بأفعى بيضاء عمرها ألف سنة. ولوهلة تمنّى أنّ يشبه جيت لي، ولفترة من الزمن فكّر بأن يُجري تغييراً جذرياً على هيئته، وأن يرتدي رداء راهب بوذي أبيض، ويضع حول عنقه قلادة من الخرز، ويحلق رأسه كما يفعل البطل الرئيسي في أفلام الكاراتيه. لكنه في النهاية، رفض أن يجري هذا التغيير. *تصرّف كما تتصرّف في عمرك*، قال لنفسه. فلم يشأ أن يبدو مثل أحد النجوم في فيلم كونغ فو، وإنما أراد أن يبدو مثل إله.

كان الارتفاع في الهواء ـ مقاومة الجاذبية ـ ميّزة يختص بها زابارداست، خالق الجرار الطائرة المشهورة التي خدمت الكثير من الجان واعتبروها طائرتهم الشخصية الخاصّة، وزوّدهم أيضاً بمكانس مسحورة ونعال سحرية، بل حتى بالقبعات التي ترتفع من تلقاء نفسها والتي تعتمرها الساحرات اللاتي يردن الطيران، وجمع ثروة كبيرة من الذهب والجواهر لقاء تقديمه تلك الخدمات. إن لافتنان الجان المشهور والموثّق بالمعادن النادرة والأحجار الكريمة أصوله، استناداً إلى كبار العلماء، وفي طقوس العربدة التي لا تتوقف في أرض الجان، وحبّ معظم الجنيّات لكلّ شيء يلمع ويتلألأ. ولم تكن الجنيّات الشهوانيات

اللاتي يستلقين على أسرّة موشاة بالذهب، واللاتي زيّن شعورهن وكواحلهن ورقابهن وخصورهن بالأحجار الكريمة يحتجن إلى ارتداء ثياب أخرى، وكن يشبعن الجان الذكور برغبة لا تنضب. وكان زاباراداست، أحد أكثر الجان ثراء، وأكثرهم ممارسة للجنس. وكان سحره الطائر يموّل كلّ ما يحتاج إليه في معظم الأحيان.

في المرحلة الأولى من حروب العالمين، بدأ زاباراداست ينشر الخوف بفيض من أنشطة الأرواح الشريرة، فأرسل أرائك تطير إلى داخل صالات عرض التصميم الراقية، الأنيقة، وشجّع سيارات الأجرة الصفراء على التحلّيق فوق السيارات المتداعية الأخرى بدلاً من أن تنعطف بحدّة وتحيد عن طريقها، وكان يرفع أغطية فتحات المجاري ويدفعها لتنزلق على ارتفاع الرؤوس على طول أرصفة المدينة، محوّلاً إياها إلى أقراص طائرة عملاقة تبحث عن رؤوس الأشرار لقطعها. فقد تم تحديد الأشرار كأهداف، لكن زاباراداست قال لزمرد شاكياً إنه لا يوجد أشرار في هذا المكان، بل يقيم فيه أناس ورعون، ولا يوجد فيه الكثير من الملحدين، وتوجد لديهم آلهة مختلفة الأنواع يعشقونها ويعبدونها باستمرار. فأجاب زمرد، «لا تهتم بذلك، فإما أنهم جاؤوا إلى هذه البقعة اللا مؤمنة أو أنهم اختاروا أن يعيشوا فيها، وهذا يكفي».

كان الارتفاع عن الأرض والمشي في الهواء من بين مآثره التي توفر له متعة كبيرة، وكان الساحر زاباراداست يحبّ أن يرى تأثير إطلاق أعداد كبيرة من الثعابين السامّة على الذين هم غير مؤمنين. وتنتمي الأفاعي إلى الجان أيضاً، لكنها تأتي في مرتبة أدنى، وتعمل خدماً له، أو أنه يعتبرها حيواناته الأليفة. إن حبّ الساحر زاباراداست للأفاعي التي أطلقها حبّ أصيل، وليس سطحياً. وهو جني لا يتمتع بمشاعر وعواطف عميقة، لأن العواطف العميقة لا تثير اهتمام الجان، وفي هذا، كما في أمور كثيرة أخرى، كانت الجنّية دنيا استثناء.

التفّت إحدى أفاعي زاباداست حول بناية كرايسلر من الأعلى إلى الأسفل مثل زحليقة شديدة الانحدار. وشوهد عامل مكتب مذهول أو لعله كان مدمناً على المخدرات، يضع نظّارات، يقفز من نافذة في الطابق السابع والستّين، الطابق الذي يتوسط الطوابق الثلاثة التي يشغلها نادي الغيمة المتجددة. وانزلق حول الأفعى حتى ارتطم بمؤخرة رأسها وسقط على الرصيف، ولم يصب بأذى، وظلت نظارته على عينيه، بل حتى كرامته، ظلت سليمة، لم يمسّها أي مكروه. ثم ركض هارباً نحو محطة القطارات وضاع في متاهة التاريخ. وصوّرت هبوطه ما لا يقل عن سبع كاميرات بالهاتف الخليوي، لكن تبيّن أنه يستحيل تمييزه. إننا سعداء لأن ندعه وشأنه. لقد حصلنا على ما نحتاج إليه منه، الصور الرقمية، المحسّنة كثيراً، التي، إلى الأبد ويوم، يعيد تنفيذها، ألف مرة ومرة، كلما أردنا أن يفعل ذلك، انزالقه اللولبي العظيم.

راح طول لسان الأفعى المترجرج الذي يبلغ طوله عشرين قدماً يلسع كواحل المشاة الفارين فأحدث هرجاً ومرجاً، وحدثت سقطات وإصابات كثيرة. وفي الوقت نفسه، شوهدت في ساحة يونيون سكوير دودة ضخمة أخرى، مبرقشة في شكل معيّنات من الماس ملوّنة بالأصفر والأخضر والأسود كأن علم جامايكا قد بُعث إلى الحياة، ترقص على ذيلها، مبعثرة لاعبي الشطرنج والمتزلجين على ألواح التزلج، والبائعين والمتظاهرين والمراهقين بأحذيتهم الرياضية الجديدة، والأمهات والأطفال الذاهبين إلى محل بيع الشوكولاتة. وهرب ثلاثة أشخاص مسنين كانوا يجرون ببطء شمالاً على دراجة سيغواي، واجتازوا الموقعين الثاني والثالث لمصنع وارهول، وتساءلوا بأصوات مرتعشة ماذا سيفعل آندي بالأفعى الراقصة، أفعى أوروبروس ذات الرأسين والجلد الحريري الفضي، ربما، أم كان فيلماً طويلاً مدته اثنتا عشرة ساعة. كان

شتاء قاسياً وكان لا يزال هناك ثلج مكوّم عند حافات الساحة، لكن عندما رقصت الأفعى نسي الناس مسألة الطقس وأطلقوا سيقانهم للريح. لقد ركض أهل المدينة كثيراً في ذلك الشتاء، لكن مهما بلغ الرعب الذي يهربون منه، فقد كانوا يهربون أيضاً إلى رعب مختلف، كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وبدأت تجهيزات الطوارئ تنفذ، وأصبحت الحقائب المعروفة باسم Bug Out التي تُعرف أيضاً باسم GOODbags أو INCHbags - وهي اختصار لحقائب «اخرج بسرعة، وحقائب لن أعود إلى البيت أبداً - الموضة التي انتشرت في ذلك الموسم. ودار جدل كثير حول الأشياء التي يجب وضعها في الحقيبة. فهل يجب وضع مسدس لمنع الأغبياء الذين لا يحملون حقائب للطوارئ؟ وسُدّت المنافذ المؤدية إلى المدينة بالسيارات التي راحت تطلق أبواقها والتي تكدست بالبالغين والأطفال الذين يحملون حقائب الطوارئ والمتجهين إلى التلال خارج المدينة. ولم تُغلق المجازات الضيّقة مما أدى إلى وقوع حوادث واختناقات مرورية لفترات أطول. كان الرعب هو ديدن اليوم.

أما زمرد، العظيم نفسه، إذا أردنا قول الحقيقة، فقد كان يشعر بقدر من الغرور بين رفاقه البارزين. فقد بذل كل ما بوسعه كي يظهر بكل عظمته في ساحة مركز لينكولن وهو يجأر: كلّكم عبيدي، لكن حتى في تلك الأيام المليئة بالهستيريا كان هناك بعض الأبرياء الذين خُيّل إليهم أنه يروّج لأوبرا جديدة. فقد طار ذات ليلة فوق مركز التجارة العالمي، ووقف باتزان على قدم واحدة فوق قمته العالية، وأطلق العنان لغنائه الصاخب الذي يصمّ الآذان. وبالرغم من الرعب الذي ملأ قلوب عدد

كبير من أهالي نيويورك، كان هناك عدد من الأشخاص الذين ظلوا في حيرة من أمرهم في الأسفل الواقفين إلى جانب الشلالات المستطيلة الحزينة والذين خُيّل إليهم بأن وجوده في الأعلى ما هو إلاّ دعاية لفيلم سيء معاد وهو فيلم الغوريلا القديم الشهير. وفتح فتحة في واجهة مبنى مكتب البريد القديم الشهير، إلا أنه يمكن رؤية دمار كهذا في صيف كلّ سنة في دور السينما مما أفقده تأثيره لأنه صُوّر مرات كثيرة. وترافق ذلك أيضاً مع أحوال الطقس الشديدة: ثلج، جليد وما إلى ذلك. كان ذلك نوعاً ذا قدرة استثنائية لتجاهل موته القادم. فإذا أراد المرء أن يكون تجسيداً للهلاك الوشيك، فإن ذلك يعتبر أمراً محبطاً إلى حدّ ما. وما زاد الطينة بلة هو أن الجان الذين جلبهم معه كممثلين داعمين بدأوا يؤدون أدواراً رئيسية على نحو ناكر للجميل. كان ذلك كافياً ليجعل زمرد العظيم يتساءل هل بدأ يفقد تأثيره.

إذا كان ثمة عيب يشوب الجان الأسود فهو ـ لكن لا! على المرء أن يقول، بقدر أقل من اللا مبالاة، وبدقّة أكبر، من بين *العيوب العديدة التي يتسّم بها الجان الأسود* ـ حسناً إذاً، لا يوجد هدف محدد في سلوكهم. فهم يعيشون في اللحظة الراهنة، ولا توجد لديهم أهداف ومخططات هامة، ويشتت انتباههم بسهولة كبيرة. فلا تطلب من جنّي أن يضع لك خطة، لأنه لا يوجد بينهم الجنّي كلاوزفيتز، أو الجنّي سان تزو. فقد وضع جنكيز خان خطة لغزو كلّ بقعة أرض تقع عينه عليها بهدف الحفاظ على قطعان الخيول المرافقة لجيشه. وكان الخيّالة رماة النبال فرساناً مرهوبي الجانب، وكان جنوده يقتاتون على حليب ودمّ ولحم الخيل، لذلك، حتى الحصان النافق كان مفيداً. أما الجان فإنهم لا يفكّرون بهذه الطريقة، ولم يعتادوا على العمل الجماعي، لأنهم أنانيون للغاية. أما زمرد شاه الفوضوي مثل أيّ جنّي آخر، لكن

صريحين جداً، فلم يكن واهماً. فكم سيارة يمكن للمرء أن يحوّلها إلى حيوانات الشيهم العملاقة التي تسير على طريق الويست سايد السريع، وكم عقاراً يستطيع المرء أن يحطمّه بضربة قوية بذراعه، قبل أن تنتقل أفكاره إلى المتع الأرقى من النشاط الجنسي الذي لا يتوقف والذي ينتظره عندما يعود إلى أرض الجان؟ وفي حال عدم وجود خصم قوي، فهل تستحق اللعبة كلّ هذا العناء؟

منذ أمد بعيد، لم يكن الإنس قط أعداء تجدر محاربتهم، دمدم زمرد شاه لنفسه. لكن العبث بهذه الكيانات الضئيلة لفترة قليلة من الزمن أمر يبعث على المتعة ـ هذه الكائنات المغرورة جداً! المختالة! التي لا تريد أن تعترف بعلاقتها مع الكون ـ وتفسد كل المخططات والترتيبات التي تحظى بالأولوية، لكنه وعد بأن ينفذ، بعد فترة قصيرة، الأمنيات الثلاث للفيلسوف الميت، وإن إطالة أمد هذا العهد ليس أمراً مستحسناً. وكان إحداث تلك الفتحة التي تصل عالمه بعالمهم من أهم إنجازاته، ولتأكيد أهمية ذلك، فقد ظهر على الشاشة الضخمة المنتصبة في وسط ساحة تايمز سكوير ليكشف عن نفسه بأنه زعيم محتل جبار سيُخضع بعد فترة وجيزة الجنس البشري برمته .*كلّكم عبيد لي الآن*، صاح مرة أخرى، *انسوا تاريخكم، فاليوم يبدأ عصر جديد*. لكن أي تلميذ جني ذكي سيلاحظ أن الفتحة التي فُتحت في حيّ كوينز مرعبة، لكن لم يكن يتدفق منها جنود جيش غاز، لأن الجان في بيريستان كانوا منهمكين في ممارسة الجنس.

من الضروري التحدّث بعجالة عن كسل الجنّي العظيم الذي لا يضاهيه كسل. فإذا أردت أن تفهم كيف أُمكن في أحيان كثيرة القبض على هذا العدد الكبير من تلك الأرواح الشديدة القوة، وحبسها في قناني ومصابيح وما إلى ذلك، فإن الجواب يكمن في الخمول الشديد

الذي يصيب الجنّي بعد قيامه بأيّ عمل تقريباً. فالساعات التي ينامون فيها تفوق عدد ساعات استيقاظهم بكثير. وخلال تلك الساعات، فهم يغطّون في سبات عميق فيصبح من السهل دفعهم وحشرهم في أيّ وعاء مسحور من دون أن يستيقظوا. ومثال على ذلك، بعد العمل الهائل بابتلاع العبّارة وهضمها، غطّ رعيم شارب الدمّ الذي كان لا يزال في شكل تنين بحري ضخم، في النوم فوق رصيف الميناء ولم يستيقظ إلاّ بعد عدّة أسابيع؛ وقد استنزف الاستحواذ على صاحب الأموال دانيال آروني والتلاعب به طاقة روبي المشرق لمدّة شهرين. أما زاباراداست وزمرد، فقد كانا يُستنزفان بسهولة، لكنهما سرعان ما يصبحان مستعدين ليغطا في النوم بعد فترة وجيزة. إن الجنّي النعسان روح نزقة. وعندما كان زمرد وزاباراداست نعسانين، يركبان السحب فوق مانهاتن، راحا يتشاجران حول من فعل لمن، ومن هو الرابح ومن هو الخاسر، ومن منهما يجب أن يذعن لمن، ومن الذي سينفذ الوعد الذي قطعه زمرد العظيم للفيلسوف الغزالي قبل قرون عديدة. وعندما ادّعى زمرد بخيلاء مسؤوليته عن إحداث الشتاء الفظيع الذي حلّ بالمدينة، أطلق زاباراداست ضحكة مجلجلة خبيثة، وقال: «أن تدّعي بالفضل لأنك سبّبت طقساً سيئاً، يدّل على مدى استماتتك لكي تثبت قوتك. أما أنا، فإني لا أجادل إلاّ حول السبب والنتيجة. إني أفعل ذلك، وها هي النتيجة. ربما ستتحمّل غداً المسؤولية عن غروب الشمس، وتدّعي بأنك دفعت العالم إلى الظلام».

يجب تكرار ذلك: فالمنافسة، حتى بين أعتى الجان، تكون غالباً تافهة وطفولية، وتفضي إلى عداوات كالأطفال. وتكون عادة، كما هو الحال بين الأطفال، شجارات قصيرة ومؤقتة، لكنّها قد تكون مليئة بالمرارة واللئم والحقد إذا استمرت. وعندما يتشاجر الجان، قد تكون

النتائج مدهشة بالنسبة إلى عيون البشر. إذ يلقي أحدهم على الآخر أشياء ليست كالأشياء التي نفهمهما، بل وإنما أشياء من منتجات عالم الجان. وعندما يرفع البشر أبصارهم إلى السماء من الأرض، فإنهم يقرأون اللا أشياء المسحورة هذه على أنها مذنّبات ونيازك وشهب. وكلما ازدادت قوة الجني، اشتدّت حرارة «النيزك» وأصبح مرعباً أكثر. وكان زاباراداست وزمرد أقوى جميع الجان الأسود قاطبة، لذلك فإن نارهما السحرية شديدة الخطورة، حتى لأحدهما الآخر. إن اقتتال الجان وقتل أحدهم الآخر هو المحور الرئيسي لقصّتنا.

ففي ذروة القتال بينهما، عندما كانا يمتطيان الغيوم البيضاء فوق سماء المدينة، وجّه زاباراداست ضربة إلى صديقه القديم زمرد في أضعف بقعة لديه: بقعة غرامه الهائلة، موضع فخره. «إذا أردت»، صاح زاباراداست، «فإني أستطيع أن أجعل نفسي عملاقاً أضخم منك، لكن الحجم لا يعنيني بشيء. وإذا أردت، فإني أستطيع أن أغيّر شكلي وأصبح مريعاً أكثر من رعيم شارب الدم، لكنّي أفضّل أن أحتفظ بهيئتي. وعندما أريد، فإني أستطيع أن أصبح هامساً أقوى من روبي المشرق، ويكون لهمسي عواقب دائمة وأكثر أهمية». لكن زمرد الذي لم يكن قط أكثر الجان قدرة على التكلّم، هدر غاضباً وقذف كرة نارية كبيرة حوّلها زاباراداست على الفور إلى كرة ثلجية غير مؤذية وعاد ورماها ثانية إلى منافسه كما يفعل فتى يلعب في حديقة في الشتاء. «والأكثر من ذلك»، صاح زاباراداست، «دعني أقل لك، أيها المغرور يا من فتحت تلك الفتحة، أنه بعد فترة طويلة من انفصال العالميْن، بعد أن كُسرت الأختام الأولى وأُعيد فتح الشقوق الأولى، عدتُ إلى الأرض قبل أن تحلم أنت بالقيام بذلك بأمد بعيد، وبذرتُ بذرة ستثمر قريباً وتحدث جرحاً غائراً للبشر أعمق من أيّ جرح يمكن أن تحدثه أنت. إنك تكره البشر لأنهم

ليسوا مثلنا، أما أنا، فإني أكرههم لأنهم يمتلكون الأرض، تلك الأرض الجميلة، الفانية. لقد تجاوزت الثأر المتعصّب الذي أراد فيلسوفك الميت أن تنفذّه. هناك حدائقيٌ سيزرع حديقة كاملة من الرعب. إن ما بدأتُ به بهمسة سيصبح زئيراً سيطرد البشر من الكوكب إلى الأبد. وعندها ستبدو أرض الجان بليدة وجرداء، وستصبح الأرض المباركة كلها، المطَهّرة من البشر أرضاً للجان. هذا ما يمكنني أن أفعله. أنا مريع، أنا زاباrداست».

«الجهالة تهزم نفسها»، قال ابن رشد للغزالي، من التراب إلى التراب»، بسبب عدم عقلانيتها. قد يغفو العقل لفترة من الزمن، لكن اللا عقلاني يعيش غالباً في غيبوبة. وفي النهاية سيكون اللا عقلاني حبيس الأحلام إلى الأبد، بينما العقل هو الذي ينتصر اليوم».

فأجابه الغزالي، «إن العالم الذي يحلم به الإنسان هو العالم الذي يحاول أن يصنعه».

وتلت ذلك فترة من الهدوء، عاد خلالها زاباrداست وروبي المشرق ورعيم شارب الدمّ إلى أرض الجان. وأُغلقت البوابة المؤدية إلى الفتحة في حي كوينز، ولم يبق إلاّ البيت المهدّم. واعتقد أسلافنا أن الأسوأ قد انتهى. ومضت الساعات قدماً، وقفز الربيع. وفي كل مكان يؤمه الرجال كانوا يقفون في ظلّ فتيات شابات في شكل زهرة، وكانوا في غاية السعادة. في تلك الأيام، كنّا أناساً بلا ذاكرة، لاسيما الشباب الصغار، وكانت هناك أشياء كثيرة تلهي الشباب. لقد سمحوا لأنفسهم أن يتلّهوا بسعادة.

لم يرجع زمرد العظيم إلى بيريستان، بل ذهب ليجلس عند قدميْ قبر الغزالي ليطرح عليه بعض الأسئلة. فبعد كل اعتراضاته على الفلسفة واللاهوت، قرّر أن ينصت إلى ما سيقوله. لعله سئم من ثرثرة الجان وحقدهم. لعل سلوك الجان الفوضوي الذي لا يهدف إلاّ إلى إحداث الفوضى لمجرد الرغبة في إحداث الفوضى، أصبح أخيراً خاوياً تماماً وفهم بأنّه بحاجة إلى راية يحارب في سبيلها. لعله نما، في النهاية، لا جسدياً، وإنما داخلياً، وبعد أن نما، أحسّ بأنه لكي يحترم قضية ما، يجب أن تكون أكبر منه، وبما أنه عملاق، فيجب أن تكون ضخمة جداً حقاً؛ والقضية الهائلة الوحيدة الموجودة في السوق هي القضية التي كان الغزالي يحاول بيعها. عند هذه النقطة من الزمن، لا يمكننا أن نعرف كيف يفكرّ تماماً. وكلّ ما نعرفه هو أنه اشتراها.

احذر الرجل (أو الجنّي) العملي الذي يسعى أخيراً إلى تطوير نفسه بالفكر، لأن القليل من التفكير أمر خطير.

دنيا عاشقة مرة أخرى

عندما رأت دنيا جيرونيمو مانيزيس للمرة الأولى، كان يطير على جانبه في غرفة نومه الشبه مظلمة، واضعاً على عينيه قناع النوم، وهو في حالة نعاس شديدة مضنية قريبة جداً من النومَ كما كان يحصل له في هذه الأيام. وكان الضوء المنبعث من المصباح الخافت المنتصب على المنضدة الصغيرة بجانب السرير يتدفّق نحوه، يلقي بظلال فيلم رعب على وجهه العظمي الطويل. وجعلته البطانية المدلاّة من جانبي جسده يبدو مثل مساعد ساحر، يرتفع عن الأرض عندما ينوّمه مغناطيسياً ساحر محتال يعتمر قبعة طويلة، وعلى وشك أن يفصله إلى نصفين بالمنشار. أين رأيتُ هذا الوجه من قبل، تساءلت، وأجابت نفسها على الفور، مع أنّ هذه الذكرى ترجع إلى أكثر من ثمانمائة سنة. وجه حبيبها الأنسي الحقيقي الوحيد، مع أنه لا يعتمر عمامة على رأسه الآن، ولم تكن لحيته التي غزاها الشيب مشذّبة بعناية، بل كانت أكثر خشونة ووحشية مما تتذكره عنه. فلم تكن لحية رجل يريد أن تكون له لحية، وإنما نمو شعرات شعثاء على وجه شخص لم يعد يبالي بحلاقتها. لم تر وجهه منذ أكثر من ثمانية قرون، لكنه يبدو كما لو كان البارحة، كما لو أنه لم يهجرها، كما لو أنه لم يستحل إلى تراب، تراب كلّمته، تراب يضجّ بالحياة، لكنه يظل تراباً بالرغم من كل شيء. ميت بلا جسد، كما لو

كان ينتظرها هنا طوال هذا الوقت، في الظلام، منذ أكثر من ثمانمائة سنة، ينتظرها حتى تجده ليجدّدا حبّهما القديم.

لم يكن الطواف في الهواء لغزاً بالنسبة لأميرة جنيّة. فلا بد أن هذا من فعل الجنّي زاباراداست الساحر الذي انسلّ من الشقوق الأولى ليلعن مرة أخرى جيرونيمو مانيزيس: لكن لماذا؟ هذا لغز. هل هو حقد بالمصادفة، أم أن زاباراداست حدس بوجود دنيا زاد بطريقة ما، وفهم بأنهما إذا تمكّنا من تنظيم أمورهما جيداً فقد يصبحان عثرة كأداء في وجه قوّة الجان الأسود، مقاومة، قوة مضادة؟ دنيا لا تؤمن بالحظ. والجان يؤمنون بطبيعة الكون الهادفة التي يكون فيها حتى للمصادفات هدف. كان عليها أن تجيب على سؤال الدوافع التي جعلت يزاباراداست يفعل ذلك، ومع مرور الوقت، وجدت ما كانت تبحث عنه، فقد علمت بخطة زاباراداست الرامية إلى نشر المرضين وهما الارتفاع عن الأرض والارتطام بالأشياء اللذين لن يسمحا للبشر ملامسة سطح الأرض بشكل نهائي. لكنها كانت معجبة في الوقت نفسه بمقاومة جيرونيمو مانيزيس لهذا السحر. إذ سيطوف الأناس العاديون في الهواء ويرتفعون في السماء حتى يلقوا حتفهم خنقاً بسبب نقص الأوكسجين، فتتجمد أوصالهم نتيجة انخفاض درجة الحرارة، وتهاجمهم الطيور المحلية الغاضبة لأن المخلوقات الأرضية ارتفعت في الهواء وصعدت إليها. أما جيرونيمو، وبعد انقضاء فترة طويلة، فلا يزال على ارتفاع قليل عن الأرض، ولا يزال قادراً على العيش داخل البيت وأداء وظائفه الطبيعية على أكمل وجه دون أن يخلّف وراءه فوضى مهينة. إنه حقاً شخص جدير بالاحترام، قالت لنفسها. زبون صعب. لكنها كانت منشغلة أكثر بذلك الوجه، لأنه لم يكن يخيّل إليها أنّها سترى ذلك الوجه مرة أخرى.

عندما كان ابن رشد يداعب جسدها ويمتدح جماله كانت تغضب وتقول: إذاً فأنت لا ترى أن أفكاري جديرة بالثناء، فيجيبها بأنّ العقل والجسد واحد، وأنّ العقل هو شكل جسد البشر، لذلك فإنه المسؤول عن جميع تصرفات الجسد، التي يُعدّ الفكر واحداً منها. إن امتداح الجسد يعني امتداح العقل الذي يحكمه. قال أرسطو ذلك وهو يتفق معه، وهمس في أذنها، إنه يصعب عليه أن يصدّق بأن الوعي يعيش بعد الجسد، لأن العقل هو جزء من الجسد ولا معنى له من دونه. لم تشأ أن تجادل أرسطو ولم تنبس بكلمة. وقال لها لكن أفلاطون يختلف في هذا الرأي فهو يقول إن العقل محصور في الجسد مثل طير وعندما يتمكّن من التخلص من ذلك القفص فإنه ينطلق ويحلّق عالياً ويصبح حرّاً.

أرادت أن تقول له إنني مخلوقة من دخان. عقلي دخان، وأفكاري دخان، كلّي دخان ولا شيء سوى دخان. وما هذا الجسد سوى كساء أرتديه جعلته بفنّي السحري قادراً على أداء وظائف جسد إنسيّ، ومن الناحية البيولوجية فهو كامل إلى حد أنه يستطيع أن يحمل وينجب أطفالاً كلّ ثلاثة وأربعه وخمسة في كل مرة. ومع ذلك فأنا لست من هذا الجسد وأستطيع، إذا أردت، أن أسكن جسد امرأة أخرى، أو جسد ظبية أو بعوضة. إن أرسطو مخطئ لأنني عشت دهراً، أعدّل خلاله جسدي عندما أريد، مثل ثوب أملّ منه فألقي به. لقد أرادت أن تقول إنّ العقل والجسد اثنان، لكنّها كانت تعرف أنّها ستزعجه إذا اختلفت معه في الرأي، فأمسكت لسانها.

في جيرونيمو مانيزيس رأت الآن ابن رشد يولد من جديد وأرادت أن تدمدم، أترى، لقد دخلتَ جسداً جديداً أيضاً. لقد انتقلت عبر الزمن، وعبرت الدهليز المظلم الذي يقول البعض بأن الروح تسافر بين

الحيوات، وتلقي بوعيها القديم في أثناء عبورها، وتتخلص من ذاتيّتها، حتى تصبح أخيراً جوهراً نقياً، ضوء الكينونة النقي، متهيأة لدخول شيء حيّ آخر؛ ولا يستطيع أحد أن ينكر بأنك هنا مرة أخرى، مختلفاً، وبالرغم من ذلك فأنت نفسك. تخيّل أنّك أتيت إلى هذا العالم وأنت معصوب العينين، في الظلام، وتطوف في الهواء، كما تفعل الآن، فإنك لن تعرف حتى أنه كان لديك جسد، وبالرغم من ذلك فإنك ستعرف أنه أنت. نفسك، عقلك، سيصبحان هنا عندما تعود إلى وعيك. إنه أمر منفصل.

لكنها قالت لنفسها، وهي تجادل نفسها، لعل الأمر ليس كذلك. لعل الأمر مختلف مع الإنس الذين لا يستطيعون تغيير هيئتهم، وأن صدى هذه الهيئة النائمة لرجل مات منذ أمد بعيد قد يعزى إلى طفرة بيولوجية لا شيء آخر. ربما في حالة الإنس الحقيقيين، فإن عقلهم وروحهم ووعيهم يسري في أجسادهم كما يسري الدم، يسكن كلّ خلية من خلايا كيانهم الجسدي، لذلك كان أرسطو محقّاً، فإن العقل والجسد في الإنس هما واحد ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، والنفس موجودة في كل جسد وتهلك معه أيضاً. تخيّلت ذلك الاتحاد ببهجة. لو كان الأمر كذلك لكان الإنس محظوظين، أرادت أن تقول لجيرونيمو الذي كان ولم يكن ابن رشد: المحظوظ والمنكود في آن معاً. عندما تخفق قلوبهم من الإثارة، فإن أرواحهم تخفق أيضاً، وعندما يتسارع نبضهم تُستثار أرواحهم، وعندما تتبلل عيونهم بدموع السعادة فإن عقولهم هي التي تشعر بالبهجة. إن عقولهم تلامس الأشخاص الذين تلامسهم أصابعهم، وعندما يلمسهم الآخرون، كما لو أنّ وعيين قد التقيا لفترة قصيرة. إن العقل يمنح الجسد الشهوانية، ويسمح للجسد أن يتذوق المتعة ويشمّ رائحة الحبّ في عطر الحبيب الحلو، ولا تمارس أجسادهم

العشق فحسب، وإنما عقولهم تمارسه أيضاً. وفي النهاية، فإن الروح الفانية كالجسد تتعلم درس الحياة العظيم الأخير، وهو موت الجسد.

وإذا اتخذت جنيّة هيئة إنسيّ فإنها لا تمتلك حاسة الذوق أو الشمّ أو الإحساس، لأن جسدها لم يُخلق من أجل الحبّ لأنه ليس الشريك التكافلي وليس صاحب العقل. وعندما لمسها الفيلسوف بحميمية، كان كأنه يداعبها وهي ترتدي ثياباً شتوية سميكة، في طبقات عديدة، فلم تشعر بأي إحساس سوى صوت هسهسة بعيدة، كما لو أنّ يداً تلامس معطفاً. وبما أنها تحبّ فيلسوفها كثيراً، فقد أوحت له بأنه أثار جسدها وأنها بلغت ذروة النشوة. لقد خُدع ابن رشد كما يُخدع الرجال بسهولة في مثل هذه الأمور لأنهم يريدون أن يعتقدوا بأنهم يمتلكون مفاتيح القوّة للإثارة. لقد أرادته أن يعتقد بأنّه أوصلها إلى ذروة المتعة، أما الحقيقة فهي أنّها تستطيع أن تمنح الرجل متعة جسدية لكنها لا تستطيع أن تبلغها، وكانت تستطيع أن تتخيّل فقط كيف يمكن أن تبدو تلك المتعة، وتستطيع أن تراقب وتتعلّم وأن تقدّم لحبيبها إشاراتها الخارجية، في محاولة لخداع نفسها وخداعه، بأنها نعم، تحسّ بالمتعة أيضاً، وقد جعلها ذلك تبدو ممثلة، مُصْطَنَعة، حمقاء تخدع نفسها. وبالرغم من ذلك، فقد أحبّت رجلاً، أحبّته من أجل عقله، واكتست جسداً لكي يبادلها الحبّ، وأنجبت أطفاله، وحملت ذاكرة ذلك الحبّ لأكثر من ثمانية قرون، والآن، لمفاجأتها وإثارتها، ها هو هنا، ولد من جديد، مُنح لحماً جديداً، وعظاماً جديدة، وإذا كان جيرونيمو الذي يطوف في الهواء متقدماً في العمر، فما الضير في ذلك؟ فقد كان ابن رشد «متقدماً في العمر» أيضاً. إن الإنس هم الشموع التي تنطفئ بسرعة، لا يعرفون ماذا تعني الكلمة. كانت أكبر سناً من كلا الرجلين، أكبر بكثير إلى حد أنهما سيصابان بالذعر لو شاخت كما يشيخ البشر أيضاً.

تذكّرت الديناصورات. إنها أكبر سنّاً من جنس البشر.

نادراً ما يعترف الجان لأحدهم الآخر بأنهم يُبدون اهتماماً بالبشر، وكم أن البشر يبدون فاتنين في عيون غير البشر. ففي عصور ما قبل الإنسان، في عصر الكائنات الحية الوحيدة الخلية: الأسماك، والبرمائيات، والمخلوقات السيّارة الأولى، والكائنات الطائرة الأولى، والكائنات الزاحفة الأولى، ثم عصور الوحوش الأضخم، لم يكن الجان يجازفون بمغادرة أرض الجان. ولم تكن الغابة الدنيوية، الصحراء، قمّة الجبل، وكل تلك الأشياء الوحشية تعني لهم شيئاً. لقد كشفت بيريستان هوس الجان بزخرفة الأشياء التي لا توفرّها إلاّ الحضارة. فهي مكان للحدائق الرسمية المرتبة بأناقة في مصاطب جميلة، وجداول ماء تتساقط في شلالات تسير في قنوات جميلة، وأزهار في أحواض، وغُرست فيها الأشجار بشكل متناظر لتكون هناك دروب وتشعبات تدخل البهجة إلى النفوس، ولتمنح ظلاًّ مريحاً وإحساساً بترف بهيج. وتوجد في أرض الجان سرادقات من الحجارة الحمراء، الكثير منها مُقَبّبة، ذات جدران حريرية يمكن العثور في داخلها على مخادع مفروشة بالسجاد ووسائد للاتكاء عليها، وسماورات من النبيذ اللذيذ، التي يلوذ إليها الجان للحصول على المتعة. ومع أن الجان خُلقوا من دخان ونار، فقد كانوا يفضّلون الأشياء الجميلة الشكل على طبيعتهم العديمة الشكل. وهذا ما جعلهم في أحيان كثيرة يتخذون أشكال وهيئات بشرية. هذه الحقيقة وحدها تكشف قدر ـ نعم ـ امتنانهم نحو البشرية المسكينة الفانية التي قدمت لهم نموذجاً، وساعدتهم على فرض نظام طبيعي، مصمم حدائق، مهندس معماري، على أنفسهم الفوضوية في جوهرها. وفي ممارسة الجنس ـ وهو النشاط الرئيسي في أرض الجان ـ يطلق الجان، ذكوراً وإناثاً، العنان لأجسادهم ويهبط

أحدهم فوق الآخر مثل دخان، نار في شكل ضفائر، نار تنفث دخاناً، في اتحاد شرس طويل. وبدأوا يفضّلون استخدام «أجسادهم»، القشور التي غلّفوا فيها همجيتهم. وقد أضفت عليهم هذه «الأجساد» شكلاً رسمياً، بقدر ما أضفت الحديقة الرسمية شكلاً رسمياً على الفلاة، واتفق الجان على أن «الأجساد» شيء جيد.

لقد مضت الأميرة دنيا، أو بعبارة أدق، الأميرة التي أطلقت على نفسها اسم «دنيا»، أي العالم، خلال زياراتها إلى عالم الرجال ـ شأواً أبعد مما ذهب إليه معظم بني جنسها. فازداد افتنانها بالإنس عمقاً إلى حدّ أنها اكتشفت مشاعر عاطفية إنسيّة في نفسها. كانت جنيّة يمكنها أن تحبّ. لقد أحبتّ ذات يوم، وستفعل ذلك مرة أخرى الآن، مع الرجل نفسه، الذي خُلق مرة أخرى في زمن آخر. والأهم من كل ذلك، لو سألها، لأخبرته بأنّها أحبّته من أجل عقله، لا من أجل جسده. فهو نفسه الدليل على أن العقل والجسد اثنان، لا واحد: بصراحة العقل الاستثنائي في كساء غير استثنائي. فلا يمكن لأحد أن يحبّ ابن رشد لبنية جسده التي تظهر عليها، بصراحة تامة، عناصر الترهل، وعندما التقت به، كانت تبدو عليه دلائل أخرى على الهرم والشيخوخة. ولاحظت بشيء من الرضى بأنّ جسد هذا الرجل النائم، جيرونيمو مانيزيس، الذي تقمّص جسد حبيبها، هو أفضل بكثير من جسده الأصلي. فهذا الجسد قوي ومتين، حتّى لو كان «قديماً». وجه ابن رشد مثبت في مكان أفضل. نعم، ستحبّه، وربما أدخلت هذه المرة على نفسها سحراً إضافياً وتكتسب لك الإحساس. تأمل هذه المرة أن تأخذ بقدر ما تعطي. لكن ماذا لو كان عقل هذا الرجل غبياً؟ ماذا لو كان غير العقل الذي أغرمت به؟ هل تستطيع أن تقبل الوجه والجسد فقط؟ ربما، قالت لنفسها، فلا يوجد أحد مثالي، وأن التناسخ ليست عملية دقيقة. قد تقبل أقل من كلّ شيء. كان يبدو جيداً. قد يكون ذلك كافياً.

شيء واحد لم يخطر ببالها وهو أن جيرونيمو مانيزيس ينتمي إلى قبيلة دنيا زاد وسليل ذريتها، ويرجح أن يكون حفيد حفيد حفيد حفيد حفيد حفيدها، حفيد أو حفيدان أكثر أو أقل. لذلك ستكون مضاجعة السّيد جيرونيمو بمثابة علاقة زنا، لكن الجان لا يقرّون بتحريم سفاح القربى. إن إنجاب الأولاد أمر نادر للغاية في عالم الجان إلى حدّ أن تحريم الأحفاد لم يكن ضرورياً، مثلاً. ولا يكاد يوجد أحفاد يمكن التحدّث عنهم. لكن يوجد لدى دنيا أحفاد؛ أحفاد كثيرون. أما في ما يتعلق بسفاح القربى، فقد حذت حذو الجمل، لأن الجمل سيسافد أمّه وابنته وأخاه وأخته وأباه وعمّه، أو كل ما يخطر ببالك. فالجمل لا يعرف حشمة ولا خجلاً، ولا يفكّر بالأدب والاحتشام. إن ما يدفع الجمل أو الناقة إلى ذلك هو الشهوة فقط. وكانت دنيا، مثل جميع بني قومها يتبعون المذهب نفسه. فما تريده، تحصل عليه. ولمفاجأتها فقد وجدت ما تريده هنا في هذا البيت الضيّق، في هذا القبو الضيّق، حيث يطوف هذا الرجل النائم فوق سريره بضع بوصات.

راحت دنيا ترمقه وهو نائم، هذا الإنسي الذي لم يكن جسده خياراً، الذي ينتمي إليه هو وجسده، وتردّدت في إيقاظه. بعد دخولها بطريقة فظة إلى الشقّة التي في الطابق العلوي وأصابت الساكنة فيها، ياسمين زرقا، بالرعب، جعلت نفسها غير مرئية، وفضلّت هذه المرة أن ترى قبل أن تُرى. تحرّكت ببطء نحو الجسد الراقد. لم كان نائماً بعمق، بل كلن على وشك الاستيقاظ، يدمدم في نومه. يجب أن تكون حذرة، فقد كانت تريده أن يظل نائماً حتى تستمع إلى قلبه.

لم يُذكر الكثير عن مهارة الجان في الهمس التي يقهرون إرادة الإنس ويسيطرون عليها بدمدمة كلمات تنمّ عن القوّة فوق صدورهم. كانت دنيا هامسة بارعة، لكنّها تمتلك، بالإضافة إلى ذلك، مهارة نادرة: موهبة

الاستماع، والاقتراب من رجل نائم ووضع أذنها برقة شديدة على صدره، وحلّ اللغة السرية التي تتحدّث بها النفس لنفسها فقط، وتكتشف ما يشتهيه قلبه. وعندما كانت تنصت إلى جيرونيمو مانيزيس، سمعت أولاً أكثر رغباته المتوقّعة، *أرجوك دعيني أهبط إلى الأرض لتلامس قدماي الأرض الصلبة ثانية*، وتحت هذه الرغبة تكمن أشدّ الرغبات حزناً التي لا يمكن تحقيقها في شيخوخته، *دعني أعود شاباً، أعد لي قوّة الشباب والثقة بأن الحياة طويلة*، وتحت ذلك أحلام المشردّين، *دعيني أعد إلى ذلك المكان البعيد الذي غادرته منذ أمد بعيد والذي ابتعدت عنه، والذي نسيني، والذي صرت فيه غريباً الآن مع أنه المكان الذي نشأت فيه، دعني أعد، أتمشّى في تلك الشوارع عارفاً أنها لي، عارفاً أنّ قصّتي جزء من قصّة تلك الشوارع، مع أنها ليست كذلك، ولم تكن كذلك خلال معظم سنوات العمر، دعه يكن كذلك، دعه يكن هكذا، دعيني أرَ الكريكت الفرنسي في الملعب، وأستمع إلى الموسيقى على المنصة في الهواء الطلق، وأسمع مرة أخرى أغاني الأطفال في الشارع الخلفي*. ظلت تستمع ثم سمعتها، تحت كلّ شيء آخر، أعمق نوتة في موسيقى قلبه، وعرفت ما يجب أن تفعل.

استيقظ السّيد جيرونيمو عند الفجر وهو يشعر بألم عظامه اليومي المملّ وقال لنفسه إن حالته الجديدة هي نتيجة صراع جسده التلقائي مع الجاذبية. فلا تزال الجاذبية هناك، ولم يستطع، في هذه اللحظة، أن يدفع غروراً كافياً للاعتقاد بأنها تضاءلت في المكان المحيط به مباشرة. فالجاذبية هي الجاذبية، أما جسده فهو عالق في قبضة قوة مضادة لا يمكن تفسيرها وأقوى من أن يتمكن من إيقافها، ترفعه ببطء إلى الأعلى، وهي عملية مُنهِكة. كان يعتبر نفسه رجلاً صلْباً، قوّي العمل

والحزن والزمن من شكيمته، رجلاً لا ينتابه الفزع بسهولة، أما في هذه الأيام، فعندما أصبح يستيقظ من نصف استراحته المضطربة، كانت الأفكار الأولى التي تخطر له تبهت بسرعة وتبلى وتتلاشى. وإذا مات قبل أن تنحسر حالته هذه فهل سيكون بالإمكان دفنه، أم أن جثمانه سيرفض القبر، ويزيح التراب عنه، ويرتفع إلى الأعلى ببطء، ثم ينطلق إلى سطح الأرض ليطير فوق الحفرة التي سيثوي فيها عندما يتحلل جسده؟ وإذا أُحرق فهل سيصبح سحابة صغيرة من الرماد تتجمّع بعناد في الهواء، ثم تصعد بقوة مثل سرب من الحشرات الخاملة، إلى أن تهبّ ريح أو تضيع بين الغيوم؟ تلك كانت هواجسه الصباحية. أما في هذا الصباح بالذات فقد تبدّد ثقل النوم بسرعة لأن شيئاً لم يكن يبدو أنه يسير على ما يرام. فقد كانت الغرفة في ظلمة تامة. لم يتذكّر أنه كان قد أطفأ المصباح المنتصب على المنضدة الصغيرة بجانب سريره. كان يحبّ دائماً أن ينام في غرفة مظلمة، أما في هذه الأوقات الغريبة، فقد بدأ يترك ضوء خافتاً. وفي أحيان كثيرة، كانت بطانيته تسقط عنه وهو نائم فيضطر إلى أن يمدّ يده عدّة بوصات إلى الأسفل يبحث عنها ويعيدها، وكان يكره البحث عنها في العتمة. لذلك، أصبح يترك نوراً خفيفاً، أما في هذا الصباح فقد استيقظ في الظلّ. وعندما اعتادت عيناه على الظلام أدرك أنّه ليس وحده في الغرفة. امرأة بدأت تتجسد شيئاً فشيئاً، شكّل عقله هذه الكلمة المستحيلة، تتجسّد في الظلام وهو ينظر. امرأة يمكن تبيّنها، حتى في الظلال العميقة حيث بدأت تتجلى بأنها زوجته المرحومة.

منذ السنوات التي سلبها منه البرق في بيت بليس القديم، لا إنكورينزا، لم تتوقّف إيلا إلفينبين عن زيارته في الأحلام، حيث كانت تبدو متفائلة إلى الأبد، رائعة الجمال إلى الأبد، شابة إلى الأبد. في هذا

الزمن من خوفه وكآبته، عادت، هي التي ذهبت قبله إلى التهافت العظيم، لتريحه وتبث في نفسه الطمأنينة. مستيقظاً، لم يخامره أدنى شكّ بأن العدم سيعقب الحياة. ولو ضُغط عليه أكثر لقال، في الواقع، إن الحياة تتكوّن من بحر العدم العظيم الذي خرجنا منه عند الولادة لفترة من الزمن ويجب أن نعود إليه جميعاً. بيد أنّ نفسه الحالمة لم تشأ أن ترتبط بهذه النظرية الحتمية. كان نومه مضطرباً، مقلقلاً، لكن بالرغم من ذلك، فقد جاءت بكلّ طبيعتها المحبّة، جسدها يحوم حول جسده ليضمّه في دفئه، وقد دسّت أنفها في رقبته، وطوقت ذراعاه رأسها، وراحت يده تداعب شعرها. تكلّمت كثيراً، كدأبها، «ثرثرتك التي لا تتوقف» كان يقول لها في تلك الأيام الجميلة القديمة، *إذاعة إيلا*، وكانت تمر أوقات يسألها فيها، ضاحكاً، لكنه منزعج قليلاً، أن تحاول أن تصمت لستّين ثانية، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك، ولا حتى مرة واحدة. كانت تنصحه بأن يتناول طعاماً صحّياً، وتحذّره من الإفراط في احتساء المشروبات الكحولية، وكانت قلقة بأنه لا يستطيع، وهو في حالته المعيقة هذه، ممارسة التمارين الرياضية التي اعتاد على ممارستها، وتناقشه حول آخر ما توصلت إليه مستحضرات البشرة الجيدة (في حلمه، لم يسألها كيف عرفت كل ذلك)، وكانت تتحدّث في السياسة، وبالطبع، كانت لديها أشياء كثيرة لتقولها حول تصميم الحدائق. كانت تتحدّث عن لا شيء، وعن كلّ شيء، ومرة أخرى عن لا شيء، بالتفصيل وبإسهاب.

فكّر بمناجاتها كما يفكّر عشاق الموسيقى بالأغاني التي يحبّونها. كانت تقدم له تلك الموسيقي التي ترافق حياته. صارت أيامه صامتة الآن، أما لياليه، بعضها على الأقل، فكانت لا تزال تنبلج بكلماتها. أما الآن فقد كان مستيقظاً وها هي امرأة تقف فوقه، وها هو شيء مستحيل

آخر يجب وضعه بجانب الشيء المستحيل الذي أضحت عليه حياته، بل ربما كانت هذه استحالة أكثر من المستحيل، لكنّه يستطيع أن يدرك جسدها في كل مكان، حتى في الظلام. لا بدّ أنه دخل في نوع من الهذيان، قال لنفسه، لعله أصبح في أواخر أيام حياته ومُنح هذه الرؤية في فوضى لحظاته الأخيرة.

إيلا؟ سأل. نعم، جاء الجواب. نعم ولا.

أشعل الضوء وقفز، إن لم يكن إلى خارج جلده، فعلى الأقل إلى خارج السرير. ومن وضعيته المستلقية فوق فراشه بأربع بوصات، سقطت بطانيته. أصبح وجهاً لوجه أمام دنيا المستنسخة، وأصبحت الآن صورة طبق الأصل عن إيلا إلفينبين مانيزيس. سرت في جسده رعشة من الخوف الحقيقي وولدت بهجة مستحيلة.

لم يكفّ أحدهما عن النظر إلى الآخر. كانا كلاهما ينظران إلى جسدين متناسخين، أُغرما كلاهما بجسد بديل عن الجسد الحقيقي. لم يكونا جسدين أصليين، إنما نسختان متطابقتان، كلّ منهما صدى لخسارة الآخر. ومنذ البداية، عرفا أن جسد الآخر هو نسخة زائفة، ومنذ البداية، أرادا أن يكتما هذه المعرفة، لفترة من الزمن على الأقل. إننا نعيش في العصر التالي، عصر الما بعد، ولا نعتبر أننا المحركان الأساسيان، إنما نتاج ذلك.

«لقد ماتت زوجتي»، قال السّيد جيرونيمو»، ولا توجد أشباح، لذلك، فإما أنني وقعت في قبضة الهلوسة أو أن هذه مزحة فظة».

«الموتى لا يمشون، هذا صحيح»، أجابت دنيا، «لكن المعجزات موجودة».

«أولاً الارتفاع عن الأرض»، قال، «والآن البعث من الموت؟»

«أما بالنسبة للارتفاع عن الأرض»، أجابت دنيا بغنج، وقد ارتفعت إلى مستواه، محدثة في السّيد جيرونيمو شهقة قديمة عالية، «اثنان يستطيعان أن يلعبا تلك اللعبة. أما بالنسبة إلى البعث من الموت، فلا، ليس تماماً».

حاول بصعوبة التشبّث بإيمانه بواقعية الواقع، وأن يعامل حالته الخاصة بأنها استثنائية، وليست إشارة إلى انهيار عام أكثر. الطفلة السحرية التي ظهرت على شاشة التلفاز والتي جعله وجودها يشعر بالراحة في البداية، سرعان ما بدأ يزيد الاضطراب سوءاً في روحه، وحاول أن يخرجها قسراً من أفكاره. كان قد توقّف عن الاستماع إلى نشرات الأخبار. فلم يعد يرغب في سماع أخبار ذات مظاهر سريالية. العزلة، التفرد. بدأ يشعر بأن هذين الشيئين هما أكثر رغبة من البدائل. لو كان بوسعه تقبّل أنه الوحيد الذي أصبح حالة شاذة، حالة غريبة، فلا يزال باستطاعته أيضاً أن يعرّف بقيّة العالم المعروف، المدينة، البلد، الكوكب، بمبادئ علم ما بعد آينشتاين المعروفة أو المفترضة بثقة، لكي يتمكن من أن يحلم بعودته إلى تلك الحالة المفقودة، الحالة التي يحنّ إليها. إن الانحرافات تحدث حتى في النظم المثالية، وليس من الضروري أن تشير هذه الظواهر إلى فشل النظام برمته. يمكن تصحيح الأخطاء، إعادة تشغيلها، إصلاحها.

الآن، في مواجهة إيلا التي قامت من الأموات، أصبح عليه أن يتخلّى عن بصيص الأمل الأخير ذاك، الذي كان يخيّل إليه أنه سلامة العقل، لأن إيلا تتجلّى هنا في صورة دنيا، أميرة الجان، التي اتخذّت هيئة زوجته لتُدخل السرور إلى نفسه، أو هكذا قالت له، لكن لعلها فعلت ذلك لتخدعه، لتغويه، ثم تحطمّه كما حطمّت جنيّات البحر البحارة، أو كما فعلت سيرس، أو بعض الساحرات الأخريات اللاتي

هن من نسج الخيال. ها هي إيلادنيا، دنيلا، لها صوت زوجته الجميلة الرخيم، وتحكي له حكايات غرائبية وعجائبية عن وجود الجان، البيض والسود، والجنّيات والعفاريت، وأرض الجان حيث ممارسة العشق فيها تثير الدهشة، وعن الكائنات المتحوّلة والهامسة، وعن كسر الأختام وفتح الشقوق في الواقع؛ أول فتحة في حي كوينز (أصبح هناك المزيد منها الآن، وانتشرت في كل مكان)، وعن قدوم الجان الأسود والعواقب الناجمة عن مجيئهم. كان رجلاً شكوكاً غير مؤمن، وكان هذا النوع من القصص يثير ألماً في معدته ونوعاً من الهمهمة في دماغه. بدأتُ أفقد صوابي، قال لنفسه. لم يعد يعرف بمَ يفكر، ولا كيف يفكّر به.

«إن عالم الجان عالم حقيقي»، قالت له لتهدئ من روعه، وهي تنصت إلى اضطرابه الداخلي، «لكن هذا لا يعني أن الله موجود. وفي هذا الأمر، فإني أشكّ مثلك في ذلك».

كانت لا تزال في الغرفة، لم تبرح مكانها، تطوف في الهواء مثله، وقد سمحت له أن يلمسها. لمسها أولاً ليرى إن كان بإمكانه أن يلمسها، لأن جزءاً من عقله يعتقد بأن يده ستمرّ عبرها. كانت ترتدي بلوزة سوداء تذكّرها فعلاً، بلوزة سوداء فوق بنطلون فضفاض كالذي يرتديه المصورون في المناطق الحربية، وشعرها مسحوب إلى الوراء ومعقود إلى الأعلى في شكل ذنب حصان، وتذكّر أيضاً ذراعيها العاريين بعضلاتهما النحيلة، وبشرتها الزيتونية. وكان الناس يسألون إيلا باستمرار عمّا إذا كانت لبنانية. لمست أطراف أصابعه ذراعيها وأحسّت ببشرتها الدافئة، هي التي اعتادت على لمساته، بشرة إيلا. تحرّكت نحوه، ثم صارت مقاومتها مستحيلة. أدرك أن دموعاً تسيل على وجهه. ضمّها إليه وتركته يضمّها. طوّقت يداه وجهها، وفجأة، وعلى نحو لا يطاق، أحس

بأن ثمة خطأ في ما يفعله. فقد استطالت ذقنها بشكل غير متوقّع. أنتِ لستِ هي، قال، مَنْ كنتِ تكونين، فأنتِ لستِ هي. أنصتت تحت كلماته وعدلتّها. حاول مرة أخرى، قالت. نعم، قال، قوّس راحة يده تحت حنكها. نعم، يبدو هذا رائعاً.

في بداية كلّ قصة حبّ، ينبثق اتفاق خاصّ يعقده كلّ حبيب مع نفسه أو مع نفسها، اتفاق لتنحية الأخطاء الموجودة في الشخص الآخر لصالح الأمور الجيدة. الحبّ ربيع يعقب الشتاء. إنه يأتي ليشفي جروح الحياة التي تحدثها برودة اللا الحبّ. عندما يولد ذلك الدفء في القلب، يُنظر إلى نقائص المحبوب بأنها لا شيء، بل أقل من لا شيء، ويسهل التوقيع على الاتفاق السري مع المرء نفسه. يُخرس صوت الشكّ. ثمّ، عندما يبهت الحبّ، يصبح ذلك الاتفاق السري يبدو أحمق، لكن، إذا كان الأمر كذلك، فهو حماقة ضرورية، يولد من إيمان المحبين بالجمال، أي، احتمالية الشيء المستحيل، الحبّ الحقيقي.

لقد فُصل هذا الرجل في الستّينات من عمره عن الأرض التي يكسب رزقه منها، فصلته عنها صاعقة، فصلته عن المرأة الوحيدة التي أحبّها في حياته، وهذه الأميرة القادمة من العالم الآخر، تملأ صدرها ذاكرة خسارة عمرها قرون، عبر محيط، بعيداً. كلاهما يتألم، الألم الفريد من نوعه الذي يولد من حبّ ضائع أو محطّم. هنا، في غرفة نوم في قبو مظلّم في بيت في بناية تُدعى *بغداد*، اتفقا مع نفسيهما، ومع أحدهما الآخر، على تجديد حبّين حُطّما منذ عهد سحيق نتيجة **الموت**. لقد لبست لباس جسد زوجته المحبوبة، وفضّل ألاّ يلاحظ أنّ صوت دنيا ليس صوت إيلا، وأنّ تصرفاتها لا تشبه تصرفات زوجته، ولم تكن الذكريات المشتركة التي توحّد بين الزوجين الحبيبين موجودة في

أفكارها. كانت مستمعة رائعة وقد صممت على أن تكون المرأة التي يريدها أن تكون، لكن، أولاً، فإن *الإنصات* يستغرق وقتاً وعناية، وثانياً، أميرة جنيّة تريد أن تُحبّ من أجل نفسها، ولذلك، فإن الرغبة في أن تُحبّ هي التي جعلت دنيا تتقمص شخصية امرأة ميتة ولم تكن درجة الشبه كاملة ومتقنة كما يجب. أما جيرونيمو مانيزيس، نعم، فقد أُعجبت ببنيته القوية النحيلة بالنسبة لرجل متقدم في السن، لكن الرجل الذي أحبّته كان كلّه عقلاً.

سألته أخيراً، «ماذا تعرف عن الفلسفة؟»

حدّثها عن السّيدة فيلسوفة وعن تشاؤمها تأثراً بنيتشه وشوبنهاور. وعندما ذكر لها إن بيت ألكساندرا بليس فارينا يدعى لا إنكورينزا، أخذت دنيا نَفَسَاً عميقاً، وتذكّرت معركة الكتب التي وقعت منذ زمن بعيد بين الغزالي وابن رشد، *تهافت الفلاسفة* إزاء *تهافت التهافت*. وها هو تهافت ثالث. ورأت دنيا، مصادفة، يد القسمة الخفية التي هي أيضاً كارما. القدر الذي يحمل ذلك الاسم. ففي الأسماء تختبئ أقدارنا.

وحدّثها جيرونيمو مانيزيس أيضاً عن قصة ياسمين زرقا الخرافية وعن تشاؤم قوم عنيزة. «في هذه الفترة من الزمن، وفي حالتي الراهنة»، قال، مفاجئاً نفسه بإيجاد نسخة من أحد شعارات ألكساندرا فارينا تنطلق من بين شفتيه، «إذا لم نقل شيئاً عن حالة الكوكب بصورة عامة، فإنه يصعب علينا ألاّ نكوّن نظرة مأساوية عن الحياة». هذا ليس جواباً سيئاً، قالت دنيا لنفسها. إنه جواب رجل مفكّر. ويمكنها أن تتعامل مع ذلك. فأجابت، «أفهم، لكن هذا الوضع يأتي من الأيام قبل أن تلتقي بأميرة جنّية».

توقّف الزمن. كان السّيد جيرونيمو في مكان مسحور مشحون بالطاقة

هو في الوقت نفسه غرفته في الطابق السفلي، الغرفة التي تحوّلت إلى عرين عشق جنيّة لها رائحة دخان، مكان لا توجد فيه ساعة تتكتك، ولا يوجد فيها عقرب ثواني يتحرّك، ولا رقم يتغيّر. لم يكن بإمكانه معرفة هل الدقائق تمضي أثناء زمن ممارستهما العشق الأبدي، أم أسابيع، أم أشهر. ومنذ أن انفصل عن الأرض، اضطر إلى التخلي عن معظم ما كان يعتقد بأنه يعرفه عن طبيعة الأمور. الآن، بدأ يتحلل من الشذرات القليلة المتبقية من معتقداته القديمة. فبعد فترة طويلة يجد أمامه جسد امرأة هي زوجته وليست زوجته. لقد مضى زمن طويل فضعفت ذاكرته الحسيّة للحم إيلا، ومع أنه شعر بالخجل لإقراره بذلك، فقد اختلطت ذكرياته الأقرب عن ألكساندرا فارينا بما كان يتذكّره عن ممارسة العشق مع زوجته. أما الآن، فقد حلّ مكانها هذا الإحساس الجديد كله، وبدأ يقنع نفسه بالتفكير بأنه يشعر بأن إيلا إلفينبين تتحرك تحته مثل مدّ دافئ رائع، هو الذي لم يؤمن قط بتناسخ الأرواح، أو بأيّ شيء من هذا الهراء، أصبح لا حول له ولا قوة لأنه وقع في قبضة مفاتن وسحر أميرة الجان، فغاص في بحر الحبّ حيث كلّ شيء حقيقي، لو قلت أنت أن كلّ شيء حقيقي، لو همست الساحرة بذلك في أذنه، لتقبّل، وهو في حالته المضطربة هذه، بأن زوجته كانت دائماً وإلى الأبد أميرة جنّية، وأنه حتى خلال حياة إيلا، *حياتي الأولى*، همست الجنّية، وهذه حياتي الثانية نعم، حتى في حياتها الأولى كانت جنّية في هيئة إنسيّة، لذلك فإن الأميرة الجنّية ليست زائفة وليست تقليداً، بل هي كذلك دائماً، مع أنه لم يعرف ذلك حتى الآن، ولو كان هذا مجرد هذيان، فلا مانع لديه، لأنه هذيان اختاره وأراده هو نفسه، لأننا نريد كلّنا الحبّ، الحبّ الأبدي، الحبّ الذي يحيا بعد الموت ثم يولد من جديد، الحبّ الذي يغذّينا ويغمرنا حتى نموت.

في تلك الغرفة المظلمة، لم تصلهما أخبار الدمار الذي لحق بالمدينة خارج الشقّة. كانت المدينة تصرخ رعباً لكنّهما لم يسمعا أصوات الصراخ، عندما رفضت القوارب المجازفة والنزول إلى مياه الميناء، وخاف الناس مغادرة بيوتهم والتوجه إلى أماكن عملهم، ودبّ الرعب في المال، فانهارت سوق الأوراق المالية، وأُغلقت البنوك، وأفرغت رفوف المحلات الكبيرة من موادها، ولم تعد الخضراوات والفواكه الطازجة تصل، وأمسك شلل الرعب المدينة في قبضته وبدأت تلوح الكارثة في الأفق. أما في ظلام غرفة النوم الضيّقة تلك في الطابق السفلي في بناية *بغداد*، فلم يكن التلفاز مفتوحاً ولم يكن بالإمكان سماع قرقعة وضجيج الكارثة واحتدامها في الخارج.

لم يكن هناك سوى ممارسة العشق، وكانت ممارسة العشق تخبئ وراءها مفاجأة لكليهما. فقالت له: «تفوح من جسدك رائحة دخان»، ثم أضافت، «انظر إلى نفسك. فعندما تزداد هياجاً يغشى بصرك، تصبح مشوشاً. يوجد دخان على أطرافك، ألم تقل لك عشيقاتك الإنسيات ذلك أبداً؟ «لا، قال كاذباً، وتذكّر أن إيلا كانت تقول له ذلك، لكنه خبأ تلك الذكرى، وحدس صائباً بأن دنيا لا تحبّ أن تعرف الحقيقة. فأجابها، لا لم يقلن لي ذلك. سرّها سماع ذلك، كما خيّل إليه أن ذلك سيسّرها؛ فقالت له: «هذا لأنك لم تمارس العشق مع جنّية من قبل. إنه نوع مختلف من الإثارة» فقال: نعم، صحيح. لكنّها كانت تفكّر بحماسة متزايدة بأنّ الجنّي في نفسه بدأ يتجلّى ويكشف عن ذاته، الذات الجنّية التي عبرت إليه، عبر القرون. إنه الدخان الكبريتي الذي ينبعث من الجان عندما يمارسون العشق. وإذا تمكّنت من إطلاق الجنّي فيه فإن أشياء كثيرة ستصبح ممكنة. «جيرونيمو، جيرونيمو»، همهمت في أذنه التي ينبعث منها الدخان، «يبدو أنك جنّي أيضاً».

شيء غير متوقّع حدث لدنيا في أثناء ممارستهما العشق: لقد استمتعت بذلك، لكن ليس بقدر استمتاعها بالجنس بلا جسد الذي يمارسونه في أرض الجان، ذلك الاتحاد المنتشي بين الدخان والنار، لكن كان يوجد (كما تمنّت أن يكون) إحساس محدد، لا بل قوي بالمتعة. لم يظهرها ذلك بأنها بدأت تصبح إنسية أكثر فحسب، بل كذلك أنه يوجد في عشيقها الجديد شيء من الجنّي أكثر بكثير مما كان يخُيّل إليها في البداية. هذا هو إذاً حبّهما المقلّد، حبّهما الذي ولد من ذكرى آخرين، حبّهما *الذي جاء لاحقاً*، أصبح حقيقياً، أصيلاً، شيئاً من نفسه وفي نفسه، حيث كادت تتوقّف عن التفكير بالفيلسوف الميت، وبزوجة السّيد جيرونيمو المتوفاة التي منحت لنفسها الحرية في أن تقلدّها وتصبح نسخة طبق الأصل عنها. ورويداً رويداً، بدأت هذه المخلوقة السحرية المجهولة التي جاءت إليه على غفلة منه في ساعة احتياجه لها تحلّ محلها في خياله، حتى يحين الأوان، قالت دنيا لنفسها، لكي تكشف له عن حقيقة ما هي ـ لا تلك الفتاة المتشردة ذات الستّة عشر ربيعاً التي ظهرت عند باب بيت ابن رشد، ولا هذه النسخة المكررة من حبّ ضائع، إنما ذاتها الملكية بكلّ مجدها وبهائها. وفي قبضة ذلك الأمل غير المتوقّع، بدأت تخبر جيرونيمو مانيزيس عن أشياء لم تخبرها من قبل لابن رشد.

فقالت له: «يحيط بأرض الجان جبل قاف الدائري، حيث كان يعيش ذات يوم، كما تقول الأساطير، طائر ـ إله يدعى سيمرغ، وهو أحد أقارب طائر الرخّ في سندباد. لكن هذه مجرد قصّة، أسطورة، أما نحن، الجانّ والجنّيات، الذين لسنا أسطورة، فإننا نعرف ذلك الطائر، لكنه لا يحكمنا. لكن يوجد حاكم لجبل قاف، شيء ليس له منقار أو ريش أو مخلب، إنما إمبراطور الجان العظيم، شاهبال ابن شاهروخ،

وابنته، أقوى الجنّيات على الإطلاق، *آسمان بيري* المعروفة باسم *جنيّة السماء*، *وأميرة البرق*. وشاهبال هو ملك سيمرغ ويخدمه ذلك الطائر الجاثم على كتفه.

«لا توجد أواصر مودّة بين الإمبراطور والعفريت العظيم. وجبل قاف هو أكثر الأماكن التي يرغب الجان أن يعيشوا فيها من بين كلّ أراضي الجان، وتحدو العفاريت رغبة جامحة في الاستيلاء عليه، لكن سحر الصاعقة الذي تمتلكه ابنة الإمبراطور، الجنّية الساحرة العظيمة، يعادل سحر زابارداست وزمرد شاه مجتمعين، ولديها جدار من البرق يحيط بجبل قاف لحماية الجبل الدائري من أطماعهم. لكنهم يتحينّون الفرصة باستمرار لإثارة مشاكل بين الآلهة أو الأرواح الأدنى مرتبة التي تقيم في المنحدرات والسفوح الواطئة لجبل قاف، أن تقنعها على التمرد على حكّامها. وفي هذه اللحظة، توجد ثغرة في الصراع اللانهائي بين الإمبراطور والعفاريت التي، لقول الحقيقة، كانت قد توقفت منذ عدة ألفيات، لكن العواصف والزلازل والظواهر الأخرى التي كسرت الأختام المغلقة منذ أمد بعيد بين بيريستان وعالم الرجال مكّنت العفاريت من أن تحيك مكائدها هنا التي لها جاذبية خاصة بالنسبة لهم، أو على الأقل شيء أُنكر منذ زمن طويل. فلم يكن بمقدورهم عمل ذلك منذ أمد بعيد، وهم يعتقدون بأنه لا يوجد سحر على الأرض يمكنه مقاومتهم. وبما أنهم أشقياء، فإنهم يحبّون فكرة تدمير أي منافس يعترض سبيلهم. وخلال الفترة التي يفكّرون فيها بالغزو، فإننا نحظى، أنا وأبي، بفترة من الراحة».

«أنتِ؟» سأل السّيد جيرونيمو، «أهي أنتِ أميرة قاف؟»

فقالت «هذا ما كنت أحاول أن أقوله لك، فالمعركة التي بدأت هنا

على الأرض ما هي إلاّ انعكاس للمعركة التي يدور رحاها في أرض الجان إلى الأبد».

الآن بعد أن عرفت لعنة بلوغ المتعة، لم تتوان في مسعاها. وإن أحد الأسباب التي جعلتها تفضّل عشيقاً إنسياً «متقدماً في العمر»، دمدمت لجيرونيمو مانيزيس، هو لأنّهم يستطيعون التحكم بأنفسهم بسهولة، أما عند الشباب فإنها تتم في غمضة عين. فقال لها إنه سعيد بأنّ للتقدم في العمر بعض المحاسن. لم تكن تنصت. كانت تكتشف متع بلوغ لحظة الشغاف. وفي معظم الوقت ضاع في اضطراب لذيذ جعله لا يعرف أيّاً من تلك النساء الثلاث: إنسيتان وواحدة غير أنسيّة، كان يضاجع، فلم يلاحظ أي منهما في البداية، ما لذي يحدث له، إلى أن، في لحظة معيّنة، عندما أصبح تحتها وهي فوقه، أحسّ بشيء غير متوقّع، شيء يكاد يكون منسياً، تحت رأسه وظهره.

وسادات. شراشف.

لقد امتصّ السرير وزنه، وأخذت النوابض تحت السرير تصدر أنيناً خفيفاً مثل عشيقة ثانية تتأوه، ثم أحسّ بوزنها فوقه أيضاً عندما استعاد قانون الجاذبية مكانته. وعندما فهم حقيقة ما حدث، بدأ يبكي، مع أنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين يذرفون الدموع بسهولة. نزلت عنه وضمّته إليها، لكنّه لم يكن باستطاعته أن يظل مستلقياً. نزل من على السرير، بحذر، وهو غير مصدّق تماماً، فترك قدميه تتحرّكان نحو أرضية غرفة النوم، وعندما لامستاها، صاح. ثمّ وقف، يكاد يسقط في البداية. كانت ساقاه ضعيفتين، فقد وهنت العضلات لأنه لم يستخدمها منذ فترة. وقفت بجانبه فوضع ذراعاً حول كتفها، ثمّ وازن نفسه، وتركها. ها هو يقف الآن من تلقاء نفسه. الغرفة، العالم، عاد إلى شكله

المألوف الذي فقد شكله منذ فترة طويلة. أحسّ بوزن الأشياء، بوزن جسده، وزن عواطفه ومشاعره وآماله. «يبدو أنّ عليّ أن أصدّقك»، قال متعجّباً، «وبأنّك أنتِ ما تقولين أنه أنتِ، وأنّ هناك أرض الجان، وأنكِ أقوى الساحرات فيها، لأنك كسرت اللعنة واستلقيت فوقي وأعدتني إلى سطح الأرض مرة أخرى».

فقالت: «إن أغرب شيء في كلّ ذلك هو أنني، مع أنّني لست دنيا أمّ دنيا زاد فحسب، وإنما كذلك الأميرة جنّية السماء في جبل قاف، وأنا لست المسؤولة عمّا حدث هنا، سوى أنني ساعدت في خلال ممارستنا العشق على إطلاق العنان للقوّة الكامنة في داخلك التي لا يشكّ أحد في أنها كامنة فيك. فأنا لم أرجعك إلى الأرض، بل أنت من فعل ذلك. وإذا كانت روح الجنّي في جسدك قادرة على قهر سحر زابارداست، فإن على الجان الأسود أن يعرف أن أمامه عدو يجب أن يحسب حسابه في هذا العالم وفي العالم الآخر، وأن الانتصار في حرب العالميْن ممكن بدلاً من أن تنتهي كما يظن زمرد وعصابته، بانتصار الجان الأسود الحتمي، وفرض نفوذهم واستبدادهم على شعوب الأرض قاطبة».

فقال لها: «لا تتحمسين كثيراً، فأنا لست سوى مصمم حدائق، أجرف التراب وأزرع وأقتلع الأعشاب، وأنا لا أخوض حروباً».

فقالت: «لا يتعين عليك أن تذهب إلى أيّ مكان يا عزيزي، لأن هذه الحرب قادمة إليك».

سمع أوليفير أولدكاسل، المشرف على بيت لا إنكورسنزا، صيحة رعب منبعثة من غرفة نوم سيّدته، ففهم على الفور بأنه لا بد أن ما

حدث له قد حدث لها أيضاً. «الآن يجب أن أقتل الحدائقي الوغد ذاك»، جأر وركض حافياً ليساعد السّيدة فيلسوفة. كان شعره منفوشاً وقميصه يتدلّى من أطراف بنطلونه المهترئ ذي الدكة، وبدأ يلّوح بذراعيه مثل مطحنة هوائية وهو يركض. كان يبدو أقبح من بلوتو أو أوبيليكس، وكان يتحرك بسرعة أكبر من ماركس الأسدي. فاجتاز غرفة حفظ الأحذية برائحتها المتأصّلة الخفيفة التي تشبه رائحة روث حصان، وراح يخب فوق الأرضية الخشبية القديمة التي كانت ستطلق، في يوم آخر، شظايا إلى قدميه اللتين تخبطان فوقها، تراقبه ستائر الأسلاف الخياليين الغاضبة، متفادياً بصعوبة مزهريات السيفريس الخزفية المتقلقلة فوق طاولات المرمر، وكان يركض مطرق الرأس مثل ثور، متجاهلاً همسات رفوف الكتب الشامخة، المستهجنة، واندفع إلى داخل جناح ألكساندرا الخاص. وعند باب غرفة نومها تمالك نفسه، وراح يصفع بلا جدوى شعره الذي تشابكت خصلاته، ومسدّ لحيته، ودسّ قميصه داخل أطراف بنطلونه مثل تلميذ مدرسة سيمثل أمام مدير المدرسة، وصاح، «هل تأذنين لي بالدخول الآن يا سيدتي». كان ارتفاع صوته يغطي على خوفه. كان عويل إجابتها العالية هي كلّ الدعوة التي يحتاج إليها، ثم وقفا وجهاً لوجه، السيّدة والخادم. هي في ثوب نوم قديم طويل، وهو في ثياب رثة. الرعب ذاته يعشعش في عينيهما التي انتقلت نحو الأرضية ببطء، ورأيا أنه لا تلامس أي قدم من أقدامهما الحافية الأربعة، وشعر قدميه النابت عند كاحله البارز من كلّ بين كل إصبع من أصابع قدميه، وأصابع قدميها الصغيرة الجميلة، الأرضية. كانت هناك مسافة من الهواء تفصل بينهما وبين الأرض.

«إنه مرض لعين»، جأر أولدكاسل، «هذا النمو الفائض لشخص، ذلك الفطر، ذلك العشب الضار، دخل إلى بيتك يحمل هذه العدوى اللعينة، ونقلها إلينا».

«ما هذه العدوى التي يمكن أن تؤدي إلى هذا المرض؟» صاحت.

«هذا النوع الحقير يا سيدتي»، صاح أولدكاسل، ضاماً قبضتيه، «هذا الصنف من الأعشاب، اعذريني على فرنسيتي. لقد انتقلت خنفساء الدردار الهولندية إلى حوض أزهارك، التي تقتل شجر البلوط *phytophthora*. لقد جعل أزهارنا تصاب بالمرض».

فقالت: «إنه لا يردّ على هاتفه»، ملوّحة بهاتفها بلا فائدة أمام وجهه.

«سيردّ عليّ»، قال أوليفير أولدكاسل، «وإلا فإني سأعيد تشكيل مؤخرته المشوّهة، سأزرع جمجمته الحقيرة المتوحشة. سيردّ عليّ كما ينبغي له أن يردّ».

تواردت الأنباء عن وقوع جميع أنواع الانفصال عن الأرض في تلك الليالي الغامضة. إن انفصال البشر عن الأرض أمر سيء للغاية. وفي بعض مناطق العالم لم يبدأ أو ينته عند هذا الحدّ. ففي عالم الأدب كان هناك انفصال ملحوظ بين الكتّاب والمواضيع التي يتناولونها. وتحدّث العلماء عن أسباب الانفصال وتأثيره. وأصبح من المستحيل جمع طبعات القواميس الجديدة بسبب انفصال الكلمات عن المعاني. ولاحظ الاقتصاديون انفصال الأغنياء عن الفقراء بشكل متزايد. وشهدت محاكم الطلاق ازدياداً كبيراً في دعاوى الطلاق بسبب الفيض الكبير للانفصال الزوجي. وانتهت صداقات قديمة بغتة. واجتاح وباء الانفصال بسرعة كبيرة كافة أرجاء العالم.

إن انفصال عدد متزايد من الرجال والنساء وحيواناتهم الأليفة عن الأرض ـ كلاب لابرادور، والأرانب الصغيرة، والقطط الفارسية، وجرذان هامستر، والنموس، وقرد إي. تي. ـ أحدث ذعراً على نطاق

العالم. وبدأ نسيج الحياة الإنسانية يتفكك. وفي معرض مجموعة مينيل في هيوستن بتكساس، فهم أحد القيّمين الأذكياء على المعرض يدعى كريستوف بانتوكراتور فجأة وللمرة الأولى الطبيعة التنبئوية لرائعة رينيه ماغريت «*غولكوندا*»، التي تصوّر رجالاً يرتدون معاطف، ويعتمرون قبعات مستديرة، وهم يتدلّون في الهواء، وفي الخلفية تلوح بنايات واطئة وسماء صافية. ويُعتقد دائماً بأن الرجال في اللوحة يسقطون ببطء مثل قطرات مطر في ثياب أنيقة. أما بانتوكراتور فقد أدرك أنّ ماغريت لم يرسم قطرات مطر بشرية، وصاح «إنها مناطيد بشرية... إنها تصعد! وتصعد». وبحماقة أعلن عن اكتشافه على الملأ، فأصبح يتعين حماية بنايات مينيل بواسطة حرّاس مسلّحين من السكان المحليّين الغاضبين من العمل العظيم لنبي مقاومة الجاذبية. وبدأ بعض الحرّاس يرتفعون، مما أثار الفزع، وارتفع كذلك عدد من المحتجّين، المخربين المحتملين.

«تعجّ أماكن العبادة بالرجال والنساء الخائفين الذين يطلبون حماية الله»، قال رفات الغزالي لرفات ابن رشد. «تماماً كما توقّعت. إن الخوف يدفع البشر إلى التقرب من الله».

لم يُسمع أي ردّ.

«ما المشكلة؟» قال الغزالي ساخراً، «لقد استنفذت أخيراً حججك الجوفاء؟»

أخيراً أجاب ابن رشد بصوت مفعم بالعقد الذكورية، وقال: «من الصعب اكتشاف أن المرأة التي حملت أطفالك هي كائن من عالم ما وراء الطبيعة»، وأضاف، «ومن دون إمكانية معرفة أنها تنام مع رجل آخر أيضاً». لقد عرف ذلك لأنها أخبرته. وبطريقتها الجنّية ظنّت أن ذلك

سيعتبر إطراء لأنها نزلت إلى نسخة منه، صداه، وجهه في جسد آخر، وعرفت أنه بالرغم من حبّها للبشر، فلا تزال هناك أشياء لم تفهمهما عنهم.

ضحك الغزالي كما يمكن للتراب أن يضحك، وقال: «إنك ميت، أيها الأحمق. لقد متّ منذ أكثر من ثمانية قرون. وهذا ليس وقتاً للغيرة».

«إنها ملاحظة تافهة»، أجاب ابن رشد من قبره، «وهذا يثبت لي أنك لم تعشق قط طوال حياتك، وهذا يعني أنه حتى عندما كنتَ حيّاً فإنك لم تعش حياة حقيقية».

«مع الله فقط»، أجاب الغزالي، «فقد كان ولا يزال حبيبي الوحيد، وكان ولا يزال أكثر من كاف بالنسبة لي».

عندما اكتشفت سيستر أليبي أن قدميها ارتفعتا عن الأرض حوالي بوصة ونصف البوصة، استشاطت غضباً كما لم تغضب في حياتها منذ أن هرب والدها ذو الصوت الأجش الذي يشبه صوت مطربة من لويزيانا، قبل أسبوع واحد من الموعد الذي كان يفترض أن يرافق ابنته إلى حديقة ديزني لاند الجديدة في فلوريدا. وفي تلك المناسبة، توجهت إلى الشقّة التي تقع في الطابق الثاني في مساكن ريفر هارلم، وحطّمت أي أثر يتعلق بأبيها الجانح، ومزّقت صوره وقبعته إلى قطع صغيرة، واضرمت النار في ثيابه التي تركها في غرفة اللعب خارج البيت، وكانت أمّها تراقبها بصمت وهي تصفّق بذراعيها وتفتح فمها وتغلقه دون أن تصدر صوتاً، لكنها لم تبذل أي محاولة لتهدئ من روع ابنتها. وبعد ما فعلته، لم يعد لأبيها وجود، واكتسبت سي. سي. أليبي الصغيرة سمعة بأنها فتاة يجب ألا يستهان بها.

لقد ارتفعت نزيلتها الأثيرة لديها، ياسمين زرقا، عن الأرض أيضاً، ووجدتها تبكي بحرقة في الردهة وهي ترتفع عن الأرض بوصتين كاملتين في الهواء. «كنت أدافع عنه دائماً»، قالت وهي تنتحب، «وعندما كنتِ تقولين شيئاً ضدّه، كنت أدافع عن الرجل لأنه يشبه ثعلباً فضّياً يذكّرني بأبي. ثمّ ظهرت أنثى على بساط الريح ففقدتُ صوابي وجاءنا الآن هذا. لقد دافعت عن الرجل. كيف كنت سأعرف بأنه سينقل إليّ مرضه اللعين؟»

خيانتان من أبوين تثيران الغضب. وبعد بضع دقائق استخدمت سيستر أليبي مفتاحها العمومي ودخلت إلى شقّة السّيد جيرونيمو حاملة بيدها بندقية محشوة. وكانت ياسمين زرقا المتوترة تمشي وراءها تكاد تلتصق بها. «هيا اخرج من هنا»، جأرت، «غادر هذا البيت عندما يهبط الليل وإلاّ فستُحمل وقدماك تسبقانك قبل الفجر».

«إنه واقف على الأرضية»، صاحت ياسمين زرقا، «لقد شُفي، لكنّه نقل إلينا المرض».

إن الخوف يغيّر الخائف، قال السّيد جيرونيمو لنفسه وهو ينظر إلى فوهة البندقية. كان الخوف رجلاً يركض من ظلّه. امرأة تضع سماعات على أذنيها والصوت الوحيد الذي يمكنها أن تسمعه فيهما هو صوت خوفها. إن الخوف شعور ذاتي، نرجسي، أعمى، لا يرى شيئاً إلاّ نفسه. إن الخوف أقوى من الأخلاق، أقوى من الحكمة، أقوى من المسؤولية، أقوى من الحضارة. الخوف حيوان متوثب يدوس الأطفال تحت حوافره ويهرب من نفسه. إن الخوف متعصب، مستبدّ، جبان، غشاوة حمراء، عاهرة. إن الخوف رصاصة موجّهة إلى قلبه.

قال: «أنا رجل بريء، لكن بندقيتك تقدّم تبريراً ممتازاً».

«أنت من ينشر الوباء»، قالت سيستر أليبي، «المريض صفر! التيفوئيد ماري! يجب أن يُلفّ جسدك في كيس بلاستيكي ويُدفن على عمق ميل تحت الأرض حتى لا تتمكن من تدمير حيوات أخرى».

أمسك الخوف ياسمين زرقا بقبضته من حنجرتها أيضاً. «لقد خانني أبي لأنه مات وتركني وحيدة في هذا العالم، عندما كان يعرف كم كنت بحاجة إليه. وأنتَ خنتني لأنكَ سلبت العالم من تحت قدمي. كان أبي، لذلك فإني أحبّه في جميع الأحوال. أما أنت؟ فما عليك إلاّ أن تغادر هذا المكان».

اختفت الأميرة الجنّية. فما إن سمعت صوت المفتاح يدور في القفل حتى استدارت واختفت عبر شقّ في الهواء. ربما ستساعده، وربما لا. لقد سمع كلّ شيء عن الجان الذين لا يمكن الوثوق بهم وذوي الأطوار الغريبة. ربما استغلته لإشباع جوعها الجنسي، لأنه سمع أن الجان نهمون للجنس، وبعد أن حققت رغبتها فلن يراها ثانية. لقد أعادته إلى الأرض، وهذه هي مكافأته، وكلّ ما قيل عن قوى الجان الخاصة مجرد هراء. قد يكون وحيداً، وسرعان ما يصبح متشرّداً، عندها يصبح وجهاً لوجه أمام الحقيقة التي لا تقبل الجدال وهي حقيقة أن امرأة أغضبها خوفها احمل بندقية بيده.

«سأذهب»، قال.

«ساعة واحدة»، قالت سيستر.

وفي مدينة لندن، بعيداً عن غرفة نوم السّيد جيرونيمو، تجمّع عدد من الدهماء خارج بيت الموسيقار هوغو كاستربردج في ويل ووك، في حيّ هامستد المُشجّر. فوجئ برؤية الحشد المتجمهر، لأنه أصبح مؤخراً

موضع سخرية، وبدا أن الغضب الشعبي لم يكن الردّ الذي يليق بسمعته الجديدة. لقد أصبحت السخرية من كاستربردج شيئاً تقليدياً منذ ظهوره غير الموفق على شاشة التلفاز عندما هدّد العالم بأوبئة سينزلها على البشرية إله لا يؤمن به، بلاهة الفنان الكلاسيكية، قال الجميع، وكان عليه أن يلزم البيت ويرنّ ويقعقع ويقرقع ويغلق فمه. كان كاستربردج رجلاً يتمتع بثقة ذاتية قوية، لا يتزحزح، لكنّ أعصابه كانت تُستثار بنفس السهولة التي هدمت مكانته الرفيعة التي دمرّها من يطلق عليهم اسم البرجوازية الصغيرة الجديدة. من الواضح أنه لم يكن باستطاعته أن يؤثّر على العالم الحقيقي، فأصبح موضع سخرية الآن، الملحد الذي يؤمن بالعقوبة الإلهية.

حسن. سيمكث في البيت ويستمع إلى موسيقى أرنولد شوينبيرغ التي لا يفهمها إلاّ قلة قليلة من الناس، ويستمتع بها عدد أقل. كان يفكّر بالعروض الموسيقية السداسية النوتات المعكوسة والمندمجة والمجموعة المتعددة الأبعاد، وسيفكّر بعمق بمجموعة الخصائص المرجعية، ويدع العالم المتعفن يذهب إلى الجحيم. لقد ازداد عزلة في هذه الأيام. حتى أن جرس قصر ويل ووك تعطّل ولم ير حاجة إلى إصلاحه. وسرعان ما تبددت جماعة ما بعد الإلحاد التي كان قد أنشأها، لأن عامة الناس نددوا بها. أما هو فقد تمسك، بصمت، وبغضب، وبأسنان مصرورة، بأسلحته. لقد تعوّد سماع ما يقال عنه بأنه رجل غامض، غير مفهوم. اضحكوا! كان يقول في سريرته لمنتقديه، فسنرى من سيضحك أخيراً.

لكن يبدو أن واعظاً جديداً ظهر في المدينة، واندلعت أعمال غوغائية في المدينة: فقد اندلعت حرائق في مباني البلدية الواقعة في الأحياء الفقيرة شمال المدينة، ونُهبت المخازن والمحلات في الشوارع العامة في الأحياء المحافظة عادة الواقعة جنوب النهر، وتجمعت حشود

متمرّدة في الساحة الرئيسية لا تعرف ماذا تريد. ومن بين ألسنة النيران خرجت الشعلة المعمّمة، رجل ضئيل الحجم ذو لحية وحاجبين مثل حاجبي يوسيميتي سام الزعفرانيين، تلفّه رائحة دخان قوية، ظهر فجأة ذات يوم كما لو أنه يسير عبر شقّ في السماء، يدعى العفريت يوسف، وفجأة صار في كل مكان، وأصبح زعيماً، وناطقاً رسمياً، وعضواً في عدة لجان حكومية، وكان ثمة حديث يدور عن الفروسية. نعم هناك وباء آخذ في الانتشار، قال يجأر، وإذا لم نصدّه ونحمي أنفسنا منه، فلا بد أن الوباء سيصيبنا كلّنا. لقد انتقل عدواه إلينا بالفعل. لقد لامس نجس المرض دم الكثير من أطفالنا الأكثر هشاشة وضعفاً، لكنّنا مستعدّون للدفاع عن أنفسنا. سنحارب الوباء ونقتلعه من جذوره. فللوباء جذور كثيرة، قال يوسف، وقد نقلته الكتب، والأفلام، والرقص، والرسم، أما الموسيقى فهي أكثر ما يخشاه ويكرهه، لأن الموسيقى تتغلغل من تحت خلايا العقل المفكّر حتى تستحوذ على القلب؛ ومن بين جميع صانعي الموسيقى، كان يكره واحداً منهم كراهية عمياء، الوباء مجسداً في نشاز النغمات، الشرّ الذي تحوّل إلى صوت. وها نحن نرى شرطياً يأتي لزيارة الموسيقار كاستربردج، ويقول له أرجو أن تخرج يا سيدي حتى تهدأ الأمور، لأننا لا نستطيع أن نضمن سلامتك هنا، ويجب أن تراعي جيرانك يا سيدي، فقد يتعرّض المارّة الأبرياء للأذى في وسط هذا الهياج الشعبي، وسكت. فقال: دعني أُفهمك، لأكن واضحاً تماماً. إن ما تقوله لي الآن هو أنه إذا أصبتُ بأذى في خضم هذا الهياج الذي تفترضه أنت، وإذا كان هذا الأذى موجه إليّ، فأنا لست مارّاً بريئاً، هل هذه هي الفكرة المنيوكة التي تريد أن تقولها لي؟ لا داعي لاستخدام هذه اللغة يا سيدي، فأنا لا أقبل ذلك. يجب أن

تتقبل الوضع كما هو، ولن أعرّض عناصري للخطر بسبب عنادك المتغطرس.

فقال: اخرج من هنا. هذا بيتي. هذه قلعتي. سأدافع عن نفسي بالمدافع وبالنفط المغلي.

هل هذا تهديد باستخدام العنف، يا سيدي؟

إنها استعارة بلاغية منيوكة.

إذاً، لغز. الغوغاء، كلمات الكراهية، العدوان المستتر في شكل دفاع، التهديد بادّعاء أنك معرّض للتهديد، السكين التي تدّعي أنها في خطر أن تُطعن، القبضة التي تتّهم الذقن بمهاجمتها، كلّ هذا معروف، نفاق العصر الحقود بصوت مرتفع. حتى الواعظ الذي ظهر من لا مكان كان لغزاً كبيراً. رجال الدين الأشرار هؤلاء يظهرون دائماً، يُخلقون من شكل من أشكال التوالد العذري الاجتماعي، عملية بدائية غريبة جعلت التافهين يصبحون أصحاب السلطة والنفوذ. يجب استهجان ذلك. ثمّ في ليلة اللغز، أُشيع بأن امرأة شوهدت مع الموسيقار. ظهر ظلّها وراء نافذة غرفة الجلوس في بيته، امرأة مجهولة كما لو أنها برزت من المجهول، ثم اختفت، وتركت الموسيقار وحيداً عند النافذة الليلية، يفتحها تحدياً للغوغاء المحتشدين، موسيقاه النشاز المزعجة ترنّ وراءه مثل جرس إنذار، ذراعاه ممدودتان كما لو كان مصلوباً، ماذا كان يفعل، هل يدعو الموت إلى بيته، ولماذا صمتت الجماهير المحتشدة فجأة، كما لو أن قطّة عملاقة غير مرئية أكلت لسانهم، ولماذا لم يعودوا يتحرّكون. بدا كأنها لوحة من الشمع، ومن أين تأتي هذه الغيوم، مع أن الطقس في لندن صاف ومعتدل، لكن ليس في هامستد. فقد هدر رعد شديد بغتة في هامستد في تلك الليلة، ثم تلته صواعق شديدة راحت تضرب

وتذّمر. ولم ينتظر الغوغاء صاعقة أخرى، فقد أبطل البرق السحر، فأطلقوا سيقانهم للريح وهم يصرخون طلباً للنجاة بأرواحهم باتجاه ويل ووك، ثم نحو هيث، ونشكر الله أن أحداً لم يُقتل، إلاّ الأبله الذي ظنّ أن أفضل مكان يلجأ إليه لاتقاء الصواعق هو الوقوف تحت شجرة، فشُوي. وفي اليوم التالي، لم يعد الغوغاء، أو في اليوم الذي أعقبه، أو اليوم الذي تلا ذلك اليوم.

محض مصادفة، يا سيدي، تلك العاصفة التي هبّت في مكان غريب، كما لو أنك جلبتها إلى هنا، لكن ألا يوجد لديك اهتمام بعلم الأرصاد الجوية يا سيدي؟ ألا يوجد في سقيفة بيتك جهاز يستطيع تغيّر الطقس؟ يجب أن تسمح لنا بأن نلقي نظرة؟

أيها المفتش، تفضّل، كن ضيفي.

في طريق عودتها من هوغو كاستربردج لزيارة السّيد جيرونيمو، كانت دنيا تطير شرقاً لا غرباً. وبما أن الجان يتحركون بسرعة فائقة، فلم تر حاجة لأن تسلك الطريق الأقصر. وهكذا طارت فوق الخرائب، فوق الهستيريا والفوضى. بدأت الجبال تنهار، والثلج يذوب، والمحيطات ترتفع، وانتشر الجان الأسود في كل مكان ـ زمرد، العظيم، روبي المشرق، رعيم شارب الدم، وحليف زمرد القديم الذي أصبح منافساً قوياً لبسط سيادة الجان، الجنّي الساحر زابارداست. وتحوّلت خزانات المياه إلى بول، وأمر طاغية له وجه طفل رضيع، بعد أن همس زابارداست في أذنه، جميع أتباعه بأن يقصّوا شعرهم مثل قصة شعره المضحكة. لم يعرف البشر كيف يمكنهم التعامل مع الظهور المباغت الخارق للطبيعة وغير المألوف في حياتهم، قالت دنيا لنفسها، فانهار

معظمهم، أو قصّوا شعرهم وبكوا بحرقة أمام الطاغية الذي له ذي وجه طفل رضيع، أو أنهم سجدوا، بتأثير سحر زمرد، أمام آلهة زائفة طلبت منهم أن يقتلوا أولئك الذين يعبدون آلهة زائفة أخرى، وتم ذلك أيضاً، فقد دُمرّت تماثيل تلك الآلهة على يد أتباع آلهة أخرى، وقام أنصار تلك الآلهة بخصي أنصار الآلهة الأخرى، ورجمهم حتى الموت، وشنقهم، وتقطيعهم إلى نصفين. صارت سلامة عقل البشر شيئاً سيئاً، هشّاً في أفضل الأحوال، قالت لنفسها. واضحت الكراهية والغباء والولاء والطمع هي الفرسان الأربعة في خيّالة نهاية العالم الجديد. وبالرغم من ذلك، فقد أحبّت هؤلاء المحطّمين، وأرادت أن تنقذهم من براثن الجان الأسود الذين يأكلون ويشربون ويُظهرون الظلام بجلاء داخل أنفسهم. إن البدء في حبّ أنسيّ يعني أن تبدأي بحبّهم كلّهم. وإن حبّ اثنين سيجعلها تتعلق بهم إلى الأبد. تصبح عاجزة في قبضة الحبّ.

قال: إلى أين ذهبتِ. لقد اختفيتِ في اللحظة التي احتجت فيها إليك.

ذهبتُ لزيارة أحد يحتاج إليّ أيضاً. كان عليّ أن أريه ما هو قادر على عمله.

رجل آخر.

رجل آخر.

هل كنتِ تشبهين إيلا عندما كنتِ معه. هل تجعلين زوجتي الميتة تضاجع رجالاً لم نلتق بهم قط.

لا، ليس الأمر كذلك.

بعد أن أعدتِ قدميّ ولامستا الأرض انتهى عملك معي. هل هذا نوع من علاج الجان؟.

لا ، الأمر ليس كذلك.

ما هو شكلك الحقيقي. أريني كيف تبدين في الحقيقة. إن إيلا ميتة. إنها ميتة. كانت امرأة جميلة ومتفائلة وتؤمن بالحياة الآخرة، لكنها ليست كذلك، لقد سكنتِ شبح زوجتي العزيزة. توقّفي. أرجوك توقّفي. لقد طُردت من هذه الشقّة. بدأت أفقد صوابي.

أعرف إلى أين يجب أن تذهب.

إن دخول الإنس إلى بيريستان أمر محفوف بالمخاطر، ولم تفعل ذلك إلاّ حفنة قليلة جداً من البشر. وحتى اندلاع حرب العالميْن، لم يدخل إليها سوى رجل واحد، على حد علمنا، ومكث فيها لفترة من الزمن، وتزوّج أميرة جنّية، وعندما عاد إلى عالم الإنس اكتشف أن ثمانية عشر عاماً مضت مع أنه كان يظن أنه غاب مدة أقصر من ذلك بكثير. فاليوم الواحد في عالم الجان يعادل شهراً في عالم الإنس. وليس هذا هو الخطر الوحيد. إن رؤية جمال أميرة جنّية في هيئتها الحقيقية يبهر الأبصار وهي تفوق قدرة الكثير من الإنس، أو أن تدركه العقول. فقد يصاب رجل عادي بالعمى أو يجنّ أو يُقتل عندما ينفجر قلبه من شدة الحبّ. وفي الأيام الخوالي، قبل ألف سنة، تمكّنت حفنة من المغامرين من ولوج عالم الجان، لاسيما بمساعدة جنّ لهم نوايا طيبة أو شريرة. وللتكرار: لم يرجع من أرض الجان تلك إلا إنسي واحد سليماً، وهو البطل حمزة، ولا تزال الشكوك تدور بأن جزءاً منه جنّي. لذلك، عندما اقترحت دنيا الجنّية، المعروفة باسم آسمان بيري، أميرة البرق في جبل قاف، على السّيد جيرونيمو أن يرافقها إلى مملكة أبيها، من الممكن أن تستنتج العقول المرتابة بأنها كانت تغويه إلى حتفه كما

تفعل حيوانات السمندر التي تغنّي فوق الصخور بالقرب من بوسيتانو، أو ليليث، تلك الوحش الليلي التي كانت زوجة آدم قبل حواء، أو جمال جون كيتس الطاغي.

تعال معي، قالت. سأكشف لك عن نفسي عندما تتهيأ لرؤيتي.

ثمّ،

ما إن بدأ سكّان المدينة يكتشفون المعنى الحقيقي لأن يكون المرء بدون مأوى، بالرغم من أنهم كانوا يعتقدون باستمرار بأنهم خبراء في عدم توفر مأوى، لأن المدينة التي يكرهونها ويحبّونها في آن معاً لم تكن توفر دائماً الحماية لسكّانها من عواصف الحياة، وغرست في مواطنيها فخراً معيناً عنيفاً مليئاً بالكراهية والمحبّة في عاداتهم المتعلقة بالبقاء على قيد الحياة بالرغم من كلّ شيء، بالرغم من مسألة عدم توفر النقود بشكل كاف، ومسألة عدم توفر الحيز الكافي، ومسألة الكلب الذي يأكل الكلب وما إلى هنالك؛

وعندما اضطروا إلى مواجهة الواقع بأن المدينة، أو قوة ما في داخل المدينة، أو قوة ما ستصل إلى المدينة من خارج المدينة قد تطردهم من أرضها إلى الأبد، لا أفقياً، إنما عمودياً، إلى السماء، إلى الهواء المتجمّد وانعدام الهواء القاتل فوق الهواء؛

وعندما بدأوا يتخيّلون أجسادهم الخالية من الحياة تطوف ما وراء النظام الشمسي، لكي يلتقي أي ذكاء غريب قد يكون موجوداً هناك مع كائنات بشرية كانت قد ماتت قبل ظهور الأحياء بفترة طويلة ويتساءلون أي غباء أو رعب دفع هذه الكائنات إلى الفضاء دون أن تتخذ الحيطة مثل ارتداء ألبسة وقائية؛

وعندما بدأ صراخ المواطنين وبكاؤهم يتصاعد ويغطي على جلبة حركة المرور التي ظلت تملأ الشوارع، لأن وباء الارتفاع عن الأرض انتشر في أحياء عديدة، وبدأ الذين يؤمنون بأشياء كهذه يصرخون في الشوارع المذعورة بأن نهاية العالم قد أزفت، كما تنبّأ بولص في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي، عندما سيعلّق الأحياء والأموات في الغيوم ويقابلون الربّ في الهواء، إنها نهاية الأيام، صاحوا، وعندما بدأ الناس يطيرون إلى الأعلى مبتعدين عن المدينة أصبح يصعب، حتى على معظم المشككين الغلاة، ألاّ يوافقوا على ذلك؛

وعندما كان كلّ ذلك يجري، وصل أوليفير أولدكاسل والسّيدة فيلسوفة إلى بناية *بغداد* والشرر يتطاير من عينيه والرعب ينبعث من عينيها، وكان عليهما أن يذهبا إلى المدينة من دون أن يستقلاّ سيارة أو حافلة أو قطاراً، وقال أولدكاسل لألكساندرا بأنها نفس المسافة تقريباً التي كان قد قطعها فيديبيدس من ساحة المعركة في ماراثون إلى أثينا، والتي سقط في نهايتها، بالمناسبة، ميتاً، وكانا هما مرهقين أيضاً، وخارت قواهما في نهاية الأمر، معتقدين بشكل غير منطقي بأن مواجهة جيرونيمو مانيزيس قد تكون هي الحل لكلّ شيء، وأنهما إذا تمكنّا من إخافته أو إغرائه بما يكفي فقد يعيد ما نشره من مرض إلى سابق عهده؛

في تلك اللحظة بالذات تدفق ضوء عظيم إلى الخارج وإلى الأعلى من غرفة النوم في القبو حيث كانت أعظم الأميرات الجنيات تكشف عن نفسها في مجدها الحقيقي لأول مرة في عالم الإنس، وفتح هذا الكشف الباب الملكي على أرض الجان، واختفى السّيد جيرونيمو وأميرا البرق، وأُغلق الباب وأطفئ الضوء وتُركت المدينة في مواجهة مصيرها، وكانت سي. سي. أليبي وياسمين زرقا تطوفان كما تطوف المناطيد في بئر السلّم في بناية *بغداد*، وكان المشرف أولدكاسل محتداً وسيّدة قصر

لا إنكورينزا التي غادرت قصرها لأول مرة منذ عدة سنوات يقفان عاجزين في الشارع بارتفاع قدم أو ما يقارب ذلك عن الأرض دون أيّ أمل لعوداهما إلى حالتهما الطبيعية.

لم يكن الضوء ساطعاً، وعندما خفت ليتمكن من الرؤية مرة أخرى، مذعوراً، وجد السّيد جيرونيمو نفسه طفلاً في شارع طويل طواه النسيان، لكنه مألوف، يلعب لعبة الكريكت الفرنسية مع فتيان يهتفون، رافي رونيموس أعدها مرة أخرى، وفجأة، وعلى نحو لا يمكن تفسيره، كانت تقف هناك صبيّة تشبه أيّ ساندرا أخرى في باندرا تغمزه بعينها، رأى في عينيها المبتهجتين الشرّيرتين الأميرة الجنّية. وكانت أمّه ماغدا مانيزيس وأبوه جيري نفسه يراقبانه أيضاً وهو يلعب، يمسك أحدهما بيد الآخر، وبدا على وجههما السعادة، كما لم يفعلا من قبل قط، ونادراً ما كانا يفعلان ذلك أثناء حياتهما. كان المساء دافئاً، لا حاراً، وكانت الظلال تستطيل مبتعدة عن الفتيان لاعبي الكريكت، يبدون في صور ظليلة كما يمكن أن يصبح الرجال عندما يكبرون. وامتلأ قلبه بشيء قد يكون سعادة، لكن كان ينبعث من عينيه كحزن. ولم يتمالك نفسه عن البكاء وارتعش جسده كله بحزن ما كان، *توجد دموع في الأشياء*، قال أينياس الورع بكلمات فيرجيل منذ أمد بعيد، *والأشياء الفانية تلامس العقل*. كانت قدماه تلامسان الأرض الآن، لكن أين هي هذه الأرض، أفي أرض الجان أم في بومباي أم هي وهم، مجرد وسيلة أخرى لأن يطير بلا هدف، أو لأن يكون في قبضة الأميرة الجنّية. وعندما رأى حلم مشهد شارع قديم، الصورة المجسمة الغامضة، كان في قبضة كلّ شيء حزين حدث له طوال حياته، وتمنّى لو أنه لم ينفصل عن المكان الذي ولد فيه، وتمنّى لو أن قدميه بقيتا مغروستين فوق تلك الأرض المحبوبة، وتمنّى لو أنّه كان بإمكانه أن يظل سعيداً طوال حياته

في شوارع الطفولة تلك، وأن يكبر ليصبح عجوزاً هناك، يعرف كلّ بلاطة مرصوفة، وقصص كلّ بائعي بندق التنبول، وجميع الفتيان الذين كانوا يبيعون روايات مقرصنة عند إشارات المرور، وسيارات جميع الرجال الأثرياء المركونة بصلافة على الرصيف، وجميع فتيات جوقة الفرقة الموسيقية اللاتي يشخن ويصبحن جدات ويتذكّرن متى قبّلهن خلسة في الليل في باحة الكنيسة، وتمنّى لو كانت لديه جذور تنتشر تحت كلّ بوصة من تربته المفقودة، بيته المفقود المحبوب، ولو أن بإمكانه أن يكون جزءاً من شيء، ولو كان بإمكانه أن يكون هو نفسه، يتمشّى في طريق لم يطرقه أحد، ويعيش حياة ذات مغزى، لا رحلة المهاجر الجوفاء التي هي قدره، آه، لكن لو كان قد تم ذلك، لما التقى بزوجته، قال لنفسه، فزاد ذلك من حزنه، كيف يمكنه أن يتحمّل فكرة أنه لولا استمراره بالتواصل مع الماضي لما اعتراه أي إحساس حقيقي بالبهجة، ربما يستطيع أن يحلم بها في حياته الهندية، فربما أحبّته هناك أيضاً، وربما سارت في هذا الشارع وصادفته هنا وأحبّته أيضاً، بالرغم من أنه قد يكون هو الذات التي لن يصبحها قط، ربما ستحبّ تلك النفس أيضاً، رافائيل هيرونيموس مانيزيس، ذلك الفتى الضائع، ذلك الفتى الذي فقده الرجل.

ظننت أنك ستحبّها، قالت الفتاة الصغيرة بعيني جنّية، محتارة. لقد أنصتُ إلى قلبك وسمعتُ الحزن الذي خلّفته وراءك، وظننت أنها ستكون هدية مستحبة.

أبعديها عني، قال، تخنقه دموعه.

تلاشت بومباي وظهرت بيريستان، الجبل الدائري الذي يحيط بعالم الجان. وجد نفسه في فناء مكسو بالرخام الأبيض في قصر أميرة البرق

المقوّس الذي شيّدت جدرانه بالحجارة الحمراء، تحيط به وتعلوه قباب رخامية صغيرة. وكانت ستائره الرقيقة ترفرف مع هبّات النسيم، وعُلّقت ستارة البرق التي تحرسه في السماء مثل الفجر. لم يكن يريد أن يكون في هذا المكان. فحلّ الغضب محل الحزن الذي اعتراه. وذكّر نفسه أنه قبل مئة يوم، لم يكن يبدي أدنى اهتمام بالأمور الخارقة للطبيعة أو الخرافية. الأوهام أو الملائكة، السماء أو جهنم، أو التحوّلات، أو تغيّر الأشكال والهيئات. وكان يردد لنفسه دائماً، فليصابوا جميعاً بداء الزهري. كانت هناك أرض صلبة تحت قدميه، أوساخ تحت أظافره، منتجات يزرعها: أبصال وجذور، بذور ونبتات. هكذا كان عالمه. ثمّ، بغتة، ارتفع عن الأرض، وأتى كون سخيف، وحلّت غرابة، كارثة. وبشكل غامض، كما ارتفع عن الأرض، هبط. كان كلّ ما يريده الآن هو أن يستأنف حياته السابقة. لم يكن يرغب في أن يعرف ماذا يعني كلّ ذلك. لم يكن يرغب في أن يكون جزءاً من المكان، الشيء ـ لم تخطر له الكلمة المناسبة للتعبير عنها ـ الذي يضم كلّ تلك الأشياء، أراد أن يعيد خلق العالم الحقيقي من حوله، حتى لو كان العالم الحقيقي وهماً فإن هذه الاستمرارية اللا عقلانية هي الحقيقة. أراد أن يستعيد الخيال الحقيقي. أن يمشي، أن يهرول، أن يجري ويقفز، أن يحفر ويزرع. أن يكون مخلوق الأرض، وليس، مثل شيطان، مخلوقاً له قوى الهواء. كانت هذه هي رغبته الوحيدة، لكنه، بالرغم من ذلك، ها هو هنا في أرض الجان. تقف أمامه إلهة من دخان لا بد أنها ليست زوجته المرحومة نبشتها ذاكرته من القبر. لقد خيّبه هذا الإدراك. لم تعد لديه دموع أخرى ليبكي.

لماذا أحضرتني إلى هنا، سألها، ألم يكن بإمكانك أن تتركيني وشأني.

ذابت في دوامة من البياض مع ضوء مشرق في قلبه. ثمّ تشكّلت مرة أخرى، فلم تعد دنيا الضامرة عشيقة ابن رشد بل أسمان بيري، جنّية السماء، رائعة، تبرق مثل إكليل أزهار النصر عند حاجبها، مرصّعة بالجواهر والذهب وتكتسي بخيوط من دخان، يتبعها سرب من الوصيفات في شكل هلال، بانتظار سماع أوامرها. لا تسأل أميرة جنّية عن الأسباب، قالت، جاء دورها لأن تبدي غضبها الآن، قد أكون قد أحضرتك إلى هنا لتكون عبداً لي، لتصبّ النبيذ في كؤوسي، أو لتدهن قدميَّ بالزيت، أو حتى ربما، إذا شئت، لأن تكون طعام غدائي، مقلياً في طبق تعلوه أوراق ملفوف ذابلة قليلاً، وستقوم تلك السيدات بطهوك إذا أشرت بخنصري باتجاهك، لا تتخيّل أنّهن لن يفعلن ذلك. إنك لا تمتدح جمال أميرة ثم تسألها عن الأسباب! الأسباب هي حماقات إنسيّة. لا توجد عندنا إلاّ المتع وما نريد أن يكون.

فقال لها أرجعيني إلى حياتي العادية، فأنا لست حالماً ولا أرتاح في الإقامة في قلاع في الهواء. عندي عمل في الحديقة يجب أن أقوم به.

فقالت: لأنك ابن حفيد حفيد حفيد حفيد حفيد حفيدي، حفيد أو حفيدين أقل أو أكثر، فإني سأغفر لك. لكن، بالدرجة الأول، انتبه لتصرفاتك وسلوكك، خاصة إذا دخل أبي إلى الغرفة، لأنه قد لا يكون كريماً مثلي. وبالدرجة الثانية، لا تعد تتصرف بحماقة، فلم يعد هناك وجود لحياتك العادية السابقة.

ماذا قلتِ؟ أنا ماذا؟

كانت هناك أشياء كثيرة يجب أن تعلّمه إياها. حتى أنه لم يكن يعرف كم أنه محظوظ. فهي جنّية السماء الحسناء، وبإمكانها أن تحصل على أي شخص في العالمَيْن، وقد وقع اختيارها عليه لأن وجهه صدى

لرجل عظيم أحبّته ذات يوم. لم يدرك بعد أنّه يقف فوق جبل قاف كما لو كان ذلك أمراً طبيعياً للغاية في العالم، بالرغم من أنه ما إن يضع إنسي فان قدمه في بيريستان حتى يفقد صوابه. لم يكن يعرف نفسه، روح الجني العظيم الذي يسري في دمه، بسببها. يجب عليه أن يشكرها على هذه المكرمة، لكنه بدلاً من ذلك، بدت عليه أمارات الامتعاض.

كم عمرك، في أي حال؟ سألها.

فقالت: احذر، وإلا أرسلت صاعقة تذيب قلبك فتسري في جسدك داخل ثيابك وتملأ حذاءك الإنسي الأحمق بمادة لزجة.

فرقعت أصابعها فظهر على الفور الأب جيري بجانبها، وراح يوبّخ جيرونيمو مانيزيس كما كان يفعل دائماً. لقد قلت لك ذلك، أخذ يهزّ إصبعه في وجه السّيد جيرونيمو. لقد سمعت منّي هذا الكلام في البداية لكنك لم تصدّق. دنيا زاد، سليلة ابن رشد، تبين أنني كنت محقّاً. ماذا تريد أن تقول لي الآن؟

أنت لست حقيقياً، قال السّيد جيرونيمو. اغرب من هنا.

كنت أفكّر أن أعتذر، لكن لا يهّم، قال الأب جيري، واختفى في هبّة دخان.

فقالت: لقد تكسّرت الأختام بين العالمين وانطلق الجان الأسود. إن عالمك في خطر وبما أن أطفالي منتشرون في كل مكان فإني سأحميهم. سأجمعهم كلهم معاً، ومعاً سنقاوم.

فقال لها: أنا لست محارباً. أنا لست بطلاً. أنا مصمم حدائق، بستاني.

فقالت بشيء من الاحتقار: للأسف، لأننا، كما يحدث الآن، فإن كلّ ما نحتاج إليه هو الأبطال.

كان هذا أول شجار يدور بين هذين العاشقين، ومن يعرف أين يمكن أن ينتهي، لأنه دمّر الآثار الأخيرة للأوهام التي جمعتهما معاً، فلم تعد تجسّد زوجته المرحومة، ومن الواضح أنه لم يكن البديل المناسب لأرسطو العظيم، الأب المؤسس لعشيرتها. كانت دخاناً تحوّلت إلى لحم، أما هو فلم يكن سوى كتلة من التراب المتحلل. لعلها ستطرده في ذلك الزمان والمكان، لكن جبل قاف أصيب بكارثة أيضاً، وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حرب العالمیْن.

انبعثت صرخة مجلجلة من إحدى الغرف البعيدة، ثم تتالت صرخات أعلى وأعلى. كانت الصرخات تنتقل من فم إلى فم مثل قُبَلٍ مظلمة، حتى أصبح بالإمكان رؤية هيئة كبير جواسيس الأسرة الملكية، عمر العيّار، يقترب بسرعة وهو يجري في الباحة المقوّسة العظيمة حيث يقف السّيد جيرونيمو مع الأميرة الجنّية، ليخبرها بصوت يطفح رعباً بأنّ والدها، إمبراطور الجان، شاهبال القوي، ابن شاهروخ، قد سُمّم. إنه ملك سمورغ. كان سمورغ، الطائر المقدّس لقاف، يقف حارساً فوقه عند عمود السرير، غارقاً في شكله الحزين الغامض؛ وبعد حكم دام عدة آلاف من السنين، وجد شاهبال نفسه يقترب من أراض سافر إليها عدد قليل من الجان، أراض يحكمها ملك أكثر هولاً ورعباً من شاهبال نفسه ينتظر إمبراطور الجبل عند أبواب مملكتيه التوأم، ويقف على جانبيه كلبان عملاقان لكل واحد منهما أربعة عيون: ياما، إله الموت، حارس الجنة والنار.

عندما سقط كان كما لو أنّ الجبل نفسه قد سقط،، وفي الواقع، ذكرت الأخبار بأن شقوقاً ظهرت في دائرة قاف الكاملة، وانشقّت الأشجار من وسطها، وسقطت الطيور من السماء، وأحسّت الآلهة التي تقيم في أوطأ المنحدرات بالهزّات، واهتزّ حتى أكثر رعاياه غير

الموالين، وحتى الآلهة الأكثر استعداداً لأن تُغوى من تملق الجان الأسود، والعفاريت، التي يشبته في تورطها في عملية تسمّيمه، لأن السؤال الذي بدأ يتردد على شفاه الجميع هو كيف يمكن تسميم ملك من ملوك الجان، لأن الجان مخلوقات من نار بلا دخان، فكيف يمكنك أن تسمّم ناراً، وهل يمكن إطعام جنّي مطافئ سحرية، مضادات التهابات صُنعت من السحر الأسود يمكن أن تقتله، أو تعويذات سحرية تمتصّ الهواء من المحيط به مباشرة لكي لا تتمكن النار من الاحتراق، كان الجميع يتشبثون بقشة وهو راقد على فراش الموت، لأن كلّ التفسيرات بدت سخيفة، ولم تصدر أي إجابات مقنعة من أي مكان. فلا يوجد أطباء لدى الجان لأنهم لا يعرفون المرض ونادراً ما تحدث حالات موت بينهم .لا يمكن *أن يقتل جنياً إلا جنّي*، بديهية سائدة في صفوف الجان، لذلك، عندما أمسك الملك شاهبال نفسه وصاح سمّ، خيّل للجميع في البداية بأنه لا بد أن يكون هناك خائن في صفوفهم.

ينتمي عمر العيّار، وتعني كلمة عيّار «جاسوس» ـ الذي يخدم الأسرة المالكة منذ فترة طويلة ـ إلى بدايات متواضعة. كان وسيماً ذا شفتين مكتنزتين وعينين واسعتين. متخنث قليلاً، لأنه في الحقيقة كان يُرغم منذ أمد بعيد على ارتداء ثياب نسائية والإقامة في حرملك الأمراء الأرضيين ليمهدّ الطريق للسيّد الجنّي لزيارة السيدات في الليل، عندما يكون انتباه الأمراء موجهاً إلى مكان آخر. وفي إحدى المرات، ظهر أمير «أو» بشكل غير متوقع عندما كان الملك شاهبال يداعب زوجات «أو»، زوجات ضجرات يُدخل عشيق جنّي إلى نفوسهن تغييراً كبيراً ومرحباً به من المتعة. ولسوء الحظ لم يسمع عمر أمر سيده بوضوح، *هيا لنخرج من هنا فوراً*، فسمعها، *تخلص منه فوراً*، فقطع، للأسف، رأس الأمير «أو». وفي بيريستان، عُرف العيّار لاحقاً باسم «عمر ذو الأذنين

القماشيتين»، وعاش في ذلك الخطأ الذي ارتكبه سنتين وثمانية شهور وثمان وعشرين ليلة بحسب زمن الأرض. ومنذ ذلك الحين، ارتفع إلى القمة، وأصبح موضع ثقة أكثر من أي جنّي آخر لدى شاهبال وابنته جنّية السماء، المعروفة باسم دنيا، وأصبح الرئيس غير الرسمي لأجهزة الاستخبارات في قاف. لكنّه كان أول من اكتشف الملك القتيل، لذلك، ومن الطبيعي أن يستقرّ طرف إصبع الشكّ البارد على حاجبه. وعندما وصل راكضاً إلى الأميرة، لم يأت لينقل الخبر فقط، وإنما لأنه كان هارباً أيضاً من غوغاء خدم القصر الذين تملكهم الغضب، وكان يحمل بين يديه صندوقاً صينياً.

بطبيعة الحال، كان باستطاعة أميرة قاف وولية العهد إخماد حدّة غضب شعبها الذي اتجّه في الاتجاه الخاطئ، فرفعت راحة يدها فتجمّدوا في الحال مثل أطفال يلعبون لعبة خطوات الجدّة، ولوّحت بيدها فتبددوا مثل غربان، كان كلّ ذلك مباشراً وبسيطاً، ولم تعد ثقتها بعمر الذي لم يعد ذو الأذنين القماشيتين ثقة تامة، ولعل ما كان يحمله في يده، الرد، كان يحاول أن يخبرها بشيء، ثم قال: إن والدك رجل قوي، لم يمت بعد، وهو يصارع الموت بكلّ ما أوتي من قوة. وقد يكون سحره أقوى من السحر الأسود الذي هاجمه. فهمت كلّ ذلك، لكن ما فاجأها والذي كان يصعب عليها أن تفهمه هو أنه عندما وصل النبأ المريع إلى أذنيها، سمّ، *الملك*، والدك، لم تكن ردة فعلها بضبط النفس المهيب كما تربّت على ذلك، فلم تتهاوى وتبكي بين أذرع خادماتها اللاتي تجمّعن وراءها يعبّرن عن قلقهن، لا، بل التفتت نحو جيرونيمو مانيزيس، البستاني الجاحد، الإنسيّ، واعترتها رغبة قوية لأن تعانقه. أما هو، فعندما ضمّها بين ذراعيه، أجمل وأروع كيان أنثوي رآه في حياته، أحسّ على الفور بانجذاب شديد إلى هذه الأميرة الجنّية غير

الوفية لزوجته المرحومة، واعترته نشوة في آن معاً لأنه موجود في أرض الجان، ولأنه أصبح أقل التصاقاً بالأرض عندما غادرت قدماه أرض مدينته في عالمه الخاص، حيرة وجودية، كما لو أنه طُلب منه أن يتحدّث بلغة لا يعرف أيّ كلمة من كلماتها أو نحوها، لا يعرف ما هو التصرف الصحيح، ما هو التصرف الخاطئ، لم يعد يعرف، لكن ها هي هنا تدفن رأسها بحزن في صدره، الأمر الذي جعله، لا يمكنه إنكار ذلك، بالارتياح. ورأى وراءها وما بعدها صرصوراً يذوي تحت كرسي طويل، وفراشة تحوم في الهواء، وخطرت له فكرة بأنّ هذه ليست سوى ذكريات، وأنه كان قد رأى هذا الصرصور بالتحديد وهذه الفراشة بالتحديد من قبل، في مكان آخر، في بلده المفقود، وأن قدرة بيريستان على قراءة عقله وإعادة أعمق ذكرياته إلى الحياة قد تجعله يصاب بالجنون. فقال لنفسه: ابتعد عن نفسك، وانظر إلى الخارج من خلال عينيك ودع عالمك الداخلي يعتني بنفسه. فهنا ملك سُمّم، وجاسوس مذعور، وأميرة مصدومة وحزينة، وصندوق صيني.

ماذا يوجد في الصندوق، سأل الجاسوس.

لقد سقط من يديّ الملك عندما وقع، قال عمر. أظن أن السمّ في داخله.

ما نوع السمّ، قال السّيد جيرونيمو.

شفوي، قال عمر. فلا يمكن أن يُسممّ ملك من الجان إلاّ بأعتى الكلمات وأقواها.

افتح الصندوق، قالت دنيا.

داخل الصندوق الصيني

مثل طبقات من الجلد المستطيل، كانت هناك صناديق عديدة أخرى مخفيّة في وسط الفراغ المغلق كما لو كانت تسقط في هاوية. في واقع الحال، بدت الطبقة الخارجية، الصندوق الذي يحوي جميع الصناديق الأخرى، كأنه حيّة، وتساءل السّيد جيرونيمو وسرت في جسده قشعريرة طفيفة من الاشمئزاز هل أن كلّ ما يحويه الصندوق مصنوع فعلاً من جلد حيّ، قد يكون من جلد البشر. ووجد أن مجرد التفكير في أن يلمس ذلك الشيء الملعون أمر من رابع المستحيلات، أما الأميرة فقد تعاملت معه بأريحية، مُظهرة ألفتها الطويلة بقشر البصل المتعدد الطبقات من هذا القبيل. كانت أسطح الصندوق الصيني الستّة مزدانة ـ خطرت ببال جيرونيمو كلمة موشومة ـ بصور مشاهد طبيعية جبلية وسرادقات مزخرفة بجداول مائية.

أرسل جواسيس الإمبراطور في هذه الصناديق، بعد أن أعيد إرساء الاتصالات بين العالميْن، تقارير مفصّلة ومتنوعة عن العالم في الأسفل، عن واقع الإنس الذي وجده شاهبال آسراً إلى ما لا نِهَايَة. فقد أحدثت القرون الطويلة من الانفصال لدى ملك قاف إحساساً عميقاً بالوهن، فلم يعد يغادر الفراش بسهولة في أحيان كثيرة، وحتى الجنّيات العاهرات اللواتي كنّ يُقدَمنّ له، وجدنه كسولاً، رخواً جنسياً، وهو أمر مريع في

عالم الجان الذي يُعتبر الجنس فيه تسلية ومتعة لا تنضبان. وتذكّر شاهبال قصّة ردّ فعل الإله الهندوسي إندرا على سأم السماء بأن اخترع المسرح وراح يقدّم عروضاً مسرحية لتسلية الآلهة العاطلين عن العمل في معظم الأحيان، وخطرت له لوهلة فكرة أن يجلب هذا الفنّ المسرحي المثير إلى بيريستان أيضاً، لكنه أقلع عن الفكرة لأن كلّ من استشاره في هذا الأمر سخر من فكرة مشاهدة أناس متخيّلين يؤدون حركات متخيّلة لا تنتهي بممارسة جنسية، مع أن حفنة من الذين أثنوا على فكرته قالوا إن هذه المسرحيات التخيّلية قد تكون وسيلة ناجعة لإذكاء حياتهم الجنسية المصنوعة من دخان ونار وتأجيجها. وخلص شاهبال إلى أن الجان لا تهمهم الأشياء المتخيّلة، وأنهم مهووسون بالواقعية، مهما أصبحت حياتهم الواقعية مملّة. فالنار تحرق الورق. ولا توجد كتب في أرض الجان.

في هذه الأيام، تراجعت العفاريت أو الجان الأسود عمّا يسمّى بخطّ السيطرة الذي يفصل قاف عن أرضهم الهمجية، وانهمكوا بالهجوم على عالم الإنس الأمر الذي أحزن شاهبال الذي كان من محبّي الأرض. ومع أن الأعمال العدائية التي كادت تتوقف بعد ذلك عند حدود قاف، أتاحت فترة من الهدوء التي لقيت ترحيباً، فقد قلّلت أيضاً من تدفق الحوادث، وزادت من ضجر الأيام. وكان شاهبال يحسد الحرية التي تتمتع بها ابنته أميرة البرق والتي بعد أن ثبّتت حواجزها الوقائية، أصبح بإمكانها أن تمضي فترات طويلة بعيدة عن قاف، تستكشف متع العالم في الأسفل، وتحارب الجان الأسود أثناء وجودها هناك. أما الملك فقد كان عليه أن يظل جالساً على عرشه لا يبرحه. هكذا كانت تجري الأمور. إن التاج سجن، ولا يحتاج القصر إلى نوافذ لها قضبان لكي يحتجز المقيمين فيه داخل أسواره.

لا نزال نروي هذه القصّة كما نزلت علينا من خلال روايات كثيرة نُقلت من الفم إلى الأذن، ومن الأذن إلى الفم، قصّة الصندوق المسمّم والقصص الموجودة فيه التي أخفي السمّ فيها. هكذا هي القصص، تجارب تعاد روايتها بألسن عديدة نعطيها أحياناً اسماً واحداً، هوميروس، فالميكي، فياسا، شهرزاد. أما نحن، من جهتنا، فإننا ندعو أنفسنا ببساطة «نحن». «نحن» المخلوقات التي تحكي لنفسها قصصاً لنفهم ما نوع هذه المخلوقات. وعندما تنتقل إلينا فإن القصص ترتفع وتبتعد عن الزمان والمكان، فتفقد خصوصية بداياتها، لكنها تكتسب نقاوة الجوهر، لكونها هي ذاتها. ونتيجة التوسع والامتداد، أو على المنوال نفسه، كما يحلو لنا أن نقول، مع أننا لا نعرف ما هو المنوال أو ماذا كان، فإن هذه القصص تصبح ما نعرفه، ما نفهمه، وما نحن، أو ربما ينبغي أن نقول، ماذا أصبحنا، أو ماذا يمكن أن نكون.

بعناية خبير ألغام يُبطل مفعول قنبلة موقوتة، قشّر عمر العيّار الجلد الخارجي للصندوق، **وبوووف**، ظهرت قشرة البصلة، وعلى الفور بدأت القصّة، منبعثة من قشرتها الرقيقة جداً من المكان المحصور: دندنة تعلو لتتحوّل إلى صوت نسائي رخيم، واحد من الأصوات العديدة التي يضمها الصندوق الصيني، وأصبح بإمكان الرسول أن يستخدمها. هذا الصوت، الأجشّ، المنخفض، المهدئ للأعصاب، ذكّر السّيد جيرونيمو بياسمين زرقا، وببغداد (البناية لا العاصمة بغداد) حيث كانت تقيم، البيت الذي طُرد منه. غمرته موجة من الكآبة لكنها سرعان ما انحسرت. ألقت القصّة خطّافها عليه فاستقرّ في أذنه التي لا شحمة لها، ولفتت انتباهه.

«في ذلك الصباح بعد الانتخابات العامة، أيها الملك العظيم، استيقظ شخص يُدعى إيراغايرا من مدينة باء البعيدة كما يستيقظ أي شخص آخر على صوت صفارات الإنذار العالية ثم أعقبه صوت يعلن بمكبّر صوت من فوق شاحنة بيضاء ترفرف فوقها رايات وأعلام. كلّ شيء على وشك أن يتغيّر، صاح مكبّر الصوت، لأن هذا هو طلب الشعب. فقد سئم الناس الفساد والرشوة وسوء الإدارة، والأهم من كلّ ذلك فقد سئموا من الأسرة التي تهيمن على السلطة منذ أمد بعيد، فأصبحوا مثل الأقرباء الذين يكره أحدهم الآخر ولا يطيقون الانتظار حتى يغادروا الغرفة. الآن بعد أن ولّت تلك الأسرة، قال مكبّر الصوت، وأصبح باستطاعة البلد أخيراً أن ينمو بدون هؤلاء الأقارب الوطنيين الممقوتين، وشأن الآخرين، قال مكبّر الصوت، يجب أن يتوقّف عن العمل فوراً الذي يقوم به الآن، العمل الذي يجد متعة كبيرة في القيام به ـ فقد كان يعمل محرّراً للكتب الموجّهة إلى الشباب البالغين في شركة نشر معروفة في المدينة ـ وطلب منه أن يأتي ليعمل في إحدى محطات العمل الجديدة التي ستقام بين عشية وضحاها، وسيخبرونه بوظيفته الجديدة، ليصبح جزءاً من المشروع الوطني الكبير الجديد، وهو بناء آلة المستقبل.

«ارتدى ثيابه بسرعة وهبط إلى الطابق السفلي ليوضح للضابط الذي يتكلّم عبر مكبّر الصوت بأنه لا يمتلك المهارات الهندسية اللازمة ولا الكفاءة الميكانيكية الضرورية لأداء هذه المهمّة، لأنه شخص يعمل في مجال الفنون والأدب، لا في مجال العلوم. وفضلاً على ذلك، فهو قانع ببقاء الأمور على حالها، وأنه اختار مهنته هذه من بين مهن عديدة وهو مقتنع بها أكثر من أي مهنة تجعله يراكم ثروة. ولما كان عازباً في هذا العمر، فهو يملك أكثر مما يحتاج إليه، والعمل الذي يقوم به لا يقدّر

بثمن: التحدي، والتسلية، وتشكيل العقول الشابة. فهزّ الضابط الذي يمسك بيده مكبّر الصوت كتفيه غير عابئ، وقال بطريقة فظّة فجة: «وما شأني أنا بذلك؟ عليك أن تعمل ما تطلبه منك الأمة الجديدة إلا إذا أردت أن تُعتبر عنصراً مناهضاً للوطنية. ولم يعد هناك مكان لعنصر كهذا في جدولنا الدوري. وهو، كما يقول الفرنسيون، مع أنني لا أتكلّم الفرنسية، ولإيماني بأنها لغة غريبة على تقاليدنا، وليس من المهم معرفتها، *خارج التصنيف*. ستصل الشاحنات قريباً، وإذا أصررت على اعتراضك، فناقش الأمر مع ضابط النقل».

«دأب زملاء السّيد إيراغايرا في شركة النشر على القول، لا بنبرة إطراء دائماً، بأن لديه براءة تتجاوز سخرية معظم الأطفال، ولهذا السبب لم يدرك مرارة خيبة عالم فَقَد براءته منذ أمد بعيد. بلطف، والنظّارات على عينيه، وباضطراب، راح ينتظر الشاحنات الموعودة. ولو أن رينيه ماغريت كان قد رسم لوحة ستان لوريل بظلال بنية فاتحة، فربما كانت نتيجة ما رسمه تشبه السّيد إيراغايرا، وهو يبتسم للحشد المتجمهر تلك الابتسامة العريضة الغامضة البلهاء، ويرمش بعينين حسيرتين للرعاة المسؤولين عن جمع الناس، رجال يضعون على جباههم إشارات برتقالية ويحملون في أيديهم عصياً طويلة. وصلت قافلة الشاحنات أخيراً، وانعطفت في شكل قوس نحو أسفل الحديقة القديمة على شاطئ البحر وبدت أشبه ببقع حبر تسيل من لوحة قديمة. وعندما وجد السّيد إيراغايرا نفسه أخيراً وجها لوجه مع ضابط النقل، شابّ غبيّ غزير الشعر، ضخم الجثة، يبدو أنه فخور بذراعيه المكسوتين بالعضلات وبصدره الذي يشبه البرميل، متيقناً بأن سوء التفاهم سينجلي قريباً. بدأ يتحدّث، لكن ضابط النقل قاطعه وسأله عن اسمه. عندما قال له اسمه، راح الضابط يدقق في حزمة من الوثائق المثبتة على لوح يحمله بيده. «ها

هو»، قال، وأبرز ورقة للسّيد إيراغايرا. «إن ربّ عملك تخلى عنك». فهزّ السّيد إيراغايرا رأسه، وقال: «هذا مستحيل»، وراح يوضح له بعقلانية، «أولاً، أنا أحظى باحترام الجميع ولي قيمتي في المكتب؛ وثانياً، حتى لو كان هذا صحيحاً، لكنتُ قد تلقيتُ تنبيهاً شفوياً في البداية، ثم تحذيراً خطياً، وأخيراً رسالة طرد. هذه هي الطريقة المتبعة والصحيحة لاتخاذ إجراءات كهذه، لكن هذه الإجراءات لم تتبع، بالإضافة إلى ذلك، أكرّر، أن لديّ كلّ الأسباب التي تجعلني أجزم بأنهم يكنّون لي كلّ التقدير والاحترام في العمل، وإني أنتظر دوري، لا للطرد، إنما للترقية». فأشار ضابط النقل إلى توقيع ممهور في أسفل الصفحة، وقال: «أتعرف هذا؟» صُدم السّيد إيراغايرا عندما رأى توقيع رئيسه بيده. «إذاً انتهينا من الأمر»، قال ضابط النقل، «فإن كنتَ قد طُردتَ، فلا بد أنكَ ارتكبتَ خطأً فاحشاً. يمكنك أن تلعب دور البريء، لكن ذنبك مطبوع على وجهك، وهذا التوقيع الذي تأكدت منه بنفسك هو الدليل القاطع. هيا اصعد إلى الشاحنة».

«سمح السّيد إيراغايرا لنفسه أن يقول جملة تعبّر عن معارضته، فقال: لا أصدّق أن شيئاً كهذا قد يحدث هنا في مدينتي، مسقط رأسي، **باء**.

فقال ضابط النقل: «لقد تغيّر اسم المدينة»، ثم أضاف، «من الآن وصاعداً، ستُعرف باسمها القديم، الاسم الذي منحته لها الآلهة منذ أمد مغرق في القدم، **النجاة**».

«جلالة الملك المعظم: لم يسمع السّيد إيراغايرا قط بهذا الاسم، ولم يكن يعرف شيئاً عن قيام الآلهة بتسمية المدينة في العهود القديمة، عندما لم تكن المدينة قد وجدت بعد، لأنها واحدة من أحدث المدن

التي نشأت في هذا البلد، وهي ليست عاصمة قديمة مثل دال في الشمال، بل إنها مجمّع مدنّي حديث، لكنّه لم يبد أي احتجاج آخر، بل صعد مع الآخرين جميعاً بوداعة إلى إحدى الشاحنات، ونُقل إلى المصانع الجديدة التي أقيمت في الشمال حيث بنيت آلة المستقبل. وفي الأسابيع والأشهر التي أعقبت ذلك، ازدادت حيرته. وفي مكان عمله الجديد، بين هدير التوربينات المنفّر وأزيز الحفارات المتقطّع، وبين اللغز الصامت لأحزمة النقل التي تمرّ فوقها بسهولة الحزقات والبراغي والتروس عبر نقاط مراقبة الجودة إلى أماكن مجهولة، رأى، لدهشته، عمّالاً أقلّ مهارة منه قد جُنّدوا لأداء هذا العمل العظيم، وأطفالاً صغاراً يلصقون بالغراء أشكالاً مصنوعة من الخشب والورق، وأُدمج هؤلاء أيضاً بشكل ما في ضخامة الكلّ، ورأى طهاة يعدّون فطائر تُلصق على أطراف الآلة كما يلصق روث البقر على جدران البيوت الطينية في القرى. ما نوع هذه الآلات، تساءل السّيد إيراغايرا التي يُطلب من الأمة كلها أن تبنيها؟ وكان على البحّارة إدخال سفنهم في الآلة، وعلى المزارعين إدخال محاريثهم. وعندما كان يُنقل من مكان إلى آخر على امتداد موقع البناء الهائل للآلة، رأى أصحاب فنادق يبنون فنادقهم داخل الآلة التي توجد في داخلها آلات تصوير سينمائية وأنوال نسيج، لكن لم يكن هناك نزلاء في الفنادق، ولم تكن هناك أفلام في الكاميرات، أو قماش على الأنوال. وازداد اللغز غموضاً عندما بدأت الآلة تتوسّع وتكبر، فأزيلت أحياء بكاملها لتفسح مكاناً للآلة، حتى بدأ يظهر لإيراغايرا صاحب أنّ الآلة والبلد قد أصبحا شيئين مترادفين، لأنه لم يعد هناك مكان في البلد يتسع لأيّ شيء سوى الآلة.

«في تلك الأيام فُرض التقنين على الطعام والماء، ونفد الدواء من المستشفيات وفرغت المحلات من المواد. فقد أصبحت الآلة كلّ شيء،

وتوجّه الجميع في جميع الأماكن إلى محطات العمل الفرعية المخصصة لهم لأداء العمل الذي كُلّفوا به: شدّ البراغي، الحفر، تثبيت العزقات، الطَرق بالمطارق؛ ثم يعودون إلى بيوتهم في الليل منهكين إلى حدّ أنّ أحداً لا يستطيع أن يكلّم الآخر. فبدأ معدّل الولادات يتدنى لأن ممارسة الجنس تتطلب جهداً كبيراً، وبدأ يُروّج في الإذاعة والتلفزيون ومكبّرات الصوت بأن هذا العمل هو مصلحة وطنية. ولاحظ السّيد إيراغايرا أنّ مديري برنامج بناء الآلة، ومُصدري الأوامر، والمشرفين، والرعاة، جامعي الناس، ازدادوا غضباً وتوتراً، ولم يعودوا يبدون أي درجة من التسامح أيضاً، خاصة إزاء الأشخاص من أمثاله، الأشخاص الذين كانوا يعيشون حياة هادئة وسعيدة في الماضي، وكانوا سعداء لأن يحذو الآخرون حذوهم. وأُعتبر هؤلاء الأشخاص ضعفاء ومصدر خطر في آن معاً، وعديمي الفائدة وهدّامين في الوقت نفسه، وبحاجة إلى يدّ تأديبية ثقيلة لا ريب، قالت مكبّرات الصوت، بأنها ستستُخدم حيثما وكلما دعت الضرورة، قال السّيد إيراغايرا لنفسه، إنه لمن الغريب أنّ الذين يتربعون على قمة هذا التوزيع الجديد هم أشدّ حنقاً ممن هم في الأسفل.

«وفي أحد الأيام، أيها الملك العظيم، رأى السّيد إيراغايرا مشهداً فظيعاً. فقد رأى رجالاً ونساء يحملون على رؤوسهم مواد بناء في مقالي معدنية، وهو أمر طبيعي، لكن الشيء غير الطبيعي في هؤلاء الرجال النساء هو أنهم ـ كانوا يبدون ـ راح يبحث عن الكلمة ـ مهروسين، كما لو أن شيئاً أثقل بكثير من مواد البناء التي يحملونها كانت تُثقل عليهم، كأنّ الجاذبية نفسها قد ازدادت في المنطقة المحيطة بهم فيُسحقون فعلياً إلى باطن الأرض. هل هذا ممكن، سأل جيرانه الذين كانوا يعملون على حزام مراقبة الجودة حيث يعمل هو، هل من الممكن أن يكونوا قد

عُذّبوا، فأجاب كلّ من سألهم، لا، بأفواههم، ونعم، بعيونهم. يا له من اقتراح، إن بلدنا حرّة، رددت ألسنتهم، بينما كانت عيونهم تقول لا تكن أحمق، فمن المخيف البوح بأفكار كهذه على الملأ. وفي اليوم التالي، ذهب الأشخاص المهروسين، وبدأ أناس جدد يحملون مقالي مواد البناء، وعندما كان السّيد إيراغايرا يرى شيئاً مضغوطاً قليلاً في هؤلاء الأشخاص أيضاً، كان يلوذ بالصمت ولا ينبس ببنت شفة حول هذا الأمر، وكانت عيناه فقط هما اللتان تتكلمان مع رفاقه في العمل، فتردّ عليه عيونهم بصمت. لكن أن تَخرس عندما يكون هناك شيء يجب أن تقوله وتبصقه من فمك شيء مضر للهضم، فأصبح السّيد إيراغايرا يشعر بالغثيان عندما يعود إلى بيته، ويوشك أن يتقيأ بقوة عندما يكون في شاحنة النقل، وهو شيء، إذا استخدمنا إحدى الكلمات الجديدة الشائعة في تلك الأيام، غير مستحسن.

«في تلك الليلة، لا بد أن جنّياً قد زار السّيد إيراغايرا، أو أن جنّياً تلبسّه، لأنه في صباح اليوم التالي، بينما كان يعمل على خطّ الإنتاج، أصبح يبدو كأنه شخص مختلف، وبدا أنه يسمع نوعاً من طقطقة كهربائية حول أذنيه. وبدلاً من أن يذهب إلى محطة عمله الفرعية، توجّه إلى أحد أفرقة إدارة البناء، إلى أعلى مُصْدر للأوامر صادفه، وقال له بصوت عال لفت انتباه عدد كبير من رفاقه في العمل، «'أعذرني يا سيدي، لكن عندي سؤال مهم أريد أن أسألك إياه يتعلّق بالآلة'».

«'لا أسئلة'»، قال مُصْدر الأوامر، «'اذهب وتابع المهام المكلف بها'».

«'السؤال هو هذا»، واصل إيراغايرا صاحب، بعد أن تخلى عن صوته اللطيف، المرتبك، الحسير، وحلّت محله هذه النبرات الجهورية

الجديدة، بل حتى أن نبراته أصبحت تشبه نبرات حامل مكبّر الصوت، «'ماذا تنتج آلة المستقبل'؟»

«بدأ عدد من الأشخاص ينصتون الآن. انبعثت همهمة موافقة بين صفوفهم، نعم، ما الذي تنتجه. ضيّق مُصدر الأوامر عينيه، وأطبقت مجموعة من الرعاة الذين يجمعون الناس حول السّيد إيراغايرا وأحاطوا به، «'الأمر في غاية الوضوح'»، أجاب مُصدر الأوامر، «'إنها تنتج المستقبل'».

«لكن المستقبل ليس منتجاً' صاح السّيد إيراغايرا' .بل إنه لغز. ماذا تصنع الآلة حقاً'؟

«اقترب الرعاة كثيراً من السّيد إيراغايرا الآن للإمساك به، لكن مجموعة من العمّال بدأوا يتجمّعون، وبدا جلياً أن الرعاة لم يعودوا يعرفون كيف يواصلون عملهم. فتوقفوا ريثما يصدر لهم مُصدر الأوامر توجيهاته».

«' ماذا تصنع؟' صاح مُصدر الأوامر' .إنها تصنع المجد! المجد هو المنتج الذي تصنعه. المجد والشرف والفخر. المجد هو المستقبل، لكنّك أثبت أن لا مكان لك في ذلك المستقبل هنا. خذوا هذا الإرهابي. فلن أسمح له بأن يصيب عقله المريض هذا القطاع بالعدوى. إنه عقل يحمل الوباء'».

«لم يرق للعمال المحتشدين أن يمسك الرعاة بتلابيب السّيد إيراغايرا، فراحوا يصيحون لأن الكهرباء التي كانت تطقطق حول أذنيْ محرر كتب البالغين الشباب السابق بدأت تظهر للعيان وراحت تتدفّق إلى أسفل رقبته وذراعيه، حتى وصلت إلى أطراف أصابعه، ثم تدفقت مزاليج الكهرباء ذات التوتر العالي من يديه، وقتلت مُصدر الأوامر في

الحال، فأخذ الرعاة يجرون بحثاً عن مكان آمن يختبئون فيه، وضُربت آلة المستقبل بقوة شديدة جعلت قطاعاً كبيراً من ذلك الوحش الهائل ينهار وينفجر».

بدأ الصندوق يتحرّك في يدي الأميرة. وتقشّرت طبقة من قشرة البصلة المستطيلة وتلاشت إلى دخان مثل الطبقة الأولى، وبدأ صوت آخر، هذه المرة صوت جهوري لطيف، يتكلّم «إن ذكر الوباء هذا»، قال الصندوق الصيني، «يذكّرني بقصّة أخرى قد ترغبين في سماعها»، لكن قبل أن تمضي الحكاية قدماً أجفلت دنيا وأطلقت صيحة صغيرة. وتركت الصندوق ورفعت يديها إلى أذنيها وغطّتهما. وصاح عمر أيضاً وطارت يداه أيضاً إلى أذنيه فتلّقف السّيد جيرونيمو الصندوق قبل أن يقع على الأرض وراح يحدّق في الشخصين من سكان بيرستان بقلق.

«ما هذا؟» قالت دنيا، لكن جيرونيمو مانيزيس لم يسمع شيئاً. «صوت يشبه الصافرة»، قالت له، «يستطيع الجان أن يسمعوا ترددات أعلى مما يسمعها الكلاب، وبالتأكيد أعلى مما يسمعه الإنس. أما هذه فهي مجرد ضوضاء».

«قد تحتوي الضوضاء على لعنة خفية»، قال عمر، «يجب إغلاق الصندوق أيتها الأميرة. قد يكون سامّاً لك ولي ولأبيك كذلك».

«لا»، قالت. كانت قسمات وجهها متجهمة على نحو غير عادي. «تابع. إذا لم أفهم اللعنة فلن أجد اللعنة المضادة وسيموت الملك».

وضع السّيد جيرونيمو الصندوق على منضدة صغيرة مصنوعة من خشب الجوز مطعّمة برقعة شطرنج عاجية، واستأنف الصندوق حكايته، وقال بصوته الذكوري الجديد: «كان زمن الأوبئة، وفي قرية حاء، أُلقي القبض على رجل يدعى جون لأنه المسؤول عن انتشار مرض الصمت.

كان جون الصامت، رجلاً قصير القامة، له ساعدان قويان، يعمل حداداً في قرية حاء التي يحيط بها ريف رائع الجمال تتمنّين رؤيته في قصيدة رعوية مليئة بالحقول الخضراء، والتلال المنبسطة، والجدران الحجرية الجافة، والأسقف المغطاة بالقش، وبالجيران الفضوليين. وبعد أن تزوج معلّمة القرية، الفتاة المتعلّمة المهذبة والراقية في سلوكها أكثر من زوجها، أصبح من المعروف أنه ما إن يحتسي بضع كؤوس في الليل، حتى يبدأ يصرخ في وجه زوجته، مستخدماً أقذع الكلمات التي لم يسمعها أحد في القرية قط. وكان بذلك يزيد من مفردات زوجته بالإضافة إلى تعاستها. واستمر ذلك لسنوات عديدة. في النهار عامل يكدّ في كيره بين النار والدخان، ورفيق جيد لزوجته وأصدقائه، وفي الظلام، يخرج الوحش من داخله. وفي إحدى الليالي، عندما بلغ ابنه جاك السادسة عشرة من العمر، وأصبح أطول قامة من أبيه، وقف الصبي في وجه جون، وطلب منه أن يصمت. وقال بعض القرويين إن الصبي جمع قبضته وسددّ لكمة إلى وجه أبيه، لأن خدّ الرجل ظل متورماً لبضعة أيام، إلاّ أن قرويين آخرين عزوا ذلك الانتفاخ إلى وجع في أسنانه.

مهما كان السبب، فقد كان هناك اتفاق عام على نقطتين اثنتين هما: أولاً، أن الأب لم يضرب ابنه رداً على ضربه له، بل انسحب إلى غرفة نومه وقد تملكه الخجل؛ وثانياً، أنه منذ تلك اللحظة، جفّت كلماته التي كانت دائماً قليلة ومتباعدة إلاّ عندما ينطلق من فمه سيل اللعنات في الليل، وتوقّف كلياً عن الكلام. ومع ازدياد المسافة بين لسانه وبين الكلمات التي اعتاد على قولها، أصبح أكثر هدوءاً، ولم يعد يحتسي الكحول، أو أنه أصبح، على الأقل، يشرب بشكل مقبول. وقال الناس إنه عندما أصبح جون الصامت، تحوّل إلى أفضل ما في نفسه،، لطيفاً،

كريماً، شريفاً، رقيقاً، وأصبح من الواضح أن اللغة نفسها هي مشكلته، فقد سممتّه اللغة وأضرّت بإنسانيته النبيلة المتأصلة فيه، وبعد أن أقلع عن الكلمات كما يقلع البعض عن تدخين السجائر، أو عن ممارسة العادة السرية، أصبح أخيراً ما كان يجب أن يكون: رجلاً طيباً.

وبدأ جيرانه الذين لاحظوا التغيير الذي طرأ عليه، يجربّون ألاّ ينطقوا الكلمات، ومما لا شك فيه، أنه كلّما قلّ كلامهم، ازدادوا بهجة وتحسّنت طباعهم. إن الفكرة بأن اللغة هي عدوى يجب أن يتبرأ منها الجنس البشري، وبأن الكلام هو مصدر جميع الخلافات والأخطاء وانحلال الشخصية وفسادها، وليس كما يقول الكثيرون غالباً بأنها أديم الحريّة، بل مشتل العنف، انتشرت بسرعة كبيرة بين الأكواخ المتناثرة في قرية حاء ومُنع الأطفال عن الترنم بالأغاني في الملاعب، وثُبّط المسنّون عن تذكّر المآثر القديمة وروايتها وهم جالسون في مقاعدهم المعتادة تحت الأشجار في ساحة القرية الرئيسية. وظهر انقسام تعمّق كثيراً في القرية التي كانت تعيش في وئام في الماضي، وتوطّد، بحسب الصامتين حديثاً، بواسطة معلّمة القرية الشابة الجديدة، إيفون التي ألصقت لافتات في كل مكان تحذّر فيها من أن عدم الكلام، لا الكلام نفسه، هو المرض الحقيقي. فقد كتبت 'قد يخيّل إليك أنه اختيار، لكنك سرعان ما تصبح عاجزاً عن التكلم حتى لو أردت أن تتكلم، بينما نستطيع نحن المتكلمين فعلاً أن نختار بأن نتكلّم أو أن نغلق أفواهنا.' في البداية غضب الناس من تلك المعلّمة، تلك المرأة الجميلة، الثرثارة، التي لها العادة المزعجة بأن تميل رأسها إلى اليسار عندما تتكلّم، وأراد هؤلاء المناضلون إغلاق المدرسة، لكنهم سرعان ما اكتشفوا بأنّها كانت على حقّ. فلم يعد باستطاعتهم إصدار أيّ نوع من الأصوات، حتى لو أرادوا، حتى لو أرادوا أن يحذّروا حبيباً بأن يتفادى

شاحنة قادمة نحوه. فتحوّل غضب القرية من إيفون المعلّمة، وتركّز على جون الصامت الذي أدى قراره إلى فرض صمت مطبق على القرية لم يعد باستطاعتهم التخلي عنه. وتجمّع القرويون، وهم خرس، لا ينبسون ببنت شفة، خارج كور الحداد، ولم يوقفهم إلاّ خوفهم من قوّته الجسدية الهائلة وحذوات حصانه الحارة»؛

ـ وهنا قاطعه عمر العيّار، لماذا، فهذه القصّة تشبه قصة الموسيقار كاستربردج والواعظ يوسف العفريت، فكلّ واحد منهما يتّهم الآخر بأنه السبب في انتشار الوباء، لذلك فقد يكون هذا نوع جديد من المرض، مرض يمنع الإنس من معرفة متى يكونون مرضى ومتى يكونون في صحة جيدة،

ـ لكن أميرة الجنيات وجدت قصّتها مخفية داخل هذه القصص الأخرى. فقد كانت تفكّر بأبيها الذي أصيب بهذه المحنة، بقصّتهما المزعجة، الأكثر إزعاجاً من قصّة الحداد وزوجته أو الموسيقار والواعظ، وبالمصادفة فقد انسكبت أفكارها من فمها، وقالت لم يحبّني قط. كنت أحبّ أبي إلى درجة العبادة لكني كنت أعرف أنّني لم أكن ذلك الابن الذي كان يريده. كانت ميولي تتجّه نحو الفلسفة، ولو تمكّنت من شق طريقي لبنيت لنفسي مكتبة حياة، وتهت بسعادة في متاهة اللغة والأفكار، لكنّه كان يريد محارباً، فأصبحت محارباً من أجله: أميرة البرق التي حمت دفاعاتها جبل قاف من الظلام. إن الجان الأسود لا يخيفونني. وعندما كنّا صغاراً، كنت ألعب مع جميع هؤلاء، زمرد وزابارداست وروبي المشرق ورعيم في تلك الأيام، قبل أن يبدأ بشرب الدم. كنا نلعب في الأزقّة الخلفيّة في أرض الجان لعبة كبادي والبلاطات السبع ولم يكن بإمكان أحد منهم مجاراتي لأنني كنت أريد أن أصبح الفتاة الفتى الخارق، الابنة التي أراد والدها أن تكون صبياً.

وعندما كان يتناول الطعام، كان الإحباط يحترق في عينيه ويخثّر الحليب.

عندما أخبرته بأنني أدرس فنّ الصواعق أطلق زفيراً، وأوضح بأنه يفضّل أن أكون مبارزة ماهرة بالسيف على أن أكون ساحرة. وعندما أصبحت أجيد المبارزة بالسيف، اشتكى بأنه يحتاج في شيخوخته إلى رجل دولة يسانده ليتفاوض في المسائل السياسة المعقّدة المتعلقة بيريستان. وعندما أصبحتُ ضليعة في قانون الجان قال كم كنت أتمنى لو كان عندي ابن يرافقني إلى الصيد. وفي النهاية أصبح إحباطه بي خذلاني به ولم يعد أحدنا قريباً من الآخر. لكن بالرغم من كلّ ذلك، ومع أنني لم أعترف بذلك، فقد كان الشخص الوحيد في العالمَيْن الذي أردتُ أن أسعده. ولفترة من الزمن، تركته في العالم الآخر الذي أطلقت فيه السلالة التي أصبحت قدري. وعندما عدت إلى قاف وأُوصدت الأبواب بين العالمَيْن ومضت القرون الإنسيّة، ازداد ابتعاده عني، وتجاوزت مشاعره الرفض، ووصلت إلى درجة عدم الثقة، وقال لي لم تعودي تعرفين من هم شعبك، وعندما تكونين في بيريستان فإنك تشتاقين إلى العالم الذي فقدتيه والذي يوجد فيه أطفالك من الإنس. كانت تلك الكلمات، أطفالك من الإنس، مثقلة بكراهيته، وكلما تحمّلت ثقل انتقاده أكثر، تمنّيت بقوة أن أعود وألتحق بتلك العائلة الدنيوية التي أطلق عليها ابن رشد اسم دنيا زاد.

وصاحت، أنا من أمضى عصوراً طويلة في العمل لبناء آلة لا هدف لها، أو ذات هدف بعيد المنال، كالمجد الذي لن يتحقق، والآلة هي حياتي، والهدف الذي لا تستطيع أي آلة أن تحققه هو مجد حبّ أبي الآسر. أنا، لا الحداد أو المعلّمة أو الفيلسوف، التي أخفقت في تعلّم الفرق بين المرض والصحة، بين الوباء والعلاج. وفي خضم حزني،

أقنعت نفسي بأنّ ازدراء أبي لابنته هو الحالة الطبيعية، الحالة الصحّية، وأن طبيعتي الأنثوية هي الوباء. لكننا نحن أمام الحقيقة، فهو المريض وأنا التي أنعم بصحة جيدة. ما هو السمّ الذي يسري في جسده؟ قد يكون هو ذاته.

أخذت تنشج الآن، فضمها جيرونيمو الحدائقي إليه، محاولاً أن يقدّم لها ما يمكنه أن يقدّمه لها من راحة إنسيّة هزيلة لحبيبته التي لا تنتمي إلى الإنس، ووجد نفسه في خضم اضطراب وجودي عميق.

ماذا يعني أنه ارتفع في الهواء ثم هبط برفق كما حدث له، خارج إرادته ـ هل يعني ذلك أن الأرض قد نبذته، ثمّ قبلته مرة أخرى بشكل غامض ـ وأنه وجد نفسه هنا في عالم لا يجد معنى له، معنى بأن يكون شيئاً بناه إنسيّ من الألفة، من أنقاض الأشياء التي يعرفونها، مثل أحاجي الصور التي تكون فيها قطع كثيرة مفقودة. إن المعنى هو الإطار الذي وضعه الإنس حول فوضى إعطائه شكلاً؛ وها هو في عالم لا يستطيع أي إطار أن يحتويه، يتعلّق بامرأة غريبة من وراء الطبيعة كانت قد اتخذت لفترة من الزمن هيئة زوجته المرحومة، وها هو يتمسك بها كما تفعل الآن، تضمّه، منجذبة إليه لأنه يشبه فيلسوفاً مات منذ أمد بعيد، يتمنّى كلّ منهما أنّ يتمكّن شخص بديل، أجنبي، أن يعانقهما، أن يدعهما يعتقدان بأن العالم يسير على ما يرام، هذا العالم أو ذلك العالم أو ببساطة العالم الذي فيه كائنان حيّان يضمّ أحدهما الآخر ويردّدان الكلمات السحرية.

أحبّك، قال السّيد جيرونيمو.

أحبّك أيضاً، أجابت أميرة البرق،

ـ وفي داخل حزنها على أبيها الذي يستحيل إرضاؤه، الملك المتوج

بتاج سمورغ الذي استغله خلال فترة ملكه إلى حدّ أنه كان على ابنته أن تخاطبه بجلالة الملك، الملك الذي نسي كيف يحبّ، وضعت ذكريات حبّها الأول، أو على الأقل الفتيان الأوائل الذين أحبّوها، والذين لم يكونوا، آنذاك من الجان الأسود الذين يُخشى جانبهم وأعداء أبيها القتلة. في تلك الأيام، كان زاباراداست يتمتع بالجدية الرائعة التي يتمتع بها طفل ساحر، يسحب بأكثر الوجوه تجهماً، الأرانب غير المحتملة ـ أرانب مجنونة خرافية وأرانب العنقاء التي لا وجود لها في الطبيعة ـ من عدة قبعات مضحكة. زابارادست بتمتماته التي لم تكن تتوقف، ودعاباته، وابتسامته العريضة السهلة، الابتسامة التي أحبّتها أكثر من أي شيء آخر. أما زمرد شاه الذي كان على عكس زاباراداست المفتول العضلات، المعقود اللسان الذي يهمهم دائماً فيجعله كلامه البذيء حادّ الطابع، أجمل من الاثنين، لا ريب في ذلك، عملاق أخرس رائع مهووس بنوع من البراءة الفظّة، إذا كان ذلك هو الشيء الذي يعجبك.

كانا مغرمين بها بجنون. وبالطبع، فإن ذلك يحدث في عالم الجان أقل بكثير مما يحدث في عالم الإنس على الأرض، لأن الجان يكرهون الزواج الأحادي، لكنّهما، بالرغم من ذلك، فقد كانا يتنافسان على كسب ودّها، فأحضر لها زمرد جواهر عملاقة من كنوز المجوهرات العمالقة (فهو يتحدر من أغنى سلالات الجان، بناة القصور والقنوات وشرفات المراقبة والحدائق ذات المصاطب التي جعلت بيريستان تبدو كما هي عليه الآن)، أما زاباراداست، تقني السحر، فنان السحر، فقد كان أيضاً مهرّجاً يضحكها كثيراً عندما يكون رائق المزاج، ولم تعد تتذكّر، فلعلها ضاجعتهما كليهما، لكنها لو كانت قد فعلت ذلك، فإن ذلك لم يترك في نفسها أي انطباع، وبدأت تحوّل اهتمامها من الذين يتودّدون إليها في عالم الجان والذين لا يناسبونها إلى أطياف رجال أكثر

مأساوية. وعندما هجرتهما وكسرت مثلث غرامهما بها، وتركتهما وشأنهما، بدأ زمرد وزاباراداست يتغيّران. وشيئاً فشيئاً، أصبح زاباراداست شخصية أكثر تجهماً وأشدّ برودة. كانت تعتقد أنه أكثر من أحبّها، فأحسّت بخسارتها. ولدهشتها، فقد زحف شيء من الحقد إلى طباعه، شيء مفعم بالمرارة والإحباط. أما زمرد، فعلى العكس من ذلك، فقد تابع حياته وابتعد عن الحبّ واتجّه نحو الأمور المتعلقة بالرجولة. وعندما طالت لحيته بدأ اهتمامه بالنساء والجواهر يخفت، وأصبح مهووساً بالقوّة. فأصبح الزعيم، وصار زاباراداست التابع، لكن بالرغم من ذلك فقد ظل زاباراداست هو المفكّر الأكثر عمقاً، لأنه يصعب عليه أن يكون ضحلاً، فظلاّ صديقين حتى نشبت حرب العالميْن، فافترقا مرة أخرى.

زمرد وزاباراداست وآسمان بيري، أميرة البرق: إلى متى استمر غرامهم؟ إن الجان لا يحسنون حساب الزمن. ففي عالم الجان فإن الزمن لا يمضي بقدر ما يبقى منه. والإنس وحدهم سجناء الساعات، وزمنهم قصير على نحو ممض. الإنس هم ظلال سحابة، تتحرّك بسرعة، تدفعها الريح، لذلك، لم يصدّق زاباراداست وزمرد عندما اتخذت دنيا في البدء اسم دنيا وبالإضافة إلى الاسم، اتخذت عشيقاً من الإنس، ولم يكن شاباً أيضاً، وهو الفيلسوف ابن رشد. اقتربا منها معاً، للمرّة الأخيرة، لمصلحتها. قال زاباراداست: «إذا كان الفكر هو الذي يثيرك، فيجب أن أذكّرك بأنه لا يوجد في بيريستان كلها عالم في فنون السحر أفضل مني». فأجابته، «وهل السحر فرع من الأخلاق؟ هل للخدع السحرية علاقة بالعقل؟» فقال زاباراداست: «كلامك صحيح وخاطئ في الوقت نفسه. إن الاهتمام بالعقلانيين هو مأساة بشرية، مثل البراغيث على الكلاب، أما الجان فإنهم يفعلون ما يحلو لهم ولا

يكترثون بسخافات الخير والشر. إن الكون لا يتسم بالعقلانية، كما يدرك جميع الجان». ثم أولته ظهرها إلى الأبد فغمرته المرارة التي كانت تنمو في داخله مثل فيضان. ثم قال زمرد ساخراً «إنك تدركين جيداً بأن حبيبك الأنسي، فيلسوفك، حكيمك الأحمق سيموت قريباً جداً، أما أنا فإني سأعيش، إن لم يكن إلى الأبد، فإلى امتداد الزمن الثاني». فأجابته، «إنك تقول ذلك كما لو كان شيئاً جيداً، لكن سنة واحدة في حياة ابن رشد تساوي دهراً منك بالنسبة لي».

ثم أصبحا عدوين لها، وبسبب الإهانة لأنها رفضتهما وفضلت عليهما إنسيّا عاش مثل ذبابة أيار يوماً واحداً، ثمّ تلاشى إلى أبد الآبدين، أصبحت لديهما أسباب جديدة لكراهية الجنس البشري، وبينما كانت تتذكّر أيام شبابها، وجد السّيد جيرونيمو طريقه داخل قصّة حبّها في شبابها إلى ذاكرة حبّه الحقيقي، إيلا إلفينبين، حبيبته الجميلة الثرثارة، اللطيفة، الفخورة بجسدها التي كانت تحبّ والدها بنتو أكثر مما كانت تحبّه، كما كان يقول لنفسه أحياناً. فقد كانت تنادي بنتو إلفينبين خمس مرات في الساعة كلّ يوم حتى آخر أيامه، وفي كلّ مناداة له كانت تردد *أحبّك* ومرحباً *وإلى اللقاء*. وبعد موت بنتو، بدأت تفعل الشيء نفسه مع جيرونيمو وتقول له أنت كلّ شيء في حياتي، عندئذ وليس حتى آنذاك. فمن السخافة أن يغار من حبّ ابنة لأبيها الذكي، الخليع، المحتال بعض الشيء، صاحب ابتسامة مهرج تشبه ابتسامة شرير سعيد يستطيع أن يتذاكى دائماً على الوطواط، لكني لم أكن أستطيع احتمال ذلك أحياناً، اعترف السّيد جيرونيمو لنفسه، ولم يستطع حتى الآن احتمال ذلك، إلى أن وجدت طريقة تموت فيها كما مات بنتو، وجدت طريقها إلى صاعقة مثله تماماً.

وماذا أفعل الآن، تساءل، فأنا أضمّ بين ذراعيّ مخلوقاً غيبياً، الجنّية

ملكة الصواعق، صاحبة القوّة وتجسيد القوّة التي قتلت حبيبتي، وها أنا أدمدم كلمات الحبّ في أذنها، كما لو أنني أسمح لنفسي بأن أحبّ قاتلة زوجتي، وأهمس لها أحبّك كما لو كنت أقول مرحباً وإلى اللقاء في أذن الملكة التي دمرّت إيلا، وعلام يدّل ذلك، ما الذي يعنيه ذلك، من أنا. وبالمناسبة، لا توجد لديها شحمة أذن مثلي. مخلوقة قديمة من المخيّلة تقول إنها سَلَفي البعيد، تمالك أعصابك، قال لنفسه، لقد تهت في الوهم، ومع أن قدميك لامستا الأرض ثانية، فقد أصبح رأسك بعيداً الآن، بعيداً في الغيوم. لكن حتى عندما كان يلوم نفسه، أحسّ بإيلا تتلاشى، أحسّ بها تنزلق نحو العدم، وأصبح الجسد الدافئ الذي يضمه بين ذراعيه حقيقياً بصلابة أشدّ، حتى لو كان يعرف أنّه مخلوق من دخان.

أدرك أنه ليس على ما يرام. فقد أخذ قلبه يخفق بقوة في صدره، وجعله الهواء الأقل كثافة في جبل قاف يشعر بدوار. ظنّ أنه أصيب بالصداع الذي يصاب به المرء في المناطق المرتفعة. اتجهت أفكاره إلى مهنته التي خسرها، التي أحسّ بأنها مثل نفس تائهة، وإلى لا إنكورينزا البديعة حتى هبّت العاصفة، وتذكّر أعمال الحفر، والتعشيب، وبذر البذور، وتشذيب الأسيجة، ومعركته مع جرذان الأرض التي كانت تلتهم النباتات الوردية، وانتصاره على الطفيليات التي تصيب الأشجار، وبناء المجازات والمتاهات في الحديقة حجرة فوق حجرة، والعرق الكثيف على حاجبه، والألم اللذيذ في عضلاته، وأيام العمل الجيدة تحت الشمس وتحت المطر، وفي الصقيع، صيفاً شتاء، والحرارة فوق الحرارة، والثلج فوق الثلج، الألف هكتار وهكتار، والنهر الفائض، والتلّة حيث ترقد زوجته تحت عشبها المتموّج. كان يريد أن يعيد عقارب الساعة إلى زمن البراءة ذاك، قبل أن تحطم الصواعق والغرابة العالم، وفهم أن ما يمرضه هو الحنين.

لقد حنّ إلى بيته الذي ضاع في غياهب الزمان والمكان. لقد انسلخ البيت عنه أيضاً الآن، ويحتاج الآن إلى إصلاح. ياسمين زرقا وسيستر أليبي، وأوليفير أولدكاسل والسّيدة فيلوسوفر الذين تُركوا معلقين يطوفون في بئر الدرج في بناية *بغداد*، في الرسوم المعلّقة، ويجب أن تبدأ الصورة بالتحرّك ثانية. كان يرعى اثنين من هؤلاء الأربعة، وكان اثنان منهم أعداء له، لكن أربعتهم يستحقون العلاج، يجب إنقاذهم، كما حدث للمدينة، للبلد، ولعالم الرجال برمته. إن أرض الجان هذه المشيّدة من قصور مقوّسة تحميها صفائح البرق، خرافة الجان العاشقين هذه، والملوك الذين يموتون، والصناديق السحرية التي تحكي قصصهم والتي هي في قبضة جواسيس مراوغين. إن هذه الأرض لا تلائمه. إنه مواطن يعيش في العالم السفلي وقد سئم المرتفعات الخرافية.

أما نحن فإننا نلتفت إلى الوراء وننظر إليه، ونراه من مسافة عظيمة، قابعاً هناك في لوحة ساكنة فيها ثلاث هيئات، تائهة في الخيال: ويصعب علينا أيضاً أن نراه بوضوح هناك في وسط أبراج قصور تجلّلها غيوم رائعة. ونحن بحاجة إليه أيضاً لكي يعود إلى الأرض، هو وحبيبته الجديدة، بالرغم من أنها جنيّة. قصّة حبّهما، وهي كذلك، حتى لفترة قصيرة فقط، قصّة حبّهما، لا معنى لنا هنا في الأسفل فقط. أما هناك، فوق، فهي بهجة واهية كالحلم. قصّة حبّهما الحقيقية، القصّة التي لها معنى ووزن بالنسبة لنا، تأتي مغلّفة في حرب. لأن أماكننا في المستقبل أيضاً، في ذلك الوقت الماضي، جُعلت غريبة، ونحن نعرف، نحن الذين نأتي بعدهم ونفكّر بأنّنا لا يمكن أن نكون من نحن أو نقود الحيوات التي نحياها إذا لم يقع هذان الاثنان ويعودان إلى الأرض لتعود الأمور إلى طبيعتها، أو كما يمكن أن تكون الأمور، إذا كان زماننا حقاً صحيح، كما نقول إنه هكذا، وإذا لم يكن مجرد نوع مختلف من الخطأ.

وفي هذا الوقت، كان الصندوق الصيني قد بدأ يتقشّر بجنون، ومع تساقط كلّ قشرة، حكى صوت جديد حكاية جديدة، ولم تنته أي من الحكايات لأن الصندوق كان يجد قصّة جديدة في داخل كلّ قصة لم تنته، حتى بدا أنّ الاستطراد هو المبدأ الصحيح للكون، وأن الموضوع الحقيقي الوحيد هو الطريقة التي يظل فيها الموضوع يتغيّر، وكيف يمكن لأي أحد أن يعيش في حالة من الجنون بما أن شيئاً لا يبقى على حاله لمدة خمس دقائق ولا توجد هناك قصة تصل إلى خاتمتها أبداً، قد لا يكون هناك معنى في بيئة كهذه، العبثية فقط، اللا معنى هو النوع الوحيد للمعنى الذي يمكن أن يتشبث به أحد. لذلك، في لحظة نسمع حكاية المدينة التي لم يعد سكانها يؤمنون بالمال، وتحوّلوا مباشرة إلى الإيمان بالله وبالبلد لأن تلك القصص بدت معقولة، أما قصاصات الورق والبطاقات البلاستيكية هذه فمن الواضح أن لا قيمة لها؛ وفي اللحظة التالية تبدأ في داخل تلك القصّة (لكنها لا تنته) قصّة السّيد إكس الذي استيقظ ذات يوم وبدأ، لا لسبب محدد على الإطلاق، يتحدّث بلغة جديدة لا يفهمها أحد، وبدأت اللغة تغيّر شخصيته، فقد كان دائماً شخصاً متجهّماً، لكن كلما أصبحت كلماته مفهومة أقل، ازداد فصاحة وذرابة لسان، وأصبح يومئ ويضحك، فيحبّه الناس أكثر مما كانوا يحبّونه عندما كانوا ينصتون إلى ما يقوله، وعندما يكتسب مزيداً من الاهتمام والإثارة، تتقشّر طبقة أخرى وتتغيّر القصّة مرة أخرى،

ونحن، نتذكر، نرى في عيون عقولنا اللوحة التي لم تعد متجمّدة، سرب من الببغاوات ينطلق من شرفة القصر عند حافة الباحة الرخامية، عبير الزنابق البيضاء في النسيم الذي يرفرف ثياب الأميرة، ومن مكان بعيد، يتناهى صوت ناي خشبي عذب حزين. نراها تبتعد عن السّيد

جيرونيمو وتشير إلى الصندوق الصيني وهو يتدحرج على منضدته، ثم يسقط على الأرض فتضع يديها على أذنيها، ويسقط عمر الجاسوس أيضاً، جسده يرتجّ بتشنّجات قوية، بينما لا يسمع جيرونيمو مانيزيس شيئاً، ولا يشعر بشيء، ولا يرى إلاّ الجنّي والجنّية وهما يتشنّجان فوق بلاط القصر، وهنا في المكان، بحسب تواريخنا، الذي أظهر وجود العقل الذي يتمحور حوله المستقبل، مستقبلنا بالإضافة إلى مستقبله، خطف الصندوق الصيني وجرى به إلى الشرفة المطلة على منحدرات جبل قاف ورمى الشيء القاتل بكلّ ما أوتي من قوة في الهواء الفارغ في الأعلى.

بعد لحظة أفاقت دنيا وعمر وارتفعا عن الأرضية. شكراً لك، قالت للسّيد جيرونيمو. لقد أنقذت حياتنا ونحن ندين لك.

قد يتمسك الجان بالشكليات في لحظات كهذه. هذا ما درجوا عليه. فإذا قدّمت خدمة إلى جنّي أو إلى جنّية فإنه يدين، أو إنها تدين لك بخدمة مقابل ذلك. وفي هذه الأمور، حتى مع الأحبّة، فإن سلوك الجان ينطبق بما لا يدعو للشك. حتى أن دنيا وعمر انحنيا لجيرونيمو مانيزيس، لأنها البادرة الطقوسية اللائقة، لكن السجلات لا تذكر شيئاً حول هذا الموضوع. ولو كانا قد فعلا ذلك حقاً، لكان هو، لأنه من ذلك النوع الصامت القوي، قد شعر بالحرج من تصرفهما.

أعرف ما هي التعويذة الآن، قالت. لنذهب بسرعة لنرى أبي وسأحاول إبطالها.

ما إن غادرت الكلمات شفتيها حتى سمعا جلبة عالية.

في اللحظة الأخيرة من حياته فتح إله قاف عينيه وفي هذيانه الأخير طلب أن يرى كتاباً لم يُكتب قط، وبعد ذلك مباشرة بدأ يتلو محتوياته غير المرئية كما لو كان يقرأها بصوت عال. كانت قصة الخلاف الأخير بين الفيلسوفين الغزالي وابن رشد، الذي تجدد بعد فترة طويلة من موتهما بعد أن أحياها الجنّي زمرد وابنة شاهبال، الأميرة آسمان بيري، المعروفة كذلك باسم جنّية السماء ودنيا وأميرة البرق. زمرد، العملاق القوي الذي أيقظ الغزالي في قبره هو عدو شاهبال وبعيد المنال عنه، لكن معرفته بأن ابنته تدخّلت أيضاً في مسائل الحياة والموت التي عرفها من الكلمات المنبعثة من فمه بشكل سحري، جعلت الملك العجوز يطلق زئيراً وهو في لحظاته الأخيرة بعدم موافقته على ذلك. كانت الصرخة رهيبة إلى حدّ أن الستائر في مخدعه تهاوت من على الجدران، وظهر شقّ في الأرضية المكسوة بالرخام وجرى مثل أفعى تتلوّى من جانب سريره حتى قدميّ الأميرة وأخبرتها بأنّ النهاية قد أزفت. فطارت إلى أبيها على امتداد الشقّ بأسرع ما أمكنها، وتركت جيرونيمو مانديز خلفها في مكان بعيد، وعندما وصلت إلى المخدع الملكي صرخت التعويذة التي تبطل السحر بأعلى صوتها في أذن أبيها، لكن الأوان قد فات.

غادر سيّد جبل قاف بيريستان إلى الأبد، وصعد سمورغ من مكانه إلى عامود سرير الملك واشتعل لهباً. وخرّ الخدم في غرفة الموت ساجدين، الذين لم ير أحدهم موت جنّي من قبل، ناهيك عن موت ملكهم، واتخذّوا وضعية الحداد، ولاشك أنه حدث الكثير من تمزيق الثياب، واقتلاع الشعر، لكن بالرغم من انتباههم الحذر إلى ولولتهم وضربهم على صدورهم لم ينسوا أن يقولوا لملكتهم الجديدة بأن اكتشاف شاهبال إثمها هو الذي حطّم قلبه أخيراً. فقد أقامت روحاً من

القبر، وهو عمل يتجاوز الحدود المسموح بها في نشاط الجان، ومع ذلك، فقد أثبتت أنها جنّية تتمتع بقوّة نادرة وهائلة، وكان ذلك إثماً كبيراً أيضاً، وكانت معرفة إثمها الذي لا يغتفر القشّة الأخيرة التي أنهت حياة شاهبال. لذلك، فإن موته يقع على عاتقها إلى حد ما، أراد الخدم أن يعلموها، بينما كانوا بالطبع، ينحنون، يركعون، ويضغطون بجباههم على الأرض، ويقدّمون لملكتهم الجديدة كلّ الشرف الواجب، نعم، همهموا، ودليل مسؤوليتها هو الشقّ في الأرضية الذي اتجّه بسرعة كبيرة نحو قدميها الآثمتين.

دافع عنها عمر العيّار وأشار إلى مجازفتها بحياتها لاكتشاف طبيعة التعويذة السامّة التي وضعت في الصندوق الصيني واندفاعها بسرعة إلى جانب سرير الملك لإنقاذ حياته. وبالطبع فقد أجمع الكلّ على أنّ ما قامت به عمل بطولي، لكن عيونهم الماكرة وحركات أجسادهم المتشنجة، أظهرت عدم اقتناعهم، لأن الملك، بعد كل شيء، مات، لذلك فشلت، هذه هي الخلاصة، لقد فشلت في هذا أيضاً. وعندما انطلقت كلمة موت الملك من فراش الموت إلى دروب ومجازات جبل قاف، وعندما انتشرت فوق وأسفل منحدرات المملكة الجبلية، التصق همس إثمها بالخبر، وبالطبع، لم يجعل ذلك أحداً يشكّ قط بحقها في تولي العرش، لكن الهمسات لوّثتها، الهمسات التي تشبه الطين الصوتي، والطين يلتصق، كما هو حال الطين دائماً؛ وعندما احتشد رعاياها الذين أحبّوا والدها بقدر ما كانت تحبّه خارج أسوار القصر، تمكنت من سماع، بسمعها الجنّي القوي، الصوت ممزوجاً ببكاء وعويل شعبها، الصغير عدداً، لكنه الهامّ والمؤثر، يجب أن نعترف بذلك آسفين، بأصوات الاستهجان.

تمالكت نفسها. لم تضعف ولم تبك. وما أحسّت به حول لحظات

أبيها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة احتفظت به لنفسها ولم تظهره لأحد. ومن شرفة القصر خاطبت شعب قاف. كانت تقبض في راحتيْ يديها المكورتين رماد سمورغ، وعندما نفخته في الهواء باتجاه الحشد، تجمّع في شكل الطائر القدير، وانطلق عائداً إلى الحياة الرائعة. وبالطائر السحري الجاثم على كتفها وتاج سمورغ المتوّج على رأسها، نالت احترامهم، فتوقفت الهمهمات. وأقسمت لشعبها. لقد دخل الموت إلى بيريستان، وسيكون للموت موت، ولن يهدأ لها بال حتى تقضي على قتلة أبيها. زمرد شاه وأعوانه، زابارداست ورعيم شارب الدم وروبي المشرق. سيزولون إلى الأبد من كلا العالميْن. وهكذا ستنتهي حرب العالميْن وسيسود السلام في العالم العلوي والعالم السفلي.

هكذا أقسمت. ثمّ أطلقت صيحة عالية.

أحسّ جيرونيرنو مانيزيس بالصيحة كأنها ضربة مطرقة على رأسه فأغمي عليه في الحال. لقد مضت ألفيات عديدة منذ أن سمع أحد في كلا العالميْن صيحة جنّية السماء. كانت عالية جداً إلى حد أنها ملأت عالم الجان برمته بالصوت وتسلل أيضاً إلى العالم السفلي حيث سمعه زمرد وأتباعه الثلاثة وفهموا أنه إعلان حرب. لقد جاء الموت إلى عالم الجان وقبل أن تنتهي الحرب ستموت أعداد كبيرة من الجان.

عندما عادت إلى جانب سرير أبيها بعد فترة طويلة وجدت أن من المستحيل أن تغادره. جلست على الأرض بجانبه وتكلّمت. بعد أن استرّد جيرونيمو مانيزيس وعيه ظل الطنين في أذنيه، جلس على كرسي مطرّز بعيداً عنها قليلاً، وأغمض عينيه. ألمّ به أسوأ صداع في حياته. كان لا يزال يرتجف، لا يزال يترنّح، ثم فقد وعيه مرة أخرى، وغطّ في نوم عميق مليء بأحلام عن الموت والرعد. وبينما كان نائماً، أفضت

ابنة الملك الميت لأبيها بكلّ أفكارها السرّية، الأفكار التي لم يكن لديه وقت للاستماع إليها في أثناء حياته، وتكوّن لديها الانطباع بأنها جذبت انتباهه بالكامل لأول مرة. وذاب الخدم ووقف عمر العيّار عند مدخل غرفة الموت، وغطّ السّيد جيرونيمو في النوم. ولم تتوقف دنيا عن الكلام، كلمات مفعمة بالحبّ وبالغضب وبالندم. وعندما أفرغت ما يجيش في صدرها، أخبرت الملك الميت بخطتها لتنتقم له، فلم يحاول الملك الميت أن يثنيها عن ذلك، لا لأنه كان ميتاً فحسب، وإنما لأن الجان هم أيضاً كذلك، فهم لا يؤمنون بأن يديروا خدّهم الآخر، فإذا أخطأ أحد في حقّهم، فإنهم يأخذون حقهم بأنفسهم.

عرف زمرد وزاباراداست وأعوانهما بأنّ دنيا ستلاحقهم، وكانوا يتوقّعون هجومها عليهم حتى قبل أن تطلق صرختها. لكن ذلك لم يردعها عن أن تشنّ هجومها. فقد استهانوا بها لأنها أنثى، وكانت تعرف ذلك، لذلك كان عليها أن تلقّنهم درساً قاسياً، وقررت أن تلقّنهم درساً قاسياً. وكررت على مسامع أبيها بأنها ستنتقم له، حتى صدّقها أخيراً. في تلك اللحظة، تصرّف جسده كما تتصرّف أجساد الجان في تلك الحالات النادرة عند موتهم، فيفقدون هيئتهم الجسدية ويتصاعد اللهب في الهواء ويتلاشى. أصبح السرير فارغاً، لكنّها استطاعت رؤية الفراغ الذي خلّفه جسده فوق الملاءة التي كان يستلقي عليها، وكان نعلاه القديمان الأثيرين لديه لا يزالان على الأرض بجانب السرير، يقبعان هناك بترقب، كما لو أنه سيعود إلى الغرفة في أيّ لحظة، وينتعلهما.

(في الأيام التي أعقبت ذلك أخبرت دنيا السّيد جيرونيمو بأن والدها يظهر لها في أحيان كثيرة، في فترات الفجوة التي تعادل فترة نوم الجان، وفي أثناء ظهوره هذا، لم يكن يتوانى عن السؤال عنها، ويبدى اهتماماً بكلّ ما تفعله. كان رقيقاً في أسلوبه، ومحبّاً عندما يعانقها؛ باختصار، فقد تحسنّت علاقتها به بعد موته وأصبحت أقوى بكثير عمّا

كانت عليه في أثناء حياته. لا أزال أحتفظ به، قالت لجيرونيمو مانيزيس، ونسخته هذه أفضل من تلك التي كانت عندي من قبل).

عندما نهضت أخيراً، كانت مختلفة مرة أخرى، فلم تعد أميرة أو حتى ابنة، إنما ملكة مظلمة فظيعة مليئة بالغضب، لها عينان ذهبيتان، وسحب دخان تنبعث من رأسها بدلاً من الشعر. أدرك جيرونيمو مانيزيس الذي استيقظ وهو لا يزال جالساً على الكرسي ذي المسند، بأنّ هذا ما كانت تخبئه له حياته دائماً، عدم يقينية الوجود، حيرة التغيير ـ فقد غفا وهو في حقيقة واستيقظ في حقيقة أخرى. إن وهم عودة إيلا إلفينبين أغضبه وأبهجه كثيراً في آن معاً، وبدا أن الغوص نحو الإيمان بها سهل، لكن انتقاله إلى بيريستان قوّض ذلك على نحو قاتل، ووضع مرأى ملكة قاف الذي كُشف بجمال غاضب حداً لشبح إيلا. وطرأ تغيير على قلب دنيا أيضاً، جنّية السماء، ملكة البرق. فقد رأت ابن رشد يولد من جديد في جيرونيمو لكن الحقيقة هي أنها تركت الفيلسوف العجوز أخيراً، وأقرّت بأنّ الحبّ القديم استحال تراباً وأن تقمّصه، مع أنه كان ممتعاً، لم يستطع أن يضرم النار القديمة، ولو مؤقتاً. تعلّقت به لوهلة، أما الآن فلديها عمل هام يجب أن تنفذّه، وكانت تعرف جيداً كيف ستنفذّه.

أنت، قالت لجيرونيمو مانيزس، لا كما تخاطب حبيبة حبيبها، بل كما تخاطب أمّ متجبّرة، جدّة لها شعر ينبت من شامة قابعة على ذقنها، مثلاً، فرداً صغيراً في أسرتها. نعم. لنبدأ بك.

كان صبياً يرتدي الشورت يحرّك قدميه أمام جدّته ويجيبها بهمهمة موبّخة. لا أستطيع أن أسمعك، قالت. ارفع صوتك.

أنا جائع، قال. هل أستطيع أن آكل أولاً، من فضلك.

عندما بدأ المدّ بالانحسار

لا بد من إيراد بضع كلمات عنّا. إذ يصعب علينا ونحن ننظر إلى الوراء أن نضع أنفسنا مكان أسلافنا الذين يمثّل بالنسبة لهم وصول القوى المتحوّلة الراسخة والآلهة القادرة على تحويل هيئتها التي هبطت من السماء في خضم حياتهم العادية، صدمة مريعة في نسيج الواقع. أما في زماننا نحن، فإن نشاطاً كهذا يُعتبر أمراً عادياً. إن قدرتنا على التحكّم بالمورّث البشري وفرّت لنا قوى حربائية لم يعرفها أسلافنا. فإذا أردنا أن نغيّر نوع الجنس، حسناً إذاً، فإننا نفعل ذلك من خلال إجراء عملية بسيطة بواسطة معالجة الجينات. وإذا شعرنا بخطر أن نفقد أعصابنا، يمكننا استخدام الحشوات اللمسية المثبتّة في سواعدنا لتعديل مستويات السيروتونين فينا، فتغمرنا بالبهجة. وحتى لون بشرتنا لا يكون ثابتاً عند الولادة. فنعتمد ظلال اللون الذي نختاره. وإذا كنا من مشجعي كرة القدم المتحمسين، فإننا نقرّر أن نحصل على لون الفريق المفضّل لدينا، لباس منتخب الأرجنتين أو منتخب إيطاليا، ثمّ هيه، بريستو! فإننا نلوّن أجسامنا بخطوط زرقاء وبيضاء، أو حمراء وسوداء. وقد سألت فنانة برازيلية منذ فترة مواطنيها عن ألوان بشرتهم، وأخرجت أنابيب ألوان الطلاء لتمثيل كلّ ظلّ وكلّ لون يتم تسميته وفق ما يرغب به صاحب اللون، رجل أسود ضخم، لمبة نور، وما إلى ذلك. وسوف تنفذُ اليوم

أنابيب الألوان قبل أن تنفذ تنوعات وظلال الألوان؛ ويُرى ذلك على نطاق واسع، ونقبله جميعاً، بأنه شيء ممتاز.

هذه قصّة من ماضينا، منذ زمن سحيق، ونتجادل أحياناً هل ينبغي لنا أن نطلق عليها تاريخاً أم أسطورة. بعضنا يطلق عليها حكاية من نسج الخيال. لكننا نتفق حول هذا: فإن حكاية قصّة عن الماضي يعني أن حكاية قصّة عن الحاضر. ولحكاية مُخَيِّلَة، أي قصّة متخيّلة، هي أيضاً طريقة لحكاية قصّة عن الواقع. وإذا لم يكن هذا الكلام صحيحاً، فإن عمل ذلك سيكون عديم الجدوى، ونحاول في حياتنا اليومية أن نتفادى عدم الجدوى بقدر ما بوسعنا.

هذا هو السؤال الذي نطرحه على أنفسنا في الوقت الذي نستكشف فيه تاريخنا ونرويه: كيف وصلنا إلى هنا من هناك؟

ونورد هنا بضع كلمات أيضاً حول موضوع البرق. فبما أنها شكل من أشكال النيران السماوية، فقد اعتُبرت الصاعقة تاريخياً سلاح الآلهة الذكورية القويّة: *إندرا*، *وزيوس*، *وثور*. وكانت إحدى الآلهة الإناث القليلات التي استخدمت هذا السلاح القوي هي *أويا*، إلهة يوروبا، وهي ساحرة عظيمة تستطيع، عندما تكون متكدرة المزاج، وغالباً ما تكون متكدرة المزاج، أن تطلق الزوابع ونار السماء، ويُعتقد بأنها هي إلهة التغيير التي تُستدعى في الأوقات التي يجري فيها تغيير عظيم، فترات تحوّل العالم بسرعة من حال إلى حال. وكانت إلهة الأنهار أيضاً. ويدعى نهر النيجر في يوروبا *أودو ـ أويا*.

قد يكون، ويبدو لنا أنه من المحتمل، أنّ يكون لقصّة *أويا* أصل في تدخّل سابق في شؤون البشر ـ ربما قبل عدّة ألفيات ـ لجنّية السماء التي

تُعرف في قصتنا الحالية غالباً باسمها الأخير *دنيا*. وفي تلك الأزمنة القديمة، كان يُعتقد بأنه كان لدى *أويا* زوج، شانغو ملك العاصفة، لكنه اختفى عن الأنظار في النهاية. إذا كان لدى دنيا زوج ذات يوم، وإذا كان قد قُتل في معركة سابقة لم يدوّنها الجان، فمن الممكن تفسير غرامها بجيرونيمو المفجوع بهذه الطريقة أيضاً. هذه إحدى الفرضيات.

أما بالنسبة إلى سلطة دنيا على الماء والنار، فقد تكون موجودة، لكنّها ليست جزءاً من حكايتنا الآن، ولا تتوفر لدينا معلومات عنها. أما بالنسبة إلى السبب الذي جعلها مسؤولة جزئياً عن كلّ ما حدث للبشر على الأرض في أثناء زمن الغرابة، طغيان الجان وحرب العالميْن، فإننا سنوضح ذلك قبل نهاية قصتنا.

عندما شقّت التقاليد الأفريقية طريقها إلى العالم الجديد على متن سفن الرقيق، رافقتهم أويا في رحلتهم. فدخلت يانسا إلى مناسك الديانة الكاندومبليه في البرازيل، وأُدمجت صورتها مع صورة مادونا المسيحية السوداء، عذراء كانديلاريا في الديانة الأفريقية الكاريبية السانتيرية.

في جميع الأحوال، لم تكن دنيا، مثل أيّ جنّية، عذراء. فقد كانت الأم الولودة، الخصبة، لدنيا زاد. وكما أصبحنا نعرف تمام المعرفة الآن، فقد كانت لحفيداتها أيضاً موهبة إطلاق البرق، مع أنهن لم يكدن يعرفن ذلك حتى حلّت فترة الغرابة، وأصبح من الممكن التفكير بهذه الأشياء. وفي المعركة ضدّ الجان الأسود، أصبح هذا البرق سلاحاً حاسماً. ومن هنا، فإن تلك الصواعق الغريبة، كما اتهم فريق من الناس في أثناء الهلع الرهيب الذي حلّ في تلك الأيام، هي وراء ما أصبح يُعرف بالغرابة، أصبحت في الواقع الخطّ الأمامي البارز والأسطوري في النهاية لمقاومة عصابة زمرد من الجان الأسود عندما انطلق ليستعمر سكان الأرض، بل حتى ليستعبدهم.

ويجب قول بضع كلمات عن مشروع زمرد. فالغزو شيء جديد تماماً على الجان الذين لا يعتبرون الإمبراطورية شيئاً طبيعياً. فالجان متطفّلون، يحبّون التدخّل في شؤون الآخرين، فيرفعون هذا إلى الأعلى، ويلقون بذاك إلى الأسفل، ويسلبون مغارة مليئة بالكنز، أو يلقون مفكّاً سحرياً على أعمال رجل غني. ويحبّون كثيراً إلحاق الأذى والضرر وبثّ الفوضى. وتقليدياً فهم يفتقرون إلى مهارات الإدارة. لكن سيادة عصر الإرهاب لا يمكن أن يكون فعّالاً ببثّ الرعب فقط، لأن معظم أنظمة الاستبداد فاعلية تتصف بقدرتها الكبيرة على التنظيم. ولم تكن الكفاءة قط صفة تلائم زمرد العظيم، لأن بثّ الرعب في قلوب الناس هي اللعبة التي يتقنها. أما زاباراداست، الجني الساحر، فقد تبيّن أنه جني ذكي، لكنّه لم يكن مثالياً، وكذلك أتباعه الأدنى مرتبة، لذلك كانت خطّته الجديدة (لحسن الحظ) مليئة بالثغرات.

قبل أن يعودوا إلى العالم السفلي، فتحت دنيا الأبواب السرية في رأس السّيد جيرونيمو التي تفضي إلى طبيعة الجان المخفية في داخله. فإذا استطعت أن تعالج نفسك من وباء انعدام الوزن وأعدت نفسك إلى الأرض حتى دون أن تعرف حقيقة من أنت، قالت له، فتخيّل ما ستكون قادراً على عمله الآن. ثمّ وضعت شفتيها على صدغيه، الصدغ الأيسر أولاً، ثمّ الصدغ الأيمن، وهمست، «افتح». وعلى الفور كأن الكون نفسه قد فُتح وأصبحت تُرى أبعاد مكانية لم يكن يعرف أنها موجودة قط ويمكن استخدامها، كما لو أنّ حدود الممكن قد دُفعت إلى الخارج وأصبحت أمور كثيرة ممكنة لم تكن ممكنة من قبل.

أحسّ كما يجب أن يحسّ الطفل عندما يبدأ يتعلم لغة، عندما تتشكّل الكلمات الأولى وتنطلق من فمه، عندما ينطق عبارات، ثمّ جملاً. إن ملَكَة اللغة، عندما تكتمل، لا تتيح للمرء أن يعرب عن

أفكاره فحسب، بل تمكّنه من أن يشكّلها، فتصبح عملية التفكير ممكنة، وهكذا فإن اللغة التي فتحتها دنيا له وفيه وفرّت له أشكالاً من التعبير لم يكن قادراً من قبل على جلبها من سحابة اللا معرفة المختبئة فيها ولم يكن يراها. ورأى سهولة في أن يكون له تأثير على العالم الطبيعي، وتحريك الأشياء، أو تغيير اتجاهها، أو تسريعها، أو إيقافها عن الحركة. فإذا رمش بسرعة ثلاث مرات تكشفت نظم اتصالات الجان الاستثنائية أمام عين عقله، معقّدة كالدوائر المتشابكة في دماغ البشر، ويسهل تشغيلها مثل مكبّر صوت. ولكي ينتقل على الفور من أي مكان إلى أي مكان آخر، كان عليه أن يصفّق بيديه معاً، ولكي يحضر أشياء إلى الوجود ـ أطباق طعام، أسلحة، سيارات، سجائر ـ كان مجرد اختلاجة بسيطة من أنفه تكفي. وبدأ يفهم الزمن بطريقة جديدة، وها هي نفسه الإنسيّة، الملحاحة، الفانية التي تراقب الرمل وهو يفرغ في الساعة الرملية، على نقيض نفسه الجنّية الجديدة، اللا مبالية إزاء الزمن التي ترى تأريخ الأحداث مرض يصيب العقول الصغيرة. وأدرك قوانين التحوّل، المتعلقة بالعالم الخارجي أم بنفسه. وبدأ يحسّ في داخله ازدياد حبّ كلّ الأشياء البراقة، النجوم والمعادن الثمينة والأحجار الكريمة من شتى الأنواع والأصناف. وبدأ يفهم إغراء سراويل الحريم. وعرف أنه يقف الآن عند حدود واقع الجان، وأنه من الممكن، مع مرور الأيام، أن تظهر له أعاجيب من الفهم والإدراك والفصاحة لم تمنحه إياها اللغة بعد. «للكون عشرة أبعاد»، قال بجدية، فابتسمت دنيا ابتسامة عريضة، كما يبتسم أب عندما يرى طفله يتعلّم بسرعة وأجابته، «هذه إحدى الطرق التي يمكنك أن تنظر إليها».

أما بالنسبة إلى دنيا نفسها، فقد كان الوجود يضيق. فلدى الجان عقول متعددة المسارات وهم أفضل من يؤدي عدة مهام في وقت

واحد، لكن وعي دنيا كلّه كان مثبّتاً على هدف واحد فقط وهو القضاء على الذين قتلوا والدها. وبسبب موت أبيها، استسلمت إلى نسخة متطرّفة من بدعة أنتينومي، ومنحت نفسها قوى النعمة والتبرئة التي هي من اختصاص الآلهة عادة، وادّعت بأنه لا يوجد شيء أمرت فيه قبيلتها لتنفيذه في الحرب على الجان الأسود يمكن أن يُعتبر خاطئاً أو يخلو من الأخلاق لأنها باركت تلك الأعمال. وعيّنت جيرونيمو مانيزيس مساعداً لها في هذه الحرب، وبدأ يصبح، بشكل متزايد، روحها المحذّرة، الجدجد على كتفها الذي يسألها عن قناعاتها اليقينية المتهورة، لأنه شعر بالقلق من الاستبداد الذي بدأ يتملكّها، يدفعها إلى ذلك حزن لا يمكن وصفه، وهكذا أطلقت العنان لقوتها الهائلة.

«هيا»، أمرت السّيد جيرونيمو، «الاجتماع على وشك أن يبدأ».

لا يزال الكثير من الجدل يدور في صفوف العلماء حول الموضوع المتعلّق بالحجم الكليّ لسكان الجان، الذكور منهم والإناث، في بيريستان. فعلى جانب الجدال يقف أصحاب الفضيلة الذين ما فتئوا يؤكّدون، في المقام الأول، بأن عدد الجان والجنّيات ثابت، وفي المقام الثاني، فإن نوعهم عقيم ولا يمكنه التناسل والإنجاب، وفي المقام الثالث، فإن الذكور والإناث منهم مُنحوا الخلود لذلك فهم لا يموتون. وعلى الجانب الآخر من هذا الجدال، يقف من هم مثلنا، يتقبلّون المعلومات التي نقلها لنا أسلافنا حول قدرة الجنّيات، مثل أميرة البرق، لا على التناسل والإنجاب فحسب، بل عمل ذلك بأعداد كبيرة، وكذلك بالنسبة لموت الجان (حتى في الظروف الشديدة). إنّ تاريخ حرب العالميْن نفسه هو أفضل دليل لنا في هذا الأمر، كما سنرى، كما سنرى قريباً جداً.

ونتيجة لذلك، لا نستطيع قبول الفكرة التي تقول إن الأعداد الإجمالية للجنّيات والجان ثابتة طوال الوقت.

ويصرّ التقليديون على أن العدد نفسه يجب أن يكون العدد السحري، أي، ألف وواحد، أو ألف جنّي وجنّي، وألف جنّية وجنّية. هكذا ينبغي أن يكون الأمر، كما يقولون، لذلك يجب أن يكون الأمر هكذا. ومن جهتنا، يجب أن نقبل بأن العدد ليس ضخماً، وأن الأعداد التي يقترحها العلماء التقليديون قد تكون قريبة من الحقيقة، لكنّنا مستعدون لقبول بأنه لا توجد وسيلة تمكّننا من معرفة عدد الجان بدقة في أي فترة محددة من الزمن، لذلك، بغية تثبيت الأرقام اعتباطياً استناداً إلى نظرية التناسب، فإنه لا يزيد عن كونه خرافة. وفي جميع الأحوال، بالإضافة إلى الجان، كانت هناك، وربما لا تزال هناك أشكال أدنى من الحياة تعيش في أرض الجان، وأكثرهم عدداً هم *الآلهة الصغيرة*، على الرغم من وجود *البهووت* أو الأشباح. وفي حرب العالميْن، أُجبرت تلك الآلهة الصغيرة والأشباح على العمل في العالم السفلي وزحفت مع جيوش العفاريت الأربعة الكبار.

أما الجنيري، وهو اجتماع الجنّيات التاريخي الذي عقدته أميرة البرق اليتيمة في قاعة قاف الهائلة والذي ضمّ تقريباً جميع أرواح الإناث الموجودة، لذلك، فهو يعتبر أضخم تجمّع مدوّن في التاريخ. فقد انتشر النبأ الرهيب عن مقتل ملك جبل قاف بسرعة كبيرة في كافة أرجاء أرض الجان، فأحدث غضباً وتعاطفاً شديدين في صدور الجميع، وعندما أرسلت أميرة البرق اليتيمة رسالتها، لم يستجب إلى دعوتها سوى عدد قليل من الجنّيات.

وعندما خاطبت دنيا المجتمعات ودعت إلى مقاطعة ممارسة الجنس

بشكل فوري وشامل لمعاقبة الجان الأسود لأنهم قتلوا شهبال، وإرغامهم على وقف حملتهم غير الملائمة لغزو العالم السفلي في الأرض. لكن تعاطف الحاضرات على فقدانها لأبيها لم يكن كافياً ليحول دون إعراب الكثير من الجنّيات المتجمّعات عن استنكارهن بشدة. فقد أعربت صديقة طفولتها سيلا، أميرة السهل، عن الشعور العام بالرعب، وصاحت، «إذا لم نمارس الجنس اثنتي عشرة مرة على الأقل في اليوم يا عزيزتي، فمن الأفضل أن نصبح راهبات. لقد كنتِ دائماً أكثرنا اطلاعاً ومعرفة»، ثم أضافت، «وبصراحة شديدة، مثل الإنس أحياناً، فأنا أحبّك يا عزيزتي، لكن صحيح، فمن الممكن أن تتخلي عن ممارسة الجنس بسهولة أكثر منّا، وتعوضي عن ذلك بقراءة كتاب، أما نحن، يا عزيزتي، فإن هذا ما يفعله معظمنا».

سُمعت همهمة متمرّدة بالقبول. فقد أثارت أميرة ثانية، ليلى الليلية، الإشاعة القديمة القائلة بأنه إذا توقف الجان والجنيات عن ممارسة الجنس لفترة من الزمن، فإن عالم الجان كلّه سينهار، وسيسقط، وسيفنى جميع سكّانه. «لا يوجد دخان من دون نار، ولا نار من دون دخان»، قالت، مستشهدة بمثل قديم سائد لدى الجان، «فإذا لم يتحّد الاثنان، فإن اللهب سيموت حتماً». عندها أطلقت ابنة عمها فيتالا، أميرة اللهب، صوت ولولة مخيف ومرعب. فقالت دنيا: «لقد فقد زمرد وعصابته صوابهم وخانوا كلّ قواعد السلوك اللائق، ليس بين الجان والإنس فحسب، بل بين الجان والجان أيضاً»، ثم أضافت، «لقد مات أبي. فلماذا تتخيّلن أن مملكتكن، وآباءكن، وأزواجكن، وأبناءكن، وأنتن أنفسكن ـ في مأمن؟» فتوقفت ملكات وأميرات السهل والماء والسحب والحدائق والليل واللهب عن التذمر من إحساسهن بالشبق، وبدأن هن وحاشيتهن أيضاً يولين انتباههن.

وكما نعرف، فإن رفض جميع الجنّيات من سكان أرض الجان ممارسة الجنس مع الجان الأسود لإركاع زمرد العظيم وأعوانه، أتى بنتائج عكسية على نحو غريب ـ غريب، أي أن السيّدات الجنّيات اللاتي نفذّنه، اللاتي امتنعن وتمنعن، مع أن ذلك كان صعباً عليهن بنفس الصعوبة التي يواجهها أيّ مدمن، فقد ظهرت أعراض الانكفاء، والشعور بالتوتر والنزق والرعشة والأرق، لأن اتحاد الدخان والنار مطلب وجودي لكلا الجنسين من الجان. «إذا استمرّ الأمر هكذا لمدة طويلة»، قالت سيلا البائسة لدنيا، «فإن أرض الجان كلّها ستنهار وستتحطم حول آذاننا».

عندما ننظر إلى هذه الأحداث، فإننا نراها من زاوية المعرفة التي اكتسبناها بمشقة، ونفهم بأنّ ممارسة العنف الشديد، المعروف بالعبارة التي يرددها الجميع وغالباً المصطلح غير الدقيق «الإرهاب»، ينطوي دائماً على جاذبية معيّنة بالنسبة للذكور الذين هم عذارى أو أنهم غير قادرين على إيجاد شريك جنسي. فقد وجد إحباط تغيير العقول، والضرر الذي يصيب الأنا الذكورية الذي يرافقه، متنفساً له في ممارسة الغضب وشن الهجمات على الآخرين. فما أن أتيحت للشبان المنعزلين اليائسين، شريكات محبّات، أو متلّهفات على الأقل، أو على أقل تقدير، شريكات يرغبن في ممارسة الجنس معهم، حتى فقدوا الاهتمام بأحزمة التفجير الانتحارية، وبالقنابل، وبعذراوات الجنّة، وأصبحوا يفضّلون أن يعيشوا. وفي غياب التسلية المفضّلة لكلّ جنّي، فقد حوّل الذكور من الإنس أفكارهم إلى لذّة الجماع. وبما أن الموت متاح بسهولة في كل مكان، فهو يشكّل في أحيان كثيرة البديل للجنس غير المتاح.

هذا ما يتعلق بالإنس. أما الجان الأسود فلم يفكّروا بالتضحية

بأنفسهم. ولم تكن استجابتهم لمقاطعة ممارسة الجنس استسلاماً لرغبات شريكاتهم الجنيات السابقات، بل تجلّت في ازدياد نشاطهم العنفي من النوع اللا جنسي. ونتيجة للغضب الذي تملّك رعيم شارب الدم وروبي المشرق لأنهما حُرما من المتعة الجسدية، فقد انطلقا إلى العالم السفلي في عملية وحشية لإخضاع سكانه بالقوة، وأظهروا انغماساً شديداً في الملذات في البداية مما أثار قلق حتى زمرد وزاباراداست. وبعد فترة من الزمن، صعدت نفس السحب الحمراء في عينيّ الجنّيين العظيمين، ودفع الإنس ثمن معاقبة الجنيات كبار العفاريت، فدخلت الحرب مرحلة جديدة. وحان الوقت لعودة دنيا وجيرونيمو مانيزيس إلى الأرض.

وجعلته دنيا يقسم يميناً مغلظة، مرآتها. «الآن بعد أن فتحت عينيك على طبيعتك الحقيقية ومنحتك قوّة عليها، فيجب أن تعدني بأن تحارب معي حتى يتحقق ما يجب أن يتحقق، وإلاّ فإننا سنموت في أثناء المحاولة». اشتعلت عيناها. كانت إرادتها أقوى من تقاوم، فأجاب: «نعم، أقسم».

فقبّلته على خدّه لتظهر استحسانها له، وقالت: «هناك فتى يجب أن تلتقي به. جيمي كابور الذي يُسمّى أيضاً ناتراج هيرو. إنه فتى شجاع، وهو ابن عمك. وبمناسبة الحديث عن أبناء العمومة، توجد أيضاً فتاة شريرة».

اسمها، تيريزا ساكا، ولا يمكن التعاون معها، فقد قتلت رجلاً فاستنفذت كلّ ميزة في اسمها. لقد قطعته إلى شطرين كما تُقطع قطعة بلاستيك ميتة وألقت به في حاوية النفايات. بصقته مثل علكة. اللعنة على اسمها. إنها هاربة واتخذت لنفسها أسماء عديدة، الأسماء المسجلة

على بطاقات الائتمان المسروقة وعلى الهويات المزورة التي تباع عند ناصية الشارع، الأسماء المدوّنة في السجلات الملطّخة ببقع في الفنادق الرخيصة التي يمضي فيها النزلاء ليلة واحدة. إنها لا تجيد ذلك، الحياة السفلية. إنها تريد الحصول على جميع أنواع الخدمات. ففي أيام عزّها، كان اليوم الذي يمرّ دون أن تغطس في حمام حار أو تمارس يوغا شالا يُعتبر يوماً ضائعاً في حياتها. لكن تلك الأيام ولّت، فاضطرت لأن تعتمد على ذكائها، اللعنة، وهكذا تركت الجامعة. ومن حسن حظها كان كلّ شيء في حالة فوضى، فلم تعد القوى المسؤولة عن إنفاذ القانون كما كانت من قبل، وأتاحت لها فوضى هذا الزمان أن تتسلل عبر الشقوق إلى أماكن بعيدة جداً، أو ربما نسيت، لأن انتباه الناس أصبح موجهاً إلى مكان آخر، فأصبحت في طي النسيان.

لذلك، تيريزا أو مرسيدس أو سيلفيا أو باتريشيا أو أي اسم كانت تستخدمه في ذلك المساء: تجلس وحيدة في حانة يرتادها مشجعو الرياضة تدعى «حانة بيجين فورج» في تينيسي، تصدّ الرجال المفتولي العضلات وشعرهم المحلوق على الطريقة العسكرية، يجرعون التاكيلا، ويشاهدون آخر أحداث القتل في المدارس على شاشة التلفاز الكبيرة المسطحة العالية الدقة. يا إلهي، دمدمت بصوت جعله الكحول يبدو غير دقيق، إنه عصر القتل، وأنت تعرف ماذا يعني ذلك بالنسبة لي. إنه عصر المسالخ، ويبدو أنك تشارك في ذلك أيضاً، أيها الإله الذي مهما كانت الأسماء التي تُطلق عليك. نعم أيها الربّ، فأنا أكلمك أنت. أنت بهذا الاسم، بذلك الاسم في هذا البلد أو ذاك البلد، كبير دائماً في أمور القتل، إنك لا ترى مانعاً في رؤية أناس يُقتلون من أجل رسالة نُشرت على الفيسبوك، أو لأنهم لم يُختنوا، أو لأنهم يقتلون الرجل الخطأ. لا توجد لديّ مشكلة في ذلك لأنني، احزر يا ربّ، فأنا قاتلة أيضاً. أنا الضئيلة. لقد قتلت بعض الأشخاص بيدي هاتين.

في تلك الأوقات عندما وجهت أصابع الشكّ إلى الذين نجوا من الصاعقة والذين تجمّع بعضهم خلسة هنا وهناك لينعوا قدرهم. جاءت إليهم لأنها تريد الاستماع إلى حكاياتهم، بأمل أن يكون أحد منهم مثلها، سادة الصواعق، لا مجرد ضحايا. عندما تكون شخصاً غريب الأطوار، فمن الجيد أن تعرف أنّك لست الوحيد. أما هنا، في مركز البهجة في الجبال الدخانية، فإن الناجين المتجمعين هم عبارة عن مجموعة من الأكياس الحزينة. تكدّسوا في غرفة صغيرة وراء الحانة، غرفة سيئة الإضاءة تقع في زقاق صغير قبالة المزلقة الرئيسية حيث كان السيّاح يفعلون ما يحبّ أن يفعله السيّاح عادة، ويتناولون الطعام الذي يتناوله السيّاح، ويقودون سيارات الألعاب المتصادمة السياحية، ويقفون لالتقاط صور سياحية مع صورة دولي بارتون، وينقّبون في منجم سياحي عن ذهب سياحي. أما الذين لديهم أذواق غوليّة أكثر، فهناك متحف التايتانك حيث يمكنك رؤية آلة كمان رئيس الفرقة الموسيقية الذي كان يعزف على متن السفينة، والاس هارتلي، ويستمتعون بتحية الأطفال المائة والثلاثة والثلاثين الذين غرقوا في السفينة، «أصغر الأبطال سناً». لقد انتهى كلّ ذلك الآن بعد أن تغيّر العالم، بعد أن أصبحت هناك تايتانيك في كل مكان، وبدأ الجميع يغرقون. وظلت حانة مشجعي الرياضة مفتوحة لأن الرجال يريدون أن يشربوا في الأوقات العصيبة، وهذا لا يتغيّر، ويعاد بث الألعاب على الشاشات فقط، وتلاشت جميع الأحرف الأولى للأسماء الشهيرة **MLB NBA NFL**. وراحت أشباحهم تتحرك على الشاشات الكبيرة بين نشرات الأخبار التي تذاع بين الحين والآخر، عندما يصبح بإمكان هذه الأخبار الوصول إلى شبكة الإنترنت بفضل أولئك الصحفيين الشجعان الذين ينقلون الأخبار من الميدان والذين يعرفون كيف يتصلون بالأقمار الصناعية.

انقسم الناجون من الصواعق إلى نوعين. ودار كلام كثير عن النوع الأول الذي تعرّض للصواعق أربع مرات، أما النوع الآخر فقد حقق الرقم القياسي بإصابته بسبع صواعق. وقال عدد كبير منهم بأنهم أحسّوا بالاضطراب، وانتابهم صداع، واعترتهم نوبات ذعر، وتعرّقوا كثيراً، ولم يغمض لهم جفن، وبدأت إحدى الساقين تتقلص على نحو غامض. وصاروا يبكون عندما لا يكون هناك ما يدعو إلى البكاء، ويدخلون عبر الأبواب، ويرتطمون بقطع الأثاث. وتذكّروا بأنّ الصاعقة قد أخرجتهم فعلياً من الأحذية التي ينتعلونها والثياب التي يرتدونها، وفجرّت أجسادهم، فعرّتهم وجعلتهم مذهولين. إن عدم ظهور بقع حروق على أجسادهم يعني بأن الآخرين يتهمونهم بأنهم كثيرو الشكوى والاحتجاج. وتحدّثوا بوجل عن الصواعق التي تأتي على حين غرة. واعتبرها الكثيرون تجربة دينية. فقد شهدوا بأمّ أعينهم ماذا يفعل الشيطان.

أما النوع الثاني فقد ظل صامتاً. لقد انتبذ هؤلاء الناجون الزوايا، وجلسوا وحدهم، وأوصدوا على عوالمهم السرية. لقد أرسلتهم الصاعقة إلى مكان بعيد، وإمّا أنهم لم يستطيعوا أو أنهم قرروا ألاّ يشاطروا الآخرين أسرارهم الخاصة. وعندما حاولت الآن تيريزا أو مرسيدس أو مهما كان اسمها أن تكلّمهم، فقد بدا الخوف على وجوههم وراحوا يبتعدون عنها أو يردّون عليها بعداوة شديدة مفاجئة، وبدأوا يكشّرون عن أنيابهم ويخمشون بأظافرهم كل من يسألهم.

لم يكن ذلك ينفعهم. فهم أناس ضعفاء ومحطّمون. انزوت بعيداً عن رواد الحانة وجرعت مشروب التاكيلا، وعندما اقتربت من قعر القنينة كلّمها صوت داخل رأسها، وخيّل إليها أنها ربما يجب أن تتوقّف عن تناول المزيد من الجرعات. كان صوت امرأة، هادئاً، موزوناً، واستطاعت أن تسمعه بوضوح شديد، مع أنّ أحداً لم يكلّمها. أنا أمّك،

قال الصوت، وقبل أن تتمكن من فتح فمها لتقول لها لا أنت لست أمّي، لأن أمّي لم تتصل بي قط، حتى في عيد ميلادي المنيك، ولم تتصل بي إلاّ بعد أن أصيبت بالسرطان، ثمّ ربما أكون قد تلقيت منها رسالة نصيّة منيوكة تطلب أن أساعدها في تسديد النفقات الطبية، وقبل أن تتمكن من قول ذلك، قال الصوت، لا، أنا لست تلك الأمّ، بل أنا أمّك منذ تسعمائة سنة، أكثر قليلاً أو أقل قليلاً، الأمّ التي أرست السحر في جسدك، والآن، عليك أن تستخدميه بشكل جيد. إن نوعية هذه التاكيلا جيدة، قالت بصوت مسموع بإعجاب، لكن تلك التي تدعى أمّها في رأسها لم يردعها شيء، فقالت سأُظهر لك نفسي عندما أصبح جاهزة، لكن إذا كان ذلك سيساعد على إثبات مصداقيتي، فإنني أستطيع أن أذكر لك الاسم والرقم الموجودين على بطاقتك المسروقة، ومكان صندوق الإيداع التعيس الذي تضعين فيه ما يسمّى أغراضك الثمينة والرقم السري. إذا أردتِ أن أفعل ذلك، فإني أستطيع أن أحكي قصّة ما قاله لك والدك عندما أخبرته بأنك ترغبين في دراسة اللغة الإنكليزية، فقد قال لك وماذا ستفعلين بذلك، اعملي مساعدة قانونية أو سكرتيرة، أو لعلك ترغبين في سماع كيف أخذتِ تلك السيارة الحمراء المستعملة القديمة المكشوفة التي سرقتها عندما كنتِ في السابعة عشرة من عمرك، وقدتها بأسرع ما يمكنك إلى الغرب والجنوب، من أفينتورا إلى فلامينغو غير عابئة إن عشتِ أم متّ. لا توجد لديك أسرار محجوبة عني، لكن لحسن الحظ فأنا أحبّك كابنتي مهما فعلِت، مع أنك قتلتِ ذاك الرجل المحترم، وهو أمر لم يعد له أهمية الآن لأن هناك حرباً وأريد أن تكوني جندية في جيشي بعد أن أثبتِ للتو بأنك تجيدين العمل الذي أريدك أن تنفذيه.

أتقصدين أنك لا تبالين إذا قتلتُ الناس، قالت تيريزا ساكا دون أن

تتكلّم. ماذا أفعل، سألت نفسها، إني أكلّم صوتاً في رأسي، إني أسمع أصواتاً الآن؟ من أنا، جان دارك؟ لقد شاهدت الفيلم على التلفاز. لقد أحرقوها.

لا، قال الصوت في رأسها. أنت لست قدّيسة ولا أنا كذلك.

هل تريدين أن أقتل أناساً، سألتها ثانية، بصمت، داخل رأسها، وهي تعرف أنها تجاوزت مرحلة السكر، إنه جنون.

ليس أناساً، قال الصوت. إننا نسعى إلى لعبة أكبر.

وجد السّيد جيرونيمو نفسه واقفاً مرة أخرى عند مدخل بناية *بغداد*، مسلّحاً بالمعرفة الجديدة بأنه حتى ذلك اليوم لم يكن يعرف شيئاً، لا عن العالم فحسب، وإنما عن نفسه أيضاً، ومكانه فيه. لكنه أصبح الآن يعرف شيئاً، لا كلّ شيء، لكنّها البداية. كان عليه أن يبدأ مرة أخرى وأصبح يعرف من أين يريد أن يبدأ، فطلب من دنيا أن تعيده إلى هذا المكان، ليجرّب أول علاج له. تركته هناك وذهبت لقضاء عملها، بعد أن أصبح قادراً على استخدام نظام اتصالات الجان، وأصبح بإمكانه أن يحدّد موقعها تماماً في أية لحظة على نظام تحديد المواقع الداخلي المميز للجان، لذلك لم يكن غيابها الجسدي هاماً. قرعَ الجرس وانتظر. ثمّ تذكّر أن المفتاح لا يزال معه. كان لا يزال يعمل، فدار في القفل كأنّ شيئا لم يكن، كما لو أنه لم يُطرد من هذا المكان لأنه جلب المرض المرعب.

كم أمضى في بيريستان؟ يوماً، يوماً ونصف؟ أما هنا في العالم السفلي، فقد مضت ثمانية عشر شهراً، أو ربما أكثر. طرأت تغييرات كثيرة خلال ثمانية عشر شهراً على الأرض، في عصر السرعة الذي بدأ

في بداية الألفية وما زال مستمراً حتى يومنا هذا. فقد أصبحت جميع قصصنا تُروى بسرعة أكبر الآن، فقد أدمنّا على السرعة، ونسينا متع التمهل القديم، التباطؤ، والتصفح، والروايات ذات المجلدات الثلاثة، والأفلام السينمائية التي مدتها أربع ساعات، والمسلسلات الدرامية ذات الثلاث عشرة حلقة، وملذات قضاء الوقت ببطء. افعل ما يجب أن تفعله، احك قصّتك، عش حياتك، اخرج بسرعة، أسرع. واقفاً على عتبة بيته في بناية *بغداد*، بدا أنه يرى سنة ونصف من مسقط رأسه أمام عينيه، وصرخات الرعب عندما تضاعف الفيضان، وعندما حدثت على امتداد الطرف المقابل الانهيارات وسُحق الناس بسبب تزايد قوة الجاذبية المحليّة، تماماً مثل القصّة في الصندوق الصيني، قال السّيد جيرونيمو لنفسه، وشنّ كبار العفاريت من على متن جرارهم الطائرة هجمات عشوائية على مجموعات من المواطنين. ها هم كبار العفاريت يقدمون الجوائز، صناديق ضخمة مليئة بالجواهر، لكل من يؤشّر بإصبعه إلى رجال أو نساء لا توجد لهم شحمة أذن. لقد أعلنت الأحكام العرفية وأدت خدمات الطوارئ عملاً باهراً، فوصل رجال الإطفاء بسلالمهم الطويلة إلى الأشخاص الذين يطوفون في الهواء، وحافظت الشرطة على مظاهر النظام في الشوارع، وساعدهم في ذلك الحرس الوطني.

وراحت العصابات المتدّينة تجوب شوارع المدينة بحثاً عن أناس ينحون باللائمة عليهم. واستهدف بعض هؤلاء الغوغاء رئيسة البلدية وأطلقوا على الطفلة التي تبنّتها، بيبي ستورم، والتي تكشف الصدق بشكل إعجازي، بأنها بذرة شيطان. وتجمّع حشد من المؤمنين الذين بدا لهم أن العداوة هي نظير الوفاء، من هاردي إلى لوريل، حول مسكن دار البلدية ـ يتدفقون إليه من ثلاثة اتجاهات: من محطّة المركب النهري، ومن جادة إيست إند ومن الطريق السريع FDR ـ ثمّ، وعلى

نحو مريع، تمكّنوا من اقتحام المبنى التاريخي واضرموا فيه النار. كان الهجوم الناجح على قصر غرايسي خبراً مهماً حتى في تلك الأوقات المضطربة التي غمرتها الفوضى، لأن المهاجمين الذين كانوا في الصفوف الأمامية والذين واجههم جنود أخذوا يطلقون عليهم نيراناً كثيفة من أسلحة هجومية ثقيلة، لكنهم لم يسقطوا حتّى عندما أُطلقت عليهم النار عدة مرات، في الرأس وفي الجذع، أو هكذا رُويت القصّة، وعلى الرغم من تدهور وسائل الاتصال، انتشرت القصّة بسرعة كبيرة. وأضاف تفصيل غير عادي لبعض الروايات بأنه تمت مهاجمة عدّة عربات، بما فيها شاحنة بائع سمك، وأنه عندما فُتحت أبواب الشاحنة الخلفية راح السمك الميت الملقى فوق قطع الجليد ـ ألباكور، والسوكي، والتشينوك، والكوهو والسلمون الوردي، والبولوك، والهدوك، والسول، والوايتينغ ـ يحدّق بعيون كابية في المتظاهرين الذين لُطخوا بالدماء، وبدأت عدّة سمكات، مع أنها ميتة تقهقه. إن قصّة المتعصّبين الطفيلين ذكّرت السّيد جيرونيمو على الفور بقصّة ياسمين زرقا الشعبية عن السمكة الضاحكة وفهم مرة أخرى بأنّ أموراً كثيرة كان يُعتقد بأنها رائعة، أصبحت تبدو الآن عادية جداً.

لم يكن يُعرف شيئاً عن الجنّي الطفيلي إلا بعد أن همست دنيا في أذنه وفتح عينيه على حقيقة ميراثه الجنّي. كان واحداً من كبار العفاريت، روبي المشرق، سيّد الجان الطفيليين، أفضل من يستحوذ على الأجساد لفترة من الزمن ثم يطلقها وهي على قيد الحياة، كما أظهر عندما تلبّس على نحو مدهش المموّل الثري دانيال آروني. أما الطفيليون الأقل مرتبة، فهم جنود مشاة يخدمون بقيادة الجنرال روبي. وفي حين كان بمقدرة روبي المشرق أن يعمل دون أن يحتل أي كائن حي، فقد كان أعوانه الطفيليون أقل قوة وأقل مهارة. فعندما يكونون على الأرض،

فإنهم يحتاجون إلى مضيفين ـ كلاب، أفاع، خفافيش تمص الدماء، وكائنات بشرية، يحطمون بيوتهم ثم يغادرونها.

كان من الواضح أن عصابة زمرد تشنّ حرباً على عدة جبهات، قال السّيد جيرونيمو لنفسه، ولن يكون إلحاق الهزيمة بهم سهلاً.

هربت رئيسة البلدية وابنتها الصغيرة بيبي ستورم من المبنى الذي التهمته النيران دون أن تصابا بأذى. ومرة أخرى، فإن القصص التي رُويت عن هروبهما تنحو إلى تفسيرات غيبية. واستناداً إلى هذه الرواية (لم تهبط علينا رواية أخرى أكثر منطقية) بأن أمّ بيبي ستورم جنّية لم تكن ترغب في أن تربي الطفلة ثمرة حبّها مع إنسيّ، فتركتها عند باب مسكن رئيسة البلدية، لكنها كانت تراقب طفلتها من بعيد عن كثب، وعندما رأت أن حياة طفلتها أصبحت مهدّدة، دخلت إلى القصر المحترق وألقت درعاً وقائياً حول روزا فاست وبيبي ستورم وأخرجتهما بأمان من البيت. لا توجد قصة أفضل من هذه. هذه هي القصّة التي لدينا.

يا لغدر التاريخ! نصف حقائق، جهل، مكر، تجارب كاذبة، أخطاء، وأكاذيب، وقد دفنت في مكان ما في خضم كلّ ذلك، الحقيقة التي من السهل فقدان الثقة بها، لذلك، يسهل القول عنها بأنها وهم، لا يوجد شيء كهذا، كلّ شيء نسبي، والإيمان المطلق لأحدهم هو قصّة خيالية بالنسبة لشخص آخر؛ إلاّ أن ما نصرّ عليه، فإننا نصرّ عليه بإصرار وتأكيد بأنها فكرة بالغة الأهمية لتقديمها إلى تجار النسبية. إن الحقيقة موجودة، وقد أُظهرت القوى السحرية التي تمتلكها بيبي ستورم في تلك الأيام، الدليل المرئي على ذلك. وفي ذاكرتها البراقة، فإننا نرفض السماح للحقيقة بأن تصبح «حقيقة». لعلنا لا نعرف ما هي، لكنّها موجودة. لا يمكننا أن نكون متيقنين كيف تمكّنت روزا فاست وبيبي

ستورم من الهرب من القصر البلدي المحترق، لكنّنا نستطيع أن نقبل مجالنا بعدم المعرفة ونتشبث بما هو معروف: لقد هربا. ثم توجهت رئيسة البلدية بعد أن قبلت توصية أجهزة الأمن إلى مكان سري وراحت تدير شؤون المدينة من موقع غير معروف. ذلك المكان مجهول، أما إدارتها البطولية فهي معروفة. لقد قادت المعركة ضدّ الفوضى التي أحدثها كبار العفاريت، وتحدّثت إلى مواطنيها في بث إذاعي طمأنتهم بأن كل شيء ممكن لمساعدتهم قد تحقق وسيتحقق المزيد قريباً. لقد أصبحت وجه المقاومة وصوتها، وأبقت إصبعها غير المرئي على نبض المدينة. هذا أمر معروف، أما الأمر غير المعروف فلا ينفي ذلك. هذه هي الطريقة العلمية. إن انفتاح المرء على حدود معرفته يزيد من ثقة العامةِ في ما يقول إنه شيء معروف.

كانت المدينة منطقة حرب، ثم انتقلت الحرب إلى بناية بغداد. رسوم غرافيتي على الجدران، كتابات فيها عبارات بذيئة، لطخات براز، مكان محطّم من الخارج ومن الداخل. كانت النوافذ مغطاة بألواح خشبية بعد أن تهشمت ألواح زجاج الكثير منها منذ فترة طويلة. دخل إلى البهو المعتم وأحسّ على الفور بمعدن يضغط على جانب رأسه وسمع صوتاً متهدجاً عالياً يهدّده بالقتل، إن هذا البيت محتلّ أيها المنيك، افتح قميصك، هيا افتح قميصك الملعون. كان عليه أن يريهم بأنه لا يضع حزاماً ناسفاً، وبأنه ليس انتحارياً طُلب إليه الدخول إلى هذا البيت ليفجّر المبنى، من أرسلك إلى هنا أيها المنيك، من أين أنت. من اللافت، قال لنفسه، أنه كان يتحرّك بطريقته المعتادة، لكن كان بإمكانه أن يجعل كلّ شيء من حوله يتحرك ببطء، ويمكنه أن يجعل صوت الرجل الذي يحمل البندقية ممطوطاً، يبدو في حركة صورة بطيئة، وباستطاعته أن يبطئ الأشياء أكثر إذا أراد، هكذا تماماً. أصبح الرجال الأشرار الآن في

عتمة البهو أشبه بتماثيل، وباستطاعته أن يمدّ يده إلى فوهة البندقية ويسدّها مثل لعبة بلاستيسين. كان ذلك أشبه بلعبة مسلية. يستطيع أن يفعل ذلك، وتحوّلت الآن جميع الأسلحة التي بحوزة المحتلين إلى جزر وخيار. أوه، بإمكانه أن يفعل ذلك. لقد أصبحوا الآن عراة. سمح لهم بأن يتحركوا بسرعة ـ أم أنه يتحرك ببطء ـ وغمرته السعادة عندما رأى تحوّلاً آخر، من أرباب عصابات إلى أطفال مذعورين. عندما تراجعوا عنه وهم يمسكون أعضاءهم التناسلية، كان لديه سؤال لهم: سيستر أليبي، وياسمين زرقا، هل يعني لكم هذان الاسمان شيئاً؟ أما الرجل الذي وجّه بندقيته إلى رأس جيرونيمو، وجّه الآن خنجراً إلى قلبه. الكلبتان اللتان تطوفان في الهواء؟ *المناطيد*؟ أبعد يديه عن عضوه، وبسط يديه، وقال: *كاباو*، يا رجل. أصبح الأمر فوضى. ماذا تقصد، سأله السّيد جيرونيمو، مع أنه يعرف ماذا يقصد ذلك الرجل. مثل *بيناتا* منيك، قال الرجل العاري .بووم. إنه صديق حقير.

لم يكن من المفروض أن يتجّه هذا الجزء من القصّة بهذا الاتجاه، بل كان من المفروض أن يعود إلى بيته بعد أن عاد من أرض الجان وهو يمتلك قوى خارقة لإنقاذ ياسمين وسيستر أليبي. كان من المفروض أن يطبّق المهارات التي اكتسبها حديثاً ويعيدهما بلطف إلى الأرض، ويستمع إلى شكاويهما، ويقبل اللوم، ويعتذر، ويعانقهما، ويعيد إليهما نهار حياتهما، وينقذهما من الجنون ويحتفل بخلاصهما كصديقتين. كان من المفروض أن تكون اللحظة عندما يبدأ الإحساس الجيد بالعودة إلى العالم، وهو بالإضافة إلى آخرين، سيجلب الإحساس. الجنون الذي أصاب العالم وتغوّل فيه. إنه زمن عودة سلامة العقل وقد أراد أن تبدأ العملية من هنا. بعد أن ماتتا ـ هل ماتتا جوعاً أم قُتلتا رمياً بالرصاص، بدافع التسلية أم بدافع الجنون، ربما بواسطة أولئك الأطفال العراة عندما

تملكّهم الجنون، ثم تُرك جسداهما يطوفان في بئر السلّم، وامتلأ جسداهما بغازات الموت، حتى درجة الانفجار، حتى أصبحت أحشاؤهما مثل مطر دبق ـ لكن لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق.

فتّش البيت الذي كان على وشك السقوط الآن. كانت هناك بقع دمّ على الجدران. ربما جاء بعضها من جسدي سيستر وياسمين اللذين تفجّرا. وفي إحدى الغرف رأى سلكاً كهربائياً عارياً لا يزال يرسل شرراً ويمكن أن يحدث حريقاً في أي وقت، وكانت جميع بالوعات المراحيض مسدودة تقريباً. وكانت جميع الكراسي تقريباً محطمّة، ورأى مفارش ممزّقة متناثرة فوق أرضية عدّة بيوت. أما شقّته فقد نهبت بالكامل. ولم يعد يمتلك الآن شيئاً سوى الثياب التي يرتديها. وفي الخارج، لم يتوقّع أن يجد شاحنته حيث تركها، لذلك لم يُفاجئ عندما لم يجدها. لم يكن يعنيه كل ما رآه. كان قد ترك بناية *بغداد* في قبضة قوة عاتية جديدة، غضب جعله يفهم غضب دنيا الشديد بعد مقتل أبيها. لقد أضحت الحرب مسألة شخصية بالنسبة له.

تشكّلت عبارة *إلى الموت* في رأسه، وأدرك، بشيء من المفاجأة، بأنّه يعنيها.

لم تكن هناك إمكانية لرؤية السّيدة فيلسوفة وأوليفير أولدكاسل في أي مكان. ربما كانا لا يزالان على قيد الحياة. لعلهما عادا إلى بيتهما. يجب أن يذهب إلى لا إنكورينزا فوراً. يجب أن يفعل ذلك قبل أي شيء آخر. لم يكن بحاجة إلى الشاحنة الصغيرة الخضراء، فقد أصبحت لديه وسيلة أخرى ينتقل بواسطتها.

رويداً رويداً بدأ يدرك ما آلت إليه حياته. كان يعرف أنّه ارتفع عن

الأرض. لقد واجه هذا الواقع وقبله. لم تكن العودة إلى الأرض بإرادته، ولم يكن ذلك متوقّعاً كما كان ارتفاعه عنها، وفهم أن ذلك كان نتيجة فتحة في داخل ذاته السرية لم يشكّ بوجودها من قبل قط. لكن ربما كان هناك أيضاً بعدٌ إنساني لهبوطه، تغلّبه على ما كان يظن غالباً بأنه خطأ، خطأه هو. في تلك الساعات المعلّقة الوحيدة واجه أكثر الأشياء قتامة في حياته، ألم الفراق عما كانت الحياة ذات يوم، معاناة الطريق المنبوذ، الطريق الذي نبذه. وبتقبّل جرحه الغائر، الذي كشفه لنفسه، أصبح أقوى من مأساته. لقد استعاد جاذبيته، ونزل إلى الأرض. وهكذا فقد أصبح المريض «صفر» مُصَدِراً، لا للمرض فقط، وإنما للعلاج أيضاً.

أحسّ كما لو أنه دخل إلى جلد آخر. أو كما لو أنه، الذي كان شخصاً آخر، قد أصبح الساكن الجديد لجسده الذي كان الآخر بالنسبة له. انسلّ العمر من أفكاره ومثل مجال واسع من الإمكانيات انتصبت أمام عينه الداخلية، مليئاً بالأزهار البيضاء، كلّ زهرة يمكن أن تُحدث معجزة. إن زهرة البروق البيضاء هي زهرة الحياة الأخرى لكنّه لم يشعر بأنه يعيش أكثر من الآن. وخطر له أيضاً بأن لعنة الارتفاع عن الأرض تشبه حالته الراهنة: بأنّ تأثيراتها المحليّة تجاوزت قوانين الطبيعة، فعلى سبيل المثال، هذه القدرة على التحرّك بسرعة كبيرة بينما يبدو العالم بأنه يراوح في مكانه، قوّة على الحركة النسبية التي لم يبدأ يفهمها، لكن كان يسهل استخدامها. لا يتعين على المرء أن يعرف أسرار محرّك الاحتراق الداخلي، قال مذكّراً نفسه، ليتمكّن من قيادة السيارة. وفهم أن هذا النوع من السحر المحليّ هو جوهر الجان. أما هو فإنه لا يزال من لحم ودم، وقد جعله ذلك بطيئاً بعض الشيء - فلم يستطع أن يجاري سرعة أميرة البرق - لكنّها أطلقت في جسده، أسرار الدخان والنار التي حملته بسرعة كبيرة.

وهكذا، بعد وهلة قصيرة من فضاء مشوّش وزمن مُغَيّر، وقف مرة أخرى فوق المرج الذي دمرته العاصفة في بيت لا إنكورينزا، وعرف الحدائقي في سريرته أن ثمة نصراً صغيراً واحداً، على الأقل، يمكن أن يحققه. وإذا كان ثمة قصّة واحدة من قصص الجان يعرفها الجميع، فهي حكاية جنّي المصباح الذي بنى لعلاء الدين قصراً فيه جنائن نضرة ليعيش فيها هو وحبيبته الأميرة الجميلة بدر البدور. ومع أن هذه الحكاية ربما كانت قصة فرنسية زائفة، فإن الحقيقة هي أن أيّ جنّي ذي اعتبار يستطيع أن يشيّد قصراً وحدائق جميلة في وقت أقل من الوقت الذي تستغرقه في أن تفرقع أصابعك أو أن تصفّق بيديك. أغمض السّيد جيرونيمو عينيه وبدا أمامه حقلِ مليءٌ بأزهار البروق البيضاء. عندما انحنى ليشمّ عبيرها الفواح برز أمامه قصر لا إنكورينزا بكامله في شكل مصغّر، كامل في كلّ تفصيل من تفاصيله كما كان قبل هبوب العاصفة العظيمة، ورأى نفسه عملاقاً يجثو لينفخ فيه نَفَس الحياة المتجدّدة، بينما راحت الأزهار البيضاء، العملاقة أيضاً بالمقارنة مع البيت والحدائق الصغيرة جداً، تلوّح بلطف في أرجاء المكان.

عندما فتح عينيه كان السحر قد سرى مفعوله. فقد عاد بيت لا إنكورينزا إلى سابق مجده، ولم يعد هناك أي أثر للطين وبقايا الحطام المنتشرة على جانب النهر، وتلاشى خراء الماضي المتيبّس وانتصبت ثانية الأشجار الضخمة التي اجتُثت من جذورها كما لو أنّ جذورها لم تخمش الهواء من قبل، أو يكسوها الطين الأسود، وعاد كلّ ما كان قد فعله منذ سنوات عديدة إلى ما كان عليه، الحجارة اللولبية، الحديقة الغارقة، الساعة الشمسية، الغابة الوردية، متاهة مينوان، زوايا السياج السرّية، المخفية، ومن الغابة الذهبية تناهى إليه صوت صرخة عظيمة تشي بالسعادة، أخبره بأن السّيدة فيلسوفة حيّة ترزق، وبدأ يكتشف أنّ

التشاؤم ليس الوسيلة الوحيدة التي يرى فيها المرء العالم، وأن الأشياء قد تتغيّر نحو الأفضل، وإلى الأسوأ أيضاً، وأن المعجزات قد حدثت.

كانا يعيشان مثل طيرين، ألكساندرا ومساعدها أولدكاسل، يرفرفان في البداية في غرف فارغة لكنهما عندما ارتفعا إلى الأعلى أكثر اضطرا إلى مغادرة البيت وراحا يطيران تحت غطاء الأشجار والنباتات؛ لكنّهما كانا طيرين يملكان نقوداً: فقد استمرت ألكساندرا فارينا تفعل كما كان يفعل والدها وهو أن تحتفظ بمبلغ زهيد من النقود في الباب السري المخفي وراء لوحة فلورينتين، النقود التي مكّنتها هي ومساعدها من مواصلة الحياة. فقد أمنّت لها النقود قدراً من الأمان، بالرغم من انتشار عمليات السطو والسرقة، فقد نُهبت بيوت كثيرة، ربما بواسطة رجال الأمن أنفسهم، لكن على الأقل لم تقع أعمال مورس فيها عنف جسدي أو جنسي في شهور الفوضى تلك عندما غابت سيادة القانون، لأن محيط القصر كان محروساً تقريباً ونادراً ما اخُترقت أسواره، والأهم من كل ذلك، فقد سُرقت بعض ممتلكاتهم لكنهما لم يُقتلا أو يُغتصبا، وسددت النقود التي بحوزتها ثمن الخدمات الطارئة لإجراء زيارات منتظمة وشراء المأكولات والمشروبات الطازجة وكلّ ما يحتاجان إليه من مواد. لقد ارتفعا الآن حوالي اثني عشر قدماً، وظلا يحصلان على ما يحتاجان إليه من خلال شبكة متقنة من الصناديق والسلال المدلاّة من أغصان ثخينة في الغابة، بناها عمّال محليّون سددا ثمن ذلك، بالطبع، نقداً. وأتاحت لهم الغابة إمكانية قضاء حاجتهما من دون أن يراهما أحد ومن دون خجل، ومرّت لحظات كان ذلك يبدو شيئاً ممتعاً.

لكن الحزن ازداد، ومع مضي الشهور، وجدت ألكساندرا بليس فارينا نفسها تأمل في انتهاء كلّ ذلك بسرعة، ومن دون ألم، إذا كان ذلك ممكناً. ولم تكن قد استخدمت بعد النقود التي بحوزتها لشراء

المواد التي يمكن أن تجعل أمنيتها تتحقّق، لكنّها كانت تفكّر بها كثيراً. وبدلاً من الموت، ها هو السّيد جيرونيمو والعالم المفقود قد استعيدا بمعجزة، وعاد الزمن، والأمل الممنوح ـ الأمل المفقود الذي لم يُكتشف ثانية، مثل خاتم ثمين ضاع منذ ثمانية عشر شهراً، ثم عُثر عليه في درج لم يُفتح منذ زمن بعيد ـ ربما كان ذلك كلّ ما يمكن أن يكون. الأمل. نادته بأمل غير محتمل في صوتها *.إننا هنا. هنا هنا نحن*. ثم، تكاد تتوسل، خائفة من أن تسمع رداً سلبياً يمكن أن يفجّر منطاد التفاؤل الصغير هذا، *هل تستطيع أن تُنزلنا إلى الأرض؟*

نعم، يستطيع، يمكنه أن يغمض عينيه ويتخيّل أطيافاً صغيرة جداً تهبط إلى المروج المستعادة للقصر الذي أُصلح من جديد، وها هي هناك، تركض نحوه، تعانقه، وها هو أوليفير أولدكاسل الذي كان قد هدّد بأن يقتله، يقف الآن، يحمل قبعته بيده، ويحني رأسه بامتنان، لا يبدي أي احتجاج، بينما راحت السّيدة فيلسوفة تغمر وجه السّيد جيرونيمو بالقبلات. شكراً جزيلاً، دمدم أولدكاسل: أكون ملعوناً إن كنت أعرف كيف فعلت ذلك، لكن بالرغم من ذلك، فإني ممتن لك كثيراً.

وهذا، كلّ هذا، صاحت ألكساندرا وهي تدور حول نفسها وتقول إنك عامل رائع يا جيرونيمو مانيزيس، هذا هو أنت.

لو كان قد استسلم للجنّية لكان قد ضاجعها على الفور، هناك، فوق العشب الذي تجدّد بطريقة سحرية وأوليفير أولدكاسل يراقبهما، ونعم، كان يشعر بالرغبة، لكنّه نذر نفسه لقضية، فهو في خدمة دنيا، الجنّية ملكة الجبل الجديدة، وأصرّ الجزء الإنسي فيه على أن يتذكّر القَسَم الذي أقسمه أمام الحياة، حياته، حياته الإنسيّة التي قد تتجدّد كما ينبغي، ويجب أن تغرس رايتها بانتصار في ساحة الوغى.

قال: يجب أن أذهب. كان تجّهم ألكساندرا بليس فارينا المحبط هو النقيض التام لابتسامة أوليفير أولدكاسل الواسعة المبتهجة.

في بلاد **ألف** البعيدة، عاش في سالف العصر والأوان ملك دمث يُعرف لدى رعاياه بأنه أب الأمة. وكانت له ميول تقدمية، فساعد على دخول بلاده إلى العصر الحديث، وأدخل إلى البلاد انتخابات حرّة، ودافع عن حقوق المرأة، وبنى جامعة. لم يكن ملكاً غنياً، ولكي يتدبّر أمور معيشته، سمح بأن يُستخدم نصف قصره كفندق، حيث كان يحتسي الشاي في أحيان كثيرة مع النزلاء. وأصبح محبوباً لدى الشبان في بلده وفي الغرب لأنه سمح بإنتاج الحشيش وبيعه بشكل قانوني، فأصبحت الدولة تراقب جودته وتضع عليه أختام الموافقة، ذهبياً وفضياً وبرونزياً، للدلالة على درجات نقائه وثمنه. كانت تلك سنوات جيدة، سنوات الملك، سنوات بريئة، ربما، لكن من المحزن أن صحته لم تعد على ما يرام، فقد بدأ ظهره يؤلمه وبصره يضعف. فسافر إلى إيطاليا لإجراء عملية. وبينما كان خارج البلد، أجرى رئيس وزرائه السابق عملية جراحية بنفسه، ففصل الملك عن رأس الدولة واستولى على المملكة. وفي العقود الثلاثة التالية، بينما كان الملك في المنفى، مقنعاً نفسه، كدأبه، بهوايات هادئة مثل لعب الشطرنج والغولف والعمل في الحديقة، اندلعت نار الجحيم في مملكته السابقة. ولم يستمر رئيس الوزراء طويلاً، وأعقبت ذلك فترة من الاقتتال بين العشائر، مما جعل أحد جيران **ألف** الأقوياء على الأقل يفكّر بأن البلد قد أينع وحان قطافه.

وهكذا أصبح هناك احتلال أجنبي. إنه خطأ يرتكبه الأجانب كثيراً ـ محاولة غزو أراضي **ألف** ـ لأنهم كانوا يغادرون البلد دائماً وهم يجرّون

ذيول الخيبة وراءهم، أو ترى جثثهم ملقاة في ساحة المعركة تقتات عليها الكلاب المسعورة التي لم تكن تستطيع اختيار ما تتناوله بدقة لذلك كانت مستعدة حتى لهضم هذا النوع من الطعام الأجنبي المقزز. لكن عندما تم التصدي للاحتلال الأجنبي فإن ما حلّ محله كان أسوأ، عصابة من سفاكي الدماء الجهلة الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «*المجدّون*»، كما لو كانت هذه الكلمة ستكسبهم منزلة العلماء الحقيقيين. والأمر الذي أمعن المجدّون في دراسته هو فنّ تحريم الأشياء، وخلال فترة قصيرة، حرّموا الرسم والنحت والموسيقى والمسرح والسينما والصحافة والحشيش والتصويت والانتخابات والفردانية والخلاف والمتعة والسعادة وطاولات لعب البلياردو وحلاقة الوجوه بالكامل (للرجال)، ووجوه النساء، وأجساد النساء، وتعليم النساء، وجميع أنواع الرياضات النسائية، وحقوق المرأة. وكانوا يرغبون في تحريم المرأة بقضّها وقضيضها، لكنهم رأوا أن ذلك أمراً غير عملي، فأقنعوا أنفسهم بأن يجعلوا حياة المرأة تعيسة بقدر ما يمكنهم. وعندما زار زمرد العظيم أرض **ألف** في أوائل أيام حرب العالميْن، رأى على الفور بأنها مكان مثالي لإقامة قاعدة. إنه تفصيل مثير للاهتمام ولا يعرفه كثيرون وهو أن زمرد العظيم كان من هواة قراءة روايات الخيال العلمي في عصرها الذهبي، وكان يستطيع أن يتناقش مع أصدقائه، هذا إذا كان لديه أصدقاء، أعمال أساطين هذا النوع من الروايات مثل سيماك، وبليش، وهيندرسن، وفان فوغت، وبوهل وكورنبلوث، وليم، وبيستر، وزكلازني، وكلارك، وسبراغ دي كامب. وكان من بين الأعمال الأثيرة لديه رواية إسحاق أزيموف الكلاسيكية التي صدرت في خمسينات القرن العشرين بعنوان «*المؤسسة*»، فقرّر أن يطلق على عمليته في بلاد **ألف** اسم هذه الرواية. «*المؤسسة*» التي أسسها وحكمها ـ أصلاً

بمساعدة زاباردااست، الساحر، لكن بعد خلافهما، أصبح يحكمها بنفسه ـ واكتسب بسرعة موطئ قدم في ألف من خلال الإجراء البسيط المتمثّل في شراء حكّام البلد الجدّد.

«لقد اشتريت البلد»، قال لأعوانه متفاخراً، «إنها لنا الآن».

لم يستغرق الأمر كثيراً. كانت الكهوف تحت الأرض التي توجد فيها جواهر زمرد العظيم معروفة في تراث الجان. ربما، ونرى أن هذا الأمر محتمل، بأن أحد تلك الكهوف على الأقل يقع عند المناطق الحدودية الشرقية الجبلية الشديدة الوعورة في ألف، في أماكن عميقة تحت الجبال، مخفيّة عن عيون الإنس بأبواب حجرية. وعندما عرّف زمرد نفسه على أعضاء قيادة *المجدّين* أصيبوا برهبة ووجل من ضخامة حجمه، وفقدوا رشدهم من الخوف لأنهم في حضرة جنّي مولود من نار ـ لكنّهم فقدوا صوابهم أيضاً عندما رأوا الطاسات الذهبية المحشوة بالماس والزمرد التي يحملها، عرضاً، كما لو أنهم لا يساوون شيئاً، يحمل طاسة في كلّ يد ضخمة. وسقطت من الطاسات قطع ألماس كوهينور أكثر ضخامة وتدحرجت على الأرض واستقرّت عند أقدام *المجدّين* المرتعشة. «يمكنكم أن تأخذوا ما يحلو لكم من هذه الحلي الرخيصة الصغيرة»، قال زمرد بصوته العملاق، «ويمكنكم أن تفعلوا ما تشاؤون بهذه الأرض البائسة، يمكنكم أن تمنعوا الريح، وهذا آخر همي، ويمكنكم أن تمنعوا الغيوم من أن تمطر أو الشمس من أن تشرق، هيا امضوا قدماً. أما من الآن فصاعداً فإن *المؤسسة* تمتلككم، أيها *المجدّون*، فمن الأفضل لكم أن تبذلوا كل ما بوسعكم كي تجعلوني سعيداً. وإذا لم تفعلوا ذلك، فقد تقع أمور سيئة، كهذا»، وفرقع أصابعه فاستحال أحد *المجدّين* الذي كان رجلاً نحيلاً، محني الظهر، أسنانه منخورة، ويمقت الموسيقى والرقص، على الفور، كومة

من الرماد المحترق. «هذا مجرد مثال»، همهم زمرد العظيم، ووضع طاسات الجواهر. وهذا ما كان.

عندما كانت دنيا والسّيد جيرونيمو غائبين في أرض الجان، أطلقت جماعة زمرد سلسلة «من هذه العروض»، ولو على نطاق أضخم، بهدف بثّ الروع في نفوس الإنس وإرغامهم على الخضوع والاستسلام صاغرين. نقول «جماعة زمرد»، لأنه، كما ذُكر آنفاً، فإن العفريت العظيم نفسه يتسم بدرجة عالية من الخمول الطبيعي، ويفضّل أن يقوم الآخرون بالأعمال القذرة بينما يستلقي تحت ظل شجرة، يشرب، ويتناول عناقيد العنب، ويشاهد أفلام بورنو على شاشة التلفزيون، وتقوم على خدمته خادماته الجنّيات. وكان قد أنزل جيشاً صغيراً من الجان الأدنى مرتبة من العالم العلوي ووجّههم في أحيان كثيرة للقيام بالأشياء التي يرغب في تنفيذها، فانطلقوا وراحوا يغتالون شخصيات بارزة، ويُغرقون سفناً، ويُسقطون طائرات، ويتدخّلون في عمليات أسواق البورصة على الكومبيوتر، ويلعنون بعض الناس بلعنة الارتفاع عن الأرض، وآخرين بلعنة السحق، ويستخدمون الجواهر التي يمتلكها بكميات كبيرة لرشوة الحكومات، ويجلبون بلداناً أخرى إلى دائرة نفوذه. ومن المؤكد فإن العدد الإجمالي للجنّ الأسود من ذوي المكانة العالية الذين نزلوا إلى العالم السفلي لا يتجاوز مائة جنّي، يضاف إليهم الجان من النوع الطفيلي الأدنى مرتبة من الجان أنفسهم. لذلك، ربما كان عددهم لا يتجاوز مئتي أو ثلاثمائة غازٍ على كوكب تقطنه سبعة بلايين روح. وفي ذروة الإمبراطورية البريطانية في الهند، لم يكن هناك أكثر من عشرين ألف بريطاني في تلك الأرض الشاسعة، يحكمون بنجاح أكثر من ثلاثمائة مليون هندي، لكن حتى ذلك الإنجاز الرائع لم يكن يساوي شيئاً بالمقارنة مع صعود الجان الأسود. ولم يكن لدى كبار

العفاريت أدنى شكّ بأن الجان هم أرفع مقاماً من الإنس في شتى السبل، وأن الإنس بالرغم من كلّ ادعاءاتهم بالحضارة والتقدّم فهم ليسوا أكثر من رماة سهام وقوس بدائيين، وأن أفضل شيء قد يحدث لهؤلاء البائسين هو إمضاء ألفية أو ألفيتين في أن يكونوا عبيداً لجنس متفوّق ويتعلّمون منهم. وذهب زابارداست إلى حدّ القول، بأن هذا هو العبء الذي حمله الجان الأسود على عاتقهم، وهو واجب صمّموا على تنفيذه.

ازداد احتقار كبار العفاريت لرعاياهم بنفس السهولة التي جنّدوا فيها الإنس لمساعدتهم في الحفاظ على إمبراطوريتهم الجديدة. «الطمع والخوف»، قال زمرد لزملائه القادة الثلاثة، الذين اجتمعوا، كعادتهم، فوق سحابة مظلمة تحيط بالأرض عند خط الاستواء يراقبون منها الإنس من تحتهم ويحكمونهم، «الخوف والطمع، هما الأداتان اللتان يمكن بواسطتهما السيطرة على تلك الحشرات بسهولة تكاد تكون هزلية». ملاحظة جعلت زابارداست الساحر يقهقه، لأنه من المعروف أن زمرد لا يمتلك شيئاً يشبه ولو قليلاً من الروح المرحة. فحدّق فيه زمرد بعدوانية ظاهرة. وبدأت هوة الشرخ بين العفريتين تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم. وأُصلح ذات البين بينهما، وأقاما هدنة، واتحدّا مرة أخرى، لكن المشاكل ظلت تعتمل بينهما. إذ يعرف أحدهما الآخر منذ زمن بعيد، وأوشكت صداقتهما على نهايتها.

لمع البرق في قلب السحابة. بذل رعيم شارب الدم وروبي المشرق كلّ ما بوسعهما ليغيّرا الموضوع. «ماذا عن الدين؟» سأل شارب الدم. «ماذا ينبغي لنا أن نفعل حيال ذلك؟ فقد بدأ المؤمنون يتكاثرون هناك بوتيرة أسرع مما كانت من قبل». لم يكن لدى روبي المشرق الذي يدّعي بأنه مالك الأرواح وقتاً يمضيه من أجل الله أو السماء. فقد كانت

أرض الجان جنة تكفيه ولا يوجد سبب يدعوه إلى الافتراض بوجود روض عاطر أفضل وأعلى من هذه. وأبدى ولعاً شبيهاً بولع *المجدّين* بالتحريم، قال، «يجب أن نحرّمها فوراً. إنها سيرك».

هذه الملاحظة جعلت زمرد العظيم وزابارداست الساحر يستشيطان غضباً. فراحا يئزّان عند الحافات مثل مائة بيضة تُقلى في مقلاة، وفهم روبي المشرق ورعيم شارب الدم أنّ تغيراً ما طرأ على هذين العفريتين العظيمين. «ما خطبكما؟» أراد شارب الدم أن يعرف، «منذ متى انضممتما إلى كتيبة الهالة؟»

«لا تكن أحمق»، أجابه زابارداست بمكر، «إننا على وشك أن نفرض عهداً من الإرهاب على الأرض، وهناك كلمة واحدة فقط تبرّر ذلك، ما دام الأمر يخص أولئك الهمج: كلمة هذا أو ذاك الإله. فباسم كيان مقدس يمكننا أن نفعل ما نشاء، وسيبتلعها معظم أولئك الحمقى مثل حبة مرّة».

«إذاً فهي خطة، حيلة»، قال روبي المشرق، «يمكنني أن أفهم ذلك».

انتصب زمرد واقفاً وقد استشاط غضباً. لكن غضب العملاق الضخم لم يكن يثير الخوف حتى في نفوس إخوانه الجان. وقال: «لن نسمح بمزيد من الكفر، فإذا لم تخف من كلمة الله، فإنك ستصبح من بين أعدائه».

كان ذلك بمثابة صدمة للثلاثة الآخرين. «حسن، إنك تغنّي أغنية جديدة»، قال شارب الدم، رافضاً أن يبدو أنه قد تأثر. «من علّمك هذا؟»

«لقد أمضيتَ كلّ حياتك في شرب الخمرة والقتل ولعب القمار

والنيك، وها أنت تقلع عن كلّ ذلك فجأة»، قال روبي المشرق، «لذلك، فإني أرى أن القداسة تجلس عليك بشكل غير مريح كما يجلس ذلك التاج الذهبي على رأسك الذي هو بالمناسبة صغير جداً عليك، لأنه صُنع لرأس إنسي، إذا كنت تتذكّر، الإنسيّ الذي فصلته أنت عن باقي جسده بلا داعٍ».

«إني أدرس الفلسفة»، همس العملاق، وقد تضرّج وجهه باللون الأحمر، محرجاً أكثر بقليل من اعترافه، «لم يفت الأوان أبداً للتعلّم».

كان تحوّل العملاق الشكّاك زمرد إلى جندي لاكتساب مزيد من القوّة آخر إنجازات فيلسوف طوس المتوفى. فالغزالي مخلوق من تراب والجنّي من نار، لكن المفكّر الراقد في قبره لا يزال يعرف حيلة أو حيلتين، أو بعبارة أخرى: عندما يتعرف كائن طوال حياته على الأعمال عن طريق سماع كلمات، فليس من الصعب أن يتقبل أيّ كلمات تصبّها في أذنيه. لقد جاء زمرد إليه. كان مستعدّاً لتلقي ما سيقوله الرجل المتوفى.

«لكلّ كائن يبدأ سبب لبدايته»، قال الغزالي، «والعالم كائن يبدأ؛ ولهذا السبب فهو يمتلك سبباً لبدايته».

«هذا لا يشمل الجان»، قال زمرد، «فنحن لسنا بحاجة إلى سبب.»

فقال الغزالي: «عندكم أمهات وآباء ولهذا بدأتم. ولهذا فأنتم أيضاً كائنات تبدأ. ولهذا فلا بد أن يكون لديكم سبب. إنها مسألة اللغة. عندما تصرّ اللغة، فلا نستطيع إلاّ أن نتبعها».

«اللغة»، كرّر زمرد ببطء.

«كلّ شيء يتلخص في كلمات»، قال الغزالي.

في لقائهما التالي سأل زمرد، المشوّش، «وماذا عن الله؟ ألم تكن له بداية أيضاً؟ وإذا كان الجواب لا، فمن أين أتى؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن أو ماذا كان سببه؟ ألا يجب أن يكون لله إله، وهكذا دواليك إلى الأبد؟»

«إنك لست غبياً كما تبدو»، قال الغزالي متنازلاً، «لكن يجب أن تفهم بأنّ تشويشك ينشأ، مرة أخرى، من مشكلة اللغة. إن كلمة *يبدأ* تفترض وجود زمن خطيّ. إن البشر والجان يعيشون في ذلك الزمن، فلدينا ولادة وحياة وموت، بداية ووسط ونهاية. أما الله فهو يعيش في نوع مختلف من الزمان».

«هل هناك أكثر من نوع واحد؟»

«إننا نعيش في ما يدعى بـ «زمن أن نصبح». إذ إننا نولد، ونصبح أنفسنا، وعندما يأتي «هادم الأيام» وينادي، فإننا لا نصبح، وكلّ ما يتبقى هو التراب. تراب ثرثار، في حالتي، لكنه يظل تراباً. أما زمن الله فهو أبدي: إنه زمن الكينونة. *الماضي والحاضر والمستقبل* توجد كلّها معاً بالنسبة له، ولذلك فإن هذه الكلمات، *الماضي والحاضر والمستقبل*، تفقد أي معنى. ليس للزمن الأبدي بداية أو نهاية. إنه ساكن، لا يتحرّك. لا شيء يبدأ. لا شيء ينتهي. ليس لله، في زمانه، نهاية مترِبة، ولا منتصف برّاق سمين، ولا بداية باكية. إنه هو كما هو».

«كما هو»، كرّر زمرد بارتياب.

«نعم»، قال الغزالي مؤكداً.

فاقترح زمرد، «إذاً فإن الله نوع من مسافر في الزمن، لأنه ينتقل من زمانه إلى زماننا، وبعمل ذلك، فإنه يمتلك قوة لامتناهية».

فقال الغزالي موافقاً: «إذا شئت ذلك، باستثناء أنه لا يصبح. إنه يظل هو. يجب أن تكون حذراً في كيفية استخدام التعابير».

«حسن» قال زمرد، مشوّشاً مرة أخرى.

«فكّر في الأمر»، حثّه الغزالي.

«هذا الإله، هو فقط »، قال زمرد للمرة الثالثة، بعد أن فكّر في الأمر، «إنه لا يحبّ أن يُجادل، صحيح؟»

«إنه جوهر، بعبارة أخرى، جوهر نقي، ولهذا السبب، فهو أيضاً لا *يقبل الجدل*»، قال الغزالي، «ومن المحتم فإن الرأي الثاني يتبع الرأي الأول. إن إنكار جوهره يعني أن ندعوه غير جوهري، أي يمكن مجادلته، وهو، بالتعريف، لا يقبل الجدال. لذلك فإن الجدال حول عدم *إمكانية مجادلته* هي إساءة واضحة لاستخدام اللغة، وكما قلت لك، يجب أن تكون حذراً في اختيار الكلمات التي تستخدمها وطريقة استخدامها. فقد تنفجر اللغة السيئة في وجهك».

«كالمتفجرات»، قال زمرد.

فقال الغزالي: «بل أسوأ، لذلك يجب عدم التسامح مع الكلمات الخاطئة».

فقال زمرد مفكّراً: «لديّ إحساس بأنّ هؤلاء البشر التعساء الذين يعيشون في العالم السفلي مشوشون من استخدام اللغة أكثر مني».

فقال الغزالي: «علّمهم، علّمهم أن اللسان الإلهي هو كما هو. يجب أن يكون التعليم مركّزاً، شديداً، حتى يمكن القول، مرعباً. تذكّر ما قلته لك عن الخوف. فالخوف قدر الإنسان. إذ يولد الإنسان وهو خائف، من الظلام، من المجهول، من الغرباء، من الفشل، ومن النساء. فالخوف يقوده إلى الإيمان، لا كعلاج للخوف، إنما كقبول بأن الخوف

من الله هو الأمر الطبيعي والسليم في قدر الإنسان. علّمهم أن يخافوا من استخدام الكلمات بشكل غير صحيح. لا توجد جريمة عند الله عز وجل أكثر من عدم المغفرة».

«يمكنني أن أفعل ذلك»، قال زمرد العظيم، «إنهم سيتكلّمون بطريقتي قريباً».

«ليست طريقتك أنت» صحّحه الغزالي، لكن بلطف. فعندما يتعامل المرء مع عفريت عظيم عليه أن يدع متنفساً لغروره الواسع.

«أفهم»، قال زمرد العظيم، «ارتح الآن. لم تعد هناك حاجة إلى مزيد من الكلمات».

هنا انتهى الدرس. وكما سيكتشف الغزالي قريباً، فإن إرسال أعتى أنواع الجان الأسود لممارسة العنف المتطرّف قد يؤدي إلى نتائج مفزعة لمن أرسلهم. لقد تفوق التلميذ على أستاذه بسرعة.

أيقظت دنيا ابن رشد في قبره للمرة الأخيرة، وقالت له: جئت لأودعك. فلن أعود لأراك بعد اليوم.

فسألها، من الذي أخذ مكاني في مشاعرك الحميمة؟ كان صوته مثقلاً بالسخرية. إن كومة التراب تعرف حدودها.

حدّثته عن الحرب. وقالت له إنّ العدو قوي.

فأجاب إنّ العدو غبي. وهذا سبب أساسي للأمل. لا توجد أصالة في المستبدين، وهم لا يتعلّمون شيئاً من موت نُذُرهم. سيكونون متوحشين وقامعين ويولدّون الكراهية ويحطّمون ما يحبّه البشر وهذا ما سيهزمهم. إن كلّ المعارك الهامة هي، في نهاية الأمر، صراعات بين

الكراهية والحبّ، ويجب أن نتمسّك بفكرة أن الحبّ أقوى من الكراهية.

فقالت: لا أعرف إن كان بإمكاني أن أفعل ذلك، لأنني أنا أيضاً أصبحت ممتلئة بالكراهية الآن. أنظر إلى عالم الجان وأرى أبي الميت هناك، نعم، لكن ما وراء ذلك، فإني أرى ضحالته: هوسه بالدمى البراقة، لا أخلاقيته، كراهيته الشديدة للبشر التي يجب أن أدعوها باسمها الصحيح، *العنصرية*. أرى الحقد النرجسي لدى العفاريت، وأعرف أنه يوجد فيّ قليل من ذلك أيضاً، فهناك دائماً ظلام بالإضافة إلى النور. لكني لا أرى أيّ نور في الجان الأسود الآن، لكنّي أشعر بالظلام في نفسي. إنه المكان الذي يأتي منه الحقد. لذلك فإني أسأل نفسي وكذلك عالمي، لكنّي أعرف أيضاً أن هذا ليس الوقت المناسب للمناقشات. إنها الحرب. في أوقات الحرب على المرء ألاّ يسأل، بل عليه أن يعمل. لذلك يجب أن تنتهي مناقشاتنا أيضاً، ويجب أن يتم ما يجب عمله.

فقال هذا خطاب حزين،. فكّري في الأمر مرة أخرى. إنك بحاجة إلى نصحي وإرشادي الآن.

فأجابته، إلى اللقاء.

أتهجرينني.

لقد هجرتني ذات يوم.

إذاً هذا هو انتقامك مني. أن تتركيني واعياً وعاجزاً في قبري حتى الأبد.

لا، قالت، بلطف. ليس انتقاماً، إنما وداع فقط. نم.

ناتراج هيرو يرقص رقصة الدمار. ابحث عن الجنّي في داخل نفسك، قالت له الفتاة المثيرة، الفتاة الجميلة الصغيرة النحيلة التي قالت إنها حفيدة ـ حفيدة ـ حفيدة ـ حفيدة ـ حفيدة حفيدة جدّته. لقد دُمِّر بيته ولم تعش أمّه طويلاً، أمّه التي كانت حتى الآن في الحياة المرأة الوحيدة التي أحبّها كثيراً. لقد قتلتها صدمة ليلة العملاق والبيت المحترق. دفنها ثم التصق بأريكة ابن عمه نورمال وبدأ يشتاق إليها أكثر في كلّ دقيقة من كلّ يوم. وابن عمه الذي أصبح يكرهه أكثر في كلّ دقيقة من كلّ يوم. عندما أتحكّم بعفريتي الداخلي، يا نورمال، قد تكون أول فتحة أفجرّها. فقط انتظر لترى.

لقد ذهب العالم برمته إلى الجحيم في عربة تُجرّ باليد، وهو جيمي كابور، يمضي لياليه بضرب المقابر، لأنه رجل مضحك، بصاعقة رُسمت على معبد *ماثا* مثل هاري بوتر. إنه يستخدم سانت مايكل في أحيان كثيرة، القابعة في الأذرع الممدودة لطريق كوينز ـ بروكلين السريع أو الطريق الذي يقول عنه «علامة النصر المنيوكة للطريق السريع بي كيو إي. شواهد القبور تلك التي تجثم فوقها ملائكة السيّدة العذراء مطرقة الرأس بوجوه حزينة تنظر إلى جثامين الموتى. لقد أصبح مختلفاً الآن، منذ أن همست جدّته الحارّة في جسده. في صدغيه أولاً، ثمّ في قلبه، ووضعت شفتيها على صدره وأعملت سحر هوغوارتس. افتحي رأسه بضربة قوية مثل ضربة كوبريك، ليندفع نحو مكان جميل ويرى خراء لم يحلم برؤيته قط، شبكة معرفة الجان وقدراتهم. إنه أمر مثير للغاية، اللعنة، لقد انفجر عقله فعلاً، لكن هيه، لم تجعله يفقد صوابه. احزر لماذا. أظن أن هذا العفريت الداخلي مستيقظ في داخله ويمكنه معالجة الأمر. لا بد أن هذا يبدو عندما يقول الناس، لديّ شعور بأنني شخص آخر، أو أنني أشعر بأنني شخص جديد.

لقد أضحى الآن شخصاً آخر لا يوجد لديه اسم آخر، اسمه هو فقط. وذلك الشخص الآخر هو هو.

في البداية كانت هناك الفتحة والعملاق الذي يدّعي بأنه أحد الشخصيات في الرسوم المتحركة فقط ليعبث برأسه، أما الآن فإن جدّته الحارّة تعبث برأسه فعلاً، وماذا تعرف فهو يبدو مثل البطل الخارق. الملك السحري الراقص .يمضي *وقتاً ممتعاً*.

وها هو الآن. يستطيع أن يتحرّك بسرعة كبيرة، يبطئ العالم، ويسرّع نفسه، هذا شيء مقرف. يمكنه أن يحوّل هذا إلى ذاك. حفنة من الحصى، هيا بسرعة، مجوهرات. غصن ساقط على الأرض عندما يعصره يتحوّل إلى كتلة من الذهب، من يحتاج إليك يا نورمال بأريكتك التي يعشش فيها القمل. فأنا غني. لكن ثم، جاء صوت دنيا في رأسه كأنها تسمع كلّ فكرة من أفكاره، إذا لم تركّز على البرق فإنك ستموت بعد فترة أقصر بكثير مما تظن. إنه يفكّر بأمّه وهذا ما يغضبه. هذا ما يجعل الغضب يعتمل فيه. دنيا تقول إنها تعدّ جيشاً. في مدن مختلفة. ينظر إلى داخل دماغه الجديد ويرى الشبكة تنتشر. يمدّ ذراعه فيتدفق العصير منها، وبوووم، الصاعقة، ووجه ملاك أقل حزناً. لا يستطيع أن يصدّق ذلك. إنه حلمه.

ترك أحدهم حبات اليقطين هناك في مكان الاستراحة الأخير ذاك، حسن، إنه يطلبها يا رجل. أنا آسف، بوووم. حساء اليقطين.

عندما دخل إليها، لم يكن يحمل البرق. كان تَحَوّلاً. لا بد أنه فجّر رؤوس بعض الملائكة الحجرية. لا بد أنه شيء يدعو للتسلية. إنه يمارس حقّه في حمل السلاح بموجب المادة الثانية من الدستور، مع أن الآباء المؤسسين، ربما لم يكونوا يقصدون *أسلحة حقيقية* ـ لكنه سرعان

ما اكتشف بأنه أفضل حالاً في هذا التحوّل الذي أصبحه. ليس من الضروري أن تكون مجوهرات، هذا هو الشيء الأساسي. لا حصاة فقط تتحوّل إلى ياقوتة. يجب الاعتراف بأنه جرّب قواه على الأشياء الحيّة. طيور، قطط ضالّة، كلاب جربانة، جرذان. حسن، لا يبالي أحد إذا حُوّلت الجرذان إلى روث جرذان أو إلى نقانق جرذان، أما الطيور والقطط والكلاب، فهناك أناس يهتمّون بها، بدءاً من أمّه المرحومة، مربية الطيور، لذلك، فأنا آسف أيها الناس، آسف يا أمّي.

وكان أفضل شيء هو عندما اكتشف بأنه يستطيع أن يحوّل أهدافه إلى أصوات مثلاً. يا إلهي. إنه يستطيع أن يحوّل طيراً إلى أصوات طيور، لا إلى طير آخر، بل إلى الأغنية المعلّقة هناك، ويستطيع أن يحوّل قطّة إلى مواء. في أحد الأيام تعلّم هذه الحيلة، وبدأ يتسلّى بها، فقطع رأس شاهدة قبر، ثم انطلق نوع من نشيج معلّق في ذلك المكان، نعم، بدأ يكتشف مسحة مريضة. ربما يوجد في داخل كلّ محاسب ضرائب بطل خارق للطبيعة مريض عقلياً يحاول أن يخرج، وهيه، قال لنفسه، وماذا عن *الألوان*، هل يمكنني أن أحوّل الصراصير أو الأعلام أو صندويشات البرغر مع الجبن إلى ألوان معلّقة في الفضاء فقط، وثم، نعم، تتلاشى. عليه أن يمارس ذلك على حيوانات أكبر حجماً. هل توجد خراف هنا؟ لن يفتقد أحد بضعة خراف، أليس كذلك؟ قد يكون من الممكن إعادة هذه التحويلات إلى أصلها، وفي هذه الحالة، هيه، لن يصاب أي خروف بأذى أثناء القيام بهذه القوّة الخارقة للطبيعة. لكن الخراف توجد في المزارع، إلا إذا كانت المزارع قد دُمّرت، وسرحت الحيوانات فيها طليقة، من يستطيع أن يوصله إلى المكان الذي يجب أن يكون فيه. لدى آسيا سيارة، وربما تعرف من أين تحصل على البنزين، رائع، آه ـ سي وليس آه ـ أيشا، السيدة الإيطالية، ليست فتاة سمراء،

راقصة، لا، قحبة، لا راقصة تعرّي، بل تنتمي إلى طبقة راقية، راقصة باليه، وربما ينتظرها رتل طويل من الرجال على امتداد ميل يحمل كل منهم في كلّ يد صفيحة بنزين كاملة. الآن، لو كان يمتلك تلك القوّة الخارقة المفيدة لتحدّث برقة إلى الفتيات.

بعد كلّ ذلك، تبيّن له أنه يمتلك الشجاعة. اتصل، ووجد بضع كلمات، وأخبر فتاة الباليه ما حدث له، كلّ شيء، الجدّة الحارة، ورحلة ستانلي كوبريك الفضائية إف إكس، والأعمال، لكنها لم تصدّقه ـ لكنها صدّقته بما يكفي لتذهب معه إلى المقبرة، فأراها. وعندما أراها ما فعله، بدا لها أن العرض الذي قدّمه لها *رائعاً حقاً*، تحوّلات الصوت وتغيير الألوان والبرق.

وفي سانت مايكل بالتحديد، بعد أن أظهر لها ما يستطيع أن يفعله، رقصت له. أوه نعم *.لذلك احزر ماذا*. فلم يكن يرافقه سائق يوصله إلى هدسون بحثاً عن الخراف. بل كانت لديه صديقة، صديقة. نعم.

وربما استمر ذلك لمدة سنة ونصف السنة. وفي أثناء الشهور الطويلة من إعادة اكتشاف الذات، من تعلّم المشي كجنّي قبل أن يستطيع أن يركض كجنّي، ثم يطير، خلال فترة الطفولة الثانية المعجّلة التي مر عبرها جيرونيمو مانيزيس أيضاً، أدرك جيمي كابور بأنّ جزءاً منه كان ينتظر ذلك، وأن هناك أناساً، هو أحدهم، يشتاقون إلى عالم الأحلام والخيال كي يصبحوا جزءاً من حياتهم اليقظة، يأملون لأنفسهم ويصدّقون أنفسهم بأنّهم قادرون على أن يصبحوا جزءاً من الأشياء الرائعة، ويركلون غبار الابتذال والارتفاع عن الأرض، ويولدون من جديد، ويعودون إلى طبيعتهم الحقيقية الخارقة للطبيعة. وفي سريرته، كان يعرف دائماً بأنّ الذي خلقه، ناتراج هيرو، لم يكن على المستوى

المطلوب، ولن يرفعه من أخدود العدم الذي زاد من بهجته عندما اكتشف بأنه يستطيع أن يلج الضوء لا من خلال المخيّلة، إنما من خلال ما صنعه لنفسه في مخيّلته، قال لنفسه، أو أفضل من التخيّلي ـ فعلياً، لكن أخيراً، بخلاف كلّ الأمل، خارقاً. ربما لهذا السبب تآلف بسهولة شديدة، بشكل طبيعي جداً، مع ذاته الجنّية التي كشفها مجدداً. كان وجودها فيه شيئاً يعرفه دائماً، لكنّه لم يكن يثق بالمعرفة، إلاّ بعد أن همست *دنيا* في قلبه.

كان ينتظر الكلمة من أميرة البرق. في بعض الأحيان من أجل التغيير، كان يتجّه جنوباً إلى مقابر الجمجمة أو جبل صهيون ويفجّر رؤوس الأسود ليفصلها عن الحجارة السوداء في تلك الأماكن أيضاً، فأحدث تغييرات جديدة، وأصبح بإمكانه الآن أن يحوّل أجساماً صلبة إلى روائح، ففي دقيقة تكون مقعداً، وفي الدقيقة التالية تصبح ضرطة. إنها تراكم كلّ الضرطات التي ضرطها المسنّون القدامى، ذكوراً وإناثاً، الذين جلسوا على ذلك المقعد يفكّرون بأشخاص قدامى آخرين، أصبحوا في عداد الأموات الآن، ولن يعود ماكفارات يضرط مرة أخرى.

فكّر بمجموعته من الكتب القديمة المصورة بالرسوم التي تلاشت الآن في الكرة النارية التي أضرمت بيته القديم، وفي أعداد مجلة دي سي القديمة، تذكّر سوبرمان الحقيقي، السّيد تشارلز أتلاس بسرواله الداخلي المصنوع من جلد الفهد بتقنية *شدّ العضلات* التي حوّلته إلى أكثر الرجال ضخامة في العالم. ألا توجد فتيات يضحكن من وراء ظهره الآن. لم يعد هذا جيمي العجوز، أقصد جيمي الشاب الذي يبلغ وزنه سبعة وتسعين باونداً. إنه رجل حقيقي، كما كان السّيد أتلاس يقول لم يعد أحد يركل الرمل بقدميه في وجهه الآن.

هنا، أخيراً، جاءت دنيا، بين شواهد قبور سانت مايكل، تبحث

عنه: لم تعد الأميرة إنما الملكة. في المقبرة في منتصف الليل رثت معه فقدان أمّه. لقد فقدت أباً هي أيضاً. هل أنت مستعدّ، سألته. أوه، كان مستعدّاً.

همهمت في أذنه، وذكرت له أسماء بعض الرجال الأشرار ليقتلهم.

إن الجان الطفيليين، كما ظهروا على الأرض في أثناء حرب العالميْن، مخلوقات عادية، قدرتهم على التفكير محدودة جداً. وعندما يشير إليهم أسيادهم الجان إلى أين يتجهون، فهم يُلحقون الخراب حيثما حلّوا، كما حدث عندما هاجموا مسكن رئيسة البلدية. ثم يمضون وقتهم في البحث عن أجساد يسكنون فيها، لأنهم لا يستطيعون العيش في العالم السفلي بدون مضيفين من الإنس. وعندما يلتحمون برجل أو بامرأة فإنهم يمتصون الجسم ويجففونه من الحياة حتى يصبح قشة فارغة، ثمّ يحتاجون إلى وقت قصير للعثور على مضيف جديد. ويقول البعض الآن إنه يجب عدم اعتبار هذه المخلوقات من الجان الحقيقيين لأنهم يفتقرون إلى الحساسية وينتمون إلى طبقة العبيد، أو إلى شكل أدنى من الحياة. ولهذه الحجّة مصداقية كبيرة، لكن لا تزال تقاليدنا توليهم مكانة في علم تصنيف أنواع الجان، لأنهم فقط، كما تقول القصّة التي نُقلت إلينا، أول أنواع الجان قاطبة الذين ذبحهم بشر: أو بدقة أكبر، ذبحهم كائن هجين ـ في الغالب إنسي، وفيه مسحة قوية من جنّي حررّته ملكة الجان.

تبدو لنا الآن بعض الصور التي وصلتنا من صراعات الماضي، سواء أكانت ثابتة أم متحركة، بأنها إباحية. وإننا نحتفظ بهذه الصور في صناديق موصدة بإحكام في غرف لا يدخلها إلاّ علماء متخصصون:

مؤرخون، طلاب التقنيات الحديثة (التصوير الفوتوغرافي، الأفلام)، علماء نفس. ولا نرى ما يدعو إلى أن نكرب أنفسنا بدون مبرر بعرض هذه الصور والرسومات على الملأ.

لم نقلّب هذه الصفحات بلا مبرر، وسوف نواصل عدم الإسهاب في ذكر تفاصيل عن أعمال القتل. وإننا نفتخر بأننا ظللنا أحياء وتطورنا على امتداد تلك الأزمنة السحيقة، وأن العنف الذي جثم فوق البشرية منذ أمد بعيد مثل لعنة جنّي، أصبح ضرباً من الماضي. وفي بعض الأحيان، مثل أيّ مدمن، فإننا لا نزال نشعر به يجري في دمائنا، ندرك رائحته في خياشيمنا؛ ويذهب بعضنا شأواً بعيداً فنحكم إغلاق قبضاتنا، ونلوي شفاهنا العليا في احتقار عدواني، وحتى، لبرهة قصيرة، نرفع أصواتنا. لكنّنا نقاوم، لا نلوي شفاهنا السفلية، ونخفض أصواتنا. إننا لا نستسلم. بيد أننا ندرك بأن أيّ رواية عن ماضينا، ولاسيما زمن الغرابة وحرب العالميْن، لن تكتمل إذا أشاحت بوجهها تماماً عن المسائل غير المشّهية من الجروح والموت.

وجاء الجان الطفيليون وذهبوا من مدينة إلى مدينة، ومن بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة. كان عندهم أكثر من مكان واحد، أكثر من شعب واحد ليبثّوا فيه الخوف، واستخدموا وسائل نقل الجان السريعة ـ الحفر والأنفاق؛ وأحياناً الجرار الطائرة ـ للانتقال من هنا وهناك. وفي الحاويات المغلقة بإحكام في غرفنا المقيّدة احتفظنا بصور مزعجة عن جان طفيليين من آكلي لحوم البشر وهم يلتهمون وجوه أشخاص في ميامي بفلوريدا؛ وبصور جان طفيليين جلادين يرجمون نساء بالحجارة حتى الموت في بعض الأماكن في الصحراء؛ وبصور جان طفيليين ينفذّون عمليات انتحارية حتى تنفجر أجساد مضيفهم في قواعد عسكرية، ثم يقبضون على أقرب جندي تقع أيديهم عليه، ويقتلون

المزيد من زملائه في ما يدعونه هجوماً انغماسياً، وهو كذلك، لكن ليس بالمعنى التقليدي للكلمة؛ وبصور جان طفيليين يقاتلون في صفوف ميليشيات مجنونة تستولي على دبابات في أوربا الشرقية، ويطلقون النار على طائرات ركاب تحلّق في السماء ـ لكن تكفي هذه الصور القليلة. فلا حاجة إلى وضع دليل شامل للرعب. لنقل: إنهم يطاردون في مجموعات، كالكلاب المسعورة، وهي مسعورة أكثر من أيّ شيء آخر يسير على أربع قوائم. وكانت مهمّة جيمي كابور المحددة، التي كلّفته بها ملكة البرق المتوّجة حديثاً، أن يطارد الصائدين.

وليس بالإمكان إنقاذ الرجال والنساء الذين يسكنهم الجان الطفيليون، لأنهم يموتون في اللحظة التي يدخل فيها الجان الطفيليون إلى أجسادهم. لكن كيف يمكن مهاجمة الطفيليين الذين يتحررون من الجسد ليستولوا على شخص حيّ، بحيث لا يعود بإمكانهم عمل ذلك؟ لقد حلّ جيمي كابور اللغز: فإذا كان بالإمكان تحويل أجسام صلبة إلى ألوان أو روائح أو أصوات، فربما، بعكس هذه المعادلة، يمكن تحويل كائنات بخارية إلى كائنات صلبة. بهذه الطريقة، بدأت عملية ميدوسا التي أُطلق عليها هذا الاسم لأنه عندما جعل جيمي الطفيليات الغائمة مرئية، أصبحت تبدو مثل وحوش حجرية أطلق عليها الناس بدون دقة اسم «*الغورغون*»، مع أنه، بالطبع، بحسب الإغريق القدماء، فإن ميدوسا غورغون هي التي تُحوِّل إلى أحجار، وليست هي التي تتحوّل إلى أحجار ـ كانت نظراتها هي التي تحوّل البشر إلى حجارة (وهكذا كان الأمر أيضاً مع الدكتور فرانكشتاين ووحشه. إنه غولم الذي لا اسم له، الرجل الاصطناعي الذي أصبح يُعرف باسم خالقه).

ولعله ليس من الدقة أيضاً أن ندعو هذه الأشياء المتحجرة «وحوشاً». فهي أشكال معقّدة ملتوية شبيهة بالإنسان، تلتف حول نفسها، وتشكّل

أحياناً أجمات من المسامير، وفي أحيان أخرى تقذف «أذرعاً» ذات مفصلّات تنتهي بشفرات. وقد تكون متعددة الوجوه، مثل بلّورات، أو سائلة مثل برك الماء. كان جيمي يحاربها أينما وجدها، وكلّما أرسل إليه نظام معلومات الجنّ الذي أقيم حديثاً ليطارد تلك الشياطين الأدنى، على ضفاف نهر التيبر في روما أو على المرتفعات المعدنية اللامعة لناطحات السحاب في مانهاتن، كان يتركهم في المكان الذي يستولي فيه عليهم، لتزّين جثثهم مدن العالم مثل أعمال فنية جديدة، منحوتات، ونعم، يجب القول إنها جميلة. هذا موضوع ناقشه الرجال والنساء حتى في ذلك الوقت، في ذروة الحرب. إن جمال الغورغون تستحق وقفة لتأملها، حتى في تلك الأزمنة الحائرة، والصلة بين الفن والموت، الواقع بأنه عندما يموت الجان الطفيليون فإنهم يتحوّلون من خصوم قاتلين إلى أجساد تسرّ الناظرين عند رؤيتها، ويقدمون نوعاً من المفاجأة المريحة. فعل الصلابة من الفناء: هو واحد من أحدث فنون الحرب، فن بدأ الطلب يزداد عليه كثيراً، من بين كلّ هذه الفنون، حتى أصبح يُدرج في دليل الفنّ نفسه، الفن الرفيع الذي يلتقي فيه الجمال والمعنى في أشكال ملهمة.

لم ير المطارد والمنتقم نفسه بأنه فنان. إنه جيمي ناتراج، إله الدمار، يرقص رقصة دماره.

أعلن زمرد العظيم بأنّ مؤسسته ليست سوى الخطوة الأولى نحو إقامة سلطنة الجان العالمية التي أعلن عن سلطتها العالمية الآن، ونصّب نفسه أول سلطان عليها. لكن كبار العفاريت الثلاثة أبدوا على الفور استيائهم لتنصيب نفسه، فاضطر إلى التراجع قليلاً. وبما أنه لا يستطيع

أن يصبّ جام غضبه على الأعضاء الثلاثة الآخرين في الحكم الرباعي، فقد أطلق زمرد حملة دولية مسعورة شملت قطع الرؤوس والصلب والرجم، فأحدث في الأيام الأولى من إنشاء السلطنة موجة عارمة من الكراهية تأججت بعد فترة قصيرة وتحولت إلى ثورة مضادة. وقد منحه تحالفه مع *المجدّين* الأشرار والأمّيين في بلد **ألف** ما اعتبره برنامج حكم، وانطلق يحرّم الأشياء بحماسة شديدة كما كانوا يفعلون: الشعر، وركوب الدراجات الهوائية، واستعمال ورق التواليت، وممارسة الألعاب النارية، وقراءة قصص الحبّ، وإنشاء أحزاب سياسية، وتناول البطاطا المقلية، ووضع النظارات، وحفر جَذْر السّن عند طبيب الأسنان، وتداول الموسوعات، واستعمال الواقيات الذكرية، وتناول الشوكولاتة، وحرق أي شخص يبدي اعتراضاً، أو تقطّيعه إلى نصفين. وعندما ازداد شراسة بدأ يشنقهم ويسحلهم ويقطعهم إلى أربعة أجزاء، العقوبة الإنكليزية التقليدية والرائعة على الخيانة العظمى منذ القرن الثالث عشر. وكان يرغب (كما قال للعفريت العظيم الآخر) في تعلّم أفضل الدروس المستوحاة من القوى الإمبراطورية السابقة، وأعلن عن إدراج هذه العقوبات التي كانت تطبق في القرون الوسطى في قانون السلطنة الجديد، بمفعول فوري ومدمّر.

وأهم ما يميّز كلّ ما قام به هو إعلانه عن عدائه الشديد لكلّ أشكال الحاويات المغلقة بإحكام، وجميع الجرار ذات الأغطية التي يمكن إغلاقها بإحكام ببراغي، أو القناني التي تسدّ بأغطية فلين، وجميع الصناديق ذات الأقفال، وجميع قدور الضغط وصناديق إيداع الأمانات، وعلب الشاي والتوابيت. ولم تكن لدى زميليه العفريتين العظيمين الآخرين روبي المشرق ورعيم شارب الدم أي ذكريات عن السجن، فكانت ردّة فعلهما إزاء هذه القوانين إبداء اللا مبالاة. لكنه قال لهما،

عندما تُمضيان فترة أبدية وأنتما حبيسان في داخل الزجاج فستنشأ لديكما كراهية شديدة لزنزانة سجنكما. «كما تريد»، قال روبي المشرق، «لكن أن يهدر المرء وقته على أشياء تافهة ليست دليلاً على عظمته». فتجاهل زمرد هذه الإهانة. لقد سجنه الإنس. وها قد جاء دوره الآن. لقد تولدت فيه هذه الكراهية خلال سنوات سجنه التي لا يمكن أن تزيلها كلّ تلك التحريمات والإعدامات في العالم. وكان يقول لنفسه أحياناً إن رغبته في أن يحكم البشر لا تقل عن رغبته في إبادتهم والقضاء عليهم بوحشية.

في هذه المسألة على الأقل، كان زاباراداست الذي عرف السجن أيضاً يتفق مع زمرد: لقد آن الأوان للثأر.

إن انتقام الجان يحترق بنار لا يمكن إخمادها.

لم تمض فترة طويلة على تعطّش زمرد للدم حتى بدأ يشعر بالقلق إزاء رفات الغزالي. وعندما أبلغ الجني العظيم رفاة الفيلسوف بدقة عن قيامه بتنفيذ ما طلبه من الرجل الميت بحذافيره لبثّ الرعب في نفوس البشر لكي يدفعهم خوفهم إلى عبادة الله، رأى الفرق بين النظرية العلمية والممارسة الدامية، وخلص إلى أن زمرد، المثابر على نحو لا يمكن إنكاره، قد يكون، بمعنى ما، *قد تجاوز الحدّ*. وعندما سمع زمرد ذلك، فهم أن الفيلسوف لم يعد مفيداً له. فقد تجاوز كلّ ما يمكنه أن يعلّمه إياها هذا الأحمق الميت العجوز. «لقد أنجزتُ واجبي اتجاهك»، قال للغزالي. «وسأعيدك إلى صمت القبر».

اقترح زاباراداست، الأكثر رزانة من الجنيين الأسودين العظيمين والأكثر باطنية وذرابة لسان (مع أنه لم يكن في الواقع يقل وحشية

وعنفاً، لا بل أشدّ، لحدّة ذكائه)، بأن تُقسّم السلطنة الجديدة إلى أربعة أقسام تماماً كالأجساد التي كان زمرد يقطعها. فهي واسعة كثيراً ولا يمكن حكمها مركزياً ولا تكاد مؤسسة زمرد في الأرض **ألف** البعيدة تُعتبر مدينة كبيرة تصلح لأن تكون عاصمة رئيسية. وأشار إلى أن معظم الأنشطة التي يقوم بها زمرد تقع في ما قد يسمّى بشكل عام «الشرق»، بينما أنجز هو أفضل أعماله، وحاك أكبر المؤامرات وزرع أشدّ أنواع الخوف في «الغرب» القوي. وبقيت أفريقيا وأمريكا الجنوبية لرعيم شارب الدم وروبي المشرق. أما ما تبقى من العالم ـ أوسترالاسيا، وبولنيسيا، وأراضي البطاريق والدببة القطبية ـ فيمكن تجاهلها في الوقت الراهن.

لم يعجب هذا التوزيع أحداً، ولا من اقترحه (لأن زابارداست كان يخطّط سرّاً للاستيلاء على العالم كله)، لكن كبار العفاريت الأربعة قبلوه مؤقتاً ـ *مؤقتاً* حتى بدأت الخلافات تدّب بينهم. وأبدى روبي المشرق استياء شديداً من الحصة التي خصصت له. إذ يكون الجان في غاية السعادة في المناطق التي تُعرف فيها قصصهم، ويشعرون بارتياح شديد في المناطق التي انتقلت إليها قصصهم في حقائب المهاجرين، ولا يشعرون بالارتياح في المناطق التي لا يُعرفون فيها كثيراً. «أمريكا الجنوبية؟» قال روبي المشرق متذمراً، «ماذا يعرفون عن السحر هناك؟»

اندلعت حروب غزواتهم مثل الأزهار السوداء في أرجاء المعمورة، وكانت معظم هذه الحروب حروباً صغيرة بالوكالة، يشنّها رجال يتحكم بهم الجان بشتى السبل التي يمكن التحكم فيها بالأنس: من خلال الاستحواذ، أو السحر، أو الرشوة، أو بث الخوف، أو الإيمان. وجلس الجان الأسود بتكاسل فوق غيومهم يلفّهم ضباب الخفاء الكثيف إلى حد أن دنيا نفسها لم تتمكن من معرفة أين يكمن ألدّ أعدائها لفترة طويلة.

فقد وقفوا هناك يراقبون الدمى التي يستخدمونها في قتال بعضهم بعضاً ويموتون، وكانوا يرسلون أحياناً الجان الأدنى مرتبة إلى الأرض ليشاركوا في الدمار. وخلال فترة قصيرة جداً، بدأت عيوب الجان القديمة - عدم ولائهم أو التزامهم، وتقلّب أمزجتهم، ونزواتهم، وأنانيتهم، وغرورهم - تطفو على السطح. وسرعان ما بدأ كلّ عفريت من العفاريت الأربعة يعتقد بأنه هو الوحيد الذي يجب أن يكون أعظم كبار العفاريت، وسرعان ما تفاقمت المشاحنات والخلافات بينهم، مما أدى إلى تغيير طبيعة النزاعات في العالم السفلي. عندها أصبح البشر قماش الخيش الذي يرسم عليه الجان الأسود كراهيتهم المتبادلة، المادة الخام التي بدأ كلّ عفريت من العفاريت الأربعة يرغب في توطيد سيادته المطلقة.

عندما ننظر إلى الوراء، فهذا ما نقوله لأنفسنا: إن الجنون الذي أطلقه الجان على أسلافنا هو الجنون الذي ينتظر أيضاً في داخل كلّ قلب إنسان. يمكننا أن ننحي باللائمة على الجان، ونحن نفعل ذلك، نعم نحن نفعل ذلك. لكن لو كنا صادقين، فعلينا أن نلوم عيوب البشر أيضاً.

من المؤلم أن نسجّل أن الجان الأسود غمرتهم سعادة كبيرة عندما رأوا الاعتداءات ضد النساء. ففي العصر الذي سبق انفصال العالميْن، كان يُنظر إلى المرأة في معظم بقاع العالم بأنها كائن ثانوي، كائن أدنى مرتبة، متاع شخصي، ربّة بيت، تُحترم كأمّ، وتُزدرى في الحالات الأخرى، ومع أن هذه النظرة تغيّرت نحو الأفضل في بعض بقاع الكوكب على الأقل، ظل اعتقاد الجان الأسود بأن المرأة خُلقت ليستخدمها الرجل ويعيلها سائداً من العصور المظلمة. بالإضافة إلى ذلك، فإن الإحباط الذي سببّته المقاطعة الجنسية التي فرضتها الجنّيات

في العالم العلوي أثار حنقهم، فبدأوا يراقبون دون أن يوجّهوا أي انتقاد عندما أصبح وكلاؤهم عنيفين، وعندما لم تعد المرأة تُعنَّف فقط، وإنما أصبحت تُقتل أيضاً، رفضت العديد من تلك النساء الجديدات فكرة أن يوضعن في منزلة أدنى، وطالبن بإعادتهن إلى مكانتهن اللائقة. وإلى هذه الحرب ضدّ الأنثى، أرسلت الملكة دنيا جندياً من جنودها، وبدأ مدّ المعركة ينحسر.

اتخذت تيريزا ساكا اسم سوبر هيرو الآن. لا مدام ماغنيتو أو أيّ من هذا الهراء الذي كان يرد في الصحف الشعبية، إنما اسم مستمد من أحد الكتب المصورة بالرسوم. كان صوت دنيا يردد في رأسها *أنا أمّك*. وقالت لنفسها وسأكون أيضاً أمّ شيء، سأكون أمّاً، أمّ الموت النارية نفسها. تلك الأم الأخرى، الأمّ الأكثر قدسية تيريزا، المتورطة في أعمال الموت أيضاً، لكن تيريزا ساكا كانت مهتمة بتنوع طرائق الموت المفاجئ أكثر من اهتمامها بدور العجزة. وبالنسبة لها لا ينتقل الأحياء براحة إلى عالم النسيان الناعم، بل بضربة مطرقة ذات فولطية عالية تجلب الحياة إلى نقطة توقف فوري. إنها ملاك دنيا الانتقامية، المنتقمة، أو هكذا قالت لنفسها، لكلّ امرأة منتبذة، منتهكة، مظلومة عاشت أبداً.

لم يكن الاستثناء الأخلاقي شيئاً مألوفاً بالنسبة للجنّ، وهي حالة الحصول على الموافقة على القتل، على التدمير دون أي إحساس بالذنب. ثمة شيء يسير ضد الطبيعة الإنسانية. فعندما قَتَلت سيث أولدفيل، كانت مشحونة بالغضب لكن هذا لم يكن مبرراً، فقد فهمت بأن الغضب سبب لكنّه ليس عذراً. قد تكون حقيرة، لكنّها تظل قاتلة. فالمجرم مذنب لأنه ارتكب الجريمة، وهي ذاك المجرم، وقد تأخذ العدالة مجراها، لكن مهما كان، أضافت بصمت، عليهم أن يقبضوا عليّ أولاً. والآن همست سلفها الجنّية فجأة فيها وأطلقت روح

المحارب الكامنة في داخلها، وكلّفتّها بمهمّة مساعدتها على إنقاذ العالم. كانت أشبه بتلك الأفلام التي يختارون فيها رجالاً من بين المحكوم عليهم بالإعدام ويطلقون عليهم رصاصة عشوائية، فإذا ماتوا، هيه، فإنهم سيُقلون في جميع الأحوال. إنه لأمر منصف، قالت لنفسها، لكني سآخذ الكثير من الأوغاد معي عندما أذهب.

كشف إغماض العيون عن نظام شبكة الجان، وأرسلت لها سيدتها دنيا الإحداثيات التي تحتاج إليها. انعطفت جانباً وانحنت لتنسلّ عبر الشقّ في الهواء إلى بُعد السفر ثم انطلقت إلى المكان الذي وجهتها إليه الشبكة. وعندما خرجت من النفق بين الأبعاد، لم تكد تعرف في أيّ بلد هي ـ نعم، فالمعلومات التي غرستها دنيا في عقلها أخبرتها باسمها، **ألف أو باء أو ياء**، لكن حساء الأبجدية تلك لم يسعفها كثيراً، إحدى سمات حقيقتها الجديدة، الوسيلة الجديدة للانتقال والحقيقة البديلة التي استحدثتها هو فقدان الاتصال مع العالم المادي، فقد تكون في أي مكان، أيّ مكان قاحل، أيّ حديقة خضراء معشوشبة، أيّ جبل، أيّ واد، أيّ مدينة، أيّ شارع، أيّ أرض. وبعد فترة، أدركت بأنّ ذلك ليس مهماً، فأي بلد تكون فيه سيكون دائماً نفس البلد الذي تتعرض فيه النساء للهجوم، وهي القاتلة التي جاءت للانتقام من أجلهن. ها هنا «رجل» يتلبسّه جنّي ـ ممسوس، مسحور، مرتش بالجواهر، لا يهم. إن ما فعله يدينه، والبرق القابع عند أطراف أصابعها هو الذي ينفّذ الحكم. لا، لا توجد حاجة إلى التأمل الأخلاقي، فهي ليست قاضية أو هيئة محلفين. إنها الجلاد .*نادوني أمّي*، كانت تقول للذين تستهدفهم. كانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي سمعوها على الأرض.

عائمة عبر الدهاليز والممرات المستحيلة بين الزمان والمكان، اختُرقت الأنفاق بواسطة غيوم ماجيلان العدمية، تتملّكها العزلة القاتلة

المتنقلة السوداوية. تأمّلت تيريزا ساكا شبابها، يأسها، الليالي عندما كانت تضغط على دواسة البنزين عندما قادت سيارتها الأولى (سيارتها الفعلية الأولى التي كانت تمتلكها، لا السيارة الحمراء المكشوفة التي سرقتها والتي قادتها بجنون أول مرة)، سيارة مكشوفة، قديمة، زرقاء، بأسرع ما يمكنها في الطرق الريفية وعبر المستنقعات، لا تبالي حقاً إن عاشت أم ماتت. التدمير الذاتي دائماً في ذلك الحين، ثم جاءت المخدّرات والرجال غير المناسبين، لكنّها تعلّمت في المدرسة الدرس الوحيد الذي يجب أن تتعلّمه وهو أن *الجمال عملة*، وما إن نهض نهداها حتى سوّت شعرها الأسود الطويل وتوجّهت إلى المدينة الكبيرة لتنفقها، العملة الوحيدة التي تملكها، وهيه، لم يكن ذلك سيئاً. انظر إليها الآن، فهي قاتلة محترفة بالجملة ذات قوى خارقة للطبيعة، وهذا هو السبيل الوحيد لفتاة أتت من لا مكان.

في جميع الأحوال، لم تعد تلك الفتاة ذات أهمية. لقد سقط عنها الماضي. اكتشفت أنّها تجيد ذلك، الظهور المفاجئ، الرعب المروع البادي على وجه الشخص المستهدف، الصاعقة التي تشبه رمحاً لامعاً يخترق صدره، أو أحياناً بدافع التسلية فقط، أعضاؤه التناسلية، أو عينه، جميعها مناسبة. ثم العودة إلى العدم نحو المغتصب التالي، المنتهك التالي، المخلوق دون البشري التالي، قطعة الطين البدائية التالية التي تستحق الموت، تشعر بسعادة كبيرة لقتلها، وتقتلها من دون أدنى شعور بالندم. وكلما فعلت ذلك، ازدادت قوة، وأحست بالقوّة تملؤها، وأصبحت، وبدا لها ذلك شيئاً جيداً، أدنى بشرية. جنّية أكثر من كونها من لحم ودم. قريباً ستصبح *صِنو* دنيا. قريباً سيكون بمقدرتها رؤية ملكة قاف بأمّ عينها وتحدّق فيها. قريباً ستصبح منيعة.

كانت حرباً غريبة، منفلتة، عشوائية، كما هم الجان. فهي هنا اليوم

وستذهب غداً، ثمّ ستعود من دون سابق إنذار. إنها هائلة، مستنزفة، ثم بعيدة، غائبة. في يوم تكون وحشاً يخرج من البحر، وفي اليوم التالي، تصبح لا شيء، ثمّ، في اليوم السابع، يهطل من السماء مطر حامضي. العمالقة الخارقون للطبيعة ينشرون الفوضى والخوف ويهاجمون من أوكارهم في الغيوم، ثم يحدثون فجوات كسولة يستمر من خلالها الخوف والفوضى. هناك طفيليون وانفجارات وسيطرة، ويعمّ الغضب جميع الأماكن. غضب الجان جزء من طبيعتهم، مضخّمين، في حالة زمرد وزاباراداست، نتيجة أسرهم لفترات طويلة، ووجدت رداً على الغضب في العديد من قلوب الإنس، مثل جرس يقرع في برج قوطي ويردّ عليه صداه من قاع بئر، وربما هكذا هي الحرب الآن، وقد تكون الحرب الأخيرة، هذا الهبوط إلى الفوضى الغاضبة العشوائية، حرب يتحارب فيها المتحاربون مع بعضهم بعضاً بشراسة كما هم متوحشون مع سكان الأرض التعساء. وبما أنه لا يوجد شكل لهذه الحرب فالقتال فيها صعب، والأصعب منه تحقيق النصر. كانت أشبه بحرب ضدّ فكرة مجردة، حرب على الحرب نفسها. هل تمتلك دنيا المهارة الكافية لتنتصر في حرب كهذه؟ أم المطلوب منها إبداء فظاعة أشدّ، قساوة لا تمتلكها دنيا، لكن، ها هي تيريزا ساكا، بدأت تصبح أكثر قدرة مع كلّ صاعقة تصبّ في قلب رجل مذنب؟ وسيأتي وقت لن يكون الدفاع فيه عن الأرض كافياً. وسيصبح من الضروري شن هجوم على العالم العلوي.

لا يسمح عمري لي بأن أكون فرداً في جيش، قال السّيد جيرونيمو لنفسه في أنفاق الغيمة. كم شخص منّا موجود في جيش دنيا المؤلف من مصممي حدائق ومحاسبين ومقاتلين، كم شخص من سلالتها همست

الملكة الجنّية في آذانهم وجندتهم لمواجهة أشدّ الأعداء رعباً في العالميْن، وما هي الفرصة المتاحة لنا حقاً لوقف همجية الجنّ الأسود المنفلتة. هل تستطيع دنيا في غضبها أن ترُكع العفاريت الأربعة كلهم مع أعوانهم أيضاً. أم أن قدر العالم هو أن يستسلم للظلام الهابط وأن نجد الظلام الذي يستجيب من داخل أنفسنا .لا ، لا *إذا كان بإمكاني أن أفعل ذلك*، أجاب صوت داخلي. إذاً فهو الآن جندي في هذه الحرب على الرغم من كلّ شكوكه. الأوجاع والآهات في جسده المنهك. لا تهتم. من الصعب معرفة كيف يمكن أن تبدو حرب عادلة، أما هذه الحرب، أغرب أنواع الحروب، فهي حرب مستعدّ لأن يؤدي دوره فيها.

«في جميع الأحوال»، قال لنفسه، «كأنني مُنحت دوراً على الخطّ الأمامي. أنا مثل فريق طبي أكثر من كوني جندياً في طليعة الجيش. أنا المشفى العسكري المتنقل».

لإنزال الذين يرتفعون ورفع الواقعين في قبضة اللعنة الساحقة. هذه هي مهمّته المكلّف بها: تصحيح العيوب في الجاذبية. وفي عين رأيه، فقد حدّد نظام الشبكة العالمية مواقع الضحايا الذين هم في أمسّ الحاجة لأن يومضوا في شبكيّة عينه. يا لها من وسيلة لرؤية العالم، قال لنفسه. لقد انتشر وباء الارتفاع والهبوط في كل مكان في العالم. لقد نشره زاباراداست، الساحر، المرعب، العشوائي، عندما وصل، وهو يفوق ما يمكن أن يسببه أي وباء «طبيعي». لذلك أخذ ينتشر في كل مكان يذهب إليه. ها هي عبّارة تقترب من عرائن قمار ماكاو، حشد ينكمش رعباً عندما ظهر فجأة من لا مكان لينقذ مسافراً تجاهل الجميع صيحاته من الألم. انحنى السّيد جيرونيمو فوقه وهمس، فاستوى الرجل واقفاً على قدميه. لقد قام من بين الأموات، أو أشباه الأموات، ثم استدار السّيد جيرون وذهب، تاركاً لازاروس الصيني لمصيره، وظل رفاق الرجل

المسكين ينظرون إليه كما لو كان مصاباً بمرض معدٍ. لعله سيذهب ويقامر بالنقود التي ادّخرها في تلك الليلة ليحتفل بعودته إلى الحياة، لكن يجب على شخص آخر أن يروي هذه الحكاية، وها هو السّيد جيرونيمو على سفح جبل في بير بانجال يصطاد عامل نفق في سكة الحديد من السماء، ثمّ هنا، وهنا، وهنا.

في بعض الأحيان يصل في وقت متأخر جداً ويكون شخص قد ارتفع كثيراً، ويبدأ يحتضر نتيجة انخفاض درجة حرارة جسمه أو بسبب صعوبات في التنفس في الهواء البارد الرقيق في سماء جبال الأنديز، أو رجل سُحق في معرض ماي فير للفنون، وقد تكسرت عظامه وتضعضعت، وأصبح جسده مثل آلة أكورديون صغيرة انفجر وتسرّب الدم من ملابسه المسطّحة، وتعتلي قبعته كلّ هذه الفوضى المؤسفة، ويبدو مثل مجمّع من المباني. وكان غالباً ما ينطلق بسرعة إلى داخل تلك الفتحات ويصل في الوقت المناسب، ويرفع الذين سقطوا، وينزل الذين ارتفعوا. وانتشر المرض في بعض الأماكن بسرعة، وكنت ترى مجموعات كبيرة من المذعورين يطوفون فوق أعمدة المصابيح، فيُنزلهم جميعاً بلطف وهدوء ويلوّح لهم بيده؛ ثمّ، أوه!، الإعراب عن الامتنان الذي يكون أقرب إلى الإعجاب الشديد. كان يفهم ذلك لأنه كان هو نفسه مصاباً بذلك. إن القرب من الكارثة أطلقت القدرة البشرية على الحبّ. التعبير البادي على وجه ألكساندرا بليس فارينا بعد أن أعاد مجد لا إنكورينزا هي وأوليفير أولدكاسل إلى الأرض: كلّ رجل حيّ يتمنّى أن تنظر إليه امرأة جميلة هكذا.

حتى لو كان الواقف إلى جانب تلك المرأة هو المشرف على قصرها المكسو بالشعر وقد بدت على وجهه ذات النظرة المعجبة تلك.

لقد بددت معجزة السّيد جيرونيمو الصغيرة تشاؤم السّيدة فيلسوفة

الدائم، أحرقه سحره المحليّ كما تحرق حرارة الشمس الغيوم. وراحت ألكساندرا الجديدة هذه تنظر إلى جيرونيمو مانيزيس على أنه منقذ، غير قادر على إنقاذها هي وممتلكاتها فقط، وإنما على إنقاذ الأرض المتهافتة كلها أيضاً. وانسحب إلى سريرها في نهاية هذه الأيام الغريبة الطويلة ـ فما هو «يوم» في جميع الأحوال؟ تساءل، الرحلات عبر الفتحة متجاوزاً المكان ومناطق التوقيت، القادمون والمغادرون في فترات متقطعة مئة مرة ومرة في اليوم، فصلوه عن أيّ إحساس حقيقي باستمرارية الحياة، وعندما أعياه التعب، تعبت عظام من ليس لديه جذور، جاء إليها. كانت تلك لحظات مسروقة، واحات في صحراء الحرب، وقدّم أحدهما للآخر وعوداً بقضاء لحظات أطول في المستقبل، لحظات حلم في أماكن الحلم التي كانت أحلامهم بالسلام. هل سننتصر؟ سألته، مستكينة بين ذراعيه، يوسّد رأسها بيدها. سننتصر، أليس كذلك؟

نعم، قال لها. سننتصر، لأن البديل هو الهزيمة، وهذا مستحيل. سننتصر.

نام نوماً مؤرقاً، مرهقاً، يشعر بسنواته، وفي الليالي التي كان فيها نصف نائم تساءل عن ذلك الوعد. لقد ذهبت دنيا، لكنه لا يعرف إلى أين، لكنّه يعرف السبب: فهي تطارد أكبر طريدة من بينهم جميعاً، الأعداء الأربعة الكبار الذين قررت القضاء عليهم. راحت رسائلها وتعليماتها تتدفق ليل نهار إلى منطقة الجان التي فُتحت مؤخراً في دماغه. لا تزال تدير العملية، لا ريب في ذلك، لكنّها كانت قائدة مخفية، تتنقل إلى مسافات بعيدة جداً وبسرعة كبيرة لا يراها إلاّ جنودها شخصياً. هل يمكننا أن «ننتصر» فعلاً، تساءل، هل توجد لدينا أعداد كافية، أم أن هناك أعداداً أكبر من الذين أغواهم ظلام الجان، وهل «النصر» هو ما يريده الناس حقاً، أم يبدو أن الكلمة تشي بالانتصار وهي

خاطئة، وهل يفضّل الناس فكرة التوافق مع السادة الجدّد، وهل الإطاحة بالجان الأسود يعني الحرية أم مجرد صعود قوّة عظمى جديدة، وتحلّ ملكة البرق محلّ العملاق والساحر لتحكمهم. لقد استنزف جيشان هذه الأفكار قواه لكن المرأة المستلقية إلى جانبه أعادتها. نعم، «إننا» سننتصر. إننا مدينون لأحبائنا بأن لا ننهزم. إننا مدينون لفكرة الحبّ نفسها التي قد تموت إذا حكم الجان الأسود العالم.

بدأ الحبّ الذي امتلأ في داخل السّيد جيرونيمو منذ زمن بعيد يفيض منه الآن. لقد أضرمه إحساسه القوي بالنشوة مع دنيا نفسها، ربما كان الفشل مقدراً له منذ البداية، لأنه مكوّن من أصداء، يرى كلّ واحد في الآخر أفاتار حبّه الحقيقي... لكن بدا ذلك منذ زمن بعيد، فانسحبت منه لتصبح ملكة وتعلن الحرب. ظل ذات الحبّ في داخله، أحسّ به يتناثر في داخله، بحر مدّي عظيم ينحسر ويتدفّق عبر قلبه، وها هي ألكساندرا بليس فاريفلا مستعدّة للغوص في هذه المياه، *لنغرق معاً في العشق يا حبيبي*، ونعم، قال لنفسه، ربما كان يُسمح له بحبّ عظيم أخير، وها هي، مستعدّة له، ونعم، لم لا، سيغوص هو أيضاً. إنه منهك في فراشها ولم يعد بإمكانه أن يضاجعها كثيراً، ليلة واحدة كلّ أربع أو خمس ليالي. هكذا أصبحت سرعته في هذه الأيام. لكنّها تفهمت ذلك جيداً. إنه محاربها الّذي أحبّته وتنتظره وستأخذ منه أقل قدر منه وستنتظر لتأخذ الباقي لاحقاً.

وخارج باب غرفة نومها عندما انطلق مرة أخرى في رحلاته، وقف أوليفير أولدكاسل، لا أوليفير الغاضب القديم، إنما أولدكاسل المتزلّف الممتن، عيناه دامعتان مثل أيّ كلب، يمسك بقبعته في يده، وتكشف ابتسامة مريضة عن أسنانه المصفرّة على وجهه الجنائزي المعتاد كما لو كان مربوطاً بخيط. هل يوجد أيّ شيء يمكنني أن أفعله لك يا سيدي،

أيّ شيء تحتاج إليه، فقط قل الكلمة. أنا لست مقاتلاً لكن إذا لزم الأمر فأنا رجلك.

هذا الخنوع المتملّق المتودّد أثار حفيظة السّيد جيرونيمو. أظن انني أفضّل لو كنت كما في الماضي، قال للمشرف، عندما كنت تهدّد بأن تقتلني.

ملكة الجنيات

في مهد الحياة، بين نهريْ دجلة والفرات، التي كانت ذات يوم أرض نود، بعبارة أخرى *الجَوّال*، وقف إلى شرق عدن، عمر العيّار الذي أظهر لدنيا، ملكته، أولى علامات الشقوق التي ظهرت على جسد الوحش ذي الأربعة رؤوس الذي انطلق ليحكم الأرض. في تلك الأيام كانت تتنقل في أرجاء العالم مثل ظلّ براق يشبه ضوءاً مغبشاً في زاوية العين، وكان معها، جاسوسها الأثير لديها الذي لا يفارق ظلها، يبحثان في جميع الأماكن والزوايا عن كبار العفاريت الأربعة. فقد كانت تلك العفاريت تجيد فن الاختباء أكثر مما كنّا نفعل في سالف الزمان، قالت لعمر. في ذلك الحين، كنت أستطيع أن أرى من خلال أجهزتهم التي تخفي الأشياء حتى دون أن أبذل أي محاولة. لكن لعلهم كانوا يريدون في سريرتهم آنذاك أن أكتشف مكان وجودهم.

إذا كان قد وصلنا القليل نسبياً عن كبير جواسيس جبل قاف، عمر العيّار، فربما يعزى ذلك إلى التحيّز المتبقي في صفوف الجان إزاء المثلية الجنسية بين الذكور، وارتداء ثياب الجنس الآخر وما شابه ذلك من ممارسات. ومن الواضح، فإن الجنيات والجان في بيريستان لم يكونوا يعترضون على ممارسة السحاق، وبالفعل، ففي خلال فترة الإضراب عن ممارسة الجنس حدث ازدياد مضطرد في هذا السلوك. أما

في صفوف الجان الذكور، فقد كان التعصب القديم لا يزال منتشراً في صفوفهم كثيراً. إن مآثر عمر المحترفة المعروفة، وقيامه بجمع المعلومات وهو متنكر في هيئة مَخْصِيّ في الحرملك أو مرتدياً ملابس نسائية، أكسبته سمعة عظيمة كجاسوس، لكنّها أبعدته عن أقرانه. وكان يقول هو نفسه بأنّه كان دائماً يشعر بالغربة عنهم في جميع الأحوال. فقد كان يتعمّد ارتداء الملابس المبهرجة، ويتعمد إلقاء شالات مطرزة على كتفيه بخلاعة واضحة، ويعتمر قبعات ملفتة للأنظار، ويتسم سلوكه بالانحطاط والهشاشة، وكان يحرص على أن يبدو جميلاً متغندراً وكان يفضّل ألاّ يعير أي اهتمام لآراء أقرانه به. وجمع الأرواح المقرّبة منه في جهاز الاستخبارات في قاف، فأسفر عن النتيجة غير المقصودة وهي أن الكثيرين في أرض الجان لم يعودوا يثقون كثيراً بهذه المجموعة من الفراشات المتلألئة التي كانت تشكل أيضاً أكثر المتطفلين فعالية في العالم العلوي. أما دنيا، فكانت تثق به ثقة عمياء. وفي أثناء الصراع الأخير مع كبار العفاريت، بدأت تشعر بالغربة أيضاً، لأنها انطلقت لتنتقم لأبيها الذي لم تتمكن من إرضائه قط بقتل أفراد من بني قومها. وكان عمر العيّار يرافقها يومياً في رحلتها لاصطياد الرباعي الأسود، وبدأت تشعر بأنّهم أرواح قريبة منها في عدة نواحي. إن حبّها للإنس، وغرامها برجل واحد وأحفاده، وضعها في منأى عن بني قومها أيضاً. وكانت تدرك بأنّها لا تمتلك الخصائص والصفات الشخصية التي جعلت والدها يحظى بهذه الدرجة من الحبّ والاحترام. بل كانت صارمة وصادقة وصريحة، أما والدها فلم يكن صريحاً، وكان شارد الذهن دائماً وفاتناً. وأدى إصرارها على الامتناع عن ممارسة الجنس إلى تعقيد الأمور، وكان بإمكانها أن تتنبأ بقدوم لحظة في المستقبل غير البعيد ستفقد فيها تعاطف سيدات بيريستان معها، واللاتي سيبدين استياءهن

من الحرب التي شنتها على كبار العفاريت الأربعة. وفي جميع الأحوال، ماذا يعني لهن العالم السفلي؟ ولماذا تبدي اهتماماً كبيراً به؟ إنها حرب قد تخسرها إذا طالت كثيراً، لذلك، يجب أن تعثر على العفاريت الأربعة بأسرع وقت. فلم يعد لديها الكثير من الوقت.

لماذا ينتابها كل هذا القلق؟ هناك جواب على هذا السؤال، جواب تحمله معها أينما ذهبت، ولم تفشه لأحد، حتى لعمر العيّار، كبير جامعي الأخبار وحافظ الأسرار، وهو: *أنها تعرف بأنها مسؤولة عن جزء مما يحدث*. ففي القرون الطويلة التي ساد فيها الهدوء عندما كانت الشقوق بين العالميْن مغلقة ولم يكن ثمة اتصال بين العالميْن العلوي السفلي وكان كل واحد منهما يدير أموره، كان هناك الكثير ممن يقيمون في وديان وبحيرات أرض الجان يعتقدون بأن هذا شيئاً جيداً، لأن الفوضى تعمّ العالم السفلي وهو مليء بالجدالات والمشاحنات، بينما كانوا يعرفون في حدائقهم العاطرة شيئاً أشبه بالنعمة الأبديّة. لكنها كانت تبدو مختلفة قليلاً في مملكة جبل قاف. لشيء وهو أن عيون كبار العفاريت مصوبة إلى المملكة، لذلك كان من الضروري إبداء اليقظة والحذر والإبقاء على مستويات دفاعية عالية. والسبب الآخر، هو أن أميرة البرق (آنذاك) اشتاقت إلى الأرض، واشتاقت إلى ورثتها الكثيرين المشتتين والمتناثرين في أرجائها. وخلال فترة الفراق، كانت تحلم كثيراً بأن يلتم شملها مع أحفاد دنيا زاد، وأن تطلق قواهم وأن تبني عالماً أفضل بمساعدتهم. فراحت تفتّش العالميْن بين العالميْن، والطبقات بين الطبقات، تبحث عن البوّابات المهدمة، وتحاول أن تعيد فتحها. كانت تنقّب في الماضي الدفين، تبحث عن الدروب الضائعة، المحطمة، بأمل أن تجد فيها طريقاً سالكاً فيها. ونعم، كانت تعرف كذلك أن القوى الظلامية الأخرى في أرض الجان منهمكة في العمل نفسه، ولا

تستطيع إنكار بأنها تعي المخاطر التي تنتظرها في العالم السفلي إذا فُتحت الطرق ثانية، لكنها ظلت تحاول، كما ستفعل أيّ أمّ، ليلتئم شملها مع ذريتها المشتتة التي هي كلّ ما خلّفته من ذلك الرجل الذي أُغرمت به ذات يوم. وفي العالم السفلي، أبانت عمليات البحث التي يقوم بها الجان عن الطريق المفضية إلى ساحة لعبهم المفقودة، أو هكذا نعتقد الآن، كعواصف. فقد تصدّعت السماوات نفسها تحت قبضات الجان المتحمسة. ونعم، في النهاية، فقد تمكنوا من فتحها، وما أعقب ذلك، حدث.

حسن، هكذا إذاً. وبخلاف الكثيرين من بني قومها، كانت لدى دنيا القدرة على استجابات الإنس: المسؤولية، الشعور بالذنب، الندم. وشأن كلّ بني جلدتها، كان بمقدرتها أن تطوي الأفكار غير المرغوب فيها في الأماكن الغائمة العميقة داخل نفسها حيث تقبع، معظم الوقت، في طي النسيان، مثل صور مضبّبة، مثل ضفائر غامضة من الدخان. وكانت قد حاولت أن تخفي ابن رشد بتلك الطريقة لكنها أخفقت. ثم عاد إليها في شكل جيرونيمو مانيزيس، ولوهلة اعترتها مرة أخرى تلك العاطفة الإنسانية القديمة التي فقدتها: الحبّ. أوه، كم كان يشبه حبيبها! الوجه، ذلك الوجه المعبود. لقد انتقلت الجينات عبر القرون لتتفجر من جلده. كان بإمكانها أن تحبّه لو أنها تركت نفسها تفعل ذلك، ونعم، كانت هناك نقطة ضعف فيها تجاهه حتّى الآن، لا يمكن أن تنكر ذلك، حتى وهو بين ذراعي السّيدة فيلسوفة التي يمكنها أن تشويها بمتعة وهي حيّة ترزق بنقرة واحدة من رسغها القاتل. لكنّها لن تفعل ذلك. لأن السّيد جيرونيمو لم يكن سوى وهم من الماضي، وقد حلّت في صدرها الآن الكراهية الأصيلة محلّ ذلك الحبّ الخادع.

لقد آن الأوان لتبحث عن رفاقها في اللعب السابقين وتحطّمهم. أين هم؟ كيف يمكن العثور عليهم؟

ابحثي في الأرض، لا في السماء، قال لها عمر العيّار، يمكن اقتفاء أثرهم من التأثيرات التي يخلّفونها.

وفي مهد الحياة، جاثماً فوق قمّة خرائب معبد زيغورات العظيم، إله أور، «البيت الذي تخلق أساساته الرعب»، شاهدوا الجيوش المسحورة تهاجم بعضها بعضا كما فعل السومريون والأكاديون في العصور القديمة الذين توحدت ثقافتهم منذ عصور طويلة في تناغم تام، واندمجت في ثقافة جماعية واحدة، وفقدوا صوابهم وراحوا يذبحون جيرانهم في الشوارع. ورُفعت رايات سود في المعركة ضد رايات سود أخرى. وعلت صيحات كثيرة هناك حول الدين، وغير المؤمنين، أو الزنادقة، أو الكفار القذرين، وبدا كأن الصياح الديني هذا قد مكّن المتحاربين من إضافة جرعة من السمّ إلى سيوفهم، لكن عمر رأى حقيقة ما يجري، وفهم أن العفريت روبي المشرق قد غادر معقله الذي لا يريده في أمريكا الجنوبية وجاء لمواجهة زمرد العظيم في الأرض المخصّصة لمؤسسة صحراء زمرد. أما روبي المشرق، مالك الأرواح، فقد زحف جيشه المسحور بإيقاع موحّد لمواجهة كتائب المرتزقة الذين اشتراهم زمرد بالجواهر وبالمخدّرات وبالعاهرات. وكانت الغلبة لرجال روبي المشرق الممسوسين. وبثت الهمجية الشديدة لهجومهم الرعب في نفوس مرتزقة زمرد الذين لم يُمنحوا كميات كافية من الجواهر فلم يتمكن هؤلاء القتلة المجانين ذوي العيون البيض القادمين من الجحيم من التصدي لهم ومواجهتهم. فألقى المرتزقة أسلحتهم ولاذوا بالفرار، وتركوا ساحة المعركة لرجال روبي المشرق. أين زمرد؟ سألت دنيا عمر. هل هو هنا؟ قد يكون هذا الوغد الخامل نائماً على قمة جبل في الوقت الذي كانت مخلوقاته تُقتل. الإفراط في الثقة كانت مشكلته الدائمة.

ثمّ انشقّت فتحة في السماء، تغلي عند حافاتها بالدخان، وخرج

منها روبي المشرق منتصراً يمتطي جرّة طائرة. وصاح لتذهب خطوط العرض الأمريكية اللاتينية تلك إلى الجحيم. لقد أصبحت أمتلك الآن مهد الحضارة. سأزرع قواعدي في جنّة عدن ذاتها وسيرتعد جميع الرجال خوفاً ما إن يسمعوا اسمي.

ابتعد عن هذا، قالت دنيا لعمر العيّار، فأنت لست مقاتلاً.

مرة أخرى يجب أن نقلل من كراهيتنا ونفورنا الثقافي الراسخ منذ أمد بعيد من أعمال العنف المتطرّفة ونبدأ بحكاية إحدى جرائم القتل النادرة جداً التي وقعت داخل عشيرة الجان، وحسب علمنا، فهي أول عملية نفذّتها ملكة جنّية. فقد نهضت وهي تشتعل غضباً من أرض زيغورات وصعدت إلى السماء على سجادة مصنوعة من صفيحة من البرق، بكامل جلالها وأبهتها، ومن المؤكد أن دنيا فاجأت روبي المشرق، وهشمت جرّته بصاعقة أطلقتها وأرسلته يتدحرج على الأرض. لكن سقطة قوية واحدة لا تكفي للقضاء على أحد كبار العفاريت، فنهض وهو يزفر قليلاً، لكنه لم يصب بأذى، ليواجهها. فطارت نحوه وأطلقت رماحاً من برق فأجبرته على أن يخلع هيئته الإنسية ووقف على الأرض مثل عمود من نار، ثم لفّته حول نفسها، فاستحال دخاناً سميكا، خانقاً، خالياً من الهواء، فمنعت عنه الهواء الذي تحتاج إليه النار، تخنقه في جدائل ضخمة من الدخان، تخنقه بالدخان، تألّب جوهر أنوثتها على أعمق طبيعته الذكورية، تعصره بالدخان، ثم تركته يترنح ويتقلّب ويطقطق ويومض، ثم مات. وعندما ولّى، أخذت هي هيئة إنسي مرة أخرى. لم يتبق منه شيء، ولا حتى كومة رماد صغيرة. وحتى تلك المعركة حتى الموت لم تكن واثقة من قوّتها، أما الآن، فقد

أصبحت تعرف مقدار ما تمتلكه من قوة. وبقي أمامها ثلاثة من كبار العفاريت، وأصبح لديهم سبب أكبر الآن ليخشوا جانبها في المعركة القادمة.

بعد موت روبي المشرق تحرّر جيشه من السحر الذي سحرهم به، فوقف الجنود وهم في حالة تشوش واضطراب، يرمشون بعيونهم، ويحكّون رؤوسهم، لا يعرفون أين هم أو سبب وجودهم هنا. فتبدد المرتزقة، وحتى الذين رأوا الحيرة المفاجئة على وجوه أعدائهم، لم تعد لديهم رغبة في قتالهم، وهكذا انتهت المعركة في عبثية هزلية. لم يكن عالم الجان سعيداً بذلك، لذلك قوبل عمل دنيا بغضب واستهجان شديدين. وانتشرت أخبار المعركة على الفور بواسطة شبكة اتصالات الجان الداخلية، وعمّ الرعب في أرجاء أرض الجان. لم تكترث دنيا بذلك لعدّة أيام. صحيح أن المدنيين القابعين في بيوتهم في أوقات الحرب يصبحون ذوي قلوب ضعيفة وتجعلهم رؤية صور الموت والدمار يتوقون إلى السلام، فقد تركّزت نشرات الأخبار والأحاديث على هذه الصور المقززة وقوّضت العمل الضروري الذي يجب أن يضطلع به الرابضون على الخطوط الأمامية، وأنفت من مواجهة منتقديها. فلديها حرب يجب أن تخوضها.

أرسلت عمر العيّار إلى بيريستان لاكتشاف ماذا يمكن أن يفعله. وعندما عاد قال لها من الأفضل أن تأتي إلى بيرستان، فغادرت العالم السفلي بشيء من الاستياء وعادت إلى الحدائق المسالمة في الجانب الآخر. وعندما وصلت أدركت أنها بقتلها أحد كبار العفاريت خسرت تعاطف قومها، ولم تعد حتى ذكرى والدها المرحوم تكفي لإعادة كسب ودهم. وكان روبي المشرق، الجني الفارع القامة، النحيف، الرشيق الذي يمشي متقافزاً، المضحك، المستهتر، الجميل الوجه، والذي

يمتلك كنزاً من السحر الشخصي، محبوباً من سيدات بيرستان، وأفضى مقتله إلى تضامنهن لمناهضة الحرب وأنهين مقاطعتهن لممارسة الجنس. وبما أن معظم الجان الذكور كانوا يشاركون في الحرب فلم يؤد ذلك إلى تحسين مزاج السيدات الشبقات النهمات لممارسة العشق. لكن أحد كبار العفاريت عاد فحدث هرج ومرج كبير في قصر الحمّامات لأنه جاء ليلهو ويقضي وقتاً ممتعاً مع السيدات في أرض الجان، مهما بلغ عدد الراغبات في مشاركته اللهو واللعب. وجعلت الصيحات والشهقات المنبعثة من الحمّام الكبير دنيا تعرف ما كانت بحاجة إلى معرفته. فالعفريت الموجود هنا مسخ يُدخل المتعة والسرور إلى قلوب السيدات في أشكال ومظاهر متعددة: تنين، وحيد قرن، بل حتى في هيئة قطّة ضخمة ـ تحيط بالعضو الجنسي للأسد وأنواع عديدة من القطط الكبيرة الأخرى ـ شوكات فقرية ترتدّ إلى الوراء، فعندما يُستل إلى الخارج فإنه يحتك بجدار مهبل اللبوة بطريقة قد تكون أو لا تكون ممتعة. أما في قصر الحمّامات، فكانت توجد مجموعة من السيدات الجنّيات الشبقات المستعدات لتجريب أيّ شيء، حتى هذا الشيء. ولم يكن من السهل معرفة عمّا إذا كانت الصيحات المنبعثة منهن تشير إلى الألم أم إلى المتعة أو إلى شيء يجمع بين الاثنين. لكن دنيا لم تعبأ بذلك.

ومن عدد النساء ودرجة إثارتهن، أدركت دنيا بأنه لا بد أن الكائن الممسوخ الموجود في الحمّامات يتمتع بموهبة فائقة. لقد عاد أحد كبار العفاريت الأربعة للزيارة، قالت لنفسها، ولا بد أنه رعيم شارب الدم، ذو المؤخرة المترهّلة الذي يصعب تقبيله بسبب لسانه المسنّن، لقد أتت بك غلمتك الشهوانية إلى هنا لتقع في قبضتي.

كان الإله اليوناني الخيالي بروتيوس إلهاً ممسوخاً قوياً من آلهة البحر، وكان سائلاً في تحوّلاته مثل الماء نفسه. وكان شارب الدم مولعاً

بتحويل نفسه إلى وحوش البحر، ويرجح أنه هو وبروتيوس واحد، وأن بروتيوس هو الاسم الذي أطلقه عليه اليونانيون القدماء في زمنهم. انسلّت دنيا إلى قاعة الحمّام الكبيرة في بيريستان وفي بركة الماء المالح العميقة الضخمة كان يقبع الأمير العفريت الذي تحوّل إلى هيئة سمكة أنقليس زلقة طويلة، والآن فهو وحش لا اسم له، له عينا بقّة فيها أشواك في خنادق المحيط العميق، تتحلّق حوله سيدات أرض الجان اللاتي كن يطلقن صيحات حادة ببهجة. وكان على دنيا أن تتحرّك بسرعة. وعندما غاصت تحت سطح الماء لتقبض على رعيم شارب الدم من قضيبه ـ لأنه مهما كان وحش البحر المتخيّل الذي استنسخه في تلك اللحظة، فلا بد أنه كان حريصاً على الحفاظ على الأداة اللازمة لمضاجعة سيدات أرض الجان ـ وكلّمته بلغة الجان الخاصّة الصامتة، وقالت: لم أحبّ في حياتي سمكة منيوكة، لكن أيها الرجل السمكة، لقد حان وقتك.

هذا ما كانت تعرفه عن تحوّل الذكور: سيراوغونك، سيتحوّلون إلى ماء وينسلّون من بين أصابعك، إلاّ إذا كنت سريعاً بما يكفي وأمسكت بخصيتيهم وقبضت عليهما بإحكام. عليك أن تقبض عليهما بقوة، يحاولون عمل كلّ ما يمكن أن يخطر ببالك، وإذا ظللت ممسكاً بهما حتى النهاية، فإنهم سيستسلمون لك.

القول أسهل من الفعل.

لم يكن هذا مسخاً عادياً، وإنما هو رعيم شارب الدم، أحد كبار العفاريت الثلاثة. كان سمكة قرش فاغراً فمه نحوها كاشفاً عن أسنانه الضخمة المسننة، وثعبان يلتّف حولها ليهصرها. كانت أعشاب بحرية تقيدّها وحوت يحاول أن يبتلعها وسمكة ضخمة من أسماك الرّاي

اللَّسَّاع التي يمكنها أن تلحق ضرراً شديداً بذيلها. تعلّقت به وتحاشت الفخاخ التي كان ينصبها لها. أما هي فكانت غيمة سوداء تخرج منها يد تمسك بها عضو رجولته. كانت مبهرة في سرعتها، وفي التفافها وخدعها. كانت تجاري حركاته وتتفوق عليه. كانت منيعة. تضاعفت تحوّلاته وتسارعت. كانت تجاريها كلّها. وأخيراً، استُنفذت طاقته، وراح يطلق آخر أنفاسه، فصعدت إلى سطح الماء وأحرقته بيديها الكهربائيتين ثم شوهد وهو يتقلّب ويتلّوى ويُقلى ثم مات، وطاف جسده على سطح الماء مثل حطام سفينة غارقة.

العشاء هذه اللّيلة سمك، قالت، وتركته يغوص تحت سطح الماء.

خرجت من قصر الحمّامات لتواجه حشداً معادياً من الجنّيات يطلقن صيحات استياء تقول لها *عار عليك*. إن اضطراب الجنّيات في بيريستان وخوفهن كان يعبّر عن الخوف بأن إحداهن، ملكة جبل قاف، قد أصبحت قاتلة، قاتلة أمراء الظلام. لقد هربن جميعهن من الحمّامات عندما بدأت المعركة، ورأين الآن القصر محطماً، وقد تهاوت أقواسه الذهبية، وتهشّم سقفه الزجاجي المقبّب، وتحوّل القصر إلى مرآة لمباني عديدة حطمتها الحرب في العالم السفلي، ونعم، كانوا يعرفون إنه يمكن إعادة بناء ما تهدم في لحظة، من خلال تعويذة سحرية تعيد إليهم القصر كما كان، لا تشوبه شائبة، لكن المشكلة تكمن في أنه لا يوجد سحر يستطيع أن يعيد رغيم شارب الدم إلى الحياة ويجعله يقوم من بين الأموات. وقد مات روبي المشرق أيضاً. إنها حقائق لا يمكن إنكارها. وأدارت سيدات أرض الجان ظهورهن للملكة دنيا التي أدركت بأنّها فقدت مكانتها بينهن. لا يهم. فقد حان الوقت للعودة إلى العالم السفلي لإنهاء الحرب.

في خضم المعركة كان هناك متسع من الوقت للقيام بعمل جيد صغير. فلم يعد جياكومو دونيزيتي الأحمق النيويوركي الذي كان يغوي النساء المتزوجات التعيسات، والذي أصبح ضحيّة تعويذة سحرية شريرة يستحقها، أجبرته على أن يعشق كلّ النساء بلا استثناء، فأصبح تعيساً وحائراً، ولم يعد ذا فائدة لها كمقاتل، لكن قد يكون بإمكانها أن تشفيه. فهي أمّ لجميع قطيعها، المفيدين وعديمي الفائدة في آن معاً، ورأت مناقب هذا الخروف الضالّ في دنيا زاد مستترة تحت الانغماس في الشهوات والتهكم، وأشفقت عليه من السحر الذي سحره به هذا الجنّي الصغير الشرير أم ذاك. وكان إبطال السحر سهلاً، فأصبح جياكومو مرة أخرى لا يتأثر من موظفات الاستقبال في عيادات الأطباء والمتشردات، لكنّه ظلّ روحاً تائهة حتى أنصتت إلى قلبه وهمست له بما يجب أن يفعله وأين يكمن خلاصه. وبعد فترة وجيزة، فتح مطعماً جديداً.

لم يكن الوقت مناسباً لفتح مطعم راق، حتى لشخص كان ذات يوم واحداً من أمراء حياة الليل في المدينة. فقد ولّت تلك الأيام منذ أمد بعيد، أما الآن، في زمن الحرب، فقلما جازف أحد وخرج ليتناول العشاء خارج البيت، وعندما يفعل ذلك ويخرج من بيته، فكان ذلك ليشتري مواد يمكن الحصول عليها بسهولة، أشياء لا تحتاج إلى تبديد الوقت أو النقود سواء من البائع أو الشاري. إلى ذلك الخراب الذي لحق بما كان سابقاً عاصمة أفضل وألذّ أنواع الطعام في العالم جاء جياكومو دونيزيتي وعاد إلى تبرّجه الطاووسي وأقام مطعماً لا يكسو أرضيته وجدرانه الخشب المصقول فحسب، وإنما أيضاً المعدن والزجاج البراق. كان يلمع مثل شمس بزغت من جديد، وبالرغم من أن أحداً لا يكاد يأتي لتناول الطعام في المطعم، أصبح الطهاة في مطبخ دونيزيتي الاستثنائي الذين يشكلون مجموعة من بين كبار الطهاة وصانعي

المعجنات والحلويات والندل والذين أصبحوا عاطلين عن العمل في أمريكا مؤخراً، يعدّون قائمة طعام يومية متألقة مثل قطع الأثاث، حتى أصبح المطعم الفارغ بترتيب طاولاته الرائع وندله الشديدي النظافة منارة الأمل، تمثال حريّة غير مصنوع من النحاس، وإنما من الطعام والنبيذ. وعندما عمّ السلام العالم من جديد، جمع جياكومو دونيزيتي ثروة، وأصبح أحد رموز المقاومة، أحد السمات البارزة للمدينة القديمة الذي يعبّر عن التحدي والتفاؤل. لكن في تلك الأيام، أبدى الناس دهشتهم لهذه الحماقة الملحمية لافتتاح مكان كهذا: صالون مُنارٌ وفخم يضم أفضل كلّ شيء، سوى الزبائن.

سمّي المطعم على الطريقة الفينيسية، *كا جياكومو*، وكان مطبخه فينيسياً أيضاً، يقدم أطيب المأكولات مثل *باكالا مانتيكاتو*، أو سمك القدّ بالكريمة، وبيساتو *سو لارا* الذي سمك الأنقليس المشوي بأوراق الغار، و*كاباروسولي في كاسوبيبا*، أو المحار بالبقدونس. وكان يقدم أيضاً الرزّ والبازلاء، وبطّة محشية، وكانت عربة الحلوى مليئة بأنواع القشطة المقلية و*تورته نيكولوتا* وكذلك *تورته سابيوزا*. كيف كان دونيزيتي يصنعها؟ تساءل الناس. من أين يأتي بالمواد، ومن أين يأتي بالنقود؟ وكان يجيب على كلّ هذه الأسئلة بقناع فينيسي من اللامبالاة، وبهزة من كتفيه *.أتريد أن تأكل؟ لا تسأل. إذا لم تحبّ الأكل؟ فاذهب وكل في مكان آخر.*

كانت جيوب الذين يرعونه عميقة. ولم يكن زمرد العظيم هو العفريت الوحيد الذي يمتلك كهوفاً مليئة بأحجار كريمة يزيد حجم الواحدة منها على حجم بيضة تنين. فبإمكان ملكة جنّية أن تضع اللحم والسمك في ثلاجتك بنقرة واحدة بيدها.

حاول جاهداً أن يشكرها لكنّها كان تلوّح له بيدها وتقول إنها تستفيد

منه أيضاً. فحيثما كنتُ، ومهما كان الشخص الذي سأقتله، فإني أستطيع أن آتي إلى هنا كلّ ليلة وأتناول الطعام مع الكتيبة العاملة في المطبخ، حتى لو كنت زبونتك الوحيدة، وما الضير في ذلك؟ فهي نقودي وأنا التي أخسر .*فيجاتو*، *فطيرة سب*، بسكويت *بياكولي فينيسي*. كأس من نبيذ أمارون الجيد. نعم. هذا يشفيني أيضاً.

في فترة الهدوء غير المتوقّعة التي أعقبت موت روبي المشرق ورعيم شارب الدم، بدأت الأمور تبدو مختلفة في المدينة، مع أن الجميع يترددون في استخدام الكلمة «*أفضل*». لكن مع تزايد المقاومة، وعندما اختفى غوغاء الجان الطفيليون من شوارع المدينة، تحجّر عدد منهم وانتصبوا في عدة أماكن كإشارات تدّل على حدوث تغيير في الصراع؛ وعندما تضاءلت حالات الغرابة من حيث العدد والتكرار والضراوة، بدأ الناس يجازفون بالخروج إلى الشوارع والحدائق. ومثل الزعفران الذي يزهر في مطلع الربيع، شوهد عدّاء يجري في الحديقة العامة على امتداد ضفة نهر هدسون. لم يكن هارباً من وحش، وإنما كان يجري لمتعة الجري. كانت عودة فكرة المتعة حدثاً بحد ذاته مثل حلول فصل جديد، مع أن الجميع يعرفون بأنه ما دام زابارداست وزمرد الحقودان موجودان ـ فقد أصبح هذان الاسمان مألوفين لجميع سكان الكوكب ـ فإن الخطر لا يزال قائماً. وبدأت محطات إذاعة التحرير تبثّ بشكل متقطّع وكانت كلّها تطرح السؤال نفسه: أين هي قمة زد زد؟

وعندما مضى التقويم نحو اليوم الألف في زمن الغرابة، اتخذت رئيسة البلدية روزا فاست قراراً جريئاً وعادت إلى مكتبها ترافقها بيبي ستورم. وكان يرافقها أيضاً المسؤول الأمني الذي عيّنته مؤخراً، جينيندرا كابور، غازي الجان الطفيليين ومحوّلهم إلى حجارة.

وبالحكم على ما فعلته هنا، قالت رئيسة البلدية فاست لجيمي، فإن جزءاً منك مصنوع من نفس المادة، فعلى الأقل أنت مثلهم. لكن عندما تحارب وحوشاً فمن الأفضل أن يكون معك بضعة وحوش أيضاً.

لن أدخل إلى المكتب، قال لها. لقد دخلت إلى ما يكفي من المكاتب في حياتي ولن أدخل إلى مكتب آخر بعد الآن.

سأناديك عندما أحتاج إليك، قالت، ووضعت جهازاً صغيراً في يده، وقالت له: إنه يعمل بترددات حراسة مشدّدة. لم يتمكنوا من اختراقه بعد. سيرنّ، ويتذبذب، وسوف تومض هذه الأضواء الموجودة على الحافة هنا باللون الأحمر.

عندما كان المفوّض غوردن يريد شيئاً من الوطواط، قال جيمي كابور، فقد كان يرسل إليه إشارة الوطواط، مثل انتظار طلب البيرجر الذي سيكون جاهزاً في ساحة ماديسون.

هذا ما ستحصل عليه، قالت.

لماذا تنظر إليّ الطفلة هكذا؟

إنها تريد أن ترى إن كان بإمكاني أن أثق بك.

وهل تستطيعين؟

إذا لم أستطع، قالت رئيسة البلدية فاست، فإن وجهك ستكسوه الآن قروح وبثور خيانتك. لذلك فإني أظن أنك جيد. هيا بنا إلى العمل.

كان اختطاف هوغو كاستربردج من الهيث بالقرب من بيته في هامستد منعطفاً جديداً في لولب الحرب المظلمة. فقد انطلق الموسيقار ليبدأ نزهته المعتادة سيراً على القدمين في الصباح الباكر بصحبة كلبه

التيبتي ولفغانغو (انسجاماً مع اسم الأوبرا *زواج فيغارو* لموزار الذي حوّره إلى اللغة الإيطالية بطريقة سخيفة لتسلية كاستربريج). ثم تذكّر البعض أنهم رأوا كاستربردج يلوّح بعصاه للسيارات المارة على طريق *إيست هيث روود* عندما كان يجتاز الشارع في طريقه إلى هيث. وشوهد آخر مرة عندما كان يمشي متجهاً نحو الشمال الشرقي على طول جادة لايم باتجاه بركة *ملاذ الطيور*. وفي وقت لاحق من ذلك الصباح عُثر على ولفغانجو وهو ينبح بلا توقف رافعاً بصره نحو السماء ويحرس العصا ذات المقبض الملقاة كما لو كانت سيف محارب سقط في المعركة. أما بالنسبة لهوغو كاستربردج، فلم تكن هناك ـ لفترة وجيزة ـ أي إشارة تشير إلى وجوده.

عند هذا الحدّ، ونحن على وشك أن ننهي حكايتنا عن هذا النزاع، فإنّنا سنضطر إلى مغادرة لندن بنفس السرعة التي غادرها كاستربردج، ونعود إلى اليُسَانَة في إسبانيا حيث بدأ كلّ شيء، حيث ظهرت دنيا ذات يوم عند باب بيت الفيلسوف الأندلسي الذي أُغرمت بعقله، وحيث حملت أولاد ابن رشد الذين أيقظت في أحفاده الآن طبيعة الجان الكامنة لمساعدتها في معركتها. كانت اليُسَانَة قد احتفظت في هذا الوقت بمعظم سحرها من العالم القديم، مع أنه لم يبق في الحي اليهودي القديم «سانتياغو» أي أثر للبيت الذي سكن فيه ابن رشد. وبقيت المقبرة اليهودية، كما بقيت القلعة وقصر ميدناسيلي القديم، لكننا يجب أن نوجّه أبصارنا إلى الجزء الأقل فلكلورية من البلدة. ففي القرون التي مرت منذ زمن ابن راشد، بدأ الحرفيون في اليُسَانَة يتوجّهون إلى صناعة الأثاث بحماسة شديدة، حتى أصبح يبدو أن البلدة كلها عبارة عن ورشات لصنع أشياء للجلوس عليها، أو الاستلقاء عليها، أو وضع ثيابك فيها. وفي إحدى تلك الورشات، تمكن صاحباها وهما شقيقان

من أسرة هويرتاس، أكبر كرسي في العالم يبلغ طوله حوالي خمسة وثمانين قدماً، وجلس على هذا الكرسي أحد كبار العفاريت زابارداست، بهدوء وببرود مثل أحد الحيوانات الزاحفة، عملاق لكن ليس بنفس ضخامة صديقه السابق زمرد العظيم، يمسك بيده هيئة هوغو كاستربردج الذي كان عاجزاً لا حول له ولا قوة، مذكّراً بشكل لا يقاوم روّاد السينما في الماضي والجماهير المتحلّقة حول فاي راي وهي تتلوّى في قبضة كونغ القوية.

ومن هذا الكرسي أطلق لمنافسته التحدي التالي: *آسمان بري*، *جنّية السماء، ملكة جبل قاف، أو مهما تطلقين على نفسك من أسماء الآن، أنتِ، دنيا هذا العالم السفلي المنحط، أنتِ يا من تُظهرين نفسك بأنك تعشقين هذه الكرة الأرضية المثيرة للشفقة، التي فيها قوارض وتحبينهم أكثر مما تحبين بني قومك، الابنة التافهة لجدّ بعيد جداً، انظري إليّ الآن. أنا من قتل والدك. والآن سآكل أولادك.*

سأل هوغو كاستربردج عمّا إذا كانت لديه كلمات أخيرة يريد أن يقولها. فأجاب الموسيقار، إنه لأمر فظيع أن يتكلّم المرء مجازياً، ثم يتحوّل هذا المجاز إلى حقيقة واقعة. فعندما قلتُ إن الآلهة التي اخترعها الإنس قد خرجت لتدمره، فقد كنتُ أتكلم بشكل مجازي إلى أبعد الحدود. ولم يكن متوقّعاً، ويكاد يكون من المبهج أن أكتشف أنني كنت دقيقاً أكثر مما كنت أظن.

أنا لستُ إلهاً، قال زابارداست الساحر. لا يمكنك أن تتخيّل الله. وبالكاد يمكنك أن تتخيّلني، لكنني أنا الذي سيلتهمك وأنت حيّ ترزق.

من المؤكد أنه لم يكن بإمكاني أن أتخيّل إلهاً من آكلي لحوم البشر، قال كاستربريدج. إنه... لأمر محبط.

كفى، قال زاباراداست، فاتحاً فمه الضخم على وسعه، وابتلع رأس كاستربردج في جرعة واحدة، ثم الذراعين ثم الساقين والجذع. فصرخ الناس المتجمهرون وهربوا.

الآن، لأول مرة رفع زاباراداست صوته وزأر. أين أنتِ؟ جأر مع أن فمه كان ممتلئاً، فتساقطت قطع من جسد كاستربردج من شفتيه وهو يتكلّم .دنيا، *أين تتوارين؟ ألا تبالين بأنني التهمت ابنك للتو؟*

لاذت بالصمت، ولم يُعرف مكانها.

ثم حدث شيء غير متوقّع. فقد وضع زاباراداست الساحر يديه على أذنيه وصرخ صرخة قوية. توقّف الحشد الهارب والتفتوا لينظروا. لم يكن بوسع أحد أن يسمع شيئاً، مع أن الكلاب في اليُسَانَة بدأت تنبح بهياج شديد. وعلى الكرسي العملاق، راح العفريت الكبير يتلوّى ألماً وصرخ كما لو أن سهماً حاراً ثقب طبلة أذنيه واخترق دماغه، وبغتة فقد السيطرة على هيئته البشرية، وانفجر ليصبح كرة نارية، وأحرق كرسي اليُسَانَة الضخم حتى وصل إلى الأرض، ثم انطفأت ناره وتلاشى.

بدأ الآن غليان في السماء، وفُتحت فتحة وهبطت دنيا وعمر العيّار من السماء.

عندما تعلّمت كيف يسري مفعول تعويذة السمّ، وكيف تُستخدم فنون السحر الأسود وصياغة التعويذات الغامضة القاتلة، وكيف تُسَّن أشواكها وترمى إلى الهدف، غمغمت دنيا لعمر، كان قد فات الأوان لأن أنقذ أبي. لكن الوقت مناسب الآن لأن أقتل قاتله وأنتقم لموته.

إن الاستيلاء على بعض المناطق في الأرض وإعلان مملكة فيها شيء، وحكمها بالكامل شيء آخر. ووجد الجان الأسود، المشاكسون،

المهملون، المغرورون، القساة الذين يُهاب جانبهم والممقوتون أيضاً ـ خلال فترة قصيرة ـ حتى قبل بلوغ اليوم الألف ـ بأنّ رؤيتهم لاستعمار الأرض واستعباد شعوبها هو نصف رغيف مخبوز، لأنهم لا يمتلكون الكفاءة أو المهارة الكافية لخبزه جيداً. والملكة الوحيدة التي يمتلكونها هي ملكة القوّة، وهذا لا يكفي.

حتى في تلك الأوقات التي اتسمت بالعنف وانعدام الأخلاق، لم يكن هناك استبداد مطلق، ولم تُسحق أي مقاومة بعنف مطلق. أما الآن، بعد أن قُتل ثلاثة من كبار العفاريت الأربعة، بدأ مشروعهم الكبير يتهاوى بسرعة.

نقول للمرة الثانية: لقد مضت أكثر من ألف سنة على وقوع هذه الأحداث، وضاع الكثير من تفاصيل انهيار المشروع الإمبراطوري للجان الأسود، أو أنه لم يكن دقيقاً تماماً، لذلك، ليس من المناسب ذكره هنا. ويمكننا أن نصرّح بقدر من الثقة بأنّ الأمور ستعود إلى طبيعتها بسرعة، الأمر الذي يدّل على مرونة مجتمع الإنس وضحالة سيطرة الجان «غزواتهم» عليهم. ويقارن بعض الدارسين هذه الفترة بالمراحل الأخيرة من حكم إمبراطور مغول الهند، أورنكزيب. فقد تمكن آخر ستّة من كبار أباطرة مغول الهند من توسيع أرجاء الإمبراطورية حتى وصلت إلى أقصى جنوب الهند، لكن غزواته كانت ضرباً من الوهم، لأنه ما إن عادت جيوشه إلى عاصمته الشمالية، حتى استعادت الأراضي «المحتلة» في الجنوب استقلالها. وسواء أقبل الجميع هذه المقارنة أم لم يقبلوها، فمن المؤكد أنه بعد سقوط روبي المشرق ورعيم شارب الدم وزابارداست الساحر، لم ينفع سحرهم في جميع أنحاء العالم، واستعاد الرجال والنساء رشدهم، وعاد النظام والمدنية وعمّ جميع الأرجاء، وانتعش الاقتصاد، وبدأت المحاصيل تُحصد، وعادت عجلات المصانع تدور. وأصبحت هناك وظائف مرة أخرى واستعادت النقود قيمتها.

يُرجع الكثيرون، بمن فيهم المؤلفون الحاليون، بدايات ما يدعى «بموت الآلهة» إلى هذه الفترة، قبل عشرة قرون. ويفضّل آخرون فترات أبعد بكثير. ويبدو لنا من البَدِيهِي أن استخدام الدين كتبرير للقمع والرعب والاستبداد، وحتى الهمجية، وهي ظاهرة لا ريب في أنها تعود إلى ما قبل حرب العالميْن، لكن من المؤكد أنها كانت إحدى السمات الهامة في ذلك الصراع، أفضت في نهاية الأمر إلى تحرر الجنس البشري من وهم فكرة الدين. لقد مضى زمن طويل منذ أن خُدع أحد بتهويمات وتخيّلات نظم الإيمان العتيقة البائدة إلى درجة أنها قد تبدو مجرد فكرة أكاديمية؛ مع أنها كذلك، منذ ما لا يقل عن خمسمائة سنة، حيث اتخذت أماكن العبادة هذه التي نجت من الذوبان وظائف جديدة كالفنادق والكازينوهات والعمارات السكنية، ومحطات النقل، وقاعات المعارض، ومراكز التسوّق. لكننا نقول إنها لا تزال فكرة جديرة بالمناقشة.

نعود الآن إلى قصتنا لننظر في سلوك الشكل الذي كان يبدو، وبالتأكيد أنه، في تقديره هو، أقوى وأعتى الجان قاطبة: العفريت الكبير الوحيد المتبقي على قيد الحياة، أعلى أمير مرتبة في صفوق الجان الأسود، زمرد العظيم.

من بين جميع الكهوف التي تحوي مجوهراته كانت هذه أفضلها، الكهف الذي يأتي إليه عندما ينشد الراحة. ولكي يزيل غمّه وحزنه ويرفع من معنوياته، كان يريد أن يمكث وحده لأن الوحدة تمنحه أعظم بهجة، وكان ذلك في الزمرد. ففي أماكن عميقة تحت الجبال القاسية الوعرة في **ألف**، كانت تقبع مدينة الزمرد التي هو مواطنها الوحيد: إن سمسم الخضراء هي أجمل من أيّ امرأة بالنسبة له. افتحي، يأمرها، فتفتح له. أغلقي، فتغلق من حوله. وكان يجد راحته فيها، متدثراً بغطاء

من حجرة خضراء في قلب جبل، يندب إخوته الذين فقدهم؛ الذين كان يكرههم ويحبّهم في الوقت نفسه. لم يكن يصدق بسهولة أن جنيّة قد هاجمتهم وقضت عليهم ثلاثتهم. لكن هذا صحيح، كما هو صحيح أيضاً أن إحدى أعتى المحاربات الأرضيات وأكثرهن رعباً، ملكة البرق التي شنت حرباً على رفاقه، هي أنثى، تدعى تيريزا ساكا، تنافس صواعقها تلك الصواعق التي تطلقها ملكة قاف نفسها. تمرّ أوقات تبدو فيها الحياة غير مفهومة. وفي تلك الأوقات، كانت الجواهر الخضراء تحدّثه عن الحبّ، وتجلي أفكاره من التشويش والاضطراب. هيا تعالوا إليّ يا حبيباتي، كان يصيح ويجمع أذرعاً من الأحجار السحرية، ويضغطها على قلبه.

كيف يمكن أن تسير الأمور إلى هذه الدرجة فجأة؟ فمنذ أكثر من تسعمائة يوم، لم تبرز أي عقبات حقيقية في وجه مخططه العظيم، أما الآن، فإن كارثة تتبع كارثة. أنحى باللائمة على إخوانه الجان الأسود على هذه الكوارث المتزايدة. فقد تبيّن أنهم غير جديرين بالثقة، لا بل إنهم خونة، وقد دفعوا الثمن. حتى أن طريقة نهاية زابارداست كانت نوعاً من الخيانة، لأن الجني الساحر كان يعرف بأن زمرد كان يخطّط ليجعل من أحد مخلوقات ملكة البرق، عبرة، يدعى إيراغايرا، الذي أُخضع وأُسر بصعوبة شديدة بعد هجومه على آلة المجد التي كان زمرد قد أمر بإقامتها خارج مدينة باء.فقد تمكّن زمرد من إبطال مفعول قدرات إطلاق الصواعق التي يمتلكها إيراغايرا هذا الذي لا توجد له أذن، وذلك بربطه بجهاز سحب منه البرق بطريقة غير مؤذية وأرسله إلى الأرض. وهكذا رُبط إلى عمود إلى جانب الآلة التي دمرها ليصبح عبرة لمن يعتبر. ثمّ حوّل زابارداست الأنظار عن خطته بخاصيته الاستعراضية

بتناول اللحم البشري المقيت، وانظر كيف انتهى ذلك. كان من المستحيل الوثوق بأي أحد، حتى أقدم حلفائه.

في نوع من الذهول الغاضب، راح زمرد العظيم يتقلّب في سريره الزمرّدي، وكانت الأحجار تتساقط على جسده كلما تحرّك بهذا الاتجاه أو ذاك. ثمّ، في لحظة ما لامست قدمه شيئاً لم يكن حجرة، فمدّ يده ليلمسه. كانت قنينة صغيرة. لم تكن عملاً يدوياً متقناً مصنوعاً من معادن ثمينة مرصّعة بأحجار كريمة كالتي يُتوقّع أن تقبع في مكان مخفي في أحد كهوف كنز الجان، وإنما قنينة رخيصة، عادية، مستطيلة، مصنوعة من زجاج أزرق سميك، وقد ضاع غطاؤها الفلين. التقطها ورمقها باشمئزاز. كانت سجنه القديم. ففي إحدى المرات، استُدرج إلى داخلها بواسطة إنسي وظل أسيراً داخل تلك الجدران الزرقاء لعدة قرون إلى أن جاء الغزالي الطوسي وحرّره منها. واحتفظ بالقنينة هنا في قلب كنزه، مدفونة تحت الأحجار الكريمة، ليتذكّر تاريخ سجنه ومهانته التي كانت مبعث غضبه. لكن عندما أمسكها بيده فهم لماذا عادت لزيارته في تلك اللحظة.

أيها السجن، قال مخاطباً القنينة، إنك تخرج من الظلال مثل الجواب على سؤالي الذي لم يُسأل. لعنة ماضيّ، الآن ستكون لعنة مستقبل آخر.

طقطق أصابعه. سُدّت القنينة ثانية: أُغلقت بإحكام وأصبحت جاهزة للاستخدام.

لا يزال بيت لا إنكورينزا منتصباً بعد مضي ألف سنة، مكان اعتُني به كثيراً للزيارة والوقار الدنيوي، فقد أعيد ترميمه وصيانته، وشُذِبت

حدائقه إحياء لذكرى مصمم الحدائق العظيم الذي أقامها منذ عهد بعيد. إنه مشهد لا بد من رؤيته، شأن جميع ساحات المعارك العظيمة في العالم، ماراثون، كوروكشيترا، غيتيسبيرغ، السوم. أما المعركة التي جرت هنا، الصراع النهائي في حرب العالمَيْن، فلم تكن تشبه أي معركة جرت على سطح الأرض. فلم تحارب فيها جيوش، إنما كانت معركة حتى النهاية دارت بين كائنات من وراء الطبيعة، بالغة القوة إلى حدّ أنه قيل إن جيوشاً كانت تقبع في داخلها. وعلى كلّ جانب، تقف هيئة هائلة الضخامة، تفوق طاقة البشر، ذكر واحد، أنثى واحدة، نار واحدة، الدخان الآخر. وكان يوجد آخرون أيضاً. لقد جلب كبير الجان الأسود ستة من أعوانه لمؤازرته، واستدعت دنيا، ملكة البرق، الجنود الذين تعتمد عليهم كثيراً: عمر الجاسوس، وأبناء الأرض تيريزا ساكا، وجيمي كابور، وجيرونيمو مانيزيس. وقفوا على الخطوط الجانبية، مدركين أن مصيرهم ومصير الأرض يتوقف على نتيجة المعركة. وراحت صاحبة البيت، السّيدة فيلسوفة، ألكساندرا بليس فارينا، التي كان تشاؤمها إما أن يسود أو ينهار إلى الأبد، حسب ما ستسفر عنه المعركة، والمشرف المكسو بالشعر أوليفير أولدكاسل؛ ورئيسة البلدية روزا فاست التي حذّرها رئيس أمنها، جيمي، المعروف أيضاً باسم ناتراج هيرو. (لم تكن بيبي ستورم موجودة، لأن وجودها هنا يعتبر خطراً عليها) وكلّ من كان في لا إنكورينزا في تلك الليلة، الليلة التي تُدعى الليلة الألف، الذين دخلوا في كتب التاريخ، وعندما تُذكر أسماؤهم في وقتنا الحالي، فإنها تُذكر بنبرات خافتة مخصصة للمشاركين في فصول أعظم قصص البشرية. أما المقاتلون الأساسيون فلم يكونوا من البشر.

لقد رتّبت المبارزات، كما كانت ترتّب جميع المبارزات في العهود القديمة. وأطلق زمرد العظيم تحدياً، أُرسل بسرعة عبر شبكة اتصالات

الجان، وقُبل. حدّد زمرد المكان بازدراء واضح وقال: *ذلك المكان حيث فتاك المتخيّل الذي يذكّرك بعشيقك الميت يتسلّى الآن مع المرأة التي يفضّلها عليك. سأسحقك وهو يراك، بعدها سأقرّر ماذا سأفعل به، عندما يصبح العالم كله ملكاً لي*. كان هذا العرض وردّ الإهانات جزءاً من اتفاقية التحدي للمبارزة في معركة واحدة، لكن دنيا حافظت على كرامتها، وحُدّد الزمان والمكان. إنه يمنحك ميزة أن تحاربي في أرضك، قال لها عمر العيّار. إن هذا يعود إلى ثقته المفرطة بنفسه، هذا يجعله ضعيفاً. فقالت أعرف. ثمّ أزف الوقت.

في لا إنكورينزا، المكان الرائع الجمال الذي كرّسه سانفورد بليس الذي بناه لفكرة أن العالم لا معنى له. وفي النهاية أصبحت دنيا وزمرد وجهاً لوجه ليقررا نوع المعنى الذي سيصنعه العالم منذ الآن وصاعداً. كان ذلك بعد الغروب عندما رقد ضوء القمر باضطراب فوق النهر العظيم عند منحدر البيت. وحامت الجرار الطائرة التي وصل على متنها زمرد وأعوانه بواسطة الساعة الشمسية فوق المرج مثل نحل عملاق غاضب. وكانت الفتحة التي عبروا منها تغلي في السماء فوقهم. وتحرّك السّيد جيرونيمو وجيمي كابور وتيريزا ساكا بسهولة حول حافات المرج العظيم، يترصدون وقع أيّ هجوم غادر من قبل أعوان كبير العفاريت. وراح المتحاربان الرئيسيان يدوران حول بعضهما فوق عشب المرج، يتحيّن كلّ منهما حركات الآخر. وجرت الغيوم في السماء، وعندما فُقد ضوء القمر وغمر ظلام غير دنيوي المتحاربين، وملأ خياشيمهما برائحة الموت، هاجم زمرد العظيم. كان هو الذي استدعى الريح التي ازدادت شراستها الآن. وتعيّن على الأطياف الواقفة عند أطراف المرج اللجوء إلى مكان آمن لكي لا تجرفهم الريح العاتية وتحرقهم، لأنها ريح تهبّ من جهنم لإبادة الشكل البشرية في دنيا وحتى ينجرف جوهرها الدخاني

ويبدد في أركان الأرض الأربعة. لكن لم يكن بالإمكان قهرها بسهولة، فصمدت. ثمّ جاءت الأمطار لتشارك الريح. كان هذا سحرها هي، مطر غزيز ثقيل جداً إلى حدّ أن النهر نفسه قد ارتفع من قعره وبدأ يهطل فوقهم، مطر يهدف إلى إطفاء النار التي صُنع منها العفريت. لكن ذلك لم يُجد نفعاً أيضاً. لا يمكن لأي من المتحاربين أن يهزم الآخر بسهولة لأن دروعهم لا تستطيع أن تساوي مهمّة أن تنحرف هذه الهجمات عن هدفها.

ومن خلال عزيف الرياح وانهمار الأمطار بقوة، سمع السّيد جيرونيمو صوت امرأة تشتم أعوان الجني بصوت مرتفع، كيف سيكون شعوركم *لو دُمّر عالمكم كما تدمرّون عالمنا الآن*؟ ـ كان هذا هو السؤال الذي أخذ هذا الصوت يردده، تتخلله الكثير من الكلمات البذيئة. وأدرك السّيد جيرونيمو أن المرأة التي تصرخ هي تيريزا ساكا التي كانت قد استدعتها دنيا لتحارب معها. وبدت لجيرونيمو مانيزيس امرأة مضطربة عقلياً أكثر من أي شيء آخر. ولم يكن من الواضح أيضاً إن كان غضبها موجّهاً إلى كبير العفاريت وأعوانه فقط. كان غضباً بدا أنه ينتشر كالطاعون، يصيب كلّ شيء يلمسه، وربما، قال السّيد جيرونيمو لنفسه، أن جزءاً من هذا الغضب موجّه إلى دنيا أيضاً. كانت صرخة مليئة بالحقد لو كانت موجهة إلى أي مجموعة من الناس، تلوثهم جميعاً بنفس الفرشاة، يمكن أن تُدعى ـ نعم ـ تحيزاً عرقياً. وبدا له أن تيريزا ساكا تستمع إلى صراخها بواسطة العناصر الغاضبة، تجاري غضبهم بغضبها، تنثر شرارات كهربائية حول حواف جسمها، متزمّتة، متعصبة ضدّ جميع المخلوقات التي هبطت من العالم العلوي، ولذلك، بالطبع، ضدّ الجنّية التي في داخلها أيضاً. كانت كراهيتها للآخر كراهية لذاتها أيضاً. إنها حليفة خطيرة.

في غضون ذلك، مثل الظهير في مباراة كرة قدم هامة، بدأ القلق يعتري السّيد جيرونيمو من أسلوب دنيا في المعركة. فقد بدا أنها راضية بالاكتفاء بصدّ الهجمات بدلاً من تأخذ المبادرة بنفسها، وقد بدا أن هذا خطأ. حاول أن يقول لها، بدون كلمات، لكنّها لم تكن تنصت لأحد الآن، لأن كلّ جهودها كانت منصبّة على المعركة. كان زمرد يغيّر شكله باستمرار، يطلق العنان لأسوأ الوحوش الكامنة في داخله: المخلوق ذو الأسنان الحديدية وألف رأس وألف لسان، الذي كان يعرف ذات يوم «باسم الوحش الصارخ ذي الألف لسان»، ولم يكن يستطيع أن ينبح مثل كلب، ويزأر مثل نمر، ويجأر مثل دبّ، ويولول مثل تنين يريد أن يلدغ خصمه عدة لدغات، وثعبان بثلاث رؤوس فحسب، بل يمكنه أيضاً أن يقذف دنيا بمئات التعويذات والرقى والسحر في وقت واحد، تعويذات تسبب الضعف، رقى تصيب بالشلل، تعويذات قاتلة. وكانت هناك ألسنة كثيرة مخصصة للشتائم واللعنات بلغات كثيرة، لغات الإنس والجنّ التي كشفت عن وجود مستوى من الانحطاط الأخلاقي لدى زمرد صدم كلّ من سمعه.

وبينما كان يراقب زمرد في هيئة الوحش الصارخ وهو يهاجم دنيا بمئات السبل والوسائل، رآها تدور وتلتف وتنحرف وتدافع عن نفسها مثل إحدى فتيات فالكيري العظيمات، أو إحدى إلاهات أوليمبوس أو كيلاش، وعندما تساءل إلى متى يمكنها أنْ تقاوم هجوماً بهذه الضراوة والعنف، وهو ينصت إلى صرخات تيريزا ساكا، *كيف سيكون شعورك لو حدث لك ذلك*، أحسّ السّيد جيرونيمو بنوع من الرؤية الداخلية أو الظهور. ففُتحت أمامه أبواب الفهم والإدراك، ورأى أن الصفات الشريرة والوحشية الكامنة في الجان هي مرآة للجزء المتوحش والشرير الكامن في البشر، وأن الطبيعة البشرية تحتوي أيضاً على الأمور اللا عقلانية

والقاسية والحقودة والعنيدة والعشوائية ذاتها، وأن المعركة ضدّ الجان ما هي إلاّ صورة للمعركة في قلب الإنسان، مما يعني أن الجان، هم على نحو ما أشياء مجردة، فضلاً عن كونهم حقائق، وأنّ هبوطهم إلى العالم السفلي ساعد في أن يُظهر لذلك العالم ما الذي يجب عليه أن يستأصله في داخله، بأنه الجهالة نفسها، الجهالة التي هي اسم الجان الأسود في داخل البشر، وعندما فهم ذلك، فهم أيضاً سبب كراهية تيريزا ساكا لنفسها، وعرف، كما عرفت، بضرورة طرد النفس الجنّية من داخلهما، وأنه يجب هزيمة الجهالة واللاعقلانية في الإنس وفي الجان أيضاً، لكي يبدأ عصر العقل.

لقد استمعنا إلى ما قاله لنا. ونحن لا نزال نستمع بعد ألف سنة. ها هو السّيد جيرونيمو، الحدائقي، بعد كل شيء. نعرف جميعاً ما فهمه في تلك الليلة، الليلة الألف، عندما قاتلت دنيا، ملكة البرق آسمان بيري، أي جنّية السماء، زمرد العظيم.

بدأ التعب ينال منها. كان باستطاعة زمرد أن يرى ذلك. هذه هي اللحظة التي ينتظرها، كما ينتظر مصارع الثيران رؤية قبول الهزيمة في عيني الثور. هذه هي اللحظة التي هجر فيها شخصية الوحش، وعاد إلى هيئته الأصلية، وأخرج القنينة الزرقاء من ثنية في قميصه الأحمر، وأزال الفلينة، وصرخ بكلّ ما أوتي من قوة:

أيتها الجنّية الغبية، الجنّية العمياء،
الآن أحتجزك في عقلي!
انحصري في هذا المكان،
كوني لي إلى الأبد.

قيل ذلك بلغة الجان السرية التي تُكتب فيها أقوى التعويذات والرقى السحرية، والتي تحتاج إلى قدر هائل من القوّة من جانب المتكلّم. الإنس الذين كانوا يراقبون المشهد لم يفهموا الكلمات لكنّهم رأوا تأثيرها. لقد رأوا دنيا تترنح وتسقط على الأرض، ورأوها تُسحب، قدماها أولاً، على طول المرج باتجاه القنينة الصغيرة التي فغرت فاها نحوها مثل فم الشيطان.

ماذا قال؟ صاحت السّيدة فيلسوفة في وجه عمر العيّار، لكن عمر كان يراقب بعينيه المفتوحتين على وسعيهما بينما كانت دنيا تُجّر نحو القنينة. قل لي، صاحت ألكساندرا، وهكذا فعل عمر شارد الذهن، مكرّراً كلمات القوّة همساً مترجماً الكلمات بصورة عامة. ثمّ تكلّم زمرد بانتصار مرة أخرى.

جنّية عنيفة وجنّية عظيمة،
الآن أمسك بك بيدي.
انحصري في هذا المكان،
كوني لي إلى الأبد.

ماذا؟ سألت ألكساندرا، فقال لها عمر، لقد انتهى الأمر. لقد هُزمت.

ثمّ صاحت دنيا. كانت صيحة القوة التي كان السّيد جيرونيمو قد سمعها عندما مات والدها. فألقت الإنس والجان على ظهورهم وأبطلت سحر زمرد فترنح إلى الوراء، ممكساً بأذنيه، وأخذت القنينة الزرقاء الصغيرة تصعد بشكل لولبي في الهواء ثم سقطت في يد دنيا اليمنى،

وسقطت الفلينة في يدها اليسرى. راحت تجرّ نفسها ثم نهضت على قدميها وعكست مفعول السحر.

أيها العفريت الجبار المتباهي والقوي،
تعال واجلس عند قدمي.
انحصر في هذا المكان،
كن لي إلى الأبد.

ماذا قالت؟ صاحت ألكساندرا، فأخبرها عمر. فقد أصبح زمرد هو الذي يُسحب الآن نحو القنينة، الرأس أولاً، لحيته ممتدة أمامه كأن يداً مرئية قد أمسكت بها وراحت تجرّها، هي وصاحبها إلى سجن القنينة الزرقاء. وصاحت دنيا مرة أخرى، بقوّتها الأخيرة:

أيها العفريت المخيف والقوي،
اليوم يجب أن تلتقي بسيدتك،
انحصر في هذا المكان،
وكن لي دائماً.

عرفت في الحال، وعرف الجميع، بأنّها كانت تبالغ. لقد خذلتها قوّتها. فسقطت في إغماءه عميقة. لقد أُبطل السحر. وبدأ زمرد ينهض بكلّ قوته الهائلة. والقنينة،

ولدهشة الجميع،

بدأت تصعد بشكل لولبي وبشيء من الخمول في الهواء،

ثم استقرّت في يد ألكساندرا بليس فارينا اليمنى الممدودة، السّيدة فيلسوفة،

واستقرت الفلينة في يدها اليسرى، ولذعر الجميع، وبهجة حلفائها، كرّرت، كلمة «كامل»، التعويذة الأولى التي أطلقتها ملكة البرق، فارتطم زمرد مرة أخرى بالأرض، منهكاً كما كانت دنيا، وجُرَّ بقوة إلى الأمام حتى حُشر جسمه الضخم المنهك كله في داخل القنينة الزرقاء الصغيرة، وفي تلك اللحظة دفعت ألكساندرا الفلينة في عنق القنينة، فانحصر في داخل القنينة، وقُضي الأمر، وولى أعوانه الأدبار. لكن سيُقبض عليهم لاحقاً، وسيتم التعامل معهم، لكن لنترك ذلك يمرّ.

تحلّق السّيد جيرونيمو وعمر العيّار وجيمي كابور حول ألكساندرا وسألوها، *كيف؟ كيف بحق السماء؟ كيف باسم...؟ كيف مع كلّ ذلك...؟ كيف، كيف، كيف؟*

كنتُ سريعة دائماً في تعلم اللغات، قالت وهي تهذي، تقهقه قليلاً، كما لو كانت تغازل ظباء صغيرة في حفلة في حديقة صيفية. وقالت ضاحكة اسألوا أي شخص في جامعة هارفارد. لقد التقطتها كلّها بسرعة كبيرة، كما تلتقط الحصى التي تلمع على شاطئ البحر.

ثمّ غابت عن الوعي تماماً، فأمسك بها السّيد جيرونيمو، وخطف جيمي كابور القنينة قبل أن ترتطم بالأرض.

وقد تكون هذه نهاية لكلّ ذلك، ما عدا أن جيرونيمو مانيزيس لاحظ أنّ أحدهم لم يكن موجوداً هناك، فصرخ *أين تيريزا ساكا*؟ ثم رأوها تأخذ آخر الجرار الطائرة، جرّة زمرد نفسه، وصعدت بها إلى السماء حتى بلغت الفتحة التي تصل العالم العلوي بالعالم السفلي، ولو

كان باستطاعتهم رؤية وجهها لرأوا في عينيها مدّاً رهيباً من الدم يتصاعد فيهما.

لو دُمّر عالمك بالطريقة التي دُمّر فيها عالمنا، تذكّر السّيد جيرونيمو.

لقد ذهبت لتهاجم أرض الجان، قال بصوت مرتفع، وتدميرها إذا تمكّنت من ذلك.

كانت هناك أنواع عديدة من الإصابات في المعركة، الإصابات غير المرئية، والإصابات التي تصيب العقل والتي فاقت في عددها عدد القتلى والمصابين. وعندما ننظر إلى الوراء إلى هذه الأحداث فإننا نتذكّر تيريزا ساكا كورتوس بأنها واحدة من أبطال تلك الحرب، الكهرباء في أصابعها المسؤولة عن الانتصارات الكثيرة التي حققتها ضدّ جيوش الجان، لكن يجب أن نتذكّرها أيضاً بأنها ضحيّة مأساوية لهذا النزاع، وعقلها الذي تحطم لا بسبب الكارثة التي رأتها حولها فحسب، وإنما أيضاً بسبب العنف الذي أمرته به ملكة البرق للردّ على كارثة الحرب. وفي النهاية، فإن الغضب، مهما كان مبرّراً، فإنه يحطّم الغاضبين. وتماماً كما نُخلق من جديد بما نحبّه، فإننا نُدَّمر ونفنى بما نكره. وفي نهاية ذروة المعركة في حرب العالميْن، بعد أن زُجّ زمرد العظيم في سجن قنينته التي يمسك بها جيمي كابور في قبضته بإحكام، ورويداً رويداً، بدأت دنيا تصحو من غيبوبتها، كانت تيريزا هي التي تصدّعت وتوجّهت نحو الفتحة في السماء.

لا بد أنها كانت تعرف بأنّها مهمّة انتحارية. فماذا كانت تتوقّع؟ أنْ تتمكن من العبور إلى العالم العلوي دون صعوبات، وأنّ تنحلّ تلك الحدائق العاطرة وتلك الأبراج والقصور وتذوب أمام غضبها ولا يتبقى منها شيء؟ وأن كلّ ما هو صلب هناك سيذوب في الهواء، في الهواء

الرقيق، أمام غضبها الانتقامي؟ ثم ماذا؟ بأنّها ستعود إلى الأرض بطلة أعظم لأنها دمرّت عالم الجان؟

لا نعرف، ولعلنا ينبغي ألاّ نخمّن. لنتذكّر بحزن جنون تيريزا ساكا، وحتمية لحظتها الأخيرة. لأنها بالطبع لم تتمكّن من بلوغ بيرستان. فلم تكن الجرّة العملاقة عربة سهلة، بل كان ركوبها صعباً بصعوبة ركوب حصان جامح، لا يطيع إلاّ سيّده الجنّي الذي سقط في المعركة. وعندما كان السّيد جيرونيمو والآخرون يراقبونها وهي تصعد كالصاروخ في الهواء ـ خمدت الريح، وتوقف المطر عن الهطول أيضاً، وأضاء قمر بدر صعودها على نحو براق، أو هكذا تقول القصّة ـ رأوا أنّها تواجه صعوبة في البقاء في مقعدها. وما إن اقتربت من حواف الفتحة العاصفة، الشقّ بين العالميْن، حتى ازداد الهواء اضطرباً وهياجاً، ثم اشتدّ هياجاً وعنفاً، فتراخت قبضتها عن جوادها المسحور، ورأى الذين كانوا يراقبونها في الأسفل برعب، انزلاقها أولاً في هذا الدرب ثم في ذاك الدرب، وتهاوت وحطّت مثل جناح مكسور فوق مرج لا إنكورينزا الندي.

الخاتمة

في بعض الأحيان، ينتابنا القلق حول فكرة البطولة، لاسيما بعد مضي كلّ هذا الوقت. وإذا سُئل أنصار هذه الرواية من هم الأشخاص الذين يعتبرونهم أبطالاً منذ ألف سنة، ومن يختارون؟ شارلمان؟ المؤلف المجهول أم مؤلفو ألف ليلة وليلة؟ السّيدة موراساكي؟ إن ألف سنة مدة طويلة من الزمن لبقاء سمعة أحدهم حيّة. وبكتابة هذا السجّل التاريخي (نكرّر) أننا ندرك جيداً بأن الكثير مما كتب قد تراجع من منزلة الرواية الواقعية إلى منزلة الأسطورة أو التخمين أو الحكاية المتخيّلة. وبالرغم من ذلك، فقد ثابرنا على رواية الحكاية لأن الشخصيات التي وردت في قصّتنا هي من بين الشخصيات القليلة جداً التي لا تزال ترتبط بهم فكرة البطولة، بعد أن عاشوا وماتوا بألف سنة، مع أننا نعرف أنّ الفجوات في السجّل كبيرة جداً، وأنه لا ريب في أن آخرين قاوموا الهجوم الذي شنّه الجان الأسود بجدارة وشجاعة كبيرتين، كما فعل أولئك الذين ذكرنا أسماءهم: وقد اختيرت الأسماء التي نكنّ لها الكثير من الوقار والاحترام عشوائياً من السجل الذي تعتريه ثغرات كثيرة، وأن هناك شخصيات أخرى لا نزال نجهلها وتستحق منا كلّ الاحترام لو بذل التاريخ جهداً لتذكرهم وإنصافهم.

وعلى الرغم من ذلك، يجب علينا أن نقولها: هؤلاء هم أبطالنا،

لأنه بفوزهم في حرب العالميْن أطلقوا العملية التي جاء بفضلها إلى الوجود زمن جديد، ونعتقد، بأنه زمن أفضل بكثير. كانت تلك اللحظة الفاصلة، عندما أُغلق الباب على الماضي، حيث كان يقبع ما كنّا عليه، إغلاقاً تاماً، وفُتح الباب إلى الحاضر الذي أفضى إلى ما أصبحنا عليه، مثل بوابة حجرية لكهف من كهوف الكنز، بل وربما سمسم نفسه.

لذلك فإننا نندب تيريزا ساكا كورتوس، بالرغم من كلّ عيوبها، لأنها تمكّنت من أخذ ما كانت تحتاج إليه، ولأنها كانت بالغة القسوة وشجاعة كما ينبغي أن تكون، وتهبّ نسائم من البهجة الجريئة حول ذاكرتها. ونحتفل بستورم فاست، طفلة الحقيقة، التي كبرت وأصبحت أكثر القضاة هيبة وعدلاً، التي لا يمكن في محكمتها نطق أي شيء كاذب، مهما كان ضئيلاً. وجيمي كابور ـ حسنٌ، الجميع يعرفون اسمه، واحد من القلائل الذين عاشت شعبيته على مدى ألف سنة، لأنه لم يتلق إشارة رجل الوطواط أبداً، وصورة الإله الراقص المتعدّد الأطراف الذي يظهر في السماء وهو يطعن قلوب الأشرار بلا خوف، لكن بعد أن تقدّم به العمر وشاب شعره ثم غادر هذه الحياة أصبح بطل العديد من القصص المسلّية، نجم الكثير من الشاشات والألعاب، والأغاني والرقصات، بل حتى ذلك الشكل القديم والمثابر بعناد للكتب المطبوعة. وأصبح كاتب الروايات المصورة بالرسوم الفاشل بطل أطول إحدى سلاسل الروايات المصورة بالرسوم، والروايات التي تقتصر على الكلمات أيضاً، مجموعة نعتبرها الآن من بين الأعمال الكلاسيكية العظيمة، الأسطورة التي نستمّد منها بهجتنا الحالية، *إلياذتنا*، لنقل، باستخدام مقارنة قديمة، أو *أوديستنا*. ينظر الزوّار في وقتنا الراهن إلى المكتبة بعيون مفتوحة على وسعها إلى هذه الأعمال القديمة كما فغر أسلافهم ذات يوم أفواههم عندما رأوا إنجيل غوتنبرغ أو أعمال شيكسبير

الأولى. إن «ناتراج هيرو»، المعروف أيضاً باسم جيمي كابور، هو أحد أساطيرنا الحقيقية، ولا يوجد إلاّ رجل واحد من زمن الغرابة يحظى بتقدير أكثر منه.

اكتست شخصية جيرونيمو مانيزيس، السّيد جيرونيمو، الحدائقي، مصمم الحدائق، أهمية كبيرة بالنسبة لمعظمنا ـ الرجل الذي جاء متحرراً من العالم، ثمّ عاد إليه لينقذ الكثير من معاصريه الذين يعانون من اللعنات الثنائية المتمثلة في الصعود والانسحاق والخوف، وإمكانية الانفصال القاتل والغامض عن أرضنا أو الارتباط المفرط بها. إننا سعيدون بأنه هو والسّيدة فيلسوفة، ألكساندرا بليس فارينا، قد وجدا نهاية سعيدة في ذراعي أحدهما الآخر، تحت عين أوليفير أولدكاسل الحارسة، ونسير معهما في حدائق لا إنكورينزا، ونجلس صامتين معهما، ويشبك أحدهما يد الآخر تحت شمس الغروب وهما يراقبان النهر العظيم يتدفق إلى الأمام وإلى الخلف تحت أشعة قمر محدودب، ونحني رؤوسنا عندما يقفان فوق تلّة البيت بجانب قبر زوجة السّيد جيرونيمو التي فقدها، يطلبان بصمت موافقتها على حبّهما، ويحصلان على موافقتها بصمت؛ ونحوم فوق طاولة مكتب الشريكين حيث يجلسان على طرفين متقابلين، كتبا الكتاب ـ بلغتهما، بالرغم من اقتراح ألكساندرا بأنه قد يكون من الأفضل لو كُتب بلغة الإسبيرانتو ـ التي أصبحت أكثر نصوصنا إعجاباً من العصر القديم، من عصر التهافت، الدعوة إلى عالم يحكمه العقل، ويسود فيه التسامح والشهامة والمعرفة وضبط نفس.

هذا هو العالم الذي نعيش فيه الآن، العالم الذي فنّدنا فيه الزعم الذي قدّمه الغزالي إلى زمرد العظيم. ولم يدفع الخوف، أخيراً، الناس إلى أذرع الله. بل تم التغلّب على الخوف، وبهزيمته أصبح بإمكان

الرجال والنساء وضع الله جانباً، كما يضع الصبية والبنات ألعاب طفولتهم جانباً، أو كما يغادر الشباب والشابات بيوت ذويهم ليقيموا بيوتاً جديدة لهم في مكان آخر تحت الشمس. ولمئات السنين الآن، فإن هذا هو حظّنا السعيد هو أن نعيش الإمكانية التي حنّ إليها السّيد جيرونيمو والآنسة ألكساندرا: عالم مسالم، متحضّر، من العمل الشاقّ والاحترام للأرض. عالم الجنائني الذي يجب على كل واحد منّا أن يزرع حديقته، مدركين أن عمل ذلك ليس هزيمة، كما هو الحال بالنسبة لكانديد فولتير المسكنية، إنما نصر لطبائعنا الأفضل على الظلام في داخلنا.

إننا نعرف أو إننا «نعرف»، لأننا لا نستطيع أن نكون على يقين من صحة القصّة ـ بأنّ هذه الحالة السعيدة لم تكن لتحدث لولا التضحية العظيمة التي قدمتها دنيا، ملكة البرق، في نهاية القصّة التي أعيد روايتها هنا. وعندما أفاقت واستعادت رشدها بعد مبارزتها مع زمرد، عرفت أن عليها أن تفعل شيئين اثنين. فقد أخذت القنينة الزرقاء من جيمي كابور، لأن لهذه القناني سحرها الخاص، كما قالت. فبإمكانك أن تخفيها، لكنّها هي التي تختار متى تظهر مرة أخرى. وهذه المرة، يجب ألاّ تظهر هذه القنينة مرة أخرى في أي مكان على وجه الأرض، لذلك، فإننا سنخبئها في مكان يستحيل العثور عليه. وذهبت إلى مكان بعيد في الفترة المتبقية من الليل، وعندما عادت لم تقل سوى، لقد انتهى الأمر. ومنذ ذلك اليوم، انقضت ألف سنة ولم يُعثر على مكان القنينة. ربما تقبع تحت جذور جبل افريست أو في قعر خندق ماريانا، أو في مكان ما في عمق القمر. لكن زمرد العظيم لم يعد يكدّر صفونا.

عندما عادت، في صباح ذلك اليوم الأخير، بعد أن أخفت القنينة الزرقاء في قلب الظلام أو في نار الشمس، أخبرت حلفاءها المتجمّعين

في لا إنكورينزا. من الواضح أنه يجب فصل العالميْن مرة أخرى. وعندما يقطر أحدهما فوق الآخر، تظهر تلك الفوضى. ولا توجد إلاّ وسيلة واحدة لسدّ الشقوق بإحكام لكي تظل مسدودة، إن لم يكن إلى الأبد، فإلى وقت يقارب الأبد.

جنّية، لنتذكّر، مخلوقة من دخان بلا نار. وإذا قررت أن تنزع هيئتها كأنثى فإنها تستطيع أن تتحرّك عبر العالميْن كالدخان، وتدخل من أيّ باب إلى أيّ غرفة، من أيّ فتحة إلى أيّ شقّ، تملأ الفراغات التي تدخلها بالكامل كما يملأ الدخان غرفة؛ ثمّ، إذا أرادت ذلك، فإنها تستطيع أن تتصلّب ثانية، وتتخذ شخصية الأماكن التي تدخلها، فتصبح قرميدة بين القرميد، أو حجرة بين الأحجار، ولن تعود تلك الفراغات مجرد فراغات، وستكون كما لو أنها لم تكن موجودة، أو أنها لن توجد على الإطلاق ثانية. لكن الجنّية، عندما تكون مشتتة، مبعثرة، متناثرة، فإنها تتضاعف وتتحوّل وتتغيّر، حتى ملكة جنّية...تفقد القوّة، أو حتى أسوأ من القوّة، الإرادة، *الوعي*، الذي سيمكّنها من تمالك نفسها مرة أخرى لتستعيد شكلها الموّحد.

إذاً ستموتين، قال جيرونيمو مانيزيس. هذا ما تقولينه لنا. فلكي تنقذينا من الجان، فإنك تضحّين بحياتك.

ليس تماماً، قالت.

أتقصدين أنك ستظلين على قيد الحياة؟ سألها.

ليس تماماً أيضاً، أجابت. لكن العقل يتطلب ذلك، لذلك يجب أن يحدث.

ثمّ، بدون أي كلمة وداع، وبدون أي مشاعر عاطفية أو مناقشة، غادرتهم. كانت هناك، ثم لم تعد هناك. لم يرونها مرة أخرى قط.

أما بالنسبة إلى ما فعلته، وإلى ما حلّ بها، سواء استخدمت نفسها أم لا، فقد استخدمت نفسها بالفعل لتغلق الممرات بين العالميْن، لا يمكننا إلاّ أن نخمّن ذلك. لكن منذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا، لم ير أحد من العالم العلوي، بيريستان، أرض الجان، قط على هذه التربة السفلى، الأرض، ديارنا، بيتنا.

كان ذلك اليوم الألف يوم ويوم. وفي ذلك المساء، كان السّيد جيرونيمو وحبيبته ألكساندرا وحدهما في مخدعها، يمارسان العشق، أحسّ كلاهما كما لو كانا يطوفان في الهواء. لكنّهما لم يكونا كذلك.

وهكذا انتهى زمن الغرابة الذي دام سنتين وثمانية شهور وثمان وعشرين ليلة.

إننا نفتخر بالقول بأننا أصبحنا أناساً عقلانيين. إننا ندرك بأن النزاع الذي دام طويلاً هو القصة الحاسمة لنوعنا، لكنّنا رأينا بأنّ القصة قد تتغيّر. الفروق في ما بيننا، المتعلقة بالعرق والمكان واللغة، والعادات، لم تعد هذه الفروق تقسّمنا. إنها تهمنا وتجمعنا. إننا واحد. وفي أحيان كثيرة فإننا راضون بما أصبحنا. حتى قد نقول إننا سعداء. إننا ـ نتكلّم بإيجاز عن أنفسنا، وليس «نحن» الأعظم ـ نعيش هنا في المدينة العظيمة ونمتدحها. تدفّقي يا أنهار، كما نتدفّق بينك، امتزجي يا تيارات الماء، كما نمتزج بالتيارات الإنسانية من أماكن بعيدة ومن أماكن قريبة! إننا نقف بجانب مياهك في وسط النوارس وحشود البشر، إننا سعداء. الرجال والنساء في مدينتنا، ثيابكم تبهجنا، ضيّقة، لا لون لها، جميلة؛ أيتها المدينة العظيمة، طعامك، روائحك، شهوانيتك السريعة، لقاءات عادية بدأت، تكتمل بعنف، تتوقف، نقبلكم جميعاً؛ والمعاني تتدافع

في الشارع، تختلط بمعان أخرى، الاحتكاك يولّد معاني جديدة لا يعنيها الذين يعنونها، ومصانع، ومدارس، وأماكن الترفيه والأماكن السيئة السمعة، وقد ازدهرت عاصمتنا، ولا تزال تزدهر! أنت بهجتنا ونحن بهجتك وهكذا فإننا نمضي معاً، بين الأنهار، نحو نهاية لا توجد بعدها بداية، ووراء ذلك، لا شيء، وفجر المدينة يتألّق في الشمس.

لكن شيئاً حدث لنا عندما أُوصدت الأبواب بين العالميْن. وعندما امتدت الأيام وأصبحت أسابيع، وشهوراً، وسنوات، وبينما مضت العقود، والقرون، حدث شيء ذات يوم لنا جميعاً في كلّ ليلة، لكلّ واحد منّا، كلّ فرد من «نحن» الأعظم الذي أصبحنا عليه كلنا، لم يعد يحدث. لم نعد نحلم. ربما أُغلقت تلك الشقوق والفتحات بإحكام شديد هذه المرة بحيث لم يعد أي شيء على الإطلاق يتسرّب منها، ولا حتى قطرات السحر الجنّي، ندى السماء، الذي بحسب الأسطورة سقط وتسرّب إلى عيوننا النائمة ومكّننا من رؤية تهويماتنا وتخيلاتنا الليلية. أما الآن فلا يوجد في النوم سوى ظلام. سقط العقل في الظلام، لذلك ربما يكون مسرح الليلَ العظيم قد بدأ عروضه غير المتوقعة، إلا أنه لم يحصل شيء. أقل وأقل منّا، في كلّ جيل متعاقب، يحتفظ بالقدرة على الحلم، وحتى الآن فإننا نجد أنفسنا في زمن تكون الأحلام فيه أشياء نحلم بها، إذا كان بإمكاننا أن نحلم. لقد قرأنا عنك في كتب قديمة، أيتها الأحلام، لكن مصانع الحلم قد أُغلقت. هذا هو الثمن الذي ندفعه من أجل تحقيق السلام، والازدهار، والفهم، والحكمة، والطيبة، والحقيقة: بأن الهمجية فينا التي أطلقها النوم، قد رُوّضت، والظلام فينا، الذي قاد مسرح الليل، قد هدأ.

إننا سعداء. إننا نجد البهجة في جميع الأشياء. السيارات، الأجهزة الإلكترونية، الرقص، كلّها تجلب لنا بهجة عظيمة. نسير يداً بيد نحو

الخزان وتحلّق الطيور في السماء فوقنا بشكل دائري، الخزان، المشي، اليد الممسكة باليد، كلّها تجلب لنا البهجة.

لكن الليالي تمرّ خرساء. قد تمرّ ألف ليلة وليلة، لكنّها تمرّ بصمت، مثل جيش من الأشباح، لا يُسمع وقع أقدامهم، يزحفون بخفاء في الظلام، غير مرئيين، لا يسمع صوتهم، بينما نعيش ونكبر ونموت.

في أحيان كثيرة نكون سعداء. تسير حياتنا على ما يرام، لكننا نتمنّى في بعض الأحيان أن تعود الأحلام. أحياناً، لأننا لم نتخلّص تماماً من الفساد، لهذا السبب فإننا نتوق إلى الكوابيس.

الفهرس

هذا الكتاب

عاش الفيلسوف الذي لم يعد يُسمح له بشرح فلسفته في بيت متواضع ذي نوافذ صغيرة في زقاق ضيق غير معبّد، وقد سبب له عدم وجود ضوء كاف ضيقاً شديداً. وأقام ابن رشد عيادة طبية في اليُسَانَة، وتوافد عليه المرضى بسبب سمعته ومنزلته كالطبيب السابق للخليفة. واستخدم كلّ ما يملكه من مال في ممارسة تجارة الخيول على نحو متواضع، وعمل في صناعة الجرار الفخارية الضخمة التي كان اليهود الذين لم يعودوا يهوداً، يخزنون فيها زيت الزيتون والنبيذ ويبيعونها. وفي أحد الأيام، بعد بدء منفاه بفترة وجيزة، ظهرت أمام باب داره فتاة، ربما كانت في صيفها السادس عشر، ترتسم على وجهها ابتسامة لطيفة، لم تطرق باب أفكاره أو تتطفّل عليه، بل وقفت هناك تنتظر بأناة حتى أدرك وجودها فدعاها إلى بيته. وقالت له إنها أصبحت يتيمة منذ فترة غير بعيدة، وقالت إنه لا يوجد لديها مصدر رزق، وأنها لا تريد أن تعمل في المبغى. وقالت له أيضاً إن اسمها دنيا .

مكتبة الفكر الجديد

ISBN 978-9933353827
9 789933 353827